الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل

وعلاقتها بالمسلمين

الدكتورة

ليلى عبد الجواد اسماعيل

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

مطبعة جامعة القاهرة

والكتاب الجامعي

١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) من أهم فترات التاريخ البيزنطى وترجع أهمية هذا العصر الى ما اتسم به من سمات هامة اكسبت الدولة البيزنطية الطابع البيزنطى ، بل ويعتبر عصر هرقل البداية الحقيقية للتاريخ البيزنطى بعد فترة الانتقال بين التاريخ الرومانى القديم والتاريخ البيزنطى الوسيط والتى استمرت نحو ثلاثة قرون .

اعتلى هرقل العرش والامبراطورية على شفا الانهيار ، تحيط بها الاخطار من كل جانب وتحاك بها المؤامرات والدسائس ، وتعانى من اقتصاد منهار وحركات تمرد وانفصال . وعلى الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من المتاعب التى واجهها هرقل فى بداية حكمه وعند اعتلائه العرش ، الا أن عصر هرقل شهد تطورات وتحولات هامة فى شتى المجالات سواء السياسى منها أم الاقتصادى أم الدينى .

فعلى الصعيد السياسى بعث هرقل نظام وراثة العرش من جديد ، وبدلا من أن يجعل له وريثا واحدا وشريكا واحد فى الحكم ، أصبح له وريثان وشريكان فى الحكم ، كما شهد عصر الامبراطور هرقل تنظيما اداريا وعسكريا جديدا فى أقاليم الدولة البيزنطية وولاياتها ، قام على أساس الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية فى يد قائد عسكرى واحد فى كل ولاية عرف باسم « الاستراتيجوس » وتحولت الولايات بذلك الى ثغور أو بنود Themes وكان لهذا النظام أكبر الاثر فى اعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه من قوة وعظمة ، وجعلها أشد تماسكا وأكثر صلابة عما كانت عليه ، اذ بفضل هذا النظام أصبحت الامبراطورية قادرة على مواجهة اعدائها من الفرس والسلاف (الصقالبة) والعرب المسلمين ، فقد كفل لها هذا النظام جيشا قادرا على الدفاع عنها بعد أن كانت تعتمد على المرتزقة الاجانب الذين ارتبط وجودهم بالمال وبذلك خف عن الخزانة الامبراطورية عبء ثقيل .

اتخذ الامبراطور هرقل خطوات ايجابية لاصلاح اقتصاد الامبراطورية المنهـار ، فالى جانب الحد من عدد الموظفين ورجال الدين فى كنيسة القديسة صوفيا ، واصدار عملات جديدة وفرض ضريبة على الخبـز المجانى ، نجده يتوسع فى زراعة القمح ، ويعيد تنظيم الطوائف المهنية والتجارية ، ويهتم بصناعة الحرير ، هذا فضلا عن التحول الذى حـدث فى التجارة الخارجية فى عهده • ولهذا يعد هرقل بحق مسئولا عن التغييرات الهـامة التى حدثت فى الاقتصاد البيزنطى •

كما شهد عصر الامبراطور هرقل احياء للحضارة اليونانية فى الدولـة البيزنطية ، فبعد أن كانت اللغة اللاتينية هى لغة الادارة والقـانون والتعليم والجيش ، أصبحت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للدولـة وتخلى الامبراطور عن الالقاب اللاتينية مثل لقب أغسطس وقيصر ، واستخدم بدلا منها لقب « باسيليوس » • ولم يكن التحـول الى الطابع اليونانى قاصرا على اللغة فحسب ، بل امتد الى التشريع والكنيسـة والعملات والجيش وشتى مجالات الحياة فى الامبراطورية •

واتسم عصر هرقل بحدوث تحول جديد أيضا فى السياسة الدينية للدولة البيزنطية اذ سعى الامبراطور هرقل بمعاونة سرجيوس بطريرك القسطنطينية التى تحقيق الاتحاد الدينى بين المونوفيزتيين فى الاقاليـم الشرقية التابعة للامبراطور وبين اتباع المذهب الارثوذكسى السـائد فى كنيسة القسطنطينية وأسفر سعيهما عن ظهور مذهب جديد هو مذهب الارادة الـواحدة Monotheletism وبذل كل من هـرقل وسرجيوس جهودا مضنية فى سبيل نشر هذا المذهب • وكذلك حسم هرقل مشكلة أخـرى واجهته فى الاقاليم الشرقية الى جانب مشكلة المونوفيزتية وهى مشكلة اليهود وذلك بما اتخذه من اجراءات جادة ضدهم •

وشهد عصر الامبراطور هرقل حربا سجالا بين الدولة البيزنطية والفرس ، ففى الوقت الذى اعتلى فيه هرقل العرش كان الفرس قـد استولوا على عدد من مدن الشام ، وفى السنوات الأولى من حكمه استولوا

على باقى مدن الشـــام بل وعلى مصر وخلقدونية ، وهددوا العاصمـــة البيزنطية القسطنطينية ذاتهـا • وسارع الامبراطور هرقل باتخـــاذ الاستعدادات اللازمة لحربه مع الفرس ، فأعاد تنظيم الجيش ، وتولى قيادته بنفسه ، وظل يقاتل الفرس طيلة ست سنوات خرج بعدها منتصرا عليهم ، واسترد منهم كل ما انتزعوه من أراضى الامبراطورية •

وكان على هرقل أن يواجه خطرا آخر وهو خطر الســلاف والآفار الذين سعوا الى التوغل فى الاراضى البيزنطية وخاصة فى شبه جزيـــرة البلقان ، وظلوا يشنون غاراتهم على أراضى الامبراطورية ، وعلى الـــرغم من جهود الامبراطور لشرائهم بالمـــال الا أنهم حاصروا القسطنطينية نفسها منتهزين فرصة انشغال الامبراطور بحربه مع الفرس ، غير أن حصارهم باء بالفشل • واحتك هرقل بشعوب سلافية اخرى هى الصرب والكروات،غير أنه نظرا لضغط الآفار عليهم ، فقد لجأوا الى هرقل يطلبون منه الحماية والمساعدة ضدهم ، وكان أن دخل هؤلاء فى طاعة الدولة البيزنطية ودانوا لهـــا بالسيادة وتلقوا التعميد •

وواكب عصر هرقل ظهور الاسلام ، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة حيث وضع أسس وقواعد الدولة العربيـــة الاسلامية وأرسل عليه الصلاة والسلام كتبه وسفراءه الى هرقل والمقوقس ، عامله على مصر ، وكان طبيعيا أن تكون هناك ثمة احتكاكات بين الجانبين ، بدأت تلك الاحتكاكات فى عهد الرسول الكريم فى مؤته ثم تبوك ، ثم تطلع المسلمون الى فتح بلاد الشام ، ونجحوا فى ذلك كما نجحوا فى فتح مصر • كل ذلك أضفى على عصر الامبراطور هرقل أهمية خاصة •

دراسة تحليلية لاهم المصادر

هناك مجموعات من المصادر التاريخية لاغنى عنها للباحث فى تاريخ الدولة البيزنطية بصفة عامة ، وفى تاريخ عصر الامبراطور هرقل (٦١٠— ٦٤١ م) بصفة خاصة وتأتى مجموعة كتاب التاريخ البيزنطى Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (١) فى طليعة هذه المجموعات.

ويأتى على رأس هؤلاء الكتاب البيزنطيين أهمية بالنسبة للفترة موضوع الدراسة (٦١٠—٦٤١م) جورج البسيدى Georgius Pisida (٢). شماس كنيسة آيا صوفيا فى عهد البطريرك سرجيوس (٦١٠—٦٣٩م) بطريرك القسطنطينية . عاش جورج البسيدى فى عصر الامبراطور هرقل، وكان شاعرا مشهورا ، كتب اشعار تاريخية عديدة ، وصاحب هرقل فى حملاته ضد الفرس فى الفترة مابين عامى (٦٢٢ — ٦٢٣ م) ووصف بدقة حملات الامبراطور ضد كل من الفرس والآفار . وترك جورج البسيدى لنا عدة أعمال تاريخية هى : أولا : حملة هرقل ضد الفرس Expeditio Persica (٣) وهى عبارة عن تقرير مفصل عن حملة هرقل ضد الفرس فى عام ٦٢٢ — ٦٢٣ م ، كتبه جورج البسيدى عند عودته من تلك الحملة .

---

(١) تحتوى هذه المجموعة على كتابات المؤرخين البيزنطيين امثال بروكوبيوس ، وثيوفانيس ، وميخائيل بسللوس وقيدرونوس ، وزانوراس ، وآنا كومنين ، وجريجوراس ، وباخمير وغيرهم كثيرين . ولهذه المجموعة طبعات مختلفة منها طبعة بون (١٨٢٨ — ١٨٩٧ م) وهى تحتوى على نص باليونانية لكل مؤرخ مع ترجمة باللاتينية للنص نفسه . وهى الطبعة التى اعتمدت عليها الدراسة وهناك طبعة أخرى هى طبعة مين Migne وقد نشرها ضمن مجموعة اعمال الآباء اليونانيين . ومن الجدير بالذكر أن هناك ترجمات لبعض كتابات المؤرخين الذين كتبوا فى هذه المجموعة الى اللغات الأوربية الحديثة .

(٢) ينسب جورج البسيدى الى اقليم بسيدا Pisida الذى يقع فى جنوب آسيا الصغرى . أنظر :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 280.

(٣) Georgius Pisida, De Expeditione Persica, in C.S.H.B., Bonnae (1837).

ونظم جورج البسيدى أيضا شعرا فى هجوم الآفار على القسطنطينية عام ٦٢٦ م بعنوان « حرب الآفار Bellum Avaricum »(١) وأنشد جورج قصيدته هذه أمام البطريرك سرجيوس Sergius فى عام ٦٢٧م، وركز فيها على دور العذراء كعامل أساسى فى تحقيق النصر ، وامتدح فيهـا الامبراطور هرقل ، وذكر الدور الفعال الذى قام به رغم غيابه عن العاصمة وقت الهجوم عليها من قبل الآفار ، وامتدح كـذلك دور البطريرك سرجيوس فى الدفاع عن المدينة • ويقدم جورج فى تلك القصيدة بعض التفاصيل عن القتال البرى والبحرى مع الآفار ، وهزيمة خاقان الآفار وما ترتب على تلك الهزيمة من نتائج (٢) •

كما كتب جورج البسيدى كذلك شعرا فى مدح الامبراطور هـرقل بعنوان Heracliados (٣) وذلك بمناسبة انتصار هرقل على الفرس، وتحدث فيه عن جانب من حروب هرقل ضد الفرس وهجوم السلاف والآفار على القسطنطينية فى عام ٦٢٦ م بالاشتراك مع الفرس ، وتحدث فيه كذلك عن مصرع كسرى الثانى ملك الفرس سنة ٦٢٨ م •

والف جورج البسيدى أيضا قصيدة شعرية دينية بعنوان « خلق الكـون فى سـتة أيـام Hexaemeron »(٤) وهى عبارة عن نوع من شعـر الفلسفة اللاهوتية عن الخلق والكون ، مع بعض لمحات عن الحوادث المعاصرة ، وفى هذه القصيدة يرى جورج البسيدى أن هنـاك ثمة علاقة — مع الفارق — بين الايام الستة التى خلق الله فيهـا العالم ثم استراح فى اليوم السابع ، وبين سنوات الحرب الست التى خاضها

---

(١) Bellum Avaricum, in C.S H.B., Bonnae (1837)

(٢) انظـر الفصل الخامس

(٣) Heracliados, in C.S.H.B., Bonnae (1837)

(٤) تمت ترجمة هذا العمل الى اللغة الروسية فى القرن الرابع عشر انظـر :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I. P. 280.

هرقل ضد الفرس ، ثم أعقبتها فترة من السلام والهدوء [١] .

ويضاف الى ما سبق أن جورج البسيدى وضع قصيدة عن استرداد الصليب المقدس In restitutionem S. Cruis ووضع جورج هذه القصيدة بمجرد أن علم باستعادة هرقل للصليب ، ومدح فيها هرقل كعادته على الدور العظيم الذى بذله فى استعادة الصليب واسترجاعه . ووصف فيها بالشعر انتصار الامبراطور هرقل ودخوله بيت المقدس ومعه الصليب دخول المنتصر ويرى جورج البسيدى فى هذه القصيدة أن استعادة هرقل للصليب من الفرس ثم اعادته الى مكانه فى بيت المقدس دليل ملموس ونتيجة حاسمة لنهاية الحرب الفارسية ولتهديد الفرس للامبراطورية البيزنطية [٢] .

ومن المصادر التى اعتمدت عليها الدراسة الحوليات الفصحية Chronicon Paschale [٣] الذى نشر ضمن مجموعة كتاب التاريخ البيزنطى . وكتب هذا التاريخ أسقف غير معروف فى عصر الامبراطور هرقل ، وهو يتناول الفترة من عهد آدم وحتى عام ٦٢٩ م ، ويتكون من قوائم مرتبة ترتيبا زمنيا ومدعمة بشروح وتعليقات تاريخية. ولهذا فان الحوليات الفصحية تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لعصر الامبراطور هرقل ، وتظهر قيمة هذه الحوليات الحقيقية فى محتوياتها وخاصة الجزء المتضمن الحوادث المعاصرة للمؤلف الذى عاش فى عصر هرقل [٤] .

وقد أمدت الحوليات الفصحية Chronicon Paschale الدراسة بمعلومات ألقت المزيد من الضوء على بعض النواحى الاقتصادية فى عصر

---

(١) Alexander, «Heraclius, Byzantine Imperal Ideology», in Speculum (1977), P. 223.

(٢) انظر : Alexander, Heraclius, P. 224.

(٣) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., Bonnae (1832).

(٤) انظر : Dolger, «Byzantine literature», in Cam. Med. Hist., Vol. IV, Part II, P. 235., Vasiliev, History, I, P. 281., Ostrogorsky, **History of the Byzantine State, P. 79.**

الامبراطور هرقل من ذلك انقطاع الخبز المحلى ومحاولة فرض ضريبة مقابل الحصول عليه ، وكذلك ذكر ما تعرضت له القسطنطينية من زلازل، وانتشار مرض الطاعون بها مما اضر بالاقتصاد البيزنطى فى تلك الفترة(١).

كما أوردت الحوليات الفصحية وصفا مفصلا لهجوم الآفار البرى والبحرى على القسطنطينية فى عام ٦٢٦م والذى دام عشرة أيام ، كما عرضت لدور الفرس الهامشى فى هذا الهجوم ، ولانتصار الحامية الامبراطورية ، على الرغم من غياب الامبراطور . وترجع أهمية ذلك الوصف الذى جاء فى الحوليات الفصحية الى أن كاتبها عايش الحوادث بنفسه وكان شاهد عيان لها (٢) .

واحتوت الحوليات الفصحية على عدد من الخطابات الهامة للفترة موضوع الدراسة ومن بينها خطاب السناتو الى كسرى ٦١٥ م ، الذى عرض فيه السناتو على كسرى الصلح (٣) . ويعد هذا الخطاب من الأهمية بمكان اذا احتوى أيضا على معلومات خاصة بعلاقة الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) بالفرس ثم علاقة هرقل بهم (٤) .

ونشرت الحوليات الفصحية كذلك خطابا أرسله هرقل الى شعب القسطنطينية من معسكره فى كانزاكا Ganzaca — عاصمة اقليم اذربيجان — فى ابريل ٦٢٨ م . وقرأ هذا الخطاب فى كنيسة سانت صوفيا فى ١٥ مايو ٦٢٨ م . (٥) ويسجل هذا الخطاب حوادث فبراير

---

(١) انظر الفصل الثانى .

(٢) انظر الفصل الخامس .

(٣) انظر نص الخطاب فى :

Chronicon Paschale, In C.S.H.B. P. 707.

انظر ترجمته الى العربية فى الملاحق .

(٤) انظر الفصل الاول والرابع .

(٥) انظر نص هذا الخطاب فى :

Chronicon Paschale, In C.S.H.B., PP. 727-33.

انظر ترجمته الى العربية فى الملاحق .

ومارس واوائل ابريل من عام ٦٢٨ م متضمنة سقوط كسرى وتعيين ابنه شيرويه خليفة له ، ورغبة ملك فارس الجديد فى مصالحه البيزنطيين ، اذا أرسل رسله لطلب الصلح والسلام (١) . كذلك أوردت الحوليات الفصحية نسخة من رسالة شيرويه الى الامبراطور هرقل لاقرار السلام (٢) .

ومن المصادر البيزنطية الرئيسية التى اعتمدت عليها الدراسة تاريخ البطريرك نيقفوروس Nicephorus بطريرك القسطنطينية(٨٠٦—٨١٥) . وهو تاريخ مختصر يغطى الفترة من (٦٠٢—٧٦٩م) وهو بعنوان « مختصر تاريخى لما حدث بعد الامبراطور موريس

Breviarium rerum Post Mauricium Gestarum (٣)

ويبدأ هذا التاريخ منذ عهد الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) وينتهى بتاريخ قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) ويتسم تاريخ البطريرك نيقفوروس بأن كاتبه نهج فى كتابته المنهج التاريخى ، كما أنه يتميز بموضوعية كبيرة (٤) .

حقيقة أن البطريرك نيقفوروس يعد من مؤرخى القرن التاسع الا أن معلوماته كانت فى غاية الاهمية بالنسبة لعصر الامبراطور هرقل ، بل أنه أحيانا كان يأتى بمعلومات لا تتوفر عند غيره من المؤرخين المعاصرين فقد فصل البطريرك نيقفوروس فى تاريخه لمحاولة كريسبوس Crispus صهر الامبراطور فوقاس التمرد وقضاء هرقل على تلك المحاولة (٥) ، وعرض البطريرك نيقفوروس لاستيلاء الفرس على مصر وما ترتب على ذلك من عدم ارسال القمح الى العاصمة ، وما أسفر عنه من المجاعة

---

(١) انظر الفصل الرابع .

(٢) Chronicon Paschale, PP. 735-36.

انظر ترجمتها فى الملاحق .

(٣) منشور فى مجموعة الكتاب البيزنطيين طبعة بون ١٨٣٧ م .

(٤) Ostrogorsky, History of The Byzantine, PP. 80-81, Dolger, Byzantine literature, P. 235.

(٥) انظر الفصل الاول .

وانتشار مرض الطاعون ، وقرار الامبراطور ترك القسطنطينية والذهاب الى قرطاجة (١) . وتحدث البطريرك نيقفوروس عن علاقة هرقل بكل من الفرس والآفار ، كما تناول بالحديث علاقة هرقل بالمسلمين ومعارك شقيقه ثيودوروس Theodorus معهم ، وكذلك تحدث عن مفاوضات كـيروس (المقوقس) مع عمرو بن العاص (٢) .

ومن المصادر البيزنطية الهامة بالنسبة لهذه الدراسة والتى انضوت تحت مجموعة كتاب التاريخ البيزنطى المؤرخ ثيوفانيس Theophanis ومؤلفه بعنوان « تاريخ الازمنة Chronographia » (٣) ولد ثيوفانيس فى عهد الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) ، وبـرز أبوه كحاكم عسكرى لجزر بحـر ايجه فى ظل حكم الامبراطور ليو الـرابع (٧٧٥ — ٧٨٠ م) ومن ثم فقد كان ثيوفانيس فى صباه موضع رعاية هذا الامبراطور وحمايته (٤) .

كتب ثيوفانيس مدونته التاريخية Chronographia بين عامـى (٨١٠ — ٨١٤ م) أى قبل وفاته (٨١٧ م) بثلاثة أعوام ، ويبدأ تاريخ ثيوفانيس منذ عصر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) وحتـى سقوط الامبراطور ميخائيل الاول (٨١١ — ٨١٣ م) واعتلاء ليـو الخامس العرش أى امتد تاريخ ثيوفانيس Theophanis بين عامـى (٢٨٤ — ٨١٣ م) . كتب ثيوفانيس مدونته « تاريخ الأزمنـة » باللغة الشعبية الدارجة ، وكتبها على شكل حوليات أو سجلات تاريخية سنوية. ولقى تاريخ ثيوفانيس شهرة عالمية فى التأريخ للدولة البيزنطية ، فقد شكل الاساس لـما تلى من حوليات بيزنطية ، وأصبح معـروفا فى الشرق من خلال الترجمة اللاتينية التى قام بهـا اناستاسيوس Anastasius

(١) انظـر الفصل الثانى .
(٢) انظر الفصل الرابع والخامس والسادس .
(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., Bonnae (1839).
(٤) رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٢٣٥ .

أمين المكتبة البابوية فى السبعينات من القرن التاسع . (١) .

ويتسم تاريخ ثيوفانيس Theophanis بغزارة ما أورده من معلومات اذ ألقى تاريخ ثيوفانيس أضواء على أحوال الدولة البيزنطية قبل عصر هرقل والاسباب التى أدت الى سقوط سلفه فوقاس ومهـدت لوصوله العرش ٦١٠ م ، وتحدث ثيوفانيس عن نظام الثغور ، ومذهب الارادة الواحدة ، وفصلت رواية ثيوفانيس حملات هرقل ضد الفرس كما أوردت معلومات لم ترد عند غيره من المؤرخين ، ومع ذلك فان رواية ثيوفانيس عن علاقة هرقل بالمسلمين يشوبها الخلط والغموض والتخبط ، هذا فضلا عن أن تحديده الزمنى للحوادث لم يكن على درجة كبـيرة من الدقـة (٢) .

واستفادت الدراسة كذلك من كتابات الامبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantin Porphyrogenitus ومن بينها كتابه عن « الثغور De Thematibus »(٣) ، ألف قسطنطين هذا الكتاب بين عامى (٩٣٤ — ٩٣٥ م) (٤) . ويأتى هذا الكتاب فى مقدمة المصادر البيزنطية

(١) Ostrogorsky, History of The Byzantine, P. 80.
وانظـر ايضـا :
Ostrogorsky, **«The Byzantine Empire in the Seventh Century»** in Dumbarton Oaks papers (1959) PP. 12-14.
وعن المصادر التى استقى منها ثيوفانيس معلوماته عن عصر هرقـل انظـر :
S. Proudfoot, **«The sources of theophanes for the Heraclian dynasty»** in Byzantion (1974) PP. 367 - Stq.

(٢) انظـر :
Grumel, **«l'année de Monde dans la Chronographie de Theophanis»** dans Echos d'Orient (1934), PP. 396-408.

(٣) ترجم هذا الكتاب وعلق عليه بيرتوسى Pertusi الفاتيكان عام ١٩٥٢ م وهى الطبعة التى استعان بها الباحث .

(٤) لمزيد من التفاصيل حول تاريخ تاليف هذا الكتاب انظـر :
Ostrogorsky, **«Sur la date de la Composition du livre de themes»** dans Byzantion (1953) P. 38, Note, 2., Lounghis, **«Sur la date de Thematibus»** dans Revue des Etudes Byzantines T., 31 (1973) PP. 299-305.

الهامة التى أهتمت بنظام الثغور ، فأفاد الدراسة عند الحديث عن نظام الثغور والدور الذى قام به هرقل فى هذا المجال ، والثغور التى نشأت فى عهده (١) .

ومن كتب الامبراطور قسطنطين السابع الاخرى التى استفادت منها الدراسة كتاب عن «الادارة الامبراطورية «De Administrando Imperio» (٢) وكشف قسطنطين فى هذا الكتاب الستار عن بعض الشعوب السلافية أمثال الكروات والصرب وعن أصل تسميتهم وموطنهم الاصلى ، وكيف اتصلوا بالامبراطور هرقل ، وطلبوا منه العون والمساعدة لمواجهة الآفار مما أعان الباحث كثيرا عند دراسته لهذه الشعوب ، وتحدث أيضا عن فتح المسلمين لمدينة بيت المقدس ، ودخول عمر بن الخطاب المدينة ، وأوامره بعدم التعرض لكنائسها وهياكلها (٣) .

ومن المؤرخين البيزنطيين المتأخرين الذين يمكن أن يفيد الباحث فى عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) من كتاباتهم كل من المؤرخ زانوراس Zanoras والمؤرخ قيدرونوس Cedrenus عاش الاول فى بداية القرن الحادى عشر وعاش الثانى فى نهايته . ومؤلف زانوراس تاريخ عام يبدأ من الخليقة وينتهى باعتلاء الامبراطور حنا كومنين العرش ١١١٨ م وهو بعنوان « كتاب مختصر التواريخ »(٤). وكان زانوراس يشغل منصب قائد الحرس الامبراطورى ، وقد ساعدته الوظائف التى تولاها على أن يستقى معلوماته من السجلات الرسمية(٥)،

---

(١) انظر الفصل الثانى .

(٢) نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة الكتاب البيزنطيين وترجمه الى الانجليزية جنكينز Jenkins (بودابست ١٩٤٩ م) وهى الترجمة التى استعان بها الباحث ، ثم تمت ترجمته الى اللغة العربية ايضا ، وقام بهذه الترجمة محمود سعيد عمران ، بيروت ١٩٨٠ م ، واطلع الباحث على هذه الترجمة أيضا .

(٣) انظر الفصل الخامس والسادس .

(٤) Zanoras, Epitomae Historiarum Libir, T.3 in C.S.H.B. Bonnae 1897.

(٥) Dolger, Byzantine literature, P. 236.

ويبدو أنه نقل عن ثيوفانيس Theophanis الشىء الكثير خاصة فيما يتعلق بعصر هرقل •

أما قيدرنوس Cedrenus فقد وضع تاريخه حوالى نهاية القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر ، وهو يبدأ من الخليقة وحتى ارتقاء الامبراطور اسحق كومنين العرش ١٠٥٧ م ويقع فى ثلاثة أجزاء(١)• ونهج قيدرنيوس منهج ثيوفانيس • ويبدو أنه نقل عنه كذلك وخاصة عند الحديث عن حملات هرقل ضد الفرس وعلاقته بهم (٢) •

أما المجموعة الثانية من مجموعات المصادر التى تهم الباحث فى عصر الامبراطور هرقل فهى «اعمال الاباء اليونانيين «Patrologyia Graeca»(٣) وهى تحتوى عن كتابات القديسين والبطاركة اليونانيين (أى البيزنطيين)• ويأتى فى مقدمة هؤلاء من حيث الاهمية بالنسبة لهذه الدراسة كتابات القديس ماكسيموس المعترف Maximus cofessor الذى ولد فى القسطنطينية ، وكان أول أمره كاتب سر للامبراطور هرقل ، فلما نادى هرقل بمذهب الارادة الواحدة خرج ماكسيموس على البلاط الامبراطورى واعتزل فى أحد الاديرة ثم صار رئيسا لهذا الدير • وكان ماكسيموس مؤمنا بضرورة الدفاع عن الارثوذكسية وعن القول بالارادتين والفعلين فى المسيح — بعد حكم هرقل — ولهذا كان من المناوئين لمذهب الارادة الواحدة ، وتعرض فى سبيل ذلك للاضطهاد والسجن والتعذيب مرارا ، حتى أمر قسطنطين الثالث ٦٤١م بقطع لسانه ويده اليمنى ، ثم نفاه الى لازيقا Lazica ذلك الاقليم القوقازى البعيد ، الذى يقع فى الجنوب الشرقى للبحر الاسود ، حيث قضى أيامه الاخيرة ومات فى عام ٦٦٢م •

(١) Cedrenus, Compendium Historiarum, I, in C.S.H.B. Bonnae 1838.

(٢) انظر الفصل الرابع •

(٣) بلغ عدد مجلداتها ما يقرب من ١٦١ مجلدا نشرها مين Migne فى باريس بين عامى (١٨٥٧ — ١٨٦٦ م)•

وذلك ليكف عن الكتابة والخطابة فى هذا الموضوع[١] .

ويقع تاريخ ماكسيموس فى مجلدين هما رقم (٩٠ — ٩١) من مجموعة سير الآباء اليونانيين[٢] . ويعرض فيهما لموقفه من مذهب الارادة الواحدة الذى نادى به الامبراطور هرقل ، واعتراضاته على هذا المذهب، كما يعرض لجهود البطريرك سرجيوس Sergius فى نشر المذهب الجـديد ، وللقاء الـذى تم بين الراهب صفرونيوس ، وكيروس Cyrus بطريرك الاسكندرية الملكانى والمناقشات التى دارت بينهما حول مذهب الارادة الواحدة ، كما يعرض ماكسيموس للمناقشات والجدل الـذى دار بينه وبين بيروس Pyrrhus بطريرك القسطنطينية وخليفة سرجيوس ، وتحدث ماكسيموس عن المرسوم الذى أصدره هرقل فى عام ٦٣٨م والمعروف « بتقرير الايمان Ecthesis » مما أفاد كثيرا فى دراسة سياسة الامبراطور هرقل الدينية[٣] .

ومن كتب أعمال الآباء اليونانيين كتاب معجزات القديس ديمتريوس Mircula St. Demetrii[٤] ، وتنقسـم المعجـزات الى ثلاث أقسام ، كتبها ثلاثة من الكتاب . كتب القسم الاول منها يوحنا رئيس أساقفة سالونيك (٦١٠ — ٦٣٨م) أما القسم الثانى فكاتبه غير معروف ، ولكن يبدو أنه عاش فى النصف الثانى من القـرن السابع وبالتحـديد فى

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن ماكسيموس المعترف انظـر :

Montmasson, **«Chronologie de la vie de saint Maxime le confesseur** (580-662)», dans Echos d'Orient (1910) PP. 149-154, Grumel, «Notes **d'histoire et la chronologie sur la vie de saint** Maxime le **Confesseur»** dans Echos d'Orient (1927), PP. 24-32.

Vasiliev, History of the Byzantine, I. PP. 281-92.

اسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٢) Maximus confessor — Opera Omnia,T. 90.

— Maximi Disputatio cum Pyrrho, T. 91. in P. G.

(٣) انظـر الفصل الثالث .

(٤) Mircula St. Demetrii, in P.G,T. 116, PP. 1204-1425, Paris (1864).

الثمانينات من هذا القرن ، أما القسم الثالث فقد أضيف مؤخرا (١) •

ويعد القسم الاول من كتاب المعجزات من الاهمية بمكان ، اذ أورد معلومات هامة تتعلق بتاريخ الآفار والسلاف (الصقالبة) واغاراتهم على مدن الامبراطورية وسالونيك بصفة خاصة ، كذلك استفادت الدراسة منه عند الحديث عن الاضطرابات ، التى حلت بالامبراطورية تحت حكم الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) (٢) •

ومع أهمية هذا الكتاب الا أن عنصر الضبط الزمنى غير واضح فيه ، ويصعب على الباحث استخلاص السنوات التى وقعت فيها الحوادث• ومن الجدير بالذكر أيضا أن كتاب « معجزات القديس ديمتريوس »يركز أساسا على الاشارة الى أن كل شىء حدث وتم بفضل تدخل القديس ديمتريوس — حامى مدينة سالونيك — ومن ثم فهو كتاب معجزات ، ومع ذلك فهو الكتاب الوحيد المعاصر للحوادث الذى يمد الباحث بمعلومات غاية فى الاهمية عن السلاف والآفار وعلاقتهم بالدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل وكذلك سلفه فوقاس (٣) •

أما المجموعة الثالثة من مجموعات المصادر التى لاغنى عنها للباحث فى عصر الامبراطور هرقل فهى مجموعة « تاريخ المجامع الكنسية المقدسة » (٤) وهى فى ٥٥ مجلدا، نشرها مانسى Mansi فى عام ١٩٦٠م وهى تشمل تاريخ المجامع الكنسية ، وما وضعته هذه المجامع من أحكام وأقرته من قوانين ، كما تعرض هذه المجموعة بين طياتها القرارات والرسائل المتبادلة بين البابوات والبطاركة وغيرهم • ويهم الباحث فى

---

(١) Lemerle, «La composition et la Chronologie de deux per- miers livres des Miracula St. Demetrii» dans Byzantinishe Zeitschrift (1953) PP. 350-61.

(٢) انظر الفصل الاول والخامس •

(٣) Lemerle, La composition, PP. 350-61, Stratos, Byzantium, P. 318.

(٤) Mansi, Sacrorum Consiliorum Novaet, Vol. 10, 11, Austria 1960.

عصر هرقل من هذه المجموعة المجلدان العاشر والحادى عشر • وقد وردت فيهما رسائل البطريرك سرجيوس الى كل من هونريوس Honorius بابا روما ، وكيروس Cyrus بطريرك الاسكندرية الملكانى •

أما عن خطاب البطريرك سرجيوس الى البابا هونريوس فقد جاء ضمن أعمال المجمع المسكونى السادس ٦٨٠م ، وكتب سرجيوس هـــذا الخطاب فى الحال بعد ارتقاء صفرونيوس كرسى بيت المقدس ، وعرض هذا الخطاب لتفاصيل المفاوضات التى دارت بين الامبراطور هرقل وبولس الاعور ، ومساعى كيروس بطريرك الاسكندرية لنشر المذهب الجـــديد ، واعتراض صفرونيوس بطريرك بيت المقدس على هذا المذهب[١] •

أما خطاب سرجيوس الى كيروس بطريرك الاسكندرية ، فجا ضمن الجلسة الثالثة لمجمع اللاتيران ٦٤٩م[٢] ، وجاء رد كيروس على هذا الخطاب أيضا ضمن أعمال الجلسة الثالثة لهذا المجمع[٣] وقد أثرت هذه الخطابات الحديث عن سياسة الدولة البيزنطية الدينية فى عهد هرقل •

أوردت هذه المجموعة كذلك نص المرسوم الذى أصدره هرقل وسرجيوس والذى عرف باسم « شرح أو تقرير الايمان Ecthesis » وكذلك تعرضت للمجمع الذى عقـــده بيروس Pyrrhus خليفة البطريرك سرجيوس — فى القسطنطينية فى عام ٦٣٩م لاقرار هذا المرسوم مما افاد الدراسة كثيرا عند الحديث عن السياسة الدينية للامبراطور هرقل[٤]•

استفادت الدارسة أيضا من مجموعة الكتاب المسيحيين الشرقيين Corpus Scriptorum. Christianorum Orientalium وتشمل هذه المجموعة

---

(١) انظـــر الفصل الثالث . وانظر ترجمة هذا الخطاب الى العـــربية فى الملاحق .

(٢) انظر الفصل الثالث والملاحق .
Mansi, Sacrorum, T. X Col. 1003.

(٣) Mansi, Sacorum, T. X. Col. 971-74.

(٤) انظـــر الفصل الثالث .

الكتاب العرب ، والسريان والارمن وهى تحتوى على عدد كبير من المجلدات يقرب من ٣٥٠ جلدا أو تزيد ويهم الباحث فى عصر هرقل مجموعتا الكتاب العرب Scriptores Arabici والكتاب السريان Scriptores Syri

وتأتى رواية الانبا اسطراط (اسطراتيوس) وهى بعنوان « استيلاء الفرس على بيت المقدس ٦١٤م(١) فى المقدمة ، فقد عاصر الانبا اسطراط أحداث استيلاء الفرس على بيت المقدس ، اذ كان يعيش فى دير القديس سابا الذى يقع بالقرب من بيت المقدس ، وقد كان هذا الدير واحدا من الاديرة التى تعرضت لسلب ونهب الفرس ، ونجح الانبا اسطراط فى الافلات من الفرس والعودة الى بيت المقدس ثانية • ويفصل فى هذا الكتاب كيفية استيلاء الفرس على بيت المقدس ، وأسرهم البطريرك زكريا ، واستيلائهم على خشب الصليب المقدس ، وارسالهم هذا الصليب الى كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨م) فى فارس ووصف ماقام به الفرس من تدمير للكنائس والاديرة ، واستيلائهم على ما بها من كنوز • وعرضت رواية الانبا اسطراط لدور اليهود فى ذلك العمل• وترجع أهمية تلك الرواية الى أن الانبا اسطراط كان شاهد عيان لما رواه، فضلا عن أنه عايش الحوادث بنفسه ووصفها يوما بيوم(٢) •

ويلى رواية الانبا اسطراط فى الاهمية المؤرخ سعيد بن بطريق وكتابه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق »(٣) ولد سعيد بن بطريق فى الثالث من ذى الحجة ٢٦٣هـ الموافق ١٧ أغسطس عام ٨٧٧م، وعاش فى مدينة الفسطاط ودرس الطب ، وكتب فيه كتبا عديدة ، وعين بطريركا لمدينة الاسكندرية فى عام ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م ، ثم مات فى رجب

---

(١) Expugnationis Hierosolymae A.D. 614, Recensiones Arabicae (ed.) Gerardo Garitte, in C.S.C.O., Scriptores Arabici, T., 26, Louvain (Belgique). 1973.

(٢) انظر الفصل الرابع

(٣) منشور فى مجموعة الكتاب المسيحيين الشرقيين ، الكتاب العرب ، الجزء السادس ، لوفان ١٩٥٤ م •

٣٢٨هـ/مايو ٩٤٠ م (١) •

وتاريخ سعيد بن بطريق تاريخ طويل مكتوب بالعربية ، بدأه المؤلف من عهد آدم وحتى عام ٣٢٦هـ/٩٣٨م • واتبع فيه سعيد بن بطريق طريقة التاريخ الحولى • ويحتوى هذا التاريخ على معلومات غاية فى الاهميـــة للباحث فى عصر هرقل ، فقد عرض لاستيلاء الفرس على بيت المقدس كما أفاد الدراسة عند الحديث عن السياسة الدينية للدولة البيزنطية فى عهد هرقل اذ أورد أجزاء من خطاب البابا هونريوس الى البطريرك سرجيوس ردا على خطابه له ، كما عرض سعيد بن بطريق لدور اليهود فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وتخريبها والحملة على اليهود وقتلهم ، وعرض لجانب من علاقة هرقل بالمسلمين والدور الذى قام به المسلمون فى فتح مدن الشام وفلسطين ، والمفاوضات بين المقوقس وعمرو بن العاص بصفة خاصـــة (٢) •

أما المؤرخ الثالث فى مجموعة الكتاب المسيحيين الشرقيين فهو محبوب المنبجى أو اغابيوس المنبجى وكتابه « العنوان » (٣) عاش محبوب بن قسطنطين الرومى المنبجى اسقف منبج — عاصمة اقليم الفرات — فى القرن العاشر ، وكان محبوب المنبجى معاصرا للمؤرخ الشهير سعيد بن بطريق بطريرك الاسكندرية ، غير أنه لايعرف اذا كان كلاهما يعـــرف الاخر أم لا ، ولكن يبدو أن تاريخ سعيد بن بطريق كان يسبق تـــاريخ اغابيوس بعدة سنوات • ولايعرف فى أى سنة توفى محبوب ، كمـــا يجهل

---

(١) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جا ، ص ٨٨ ، ٩١ وانظـــر ايضا السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ١٠٠ .

(٢) انظـــر الفصول : الاول الثالث والرابع والسادس .

(٣) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان . وقد نشر مرتين الاولى ضمن مجموعة الكتاب المسيحيين الشرقيين ، الكتاب العرب ، الجزء العاشر ، نشره: Cheikho S.J. لوفان ١٩٥٤ .

والثانية قام بها فازيليف Vasiliev ضمن مجموعة اعمـــال الابـــاء الشرقيين Patrologia Orientalis فى المجلد الخامس والسابع والثامن منها . باريس ١٩١١ ، ونشره بالعربية مع ترجمة بالفرنسية .

من هو عيسى بن حسين الذى يذكر محبوب أنه أهدى اليه كتابه هذا ، ويبدأ تاريخ محبوب المنبجى من بدء الخليقة وحتى عام ٣٣٠هـ/٩٤١م وهو فى جزئين (١) .

وترجع أهمية تاريخ محبوب المنبجى بالنسبة للفترة موضوع الدراسة، الى أنه تحدث عن علاقة هرقل باليهود وعرض لدورهم فى عصره ، ولدور الفرس وعلاقة هرقل بهم .

استعانت الدراسة كذلك بالتاريخ السريانى مجهول المؤلف ، والذى نشره اجناتيوس جيدى Ignatius Guidi باللغة اللاتينية ، ضمن مجموعة الكتاب المسيحيين الشرقيين ، الكتاب السريان (٢) . وجد جيدى نص هذا التاريخ مجهول المؤلف فى أحد كتب المجامع النسطورية المحفوظة فى روما ، ونشره فى عام ١٨٩١م . ويذكر جيدى فى مقدمة هذا التاريخ أنه ليس هناك معلومات مؤكدة عن مؤلف هذا التاريخ أو فى أى وقت عاش، ولكن يبدو أن أحد الرهبان النساطرة هو الذى وضع هذا التاريخ فيما بين عامى ٦٧٠م — ٦٨٠م ، وأنه عاش فى العراق أو فى خوزستان (٣) . واستفادت الدراسة بما رواه هذا التاريخ السريانى من معلومات خاصة فيما يتعلق بالفرس وهجماتهم على الاراضى البيزنطية وعلاقتهم بالامبراطور هرقل .

وهناك أيضا مجموعة اعمال الاباء الشرقيين Patrologia Orientalis وهى تتناول تواريخ البطاركة والقديسين الشرقيين سواء أكانوا بطاركة الاسكندرية أم بطاركة انطاكية أم بطاركة بيت المقدس . منها كتاب : ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين بعنوان « تاريخ بطاركة كنيسة الاسكندرية » عاش ساويرس فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن لايعرف

---

(١) Agapius Episcopus Mabbugensis, in C.S.C.O. Scriptores Arabici T., 10 (ed.) Cheikho, introduction, PP. 3-4.

(٢) Chronicon Anonymum (ed.) Ignatius Guidi, in C.S.C.O., Scriptores Syri T. IV, Paris (1903).

(٣) انظــر : مقدمة المحقق . Chronicon Anonymum, P. 13.

على وجه التحديد تاريخ وفاته • كتب ساويرس تاريخه مستعينا بالوثائق اليونانية والقبطية التى وجدها فى أديرة مصر ، وترجمها بمساعدة بعض القساوسة ورجال الدين (١) • ونشر Evetts تاريخ ساويرس فى مجموعة اعمال الاباء الشرقيين فى الجزء الاول منها وهو نص باللغة العربية مع ترجمة وتعليق باللغة الانجليزية • ويعرض ساويرس من خلال حديثه عن بطاركة الاسكندرية المعاصرين لهرقل لاحداث تهم الباحث فى عصر هرقل ، من ذلك علاقة هرقل بالفرس واستيلائهم على مصر ثم استرداد هرقل لها ، ثم فتح العرب أو المسلمين لمصر وكذلك فتح الاسكندرية (٢)•

هذا ويحتوى المجلد الرابع من مجموعة اعمال الاباء الشرقيين على التاريخ النسطورى Histoire Nestorienne المعروف بتاريخ كردستان Chronique de Seert (٣) • ومؤلف هذا التاريخ غير معروف ومن المحتمل أيضا أنه عاش فى النصف الاول من القرن الثالث عشر ، ذلك لانه يذكر فى نهاية الجزء الثانى من تاريخه ، بعد أن تحدث عن موت شيرويه ملك فارس ، هذه الكلمات : « كما جرى فى زماننا للظاهر قدس الله روحه » والخليفة الظاهر مات فى عام ١٢٢٦م (٤) وبالتالى فهذا المؤرخ كان معاصرا له • ونشر نص هذا التاريخ باللغة العربية مع ترجمة بالفرنسية فى هذه المجموعة • ويعرض الجزء الثانى من التاريخ النسطورى لحياة هرقل وعلاقته بكسرى ، ثم بابنه شيرويه

---

(١) History of the patriarchs of the coptic church of Alexandria (ed.) Evetts P. 5.

(٢) انظر الفصل الرابع والسادس •

(٣) Histoire Nestorienne, (Chronique de Seert) (ed.) Scher et Griveau in P.O., T., XIII Paris 1918-19.

النص بالعربية مع ترجمة بالفرنسية •

(٤) Chronique de seert, in P.O., T., IV introduction in Francais, P. 217.

ثم يعرض لظهور الاسلام ودخول عمر بن الخطاب بيت المقدس[1].

ومن المصادر الهامة أيضا التى تفيد الدراسة « سيرة حياة القديس ثيودور السيكيونى La vie de Theodore de Sykeôn »[2] وينسب الى قرية سيكيون Sykéôn التابعة لجالاتيا Galatie بآسيا الصغرى ، والتى ولد بها فى عهد الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) وسلك درب الرهبنة ، وذاع صيته فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع . وتوفى ثيودور فى ٢٢ ابريل من عام ٦١٣م ، ومن ثم فقد عاش السنوات الثلاثة الاولى من حكم الامبراطور هرقل[3] . واكثر من ذلك انه اتصل بالامبراطور هرقل شخصيا وزاره فى عاصمته عدة مرات ، وكانت هناك رسائل متبادلة بينهما ، بل وكان لثيودور صاحب هذه السيرة تأثيره على الامبراطور هرقل[4] .

وترجع أهمية هذه السيرة الى أنها ترفع الستار عن المشكلات العديدة التى بدأت تواجه الامبراطور هرقل فور اعلانه امبراطورا فى اكتوبر من عام ٦١٠م ، وعن الحوادث التى دارت فى آسيا الصغرى فى الفترة من ٦١١ — ٦١٣م ومحاولة القائد بريسكوس Priscus الانفصال ، كما تلقى السيرة الاضواء على تمرد القائد كومينتولوس Komentiolus شقيق الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) الذى استهدف المطالبة بالعرش ، والذى لم يكن معروفا قبل نشر هذه السيرة ، كما توضح

---

(١) انظر الفصل الرابع والسادس .

(٢) قام بنشر هذه السيرة وترجمتها الى الفرنسية والتعليق عليها Féstugiere J. فى بروكسل ١٩٧٠ م ، نشر النص اليونانى مع ترجمة بالفرنسية وهى التى اعتمدت عليها الدراسة .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن حياة ثيودور السيكيونى انظر :

Féstugiere (ed.) La vie, T., II PP. 7-13.

وانظر ايضا : هسى ، العالم البيزنطى ، ص ٣١٤ ، هامش ٢ ، ص ٣١٨ .

(٤) Féstugiere (ed.) La vie. T., II, Ch. 154, P. 130-31., kagi, «New evidence on the early reigon of Heraclius» dans Byzantinishe Zeitschrift (1973) P. 329.

السيرة الآثار التى أحدثها هذا التمرد على الدولة البيزنطية فى سنوات حكم هرقل الاولى ونجاح هرقل فى القضاء على هذا التمرد بمساعـدة القوات الارمينية (١) •

وتعد مخطوطة يوحنا النقيوسى (٢) من المصـادر الهامة بالنسبة للسنوات الاولى كذلك من حكم هرقل واحداث فتح العرب لمصر ، خاصة أن الكتاب المسلمين الذين اوردوا أحداث الفتح عاشوا فى وقت متأخر عن هذه الحوادث وأقدمهم ابن عبد الحكم والبلاذرى وترجع كتاباتهما الى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميـلادى ، أما المصـادر البيزنطية فلم ترو الا أخبارا ضئيلة الاهمية عن الفتح ومن ثم ينفـرد تاريخ يوحنا النقيوسى (٣) بما يرويه من معلومات قيمة عن الفتح . اذ أنه كتب تاريخه حوالى نهاية القرن السابع الميلادى ، ولم يمض على فتح العرب لمصر الا زمن قصير ، ولذا يعد يوحنا النقيوسى أول من آرخ لحوادث الفتح العربى لمصر • هذا وتبدو أهمية مخطوطة يوحنا النقيوسى فى اشاراتها الى حوادث هامة أهملتها المصادر البيزنطية ، مثل الصراع بين قوات فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) وقوات هرقل حول السيطرة عـلى

---

(١) انظر الفصل الاول .

(٢) من الجدير بالذكر أن هناك ترجمة بالعربية عن الحبشية للاجزاء المتعلقة بتاريخ مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى قام بهـا عمـر صابر تحت عنوان «مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى» رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨١ هذا فضلا عن أن هناك ترجمة فرنسية عن الحبشية ايضا قام بهـا زوتنبرج Zotenberg واطلع الباحث على كلا الترجمتين . واختلفت الآراء حول اللغة التى كتبت بها المخطوطة اهى العربية أم الحبشية أم اليونانيـة أم القبطية . لمزيد من التفاصيل عن اللغة التى كتبت بها المخطوطة انظر : عمـر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ص ٢١٥ — ٢٣٠ .

(٣) ينسب يوحنا النقيوسى الى مدينة نقيوس (ابشادى بمركز تـلا منوفية) ، فقد كان أسقفا لهذه المدينة فى الفترة من (٦٦١ — ٦٦٧ م) ، عاش يوحنا النقيوسى فى النصف الثانى من القرن السابع ومستهل القرن الثـامن الميلادى . ولمزيد من التفاصيل عن يوحنا النقيوسى انظـر :

عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص أ — ب ، ص ١ ، ٦ — ٧ .

السلطة فى الأمبراطورية البيزنطية (١) ولكن يؤخذ على يوحنا النقيوسى أنه أهمل ذكر حوادث الفتح الاولى (٢) .

وكتب الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos فى الستينات من القرن السابع تاريخا بعنوان « تاريخ هرقل «Histoire d'Heraclius» بالارمينية (٣) . ويعتبر الراهب الارمنى سيبيوس الوحيد فى القرن السابع الذى عاصر سقوط امبراطورية الفرس الساسانية ، فقد شاهد غالبية الحوادث التى رواها ، الا أنه كان يضع تلك الحوادث بدون أن يخضعها للنقد والفحص ، طبقا للعادة المعمول بها فى عصره فى التواريخ البيزنطية والحوليات العربية . وروى سيبيوس الحوادث التى شاهدها بنفسه أو استطاع أن ينقلها من شهود العيان ، اذ أن تاريخه يبدأ من نهاية القرن الخامس وحتى ارتقاء معاوية الخلافة (٦٦١م) (٤) .

ومع أن تاريخ سيبيوس بعنوان « تاريخ هرقل » الا أنه لا يتعلق بتاريخ هرقل وحده ، بل يروى حوادث أخرى لاتتعلق بهرقل نفسه ، هذا وان كان محور روايته يدور حول حروب الامبراطور هرقل مع كسرى الثانى ملك الفرس ثم عقد السلام مع ابنه شيرويه ، ولذا فان هذا التاريخ حافل بمعلومات تتعلق بتاريخ الفرس ، وكان طبيعيا أن يهتم تاريخ الراهب سيبيوس بارمينية وشئونها السياسية والدينية والكنسية، وجهود الامبراطور هرقل لاعادة تنظيم هذا الاقليم بعد انتصاره على الفرس ، وجهود هرقل كذلك لنشر مذهبه الجديد « مذهب الارادة الواحدة

---

(١) انظر الفصل الاول والسادس .

(٢) العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٦٣ حاشية ٢ .

(٣) قام فردريك ماكلى Frederic Macler بترجمته الى الفرنسية ١٩٠٤ وهى الترجمة التى اعتمد عليها الباحث ، وهناك ترجمة له بالروسية قام بها العالم الروسى الارمنى Patkanian (١٨٦٢ — ١٨٦٣ م) كما ترجمت فصول هذا الكتاب ، والتى تتعلق باغارات العرب على ارمينية ، على يد العلامة الالمانى : Hubschmann M.H. أنظر :

Sébeos, Histoire d'Heraclius, trans, Macler, Introduction PP. IX-XI.

(٤) Sébeos, Introduction, PP. VII-VIII.

Monotheletism (١) كذلك لم يغفل سيبيوس Sébeos الحديث عن علاقة المسلمين بالامبراطورية البيزنطية فى عصر هرقل(٢) .

وتعد مرثية القديس صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس مصدرا هاما لسقوط مدينة بيت المقدس فى يد الفرس . وكانت هذه المرثية مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٣٢٨٢ ونشرهـا كوريه Couret باليونانية مع ترجمة لها بالفرنسية (٣) .

ألف القديس صفرونيوس Sophronius هذه المرثية فى عـــام (٦٢٠ — ٦٢٨ م) أثناء اقامته الطويلة فى دير ثيودوسيوس Theodosus وقبل عودة الامبراطور هرقل منتصرا فى حروبه مع الفرس ، واعادتـه الصليب المقدس الى بيت المقدس فى عام ٦٢٩ — ٦٣٠ م) (٤) .

وتلقى هذه القصيدة الضوء على مجيء الفرس الى بيت المقدس ، وما أثاروه من رعب وفزع فى قلوب المسيحيين من أهل المدينة ، حتى اضطروا الى مغادرتها ودور أهل المدينة فى الدفاع عن مدينتهم ، ثم يعرض فيهـا صفرونيوس لاستيلاء الفرس على مدينة بيت المقدس ، وقتلهم الاطفال الابرياء والضعفاء من النساء والشيوخ ، ونهبهم المدينة ، واشعالهم النيران فى الاماكن المقدسة (٥) .

ومن المصادر الهامة كذلك للباحث فى عصر الامبراطور هرقل المؤرخ

---

(١) انظـر الفصل الثالث .

(٢) انظـر الفصل السادس .

(٣) أنظر نص المرثية فى :

Couret, **«La prise de Jerusalem par les Perses en 614»** dans Revue de l'Orient Chretien (1897) PP. 133-135.

(٤) Couret, **la prise,** P. 136.

(٥) **Ibid.,** PP. 142-43.

السريانى ديونيسيوس التلمحرى (١) ، ومخطوطته « تاريخ الازمنة » ، عاش ديونيسيوس التلمحرى فى القرن التاسع الميلادى ومن الراجح أنه ولد بين عامى ٧٨٠ — ٨٠٠م وانتخب فى عام ٨١٨م بطريركا لانطاكية وتوفى فى عام ٨٤٥م (٢) .

وتاريخ ديونيسيوس التلمحرى تاريخ ضخم ، يشتمل على تاريخ العالم منذ الخليقة حتى عصره ، وينقسم الى أربعة أقسام (٣) ، وقام العلامة شابو Chabot بنشر القسم الرابع بالسريانية مع ترجمة بالفرنسية فى عام ١٨٩٥م ، وهو يتناول أحداث الفترة ٥٦٥ — ٧٧٥م .

وتبرز أهمية هذا القسم عند الحديث عن سياسة الامبراطور هرقل الدينية وعلاقته باليهود وموقفه منهم وكذلك موقف سلفه الامبراطور فوقاس منهم (٤) .

وهناك مصادر سريانية أخرى اعتمدت عليها الدراسة — وان كانت متأخرة بعض الشىء — وعلى رأسها تاريخ ميخائيل السريانى (٥) . ولد

---

(١) ينسب الى قرية تلمحره ، احدى قرى العراق ، وهى تقع بالقرب من نهـر بلخ أحد روافد نهر الفرات . انظـر :

شادية توفيق ، ديونيسيوس التلمحرى ، ومخطوطته تاريخ الازمنة ، ترجمة ودراسة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٢٨ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن حياة ديونيسيوس التلمحرى انظر :

Chronique de Denys de Tell-Mahré, 4 partie (ed.) Chabot, introduction, PP. IX-XI.

وانظر ايضا : شادية توفيق ، ديونيسيوس التلمحرى ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول اقسام تاريخ ديونيسيوس انظر :

Chronique de Denys introduction, PP. XXX-XXXI.

شادية توفيق ، ديونسيوس التلمحرى ، ص ٤٤ — ٤٥ .

(٤) انظر الفصل السادس .

(٥) قام شابو بترجمته من السريانية الى الفرنسية ، باريس ١٩٠٤ م وانظـر ايضا : زاكية محمد رشدى : ميخائيل السريانى الكبير ، وتاريخه لصدر الاسلام والعصر الاموى ، دكتوراه غير منشورة القاهرة ١٩٦١م .

ميخائيل السريانى الكبير فى ملطية فى عام ١١٢٦م وكان أبوه أحد قساوسة ملطية ، بدأ حياته راهبا فى دير برسوما بالقرب من ملطية ، وكان عمله هو تزويد الدير بالماء ، ثم عين رئيسا لدير برسوما — الذى اتخذه فيما بعد مقرا له ، ثم اعتلى عرش البطريركية فى ملطية لمدة ثلاثة وثلاثين عاما . وتوفى فى نوفمبر من عام ١١٩٩م [١] .

وعرض ميخائيل السريانى فى تاريخه للفترة موضوع الدراسة (٦١٠ — ٦٤١م) والقى مزيدا من الضوء على بعض الجوانب الهامة فى سياسة الامبراطور هرقل الدينية وخاصة علاقة الامبراطور بالمونوفيزتيين وببطريرك انطاكية اسناستوس والرسائل المتبادلةبينهما ، ثم علاقة هرقل باليهود وقراره بتعميد اليهود وتنفيذ هذا القرار . وتناول ميخائيل السريانى بالحديث كذلك مهاجمة كسرى ملك الفرس للاراضى البيزنطية[٢]

ومن المؤرخين السريان كذلك « ابن العبرى » الذى ولد ايضا فى ملطية فى عام ١٢٢٦م ، ودرس فى صباه اللغة اليونانية والسريانية والعربية ، كما درس العلوم الطبية والرياضيات والهندسة والفلك ، واشتغل بالفلسفة واللاهوت والف مايزيد على ثلاثين كتابا باللغة العربية والسريانية [٣] ، واشهرها كتاب « مختصر تاريخ الدول » ، ألفه أبو الفرج بن العبرى فى البداية باللغة السريانية ، ويقال ان بعض وجهاء العرب فى مراغة تقدموا اليه والحوا عليه فى ترجمته الى اللغة العربية ، وكان أن نقل بالفعل الى العربية فى أواخر حياته [٤] .

---

(١) انظر زاكية رشدى ، ميخائيل السريانى ، ص ١٣ — ١٧ .

(٢) انظر الفصل الثالث والرابع .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن حياة ابن العبرى ، انظر : ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، المقدمة ص ج — هـ ،

شادية توفيق ، مخطوطة تاريخ الازمنة لابن العبرى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ١٩٧٨ .

The Chronography of Georgory Abul Faraj, trans. by Budge P. VII.

(٤) ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص هـ — و .

ولابن العبرى كتاب آخر بعنوان « تاريخ الازمنة » وهو أصــلا بالسريانية وترجمه الى الانجليزية Wallis Budge ــ(لندن ١٩٣٢م)(١) وجعل فيه تاريخ ميخائيل السريانى أساسا له ، فهو يبدأ من الخليقة حتى عام وفاته وهو (١٢٨٥ ــ ١٢٨٦م) • ويتناول هذا الكتاب تاريخ العالم والدول ، وهو فى غاية الضبط والدقة ، أخذ فيه عن تاريخ يعقوب الرهاوى وميخائيل السريانى وتواريخ سريانية وعربية اطلع عليها فى مكتبة مراغة(٢) • وعرض ابن العبرى فى هذا الكتاب لعصر الامبراطور هرقل ، وأفاد البحث فيما يخص علاقة الفرس بالدولة البيزنطية (٣) •

أما أهم المصادر العربية التى استفادت منها الدراسة ، فيأتى فى مقدمتها الواقدى • ولد الواقدى بالمدينة المنورة فى عام ١٣٠هـ/٧٧٧م، ثم هاجر الى بغداد حيث شغل منصب القاضى بها ، وكان الواقدى عالما بالحديث والمغازى ، والفتوح ، وعرف بغزارة علمه ، وكان ثقة فى أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون ، وكان المأمون يقدره تقديرا عاليا، ويبالغ فى رعايته حتى أنه قربه اليه ، وولاه القضاء بعسكر المهدى(٤) • وتوفى الواقدى فى عام ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م (٥) •

---

(١) نشرت شادية توفيق بعض اجزاء من هذا الكتاب فى رسالتها للماجستير وهى بعنوان : « مخطوطة تاريخ الازمنة لابن العبرى ، ماجستير، آداب القاهرة ١٩٧٨ م •

(٢) شادية توفيق ، مخطوطة تاريخ الازمنة ، ص ٤٧ •

(٣) انظــر الفصل الرابع •

(٤) عسكر المهدى هى المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقى من بغداد وتعرف بعسكر المهدى لان المهدى عسكر بها عندما قدم من الرى فى عام ١٥١ هـ • أنظر ياقوت الحمرى ، معجم البلدان ، مجلد ٦ ص ١٧٧ •

(٥) لمزيد من التفاصيل عن الواقدى انظر •

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ، ص ٧٢٢ ــ ٧٢٣ ، الســيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٦٣ ــ ٦٥ ، على ادهم، بعض مؤرخى الاسلام ، ص ١٧ ــ ١٨ •

ومن أهم مؤلفات الواقدى التى اعتمدت عليها الدراسة كتاب مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم(١) ، وكتاب فتوح مصر والاسكندرية(٢) ، وكتاب فتوح الشام (٣) وبالنسبة لكتاب « المغازى » فهو يروى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ويعرض لحديث هرقل مع ابى سفيان عن النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك لغزوات الرسول التى خاضها ضد البيزنطيين ، وبصفة خاصة مؤتة وتبوك ، أما كتاب الواقدى عن « فتوح مصر والاسكندرية » ، فقد تحدث فيه الواقدى عن حاطب بن أبى بلعتة ، سفير الرسول الكريم الى المقوقس ، حاكم مصر من قبل هرقل ، ووصف الواقدى الطريق الذى سلكه حاطب وحديثه مع المقوقس، وانفرد بذكر وجود ارمانوسة ابنة المقوقس فى بلبيس وقت هجوم عمرو بن العاص عليها ، وأفاض فى ذكر الدور الذى قامت به ارمانوسة ورجالها فى صد عمرو ، ولكنها مالبثت أن وقعت أسيرة فى أيدى المسلمين ومع ذلك فقد أعادها عمرو الى أبيها معززة مكرمة(٤) . وتحدث الواقدى كذلك عن فتح المسلمين لمدينة قيسارية وعن الصعوبات والمتاعب التى واجهتهم فى فتحها .

أما عن كتاب الواقدى « فتوح الشام » ، فقد امد الدراسة بمعلومات غزيرة ، وتفصيلات كثيرة غطت كل مرحلة من مراحل فتح المسلمين لبلاد الشام ، بداية من ارسال الخليفة ابى بكر كتبه الى المسلمين فى كافة أرجاء الجزيرة العربية يدعوهم لقتال البيزنطيين ، ثم القبائل العربية التى جاءته تسعى لقتال الروم من كل صوب وحدب ، وماتبع ذلك من اعداد

---

(١) الواقدى ، المغازى ، تحقيق الفريد كريمر ، كلكته ١٨٥٦م .

(٢) الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية ، قام بتصحيحه وطبعه هنريك ارند همفر ، ليدن ١٨٢٥م .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد ، صححه ووضع حواشيه وليم ناسوليس ، كلكته ١٨٥٤م .

(٤) انظر الفصل السادس .

الخليفة لاربعة جيوش كبرى ، وضع على رأسها أعظم قادة الاسلام ، ثم احتكاك هذه الجيوش بالبيزنطيين وهزيمتهم فى داثن على مقربة من غزة ، والاستعدادت التى اتخذها الامبراطور هرقل لقتال المسلمين بعد هزيمة جيوشه عند غزة • ودعوة الخليفة أبى بكر خالد لترك العراق، والاتجاه نحو الشام لمساعدة المسلمين فى قتال البيزنطيين وفتح بصرى ثم التجمع فى اجنادين ، وفتح دمشق الاول وكتاب أبى عبيدة لاهلها بالصلح، وعرض الواقدى كذلك لتجمع المسلمين فى اليرموك ، ولقاء خالد بطليعة الجيش البيزنطى من العرب المسيحيين وعلى رأسهم جبلة بن الايهم ، وهزيمة البيزنطيين فى اليرموك ومقتل قائدهم باهان ، وعودة المسلمين الى دمشق وفتحها ثانية • ثم تناول الواقدى بالتفصيل فتح المسلمين لباقى مدن الشام خاصة حمص وحماة وبعلبك وقنسرين وبيت المقدس وقيسارية(١) •

ومن كتب السيرة التى افادت الدراسة كتاب «سيرة ابن هشام»(٢) وابن هشام هو ابو محمد بن عبد الله بن هشام ، ولد بالبصرة وتلقى العلم فيها ورحل الى مصر وأقام بها ، وقام ابن هشام بجمع سيرة الرسول الكريم من المغازى والسير لابن اسحاق(٣) وهذبها ولخصها واشتهر بها • وتوفى ابن هشام بالفسطاط فى عام ٨٢٨/٢١٣م ، وقيل فى عام ٢١٨هـ/٨٣٤م (٤)•

أفادت الدراسة من سيرة ابن هشام عند الحديث عن سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل ، والى المقوقس ، والى الحارث

(١) انظر الفصل السادس •

(٢) ابن هشام ، السيرة ، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبدالرءوف، اربعة أجزاء القاهرة ١٩٧٤م •

(٣) لمزيد من التفاصيل عن ابن اسحق انظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جا ، ص ٦٨٩ — ٦٩٠ •

(٤) لمزيد من التفاصيل عن ابن هشام انظر ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جا ، ص ٤١١ — ٤١٢ • ابن هشام ، السيرة ، مقدمة المحقق ، ص م • على أدهم ، بعض مؤرخى الاسلام ، ص ١٤ •

الغسانى حيث أرسل رسله اليهم يدعوهم الى الاسلام ، وعرضت السيرة بالتفصيل لغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم للبيزنطيين ، فابرزت دور قادة الجيش الاسلامى فى غزوة مؤته ، وألقت الضوء على غزوة تبـــوك التى لم يحدث بها ثمة احتكاك بين الرسول وبين البيزنطيين ، كما تناولت السيرة بالحديث بعث أسامة بن زيد بن حارثة الى حدود الشام (١) ٠

ويعد كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد (٢) من المصادر الهامة التى أمدت البحث بمعلومات طيبة عن عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعن سفرائه الى هرقل والمقوقس ومعاركه مع البيزنطيين واحتكاكه بهم فى مؤتة وتبوك ، هذا فضلا عن أنه عرض لفتح خالد لدومة الجندل ومـــا ترتب على فتحها من نتائج (٣) ولا غرو فى ذلك فابن سعـــد كان أحـــد الفضلاء والنبلاء الاجلاء ، صحب الواقدى وكتب له فعرف به أى عرف بكاتب الواقدى ، واكتسب من الواقدى الكثير من المعرفة بالحوادث التاريخية والنقلية ، ووضع كتابه الطبقات الكبرى أو طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء حتى عصره أى حتى العام الذى توفى فيه وهو عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م ، وتوفى ببغداد (٤) ٠

اعتمدت الدراسة أيضا على كتاب « فتوح الشام » للازدى (٥) ، وهو ابو اسماعيل محمد عبد الله البصرى ، نبغ فى النصف الثانى من القرن

(١) انظر الفصل السادس .

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ثمانية مجلدات ، طبعة بيروت ١٩٥٧ — ١٩٦٠م

(٣) انظر الفصل السادس .

(٤) لمزيد من التفصيل عن ابن سعد أنظر :

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جا ص ٧٢٣ — ٧٢٤ ، على ادهم ، بعض مؤرخى الاسلام ، ص ٢٧ .

(٥) الاذرى ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٧٠م.

الثانى الهجرى وكان شيخا صدوقا وثقة ، ومات ببغداد فى سنة احدى وثلاثين ومائتين من الهجرة[١] .

وترجع أهمية كتاب« فتوح الشام » للازدى الى ما أورده من تفاصيل هامة عن فتوحات المسلمين فى بلاد الشام ، فذكر دعوة الخليفة أبى بكر للقبائل العربية فى شبه الجزيرة لقتال الروم ، فلبت هذه القبائل نداء الخليفة ودعوته وجاءته تسعى الى المدينة بقضها وقضيضها ، وتناول بالحديث خروج القادة المسلمين الاربعة من المدينة كل فى الطريق الذى حدده له الخليفة ، ثم اللقاء الاول مع سرجيوس حاكم فلسطين فى داثن على مقربة من غزه وهزيمته ، وعودة خالد من العراق واتجاهه الى الشام لتعزيز القوات الاسلامية بها ووصف الازدى الطريق الذى سلكه خالد ، ومساعدته لشرحبيل فى فتح بصرى ، ثم تولى خالد قيادة الجيش فى أجنادين ، وانتصار المسلمين بها وفتحهم مدينة دمشق ، ثم تركها للتجمع فى اليرموك ، وفصل الازدى الحديث عن معركة اليرموك ، والدور الذى قام به باهان قائد الجيش البيزنطى فى هذه المعركة ومحاولته التفاوض مع المسلمين ، وفشل تلك المحاولة ، والقتال الذى دار بين المسلمين والبيزنطيين ، وخطة خالد فى القتال ، وكيف شن المسلمون الهجوم على مشاة الروم فى خنادقهم ، فتركوا الخنادق واتجهوا نحو الواقوصة واخذوا يتساقطون بها الواحد تلو الآخر . وتحدث الازدى عن دور النساء فى هذه المعركة ، ثم عودة المسلمين الى دمشق بعد الانتصار فى اليرموك ، وفتحها ثانية وارسال كتاب الفتح والبشارة الى الخليفة عمر بن الخطاب من هناك ، ثم تناول بالحديث فتح باقى مدن الشام ، غير أنه لم يفصل لفتحها اللهم الا فتح بيت المقدس [٢] .

---

(١) عن الازدى انظر : مقدمة المحقق ، ص ك — ل .

(٢) انظر الفصل السادس .

وتعد رواية ابن عبد الحكم[١] عن الفتح الاسلامى لمصر ، وما ارتبط بهذا الفتح من الاخبار والسير من أهم مصادر البحث ، ذلك لان ابن عبد الحكم يعد أول من دون الرواية المحققة المسندة عن الفتح ، بل ويعد واضع الحجر الاول فى مصادر تاريخ مصر الاسلامية بروايته هذه . ولد ابن عبد الحكم بالفسطاط عام ١٨٧هـ/٨٠٣م ، وتوفى بها فى عام ٢٥٧ ٨٧١م[٢] .

تبدأ رواية ابن عبد الحكم بكتاب النبى الكريم الى « المقوقس » حاكم مصر من قبل الامبراطور هرقل ، ورد المقوقس على هذا الكتاب والهدايا التى بعثها للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يورد ابن عبد الحكم بعد ذلك تفاصيل فتح مصر ، فيذكر أسباب اختيار عمرو بن العاص للقيام بهذه المهمة ، ومعرفته بطرق مصر ومسالكها ، ثم خـروج عمرو ابن العاص للفتح ، ووصوله الى رفح ، وفتحه للعريش والفرما وأم دنين ، ثم حاجته الماسة الى طلب الامدادات من الخليفة ، الذى لبى نداءه على الفور ، وأرسل له المدد ، الذى ماكاد يصل الى عين شمس حتى هرع عمرو ورجاله للقائه ، وتحدث ابن عبد الحكم عن معركة عين شمس وتقدم المسلمين نحو حصن بابليون وحصارهم للحصن ، ثم المفاوضات التى دارت بين عمرو والمقوقس ، ورسل كل منهما للاخر ، ثم حصار المسلمين لحصن بابليون ، وفتحه وعقد صلح بابليون ثم الانطلاق نحو الاسكندرية لفتحها[٣] .

وكان أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى[٤] معاصرا لابن

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١م .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ابن عبد الحكم انظر : مقدمة المحقق، ص، حـ — ك . ومحمد عبد الله عنان ، مؤرخو مصر الاسلامية ، ص ٨ — ١١ .

(٣) انظر الفصل السادس .

(٤) وعن سبب تسميته بهذا الاسم يقال انه شرب فى آخر أيامه حب البلاذر فوسوس وشد فى المارستان ومات فيه ، ولذلك سمى بعد موتـه البلاذرى وقيل ان البلاذرى سمى بهذا الاسم لان جده كان ينعت بالبلاذرى ، انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، مقدمة المحقق ، ص ١١ .

عبد الحكم ووضع روايته عن الفتوحات الاسلامية فى نفس الوقت تقريبا الذى دون فيه ابن عبد الحكم روايته أو بعـــده بقليل • ويرجـــح أن البلاذرى ولد فى بغداد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، ومات فى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م(١) •

أمد كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى (٢) الدراسة بمعلومات طيبة عن فتح خالد بن الوليد لدومة الجندل ، ومجىء القبائل العربية القاطنة بين الشام والجزيرة الى الرسول الكريم معلنة الصلح ودفع الجزية ، وماكتبه لها الرسول صلى الله عليه وسلم من كتب عهد وآمان ، كذلك تحـــدث البلاذرى عن معركة داثن وهزيمة حاكم فلسطين من قبل هرقل ، ثم معركة أجنادين وفحل وبيسان ومرج الصفر ، وفتح المسلمين لمدينة دمشق وكتاب خالد بالآمان لاهلها ، ثم عرض البلاذرى لمعركة اليرموك ودور النساء فيها ، وخاصة دور هند بنت عتبة أم معاوية ثم وداع هرقل لبلاد الشام ، بعد هزيمة جنوده فى اليرموك ، ثم عرض البلاذرى لفتح باقى مدن الشام ، ولم يقتصر البلاذرى على فتوح الشام فحسب بل انتقل منها الى فتح المسلمين لمصر (٣) •

أفادت الدراسة كذلك من « تاريخ اليعقوبى » (٤) وهو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وكان مؤرخا ورحالة فى آن واحد ، اذ تنقل فى ديار الاسلام بحيث قضى سنوات طويلة فى أسفاره وعاد بعدها الى بغـــداد حيث توفى بها فى عام ٢٨٤هـ/٨٩٧م وتاريخ اليعقوبى مؤرخ حســـب الموضوعات ، وأفرد الجزء الثانى منه للتاريخ الاسلامى ، وهو الجزء الذى

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن البلاذرى ، انظر : مقدمة المحقق ، ص ٧ — ١١

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ثلاثة أجزاء ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ م •

(٣) انظـــر الفصل السادس •

(٤) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جزءان ، طبعة بيروت ١٩٦٠ م •

اعتمدت عليه الدراسة ، ورتبه حسب الخلفاء مع مراعاة تسلسل الحوادث على السنين [١] •

وانفرد اليعقوبى فى تاريخه بأن أورد نصا لرد هرقل على كتـــاب الرسول (ص) وعرض لحملة خالد بن سعيد على الشام ، ولمعركة آجنادين، وحصار بابليون وفتح مصر [٢] • وكذلك أورد اليعقوبى معلومات هامة عن علاقة الدولة البيزنطية بالفرس [٣] •

وأمد تاريخ الطبرى « الرسل والملوك » [٤] الدراسة بمادة علمية طيبة وغزيرة افادت منها الدراسة فى مراحل عديدة • والطبرى ينسب الى طبرستان اذ ولد ببلدة آمل — قصبة طبرستان الواقعة على الســـاحل الجنوبى من بحـــر طبرستان — فى عام (٢٢٤— ٢٢٥ ﻫ / ٨٣٨ — ٨٣٩ م) ورحل الى بغداد لتلقى العلم ثم أخذ يتنقل بين مراكز العلم فى المشرق الاسلامى سعيا وراء تحصيله ، فرحل الى الشام وأطال المقام فى بيروت ثم رحل الى مصر ، وعاد بعد ذلك الى بغداد حيث عاش بها بقية عمـــره ، وتوفى بها فى عام ٣١٠ﻫ/٩٢٣م [٥] •

وكتاب الرسل والملوك مرتب على السنين ، ويبدأ منذ الخليقة وينتهى عند سنة ٣٠٢ﻫ /٩١٤م ، ويعرض فيه الطبرى الروايات دون أن يفضل

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن اليعقوبى انظـــر :
السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون ، ص ٩٢ — ٩٣ .
نيقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ص ١٨ — ١٩ .

(٢) انظـــر الفصل السادس .

(٣) انظـــر الفصل الاول .

(٤) الطبرى ، الرسل والملوك ، الاجزاء من الثانى الى الرابع ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٦٨ — ١٩٧٧ م .

(٥) لمزيد من التفاصيل عن الطبرى انظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ، ص ٤٨٢ . ، السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون ص ٨٤ — ٨٥ ، على ادهم ، بعض مؤرخى الاسلام ، ص ٣٠ — ٣٧ .

احداها على الاخرى فيقف بذلك موقفا حياديا ، واعتمد الطبرى فى روايته على الاسناد ولعل ذلك يرجع الى وفرة مصادره ، لذلك يعد الطبرى بحق عمدة المؤرخين العـــرب .

عرض الطبرى فى تاريخه لجانب من علاقة الدولة البيزنطية بالفرس فى عهد هرقل [1] كذلك تناول بالحديث خطاب الرسول الكريم الى هرقل ، وحديث هرقل مع أبى سفيان عن النبى ، كما عرض للروايات التى تحكم باسلام هـــرقل دون أن يقطع برأى فيها ، كذلك تحدث عن مؤتة وتبوك ، وحملة أسامة الى حدود الشام ، وحملة خالد بن ســـعيد ، كما أهتـــم بالفتوحات الاسلامية فى الشام ، ومعارك المسلمين الشهيرة ضد الـــروم وخاصة أجنادين واليرموك ، وعرض الطبرى كذلك لفتح بيت المقدس ومحاولة البيزنطيين استعادة بلاد الشام مرة أخرى وفشلهم فى ذلك ، كما عـــرض لمؤتمر الجابية الذى قرر فتح مصر ، ثم فتح مصر وكتاب عمرو بن العاص بالامان لاهلها بعد توقيع « صلح بابليون » ثم فتح الاسكندرية [2] .

وفى ختام هذه المقدمة لايسعنى الا أن أتوجه بالشكر الخالص والتقدير العميق لاستاذى الفاضل الاستاذ الدكتور محمد محمد أمين أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة الذى أشرف على هذه الدراسة ، لـــا قدمه لى من نصح وارشاد طيلة مراحل البحث كما لا يفوتنى أن أتقدم بالشكر الى كل من الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة ، والاستاذ الدكتور رأفت عبد الحميـــد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب عين شمس ولنيافة الاب منصور مستريح بمعهد الفرنسيسكان للدراسات الشرقية ، لما قدموه لى من عون ، فجزاهم الله عنى خير الجزاء وأحسنه .

والله ولى التوفيق ،،

القاهرة فى أول رمضان ١٤٠٥ هـ ٢١ مايو سنة ١٩٨٥ .

---

(١) انظـــر الفصل الاول .

(٢) انظـــر الفصل السادس .

الفصل الأول

اعتلاء هرقل عرش الدولة البيزنطية ٦١٠ م

— الدولة البيزنطية قبيل اعتلاء هرقل العرش ٠

— الأخطار الخارجية التى واجهت الامبراطورية ٠

— الأحوال الداخلية ٠

— سقوط فوقاس واعلان هرقل امبراطورا ٠

— المصاعب التى واجهت هرقل فور اعتلائه العرش ٠

الدولة البيزنطية قبيل اعتلاء هرقل العرش :

قام الجيش البيزنطى المرابط بالقرب من الدانوب فى خريف عـــام ٦٠٢ م بحركة تمرد وعصيان عسكرى ضد الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) ،وترجع أسباب هذا التمرد الى الطريقة السيئة التى كان موريس يعامل بهـــا جيشه ، فقد كان غير محبوب من رجال الجيش ولم ينل احترامهم،وخاصة بعد أن رفع هؤلاء شكواهم اليه بشأن رواتبهم المتأخرة دون أن يجدوا منه آدانا صاغية ، مما أدى الى عـــدم ارتياحهـــم له ، واستيائهم منه ، يضاف الى ذلك كراهية الناس لموريس بسبب عجزه الظاهر عن ايقاف مد الغزو السلافى ، وزادت تلك الكراهية بسبب رفضه لطلب خاقان الافار بدفع فدية خمسة عشر ألف أسير لقاء اطلاق سراحهم فما كان من خاقان الافار الا أن قتل هؤلاء الاسرى ، على أن رفض موريس تلبية طلب خاقان الافار بدفع الفدية كان يرجع الى أن خزانته كـــانت خـــاوية [1] .

واختـــار قادة التمرد قائدا من بينهم يـــدعى فوقاس Phocas ليكون امبراطور بدلا من موريس ، وزحفوا الى القسطنطينية ، التى استنكر أهلها تكاليف الحـــرب وشدائدها ، وبدأ موريس يشعر بالقلق خاصة أنه لا تتوافر لديه وسائل للدفاع ، كما كان يساوره الشك فى أن ابنه ثيودوسيوس Theodosus وصـــهره جيرمانـــوس Germanus يحاولان انزاله من فوق العرش وانتزاعه منـــه ، واحس جيرمانـــوس Germanus بأن الامبراطور يشك فيه ، ولذلك حاول الالتجاء الى كنيسة آيـــا صـــوفيا فمنعه موريس من ذلك ، وعندئذ ثار شعب القسطنطينية هذه المرة من أجل جيرمانوس ، وأيد حركة التمرد التى قام بهـــا ضباط

---

(١) Chronique de Jean, Evêque de Nikiou, (trans - by Zotenberg) P. 417., Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 55.

وانظـــر أيضا : ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٩١ .
Diehl, le monde Oriental, P. 138.

اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩٨ — ٩٩ .

الجيش وجنوده ضد موريس وراح الشعب يلعن الامبراطور مـوريس ويسبه (١) •

واسفرت حركة التمرد التى اشترك فيها الجيش والشعب معا على نزول موريس عن العرش ، بل واضطر الى مغادرة القصر الامبراطورى، والفرار بزوجته وأولاده على ظهـر سفينة حملها بكنوزه ، وسار بها عبر البوسفور على أمل أن يجد له مأوى وملجأ فى الولايات الاسيويةالتى كانت أقل كراهية له • وبعد فرار الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) اجتمع شعب القسطنطينية الى البطريرك ، وتم تتويج فوقاس Phocas امبراطورا فى كنيسة القديس يوحنا المعمدان فى ٢٣ نوفمبر عـام ٦٠٢م وذلك بموافقة من السناتو وشعب العاصمة ، أما جيرمانوس صهـر ثيودوسيوس Theodosus ابن موريس فقد خضع للامبراطور الجديد فوقاس بعد أن كان يأمل أن يجمع السلطة فى يديه (٢) •

وما ان اعتلى فوقاس عرش الامبراطورية حتى سعى للتخلص من الامبراطور السابق موريس ومن أبنائه ، فأصدر أوامره الى الضباط والقادة بمطاردة موريس وتعقبه ، وكانت عاصفة قد قلبت سفينته فاتجه الى جزيرة صغيرة بالقرب من خلقدونيـة — على الشاطىء المقـابل للقسطنطينية — وعندما علم قادة فوقاس بمكانه تعقبوه ، وبأمر مـن فوقاس قتلوه مع خمسة من أبنائه فى ٢٧ نوفمبر ٦٠٢م ، وجردوا زوجته الامبراطورة قسطنطينا Constantina ولبنتيها وزوجة ابنها ثيودوسيوس من ملابسهن الملكية ، والبسوهن ملابس الخدم والعبيد ، ووضعوهن فى دير للراهبات (٣) •

(١) Chronique de Jean, P. 418, Sébeos, Histoire, P. 55., Diehl, le monde, PP. 138-39.

(٢) Chronique de Jean, P. 418, Sébeos, P. 55.
مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٥٠ .

(٣) Chronique de Jean, P. 419.
وانظر ايضا . عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى =

وكان على فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) أن يتحمل نتيجة ماقام به من أعمال القتل والابادة للامبراطور السابق موريس ولافراد اسرته ، خاصة أن أحد ابناء موريس وهو ثيودوسيوس Theodosus نجا من القتل، والتجأ الى كسرى الثانى ابرويز ملك فارس(١) ، مستجيرا به وطالبـا مساعدته ، فأجاره كسرى ، ووعده بالمساعدة فى استرداد عرش أبيه المغتصب ، بل ان كسرى عندما علم بمقتل صديقه الشخصى وصـهره الامبراطور موريس ، شعر بحزن شديد وبكا ولبس السواد وأمر كبار رجاله بارتداء السواد كذلك(٢) .

وشرح كسرى لرجاله الدور العظيم الذى قام به الامبراطور موريس معه أيام محنته ، فعندما اعتلى كسرى عرش فارس عام ٥٩٠ ، تمرد عليه احد قادة فارس ويدعى بهرام شوبين Bahram chubin ، وشن عليه هجوما ليلا ، أجبره على أن يلوذ بالفرار ، ولعجزه عن الدفاع عن عاصمته طيسفون Ctesiphon (المدائن) اتجه نحو الفرات ، فتعقبته قوات بهرام غير انه نجح فى الافلات منها ، ووصل الى حدود الدولة البيزنطية ، وهناك عامله البيزنطيون معاملة حسنة ، وأقام كسرى فى هيروبوليس Hieropolis (منبج) ومنها كتب(٣) الى الامبراطـور

= ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٥٠ — ١٥١ .
Chronicon Anonymum, (ed) Guidi, in C.S. C.O. T., IV, PP. 18-19.

(١) كسرى الثانى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) ابن هرمز وحفيد كسرى انوشروان وعـرف بأبرويز لانه بلغ من النصر والظفر وجمع الاموال والكنوز مالم يتهيأ أو يتيسر الملك اكثر منه، ولذلك سمى ابرويز وتفسيره بالعربية المظفر.

Goubert, «Les rapports de **Khosrau II roi des** rois, Sassanides avec l'empereur Maurice» dans Byzantion (1949) P. 49.

(٢) Bar Hebraeus, The Chronography, First Part, P. 86.

Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 55 Chronicon Anonymum in C.S.C. O. T. IV, PP. 18-19, Michel le syrien (éd) Chabot, T. II, P. 377.

Histoire de Nestorienne (éd) Addai Scher et Robert Griveau, Seconde Partie in P. O., T. XIII, PP. 449, 519-520.

(٣) عن نص كتاب كسرى الى موريس انظـر : ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٩٠ ،

Goubert, Byzance avant l'Islam, I. PP. 134-36.

موريس طالبا مساعدته وعونه فى استرداد عرشه وعرش ابائه واسلافه الذى اغتصبه بهرام شوبين(١) •

ورحب الامبراطور موريس بكسرى ، وبعث اليه بصهره فيليبكوس Philipicus حاملا رده على طلب كسرى بالموافقة على مساعدته فى استرداد عرشه ، واعتبره فى حمايته الى أن يعود الى عرش فارس(٢)•

ثم أرسل له الجيش الامبراطورى وعلى رأسه القائد نارسيس Narses والبطريق يوحنا Jean لمساعدته فى استعادة ملكه ، وذلك رغم معارضة السناتو (مجلس الشيوخ) الذى كان يرتاب فى أمــر الفرس ولا يطمئن اليهم(٣) • وفى عام ٥٩١م عبر كسرى ابرويز نهر دجلة وهزم بهرام شوبين ، واسترد عرشه بفضل مساعدة الجيش البيزنطى الذى ارسله له الامبراطور موريس(٤) • وأرسل كسرى الى موريس

---

(١) Goubert, Les rapports de Khosrau II, roi de rois Sassanides avec l'empereur Maurice, PP. 81-87, Chronique de Seert, T. XII, in P.O., PP. 465-66.

وانظــر أيضا : الطبرى ، الرسل ، جـ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) عن نص كتاب موريس الى كسرى انظــر :

ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٩٠ — ٩١ .

(٣) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 15.

ويذكر كل من الطبرى واليعقوبى أن موريس بعث الى كسرى باخيه ثياذوس ومعه ستون الف مقاتل عليهم رجل يقال له سرجس ورجل آخــر كانت قوته تعادل قوة الف رجل انظــر :

الطبرى ، الرسل ، جـ٢ ، ص ١٨٠ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ١ ، ص ١٦٨ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن قتال كسرى وبهرام انظــر :

Sébeos, Histoire, PP. 22-23., Chronique de Seert, Second Partie, in P. O , T. XIII, PP. 465-66.

الطبرى ، الرسل ، جـ٢ ، ص ١٨٠ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ١ ص ١٦٨ — ١٦٩ . حسن بيرنيا ، تاريخ ايران القديم ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ . Sykes, History of Persia, PP. 478-80.

الهدايا ، وتزوج من ابنته مريم أو ماريا Marie التى بعث معها موريس من الجهاز والامتعة والاقمشة ما يضيق عنه الحصر(١) •

وكان على كسرى ان يرد جميل موريس عليه ، وأن يطلب بثأره وينصر ابنه ، ولهذا عزم على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية وانهاء العلاقات الودية معها • ولكن يجب على الباحث ان يضع فى الاعتبار ان هنـــاك اسبابا اخرى دفعت كسرى الى مهاجمة الاراضى البيزنطية ، من بينها ذلك العداء القديم بين الفرس والبيزنطيين ، والرغبة فى السيطرة على طريق تجارة الحرير تلك التجارة المربحة هذا فضلا عما كان هناك من خلاف بين فارس وبيزنطه حول مناطق الحدود • على اية حال يذكـــر الاسقف يوحنا النقيوسى فى تاريخه ان فوقاس حاول ان يمتص غضب كسرى ابرويز ، فأرسل — فور اعتلائه العرش — السفراء والرســـل الى كسرى ، ولكن كسرى رفض استقبالهم ، واظهر استياءه وغضبه الشديد لمقتل موريس(٢) •

هذا فى حين جاء فى الحوليات الفصحية • Chronicon Paschale أن فوقاس لم يكتف بقتل موريس وأفراد أسرته وكبار رجال الدولة ، بل انه لم يؤد لكسرى الاحترام الواجب ، مما دفعه الى الهجوم عــــلى الامبراطورية(٣) •

ويبدو أن كسرى حاول فى بداية الامر اتباع سياسة اللين تجـــاه البيزنطيين على أمل ان يطيعوه ويخلعوا فوقاس ، ويعيدوا ثيودوسيوس ابن موريس الى العرش ، ولذلك أرسل اليهم رسولا من لدنه ، غير أنهم

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هـــذا الزواج انظــر : الطبرى ، الرسل ج٢ ، ص ١٧٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٢ ، ص ٢٢٠ .

Goubert, **Les Rapports de Khosrau** II, PP. 91-97., Goubert, Byzance Avant l'Islam, T. I, PP. 179-182.

(٢) Chronique de Jean, Evéque de Nikiou, P. 419.

(٣) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 707.

قبضوا على الرسول ، وأرسلوه مقيدا بالاغلال الى بلادهم ، وعندما سمع كسرى بذلك قرر مهاجمة الاراضى البيزنطية (١) •

وبعد أن استشار كسرى رجاله ، اختار لقيادة جيشه رجلا شجاعا فظا يدعى رومزان Romizan وحثه على مهاجمة البيزنطيين بلا رحمة أو رأفة ، وأطلق عليه اسم شهر باراز Sahrabaraz (٢) •

خرج شهرباراز مع ثيودوسيوس — ابن موريس — على رأس الجيش حتى وصلا الى قرب مدينة دارا Dara (٦٠٣م)(٣) ، انتظارا لوصول كسرى الذى وصل بعد أيام ، وقرر تقسيم جيشه الى قسمين ، وأبقى القسم الاول لحصار دارا ، وسار مع القسم الثانى بنفسه الى الرها • وفى تلك الاثنـــاء كان القائد البيزنطى نارسيس Narses الذى تولى أمر ميسوبوتاميا Mesoptamie (مابين النهرين) — قد أعلن تمرده على الامبراطور فوقاس ودخل بجيشه مدينة الرها واستولى عليها، لذلك أرسل له فوقاس جيشا بقيادة جيرمان Germain الذى نجح فى حصار مدينة الرها ، وأخرج نارسيس منها ، بل وأسره وأرسله الى القسطنطينية (٤) •

وكان على كسرى أن يهاجم الجيش البيزنطى ، الذى تولى قيادته جيرمان والذى نجح فى اخراج نارسيس من الرها ، فتصدى كسرى لهذا الجيش وقتل عددا كبيرامن رجاله فى حين فر الباقون ،وفتحت مدينة الرها

---

(١) Chronique de Seert, Seconde Partie, in P.O., T.XIII, PP. 500-501.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظـــر :
Michel le Syrien, T. II, PP. 377-78.

(٣) دارا : مدينة حصينة بناها اناستاسيوس Anastasios (٤٩١ — ٥١٨ م) لحماية الحدود البيزنطية من هجمات الفرس ، وكانت تسمى أصلا مدينة اناستاسيوس Anastasioupolis
انظـــر : Stratos, Byzantium In the Seventh Century. P. 395.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظـــر :
Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 56-57.

أبوابها لكسرى ، الذى مالبث أن عاد الى مدينة دارا ، وظل محاصرا لها مع قائده شهر باراز لما يقرب من عام ونصف (١) الى أن ضاقت المدينة بالحصار ذرعا ، فاستسلمت لكسرى وفتحت أبوابها له ، ثم عاد كسرى بجيشه الى عاصمته طيسفون Ctesiphon (المدائن) محملا بالاسلاب (٢) •

أما فيما يتعلق بالمصير الذى آل اليه ثيودوسيوس — ابن الامبراطور موريس — والذى كان يصاحب الجيوش الفارسية ، فان اليعقوبى يذكر أنه قتل ، هذا فى حين جاء فى التاريخ النسطورى أنه سم ومات (٣) • على انه لم يرد فى المصادر تفصيل حول هذا المصير الذى انتهى اليــه ثيودوسيوس •

ولم يكتف كسرى بالاستيلاء على مدينتى الرها ودارا بل وجــه ضربات للبيزنطيين فى أرمينية ، اذ شن عليها هجمات متتالية فى الفترة من (٦٠٣ — ٦٠٨م) عهد بها الى قادته المرموقين ومن بينهم دجوان فاه Djouan-veh أو دجوفان فاه Djovan Veh والقائد داتويان Datoyean واتخذت هذه الهجمات شكل الاغارات المدمرة المخــربة، وأسفرت عن وقوع الجزء الاكبر من أرمينية البيزنطية فى يد الفرس (٤) •

وتابع كسرى سلسلة هجماته على الاراضى البيزنطية ، فأرسل قائده شهر باراز ثانية (٦٠٦م) لمهاجمتها ، فدخل شهرباراز بلاد مابين النهرين،

---

(١) جــاء فى التاريخ النسطورى ان كسرى أقــام على حصــار دارا سبعة أشهــر الى ان فتحهــا ، هذا فى حين ذكر المؤرخ Sir Persy ان حصــار دارا دام تســعة أشــهر . على أن رأى سيبيوس Sébeos هو العمدة لانه من مؤرخى القرن السابع المعاصرين للحوادث . انظــر :
Chronique de Seert, Seconde Parie, in P.O., T. XIII, P. 520., Sir Persy, History of Persia, P. 480.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 56-57.

(٣) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جا ص ١٧١ .
Chronique de Seert, P. 520.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظــر : Sébeos, Histoire, PP. 56-60.
Grousset, Histoire de l'Armnie, PP. 269-71.

وحاصر آمد (ديار بكر) واكتسح فى العام التالى (٦٠٧م) ســوريا وفلسطين (١) •

وعاث الفرس بولايات آسيا الصغرى فسادا ، وأصبح كسرى سيدا على قيصرية — فى قبادوقيا Cappadocia ، ووصل الجيش الفارسى حتى أبواب خلقدونية التى تشرف على البوسفور على مــرأى مــن القسطنطينية ، واستطاع أهل القسطنطينية أن يروا القرى محترقة على الشاطىء الاسيوى ، وكان هذا منظرا جديدا عليهم ومخيفا لهم ، لانهم لم يعتادوا من قبل أن يروا عدوا لهم على الشاطىء المقابل لمدينتهم (٢) •

وعلى هذا النحو أخذ الفرس يعيثون فسادا فى الاراضى البيزنطية دون عمل أدنى حساب للبيزنطيين ولا لامبراطورهم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) الذى لم يتوفر له من الامكانيات ما يستطيع به الدفاع عــــن الامبراطورية ، حقيقة أنه هب من غفلته ، وأعد جيشا ، وعهد بقيادته الى رجل من خواصه وأرسله لقتال كسرى ، ولكنه لم يجن سوى الهزيمة، ولذلك « عدل فوقاس عن مقاومة الفرس » (٣) هذا ولم يهدأ تيار الزحف الفارسى على الدولة البيزنطيـــة واستمر حتى بعد أن ارتقى هــرقل العرش (٤) •

وعانت الامبراطورية فى ذلك الوقت من تكرار اغارات قبائل السلاف والآفار (٥) على جهات البلقان ، وكان تدفق هؤلاء فى عهد فوقاس (٦٠٢

(١) Chronicon Anonymum, in C.S.C.O., T. IV, P. 22, Patkanian, «Essai d'une histoire de la dynastie de Sassanides», dans Journal Asiatique (1866) T. VII, PP. 197-98, 211.

(٢) Patkanian, Essai d'une histore de la dynastie des Sassanides, P. 198. Sir Persy, History of Persia, PP. 480-81., Baynes, «The Sucessors of Justinian» in Cam. Med. Hist., Vol. II P. 285.

أومان ، الامبراطورية ، ص ١٠١ .

(٣) Chronique de Seert, in P.O., T. XIII, P. 526.

(٤) انظــر ما يلى فى الفصل الرابع .

(٥) بدات هذه القبائل تظهــر فى أوائل القرن السادس الميــلادى =

— ٦١٠م) على شبه جزيرة البلقان أشبه بفيضان لايقاوم ، وراحت أعداد هائلة منهم تحاول التغلغل فى جنوب البلقان مصطحبين معهم عائلاتهم وامتعتهم وماشيتهم • واستغل هؤلاء وضع الامبراطورية

=

وتقدمت فى منطقة الدانوب ، ويلتزم المؤرخون البيزنطيون الصمت حول عدة نقاط من بينها من اين جاء هؤلاء السلاف والآفار ؟ وكيف يمكن تفسير ظهورهم المفاجىء واعدادهم الكبيرة ، ويبدو أن صمت المؤرخين هذا ساهم فى ميلاد النظرية التى تقول بأن السلاف هم سكان البلاد الاصليين وهذا يعنى أن موطن السلاف الاصلى هو البلقان ، وظل معمولا بهذه النظرية حتى القرن التاسع عشر . أما فى الوقت الحاضر فمن المعروف ان الموطن الاصلى للسلاف هو شمال جبال الكربات Carpathes الى الغرب من روسيا الحالية . ثم تقدم السلاف من جبال الكربات حتى الدانوب ، ثم أخذوا فى التوسع . وتعد اقامة السلاف على الحدود البيزنطية خطوة أولى لتقدمهم نحو الجنوب هذا وتدفق السلاف فى البلقان على مراحل . لمزيد من التفاصيل انظر :

Dvornik, Les Slaves, P. 1-5, Stratos, Byzantium, P. 319, Charanis, «Ethnic Changes in the Byzantine Empire in the seventh Century» in Dumbarton Oaks papers (1959), P. 37.

أما عن الآفار فيرى جروسيه Grousset اننا يجب أن نميز بين الافار الحقيقيين وبين من سموا خطأ بالافار فالاول من سلالة المغول ونتجوا عن تفكك امبراطورية المغول فى القرن الخامس ، وظلوا سادة منغوليا خلال هذا القرن كله قبل أن يسحقهم الترك فى عام ٥٥٢م . أما الافار المزيفون فيتكونون من قبلتين ويبدو أن احداهما تنحدر من الترك الشرقيين ، أما الاخرى وتمثل آفار أوربا فكانت من المغول . هذا واسس الافار امبراطورية كبيرة فى أوربا الشرقية فى منتصف القرن السادس ومدوا نشاطهم حتى الالب ، واندفعوا نحو الدنواب وأقاموا فى بانونيا Pannonie بعد أن تركها حلفاؤهم من اللمبارديين . وهكذا أصبحوا جيرانا مباشرين للامبراطورية البيزنطية ، وأمتد نفوذهم الى الدينبر Dnieper والى بحر البلطيق واصبح خانهم بايان Baian جارا يصعب على البيزنطيين ارضاءه . هذا واكدت الاتفاقية التى عقدها الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م)مع الآفار فى عام (٦٠٠ — ٦٠١ م) أن الدانوب هو الحد الفاصل بين الدولة البيزنطية وبين الافار والسلاف .

لمزيد من التفاصيل انظر :

Grousset, L'empire des Steppes, P. 226, 29. Diehl, le monde Oriental, P. 131, 33, Charanis, Ethnic Changes, P. 37. Stratos, Byzantium, P. 319, Dvornik, les slaves, PP. 4-5.

الحرج وتقدم كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨م) فى آسيا الصغرى — والذى كان من الضرورى معه نقل القوات التى على الحدود الشمالية والشمالية الغربية لتقف فى وجه الفرس ، والتخلى بذلك عن حماية البلقان ، وبهذا أصبحت الابواب مفتوحة أمام السلاف ، ولهذا تتابعت اغاراتهم على معظم جهات البلقان ، وحاولوا قدر جهودهم أن يستوطنوا فيها ، فانقضوا على ايستريا Istrie ودالماشيا Dalmatia واليريا Illyria ومؤزيا Mœsia ومن ثم تحولت شبه جزيرة البلقان الى عدد من المدن السلافية(١) • وعلى هذا فان استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان حدث خلال حكم الامبراطور فوقاس (٦٠٢— ٦١٠م) ثم فى السنوات الاولى من حكم الامبراطور هرقل (٢) •

الاحوال الداخلية :

واذا كانت الامبراطورية قد تعرضت لاخطار خارجية فى بداية حكم فوقاس ممثلة فى خطر الفرس فى الشرق ، والآفار والسلاف من الشمال فانها لم تنج من الثورات الداخلية والفتن والمؤامرات التى كانت تحاك لفوقاس نفسه ، والتى أدت الى احداث نوع من الارتباك الداخلى فى الامبراطورية •

حقيقة أن فوقاس اعتلى عرش الامبراطورية بموافقة السناتو وبتأييد من الشعب وبعض ضباط الجيش ، الا ان الطبقة الارستقراطية وما كانت تشغله من مناصب مدنية وعسكرية كبيرة ، وكذلك الاحزاب السياسية كانوا ضده ، ولذلك لم تدم الهتافات طويلا لفوقاس خاصة فى القسطنطينية وتعرض فوقاس للمؤامرة تلو المؤامرة ، وكانت أولى هذه المؤامرات من جانب قسطنطينا Constantina أرملة الامبراطور السابق موريس

---

(1) Dvornik, Les Slaves, P. 5., Ostrogorsky, «The Byzantine Empire in The world of the seventh Centrury» in Dumbarton Oaks papers (1959), P. 4., Stratos Byzantium, P. 118, 319-20.

(٢) انظر مايلى فى الفصل الخامس

(٥٨٢ — ٦٠٢م) — والتى أنقذت هى وبناتها الثلاث من مذبحة العائلة الامبراطورية — فقد وحدت قسطنطينا وجيرمانوس Germanus صهر ابنها ثيودوسيوس Theodosus جهودهما لقلب نظام حكم فوقاس والانتقـام منه وتحـدد الحوليات الفصحيـة Chronicon Paschale عام ٦٠٣م لحدوث المؤامرة ، ويذكر أنه فى هذا العام وضعت الامبراطورة قسطنطينا فى أحد الاديرة ، وأصبح كل من القائد فيليبيكوس Philippicus — — وكان من كبار القادة تحت حكم موريس — وجيرمانوس ، صـهر ثيودوسيوس ، راهبين(١) .

ويؤرخ ثيوفانيس Theophanis لهذه الحوادث فى عام ٦٠٩٨ من بدء الخليقة أى ٦٠٥ — ٦٠٦ م فيقول : حدث فى هذا العام أن صحب أحد الخصـيان الامبراطورة قسطنطينا فى منتصف الليل مع بناتهـا الثلاث وساعدها فى الالتجـاء الى الكنيسـة الكبـيرة أى كنيسـة آيا صوفيا وذلك بمساعدة البطريق جيرمانوس Germanus وبناء على نصيحته اذا كان يسعى للاستيلاء على العـرش . وما لبث أن حـدثت فتنة كبيرة فى المدينة ، واجتمع الخضر فى ممر فى نهاية الملعب يعرف باسم Cochlia — الذى كان يمر منه فوقاس ليصل الى مقعـده فى الملعب — يلعنون قسطنطينا ويند‌دون بها لأنها تحالفت مع عدوهم اللدود جيرمانوس (٢) . وعزم فوقاس على التخلص منها ومن بنات موريس ،

---

(١) Chronicon Paschale, Vol. I, In C.S.H.B , P. 695.

(٢) كان جيرمانوس من الطبقة الارستقراطية ، وكان يحابى حـزب الزرق ويرتبط به ارتباطا وثيقا ، ويؤيده وينصره وكان هذا أمرا طبيعيا لانه ارستقراطى ، وهذا الحزب يمثل الطبقات العليا فى المجتمـع البيزنطى لذلك حاول جيرمانوس مرارا أن يحصل على تأييد الخضر الموالين لفوقاس عـلى امل ان يصل بهذا التأييد الى العرش ، الذى كان يصبوا اليه ، ولذلك بعث الى قائد الخضر برسالة يعده فيها بنصرة حزبه لو ساعده فى الوصول الى العرش ، فمـا كـان منه الا أن عرض هذه الرسالة على حزبه ، غير أنها قوبلت بالرفض من جانب الخضر الذين كانـوا يعلمون علم اليقين مدى علاقة جيرمانوس بخصومهم من الزرق ومـدى ميله اليهم . انظر :

Janssens, «Les Bleus et les Verts sous Maurice, Phocas et Heraclius» dans Byzantion (1936), P. 508.

فأرسل رجاله الى الكنيسة لاخراج قسطنطينا وبناتها بالقوة ، ولكن البطريرك كيرياكوس Cyriacus اعترض على اخراجهن بالقوة من الكنيسة ، وبعد أن أقسم فوقاس الا يتعرض لهن بسوء ، خرجن من الكنيسة المقدسة ، وحبسن فى الدير ، وأجبر فوقاس جيرمانوس على أن يترهبن واحتفظ به فى قصره الخاص ، أما فيليبكوس Philippicus فقد أصبح راهبا وقسا للدير الذى أسســه فى مدينــة خريسوبوليس Chrysopolis (١) .

ومن المرجح أن هذه الحوادث وقعت فى عام (٦٠٣م) وليس فى عام ٦٠٥ — ٦٠٦م الذى ذكره ثيوفانيس Theophanis وذلك طبقا للحوليــات الفصــحية Chronicon Paschale ولعل ما يؤكد صحة ذلك التاريخ الذى اوردته الحوليات الفصحية،تلك الرواية التى ذكرها مؤرخ آخر معاصر وهو الأسقف يوحنا النقيوسى الذى ما ان ذكــر تخلص فوقاس من موريس وأبنائه فى نوفمبر عام ٦٠٢م حتى ذكر لنــا المصير الذى آلت اليــه قسطنطينا وبناتها وأنه تــم القبض عليهن ، وتجريدهن من ملابسهن الملكية ، والباسهن ملابس الخدم ، ثم وضعهن فى دير للراهبات . (٢) يضاف الى ذلك أن فوقاس لم يكن لينتظر طويلا ليتخلص من قسطنطينا وجيرمانوس وهو يدرك جيدا ما يشــكلانه من خطر على حكمه (٣) .

واذا كان يوحنا النقيوسى لم يذكر شيئا يتعلق بالقائد فيليبكوس وجيرمانوس فانه يذكر لنا أخبار مؤامرة أخرى قام بها أحد البطــارقة وهو الكسندر Alexander ، وكان محبوبا من جميــع سكان القسطنطينية ، وأن الكسندر كان يعمل على قتل فوقاس ليحــل محله فى الحكم . غير أن فوقاس كشف المؤامرة ، وأمر بنفى الكســندر

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 453. و Janssens, les Bleus, PP. 517-18.

(٢) انظر ما سبق ص ٤١ .

(٣) Janssens, Les Bleus, P. 518.

وبعض خصيانه ، وكبلهم بالأغلال وأرسلهم الى الاسكندرية لوضعهم فى السجن هناك • وبعد فترة أرسل فوقاس الى حاكم الاسكندرية ويدعى جوستيناس Justinas ، وأمره بقطع رأس الكسندر وزملائه (١) •

ويبدو أن هناك مؤامرة ثالثة حيكت ضد فوقاس ، وقام بها موظفو البلاط وعلى رأسهم ثيودوروس Theordorus والى الشرق ، الذى كان يأمل أن يعلن امبراطورا • ويبدو كذلك أن قسطنطينا وبناتها اشتركن فى هذه المؤامرة (٢) • ولهذا أمر فوقاس بقتل قسطنطينا وبناتها الثلاث ، حتى لا يمكن أن تستغل أسماؤهن بعد ذلك فى تدبير مؤامرة أخرى ضده ، وتم ذلك فى ٧ يونيه عام ٦٠٥م • كما تخلص كذلك من ثيودوروس رأس المؤامرة وممن اشتركوا معه فى القيام بها • وهكذا استطاع فوقاس أن يحافظ على عرشه وأن يعاقب المتآمرين ضده بقسوة وعنف (٣) •

وعامل فوقاس الاحزاب السياسية (٤) معاملة سيئة جعلته يفقد

---

(١) Chronique de Jean, Évêque de Nikiou, P. 419.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 453.,
Baynes, The sucessors of Justinian, P. 286.,
Bréhier, vie et Mort de Byzance, P. 48.

(٣) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٠ •
Stratos, Byzantium P. 72.

(٤) كان يقع بقلب القسطنطينية ميدان لسباق الخيل Hippdrome يهرع اليه سكانها لمشاهدة سباق العربات والخيول ، وكان المتسابقون يرتدون أثوابا اتخذت الوانا مختلفة من بينها الاخضر والازرق والابيض والاحمر ، وانقسم النظارة من سكان العاصمة الى احزاب رياضية اتخذت أسماء الالوان التى اختص بها المتسابقون ، واندمجت هذه الاحزاب الاربعة منذ القرن الخامس لتكون حزبين كبيرين هما حزب الزرق Veneta وحزب الخضر Prasina وسرعان ما تحولت احزاب الملعب هذه الى احزاب سياسية نصبت نفسها للدفاع عن الشعب ، واشتهرت بنزاعاتها المختلفة سواء كانت سياسية أم دينية وارتبطت هذه الاحزاب بمصالح الطبقات المختلفة ، فكان الزرق يمثلون الطبقة العليا الارستقراطية
=

شيئا فشيئا التأييد الشعبى له ، فتارة كان يحابى الخضر ثم يعاملهم معاملة سيئة ويحابى الزرق ، وتارة أخرى يعامل كلا الحزبين معـاملة سيئة • وتبدأ علاقة فوقاس بالأحزاب منـذ اللحظة الأولى لدخـوله القسطنطينية على أثر التمرد الذى تزعمه للاطاحة بالامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) فقد ذهبت جماعة من الخضر للقاء فوقاس ، وفتحوا له أبواب المدينة ، كما استقبلوه داخلها وادخلوه الملعب ، ويرجع ذلك الى أن الخضر آثروا جانب فوقاس على جانب جيرمانوس Germanus صهر ثيودوسيوس Theodosus ابن الامبراطور مـوريس — والذى حاول الحصول على تأييدهم للوصول الى العرش • والحقيقة أن ما دفعهم الى الاخلاص لفوقاس هو كراهيتهم الشديدة لجيرمانـوس هذا ، وذلك لعلمهم بارتباطه الوثيق بخصومهم الزرق ، وحتى يضيعوا عليه أمل الوصول الى العرش أيدوا فوقاس ، وراحوا يهتفون له بحماس شديد • (١) ومن ثم فان ارتباط الخضر بفوقاس كان وقتيا وكان لغرض فى نفوسهم ، وكان الزرق يفهمون ذلك جيـدا لذلك حاولوا من جانبهم أن يوحوا لفوقاس بأن الخضر كانوا الحزب المفضل لدى الامبراطور السابق موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) ، وسـوف ينتهى بهم الأمـر الى حاميهم القديم لارتباطهم به ، وأخذ الزرق يحذرون فوقاس من الثقة فيهم أو الارتباط بهم ، وذلك فى محاولة منهم لابعاد فوقاس عن الخضر وجذبه نحوهم (٢) •

=

أما الخضر فكانـوا يرتبطون بالطبقات الدنيا ولذلك صار للاحزاب اهميـة خاصة فى توجيه سياسة الدولة البيزنطية — انظر : السيد الباز ، الدولـة البيزنطية ص ٧٩ — ٨٠ ، أسد رسـتم الروم جـ١ ، ص ١٧١ ، جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ٢ ، ص ٤٠٩ — ٤١١ ، عبد القادر أحمد يوسف ، الامبراطورية البيزنطيـة ، ص ٧٠ ، أومان ، الامبراطورية ، ص ٢٠ ، رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٧٥ — ٧٦ .

Janssens, Les Bleus, PP. 500-10,

Bréhier, Les Institutions de l'empire Byzantin, PP. 197-200.

(١) انظر ما سبق ص ٥٠ ، هامش ٢ .

(٢) Janssens, les Bleus, PP. 508-509, 512--13.

وسعى فوقاس بالفعل الى كسب صداقة الزرق ، ولذلك تمـرد الخضر فى صيف عام ٦٠٣م وعلى رأسهم الديمارخوس Demarch ويدعى كروكيس Croucis, Kroukis واشعل الخضر النيران فى الشارع الرئيسى بالمدينة والذى يعرف بـ Mesê (١) وجـاء رد فوقاس على هذا العمل سريعا ومريعا ، اذ قضى على التمرد وعاقب الخضر بأن أحرق محافظهم (الديمارخوس) كروكيس Croucis حيا ، ومنذ ذلك الحين بدأ الخضر يكرهون فوقاس ، وأصبح الزرق هم حزب الامبراطور المفضل (٢) .

وسرعان ما انقلبت سياسة فوقاس تجاه الأحزاب فبعد أن كـان يعامل الخضر معاملة سيئة وأحرق محافظهم حيا وحابى الزرق ، نجده يقلب للحزبين ظهر المجن ، ويعاملهما معاملة سيئة ، اذ حدث فى عـام ٦٠٧م أن احتفـل فوقاس بزواج ابنتـه دومنتزيا Domentzia من القائد الشهير والبطريق بريسكوس Priscus ، وكان هذا الزواج بلا شك زواجا سياسيا من الدرجة الأولى اذ أن فوقاس كان يأمل أن يستعطف الارستقراطية البيزنطية — التى كان هو أحـد أعضائها البارزين — بهذه الزيجة (٣) .

وكان طبيعيا أن تنظم الألعاب وتقام الاحتفالات بهذه المناسبة ، ووفقا للعادة وضع قادة الحزبين الأخضر والأزرق تمثالى العروسين فى الملعب الى جوار تمثال فوقاس وزوجته Leontia المكللة بالغـار

---

(١) الـ Mesê هو الشارع الاوسط وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى) ويمر من خلال سوقين احدهما سوق قسطنطين المـلاصق للقصر والآخر سوق ثيودوسيوس الاكبر . ويتفـرع هذا الشارع فى النهاية الى فرعين رئيسيين أحـدهما يتجـه الى البـوابة الذهبية ، بينما يمـر الآخـر أمام كنيسة الرسل المقدسين الى البلاشيران . انظر رنسيمان ، الحضارة ، ص ٢٢١ .

(٢) Janssens, Les Bleus, PP. 520-21, Stratos, Byzantium PP. 69-71.

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 454, Janssens. Les Blêus P. 522., Stratos, Byzantium, PP. 75-76.

ورأى فوقاس فى هذا العمل مؤامرة لانتزاع عرشه منه ، ولذلك أمر فى الحال بتدمير تمثالى العروسين ، كما أمر بالقبض على كل من تيوفان Theophane وبامفيــل Pamphile قائدى الحزبين ، وأراد الأطاحة برأس كل منهما ولم يحاول بريسكوس التوسط فى الأمر مع أن الاهانة كانت موجهة اليه مباشرة(١) .

يتضح مما سبق المعاملة السيئة التى عامل بها فوقاس الحزبين الازرق والاخضر اذ حاول قتل قائد كل منهما ، بل وتتضح الاهانة التى وجهها فوقاس لزوج ابنته بتدمير تمثاله وتمثال عروسه دوميتزيا وكان يهدف من وراء ذلك الى تحطيم كل أمل قد يراوده لكى يصبح خليفــة لفوقاس ومن ثــم أمس بريســكوس Priscus عدوا جــديد لفوقاس ، وسوف تظهر نتيجة هذا العداء فيما بعد .

ويبدو أن فوقاس أدرك خطورة موقفه هذا ومعاملته الســيئة لكلا الحزبين ولهذا راح يحابى الزرق من جديد ، خاصة بعد أن سبه الخضر فى الملعب (الهيــدروم) وقامــوا بتمــرد وعصــيان فى القسطنطينية (٦٠٨م) ، ويذكر ثيوفانيس Theophanis أنهم أحرقوا — فى أثناء تمردهم — المبانى العامة والمكاتب الخاصة ، وأن الحرائق عمت كل مكان بسببهم ، وأنه لمعاقبة الخضر أصدر فوقاس أوامره بحرمانهم من حقوقهم السياسية ، بل وحرمان أنصارهم وأتباعهم من تولى الوظائف ، ومن ممارسة أى عمل سياسى(٢) .

وأخذ الزرق يؤيدون سياسة الارهاب التى اتبعها فوقاس حيــال الخضر ، وشاركهم يهود القسطنطينية فى هذا العمل ، فقد انضم بعضهم الى الزرق وقتلوا عــددا كبــيرا من الخضر مثيرى الفتن ومشــعلى

---

(١) Theophanis, chronographia, P. 454, Janssens, Les Bleus P. 522, Stratos, Byzantium, P. 76.

(٢) Theophanis, chronographia, in C.S.H.B., P. 456., Janssens, Les Bleus, PP. 522-23.

الحرائق (١) .

وبلغ الصدام بين الزرق والخضر الذروة فى نهاية حكم فوقاس ، وعمت المعارك والمنازعات بينهما كل مكان ، فامتــدت من القسطنطينية الى سالونيك ومدن الامبراطورية الأخرى ، وسفكت الدماء لا فى ميدان السباق فحسب بل وفى البيوت أيضا حيث قتل من فيها من نساء وأطفال وشيوخ لم يستطيعوا الفرار من أيدى القتلى لضعفهم(٢) .

وعمت حركات التمرد مدن الامبراطورية الاخرى ، وخاصة مدينة انطاكية ، ويرجع سبب هذا التمرد الذى حدث فى انطاكية (٦٠٨م) الى أن فوقاس حرم اجتماع رجال الدين فى الشرق – أى المونوفيزتيين – كما لم يسمح للســكان فى أى اقليم باختيار البطريرك أو انتخابه أو تعيين أى شخص فى أى منصب دينى آخر بدون اذنه أو بدون تصريح منه . لذلك اجتمع رجال الدين فى مــدينة انطاكية (٦٠٨م) وعنــدما حاولت السلطات الامبراطورية فض اجتماعاتهم حدث التمرد(٣) .

وانتهز اليهود فى المدينة فرصة هذا التمرد ، واثاروا كثيرا مــن الاضطرابات فى انطاكية ، وقتلوا بطريركها الخلقــدونى اناستاسيوس Anastasus (٦٠٩ – ٦١٠م)(٤) .

وما أن علم فوقاس بذلك حتى أرسل الى انطاكية القائد بونوس Bonosus أمــير الشرق بجيش لقمــع التمــرد . ونجــح هــذا

---

(١) Janssens, P. 520, Bréhier, «La tranformation de l'empire Byzantin» dans Journal des Savants. T. 15 (1917) P. 406, Brehier, Histoire de l'Eglise, P. 74.

(٢) St. Demetrii, Miracula, Liber I, Caput X, in P.G , T. 116 PP. 1262-67.

(٣) Chronique de Jean, PP. 419-20.

(٤) Theophanis, Chronographia, in C.S H.B., P. 457., Michel le Syrien, Chronique, II, P. 379.

المطران يوسف دريان ، لباب البراهين ، ص ١١٩ .

القائد بالفعل فى قمع هذا التمرد بشـــدة وقســـوة بالغة(١) • ويختلف المؤرخون فى أهداف حمـــلة بونوس ، وهل كانت للقضـــاء على تمـــرد المسيحيين المونوفيزتيين فى أنطاكية أم على تمرد اليهـــود ؟ فيـــذكر ثيوفـــانيس Theophanis أن تمرد اليهود وثورتهم فى أنطاكية ، ومقتل البطريرك قد حدث فى السنة السابعة من حكم فوقاس (٦٠٩م) وهذه السنة توافق السنة الاولى لحكم سرجيوس Sergius بطريرك القسطنطينية • هـــذا فى حـــين جاء فى الحوليـــات الفصحيـــة Chronicon Paschale ان سرجيوس رقى عرش البطريركية فى أبريل عام ٦١٠م ، وأن مقتل البطريرك حدث فى نهاية سبتمبر (٦١٠م) ، وسقط الامبراطور فوقاس فى الخامس من أكتوبر (٦١٠م) • وهـــذا يعنى أنه لم يتوفر لفوقاس الوقت الذى يأمر فيه قائده بونوس بقمع تمرد اليهود والانتقام لمقتل البطريرك الخلقدونى(٢) •

ولعل هذا ما يدعو الى القول بأن حملة بونوس Bonosus كانت لقمع تمرد رجال الدين المونوفيزتيين فى أنطاكية والذى حدث فى عام ٦٠٨م ، وليس لقمع تمـــرد اليهـــود وثورتهم وقتلهـــم للبطريرك اناستاسيوس Anastasus • وهذا ما يؤيده المؤرخ لويس بـــريبه Louis Bréhier الذى يجعل حملة بونوس فى عـــام ٦٠٨ — ٦٠٩م مستعينا فى ذلك بفقرة من تاريخ Antiochus Strategus جاء فيها أن بونوس الموكل بالقضاء على التمرد ، لم تكفه المذابح التى قام بها ، بل هاجم الكنائس وخرب العديد منها • وفى بيت المقدس نفسها فكر فى ايقاف البطريرك زكريا ، بل وفى قتله فى كنيسته • والاشارة هنا الى البطريرك زكريا اشـــارة هامة ، لأن اسقفيته كانت قد بدأت فى

---

(١) عن قمع التمرد انظر :
Chronique de Jean, Ch. 105., Sébeos, Histoire d'Heraclus. P. 55-56.

(٢) Thephanis, In C.S.H.B., P. 457., Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P 699., Bréheir, la transformation, P. 405.

عام ٦٠٩م ، وهذا ما جعل لويس بيريه يضـــع حملة بونوس فى عام ٦٠٨ — ٦٠٩م (١) •

ويذكر الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos أن بونوس عاقب المتمردين بانطاكية وبيت المقدس بالسيف • وهذا يؤكد ذهاب القـــائد بونوس الى بيت المقدس بالفعل (٢) •

ولم تعان الامبراطورية البيزنطية فى عهد فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) من الاضطرابات والفوضى وحركات التمرد فحسب ، بل ساءت حالتها الاقتصادية كذلك اذ اسفر تقدم الفرس فى آسيا الصغرى واستيلائهم على بعض أجزاء من سوريا وما بين النهرين عن حرمان الامبراطورية مـــن الاقاليم التى كانت تدر عليها أموال الضرائب ، كما أسفر استقرار السلاف فى الامبراطورية فى عهد فوقاس وما الحقوه بأراضيها من تخريب وتدمير، عن هجرة السكان لمدنهم وقد ترك ذلك بلا شك آثـــاره على النواحى الاقتصادية فى الامبراطورية(٣) • كذلك نتج عن الحرب الاهلية والمدنية التى شهدتها الامبراطورية فى عهد فوقاس وخاصـــة بين الاحـــزاب السياسية وقيام حركات التمرد فى انطاكية وغيرها من مدن الامبراطورية أن انتشر الجوع ولم يتوفر الطعام(٤) •

وخلال أعوام ٦٠٨ — ٦٠٩م تلف محصول القمح اذ كان الشـــتاء قارسا خلال هذين العامين ولذلك انتشرت المجاعة وهلك العديد مـــن الناس ومن الحيوانات ، هذا فضلا عن أنه فى عام ٦٠٨م لم يأت القمح من افريقية وفى عام ٦٠٩ لم يأت من مصر أيضا(٥) • وعانت الطبقات

---

(١) Bréhier, Histoire de l'Eglise, PP. 74-75.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 56.

(٣) انظر ما سبق ص ٤٧ وما يليها •

(٤) St. Demetrii, Miracula, Liber I, Caput X, in P.G., T. 116, P. 1263.

(٥) انظر مايلى ص ٦٠ — ٦١ •

الفقيرة فى المدينة ــ وبصفة خاصة تلك التى كانت تعتمد على الخبــز المجانى ــ من الحرمان والجوع واستياء الناس نتيجة لهذا الوضع (١) •

وبينما كانت الامبراطورية تتهيأ فى عام ٦٠٩م للثورة ضد فوقــاس لانهاء حكمه ، كانت ولاية افريقية تتمتع فى ذلك الوقت بالهدوء والاستقرار فى ظل حكم ارخونها هرقل ــ والد امبراطور المستقبل الذى يحمل نفس الاسم • ولد هــرقل الاب ارخــون افريقية فى عام ٥٤٠م فى اسرة استقراطية من أصل ارمنى ، وظهر كواحد من خيرة ضباط الامبراطور موريس (٥٨٢ ــ ٦٠٢م) وقواده ، واشترك معه فى حروبه ضد الفرس وفى عام ٥٨٤ ــ ٥٨٥م أصبح هرقل الاب قائدا للجيش البيزنطى فى آسيا الصغرى ، ومالبث موريس أن عينه ارخونا لافريقية فى عام ٥٩٩ ــ ٦٠٠م مكافأة له على ما قدمه من خدمات جليلة للامبراطورية أثنــاء حروبها مع الفرس ، كما عهد موريس الى جريجوريوس Gregorius شقيق هرقل الاب بأن يساعده فى حكم افريقية(٢) •

وتمتع هرقل ارخون افريقية بثقة الشعب والجيش معا فى اقليمــه وخاصة بعد ان قمع التمرد الذى قام به اتباع الامبراطور السابق موريس فى افريقية ، وأعاد السلام والهدوء اليها ، كمــا تحسنت احوالهــا الاقتصادية فى ظله • وكان هرقل الاب محبوبا فى مقاطعته لدرجــة لم يجرؤ معها فوقاس على عزله من منصبه مثلما فعل مع أرخون ايطاليا• وربما لم يخش فوقاس من هرقل بسبب كبر سنه ، ومن المحتمل كذلك أنه كان يتمنى ألا يقلب الاوضاع فى افريقية حتى يستمر ارسال القمح من هذا الاقليم الى العاصمة القسطنطينية بلا عراقيل أو صعوبات (٣) •

(١) Stratos, Byzantium, P. 78.

(٢) Sir Percy, History of Persia, P 477., Bréhier, Histoire de l'Eglise , 75., Stratos, Byzantium, P. 80.

(٣) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠١ •
Strators, Byzantium, P. 80. ,

ونظرا لما كانت افريقية تتمتع به من هدوء واستقرار اذ لم يلحقها فى عهد فوقاس أى نوع من الاضطراب الداخلى أو الغزو الخارجى ، فقد توجه أعضاء السناتو وذوو المقام الرفيع فى الامبراطورية — والذيـن كانوا من أصدقاء هرقل أرخون افريقية — بأنفسهم الى هرقل وطلبوا منه أن يتولى قيادة التمرد ضـد فوقاس بنفسه ويذكـر ثيوفانيس Theophanis أن السناتو — الذى نما لديه شعور بأنه مسئول عن خلاص الدولة ونجاتها — توسل الى هرقل وتضرع اليه بالتدخل لوضع نهاية للارهاب والفوضى والاعمال الدامية التى يقوم بها فوقاس(١) •

وانضم الى السناتو فى دعوة هرقل الى المجىء والقيام بالتمـرد القائد بريسكوس Priscus — صهر فوقاس وزوج ابنته — ولعل مادعاه الى ذلك غضبه من حوادث عام ٦٠٧م (٢) • وتمنيه اللحظة التى يحين فيها الوقت للتخلص من فوقاس ، مما يتيح له فرصة اعتلاء العرش، خاصة أن هرقل ارخون افريقية كانت سنه كبيرة ولاتسمح باختياره امبراطورا ، غير أن بريسكوس لم يضع فى اعتباره ابن ارخون افريقية المسمى باسمه وهو هرقل الصغير موضوع الدراسة •

ويبدو أن هرقل الى جانب تفاهمه مع السناتو وبريسكوس قد كسب الى صفه كذلك احزاب العاصمة ، اذ اتصلوا به أكثر من مرة ، وحرضوه على القيام بالتمرد ضد فوقاس ، وعلى أن يخلص الامبراطورية منه •

ولبى هرقل الاب ارخـون افريقية دعـوة السناتو وبريسكوس والاحزاب السياسية فى القسطنطينية ، وبدأ يتخذ اجراءات التمرد ، وكان أول اجراء قام به هرقل فى هذا التمرد هو : الامتناع عن ارسال

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 458.

وانظر أيضـا

Diehl, «Le Sénat et le peuple Byzantin aux VII et VIII siecles» dans Byzantion, T. I (1924), P. 207.

(٢) عن حوادث عام ٦٠٧ م انظر ما سبق ص ٥٤ — ٥٥ •

(٣) اسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٢١ ، أومان ، الامبراطورية ، ص ١٠١ •

القمح الى العاصمة القسطنطينية ، مع عدم ارسال أموال الضرائب ٦٠٨م.
وكان هذا الاجراء على درجة كبيرة من الاهمية ، لما يترتب عليه من اثارة روح الاستياء والتذمر فى العاصمة ، خاصة بين المنتفعين بحصص القمح ، هذا فضلا عن أن عدم ارسال أموال الضرائب الى القسطنطينية ، سوف يتيح للارخونية الفرصة لان تستخدم هذه الاموال فى تجنيد جيش يقوم بالتمرد ، ويواجه جيش فوقاس ، خاصة أن الجيش المستخدم فى حماية الاقليم كان صغيرا(١) .

وكان الارخون فى حاجة ماسة الى اسطول يقوى به أسطول افريقية الصغير ولهذا كان من الضرورى أن يتطلع الارخون الى كسب مصر الى صفه ، ليضمن بذلك منع أى محاولة للهجوم على افريقية من ناحية ، وليضم أسطول مصر الى أسطول افريقية من ناحية أخرى . هذا فضلا عن أن مصر سوف تمتنع بدورها عن ارسال القمح الى القسطنطينية ، ويترتب على نقصه فى العاصمة ، أن تصبح هناك فرصة أكبر لان يثور شعب المدينة (٢) .

وعلى هذا النحو وضع هرقل — أرخون افريقية — خطته للتمرد ضد فوقاس والتخلص منه وتتلخص فى أن يرسل ابن اخيه نيقتاس Nicetas بجيش ليغزو مصر ويستولى عليها أولا ، واذا تم له ما أراد يصبح بامكانه أن يقطع عن القسطنطينية ما كان يرسل اليها من قمح مصر ، فضلا عن أنه يتهيأ له منها أن يجهز اسطولا يضرب به فوقاس أو على الاقل يقطع عن العاصمة القسطنطينية وعن فوقاس أى امداد منها(٣) . ثم يبعث هرقل بعد ذلك ابنه المسمى باسمه هرقل على رأس اسطول الى القسطنطينية . ويذكر تفاصيل هذه الخطة الاسقف المصرى يوحنا النقيوسى ، أما المؤرخون البيزنطيون فانهم يذكرون أن حاكمى أفريقية هرقل وأخيه جريجوريوس Gregorius قد اتفقا سويا على ارسال

(١) Diehl, Le monde Oriental, P. 141, Bréhier, Histoire de l'Eglise, PP. 75-76, Stratos, Byzantium, P. 81.
(٢) Stratos P. 82.
(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٥ .

ابنيهما هرقل ونيقتاس الى بيزنطة ، على أن يذهب أولهما وهو هرقل اليها بحرا ، على رأس أسطول ، أما الثانى وهو نيقتاس فيذهب اليها عن طريق البر • وان من يصل اليها قبل الاخر يتــولى الحكم ويصبــح امبراطورا ، أما الثانى فيصبح قيصرا ، وأنه قد تيسرت مسيرة هرقل ووصل الى بيزنطة قبل نيقتاس(١) •

وتفصل رواية الاسقف المصرى يوحنا النقيوسى لتمرد هرقل — ارخون افريقية — ورحلة نيقتاس الى مصر فقد جاء فيها : أن هرقل رفع لواء التمرد ، ووزع الكثير من الاموال على البرابرة فى مدينتى تريبوليس Tripolis (طــرابلس) وبنطــابوليس Pentapolis (برقــة) (٢) ولقاء ذلك طلب مساعدتهم فى الحرب ، ثم استدعى هرقل قائدا يدعى بوناكيس Bônakis مع ثلاثة آلاف رجل وعدد كبير من البرابرة وأرسله الى بنطابوليس لينتظره هناك • وأرسل أيضا نيقتاس ابن أخيه جريجورى بمال ومؤن كثيرة الى لونتيوس Leontios — حاكم مريوط(٣) من قبل فوقاس • ويذكر يوحنــا النقيوسى أن كــلا من تنكرا Tenkera (٤)

---

(١) Nicephorus, Breviarium rerum Post Mauricium Gestarum, in C.S.H.B. P. 4, Cedrenus, Historiaum Compedium, I, in C.S.H.B., PP. 711-12.

وانظر أيضــا : Michel le Syrien, Chronique, T. II, P. 378., Bar Hebraeus, The Chronography, First Part P. 87.

ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٩١ .

(٢) انظر عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ، حاشية ٢ ، ٣ ، ص ١٥٦ .

(٣) مريوط ، قرب الاسكندرية ، تقع على بعد ٢٦ ك . م جنــوب غرب الاسكندرية .

انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، م ٨ ، ص ٤٢ .

ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، م ٢ ، ص ١٢٦ .

(٤) تنكرا ، يذكر زوتنبرج Zotenberg ناشر تاريخ يوحنا النقيوسى ومترجمه الى الفرنسية أنه من المحتمل أن تنكرا هذا يقصد به كريسبوس Crispus او بريسكوس صهر فوقاس انظر :

Chronique de Jean, Evêque de Nikiou, Note I, P. 422.

وثيودور بن ميناس — الذى كان حاكما على الاسكندرية أيام موريس — تآمرا سرا مع هرقل ووعداه بقتل فوقاس ، وتسليمه حكم القسطنطينية، كما وعداه أيضا بأن يجعلا فرق القسطنطينية تعترف به وتخضع له[1] .

ويتابع يوحنا النقيوسى حديثه فيذكر أن حاكم الاسكندرية مالبث أن علم بهذا التدبير ثـم علـم به كذلك بطـريرك الخلقـدونيين فى الاسكندرية[2] ، فأرسلا على الفور خطابا الى فوقاس ، أخبراه فيه بكل ماحدث ، وطلبا منه الامدادات وبمجرد أن علم فوقاس بالموقف أرسل أولا الاموال والمساعدات الى حكام منوف واتريب — على الفـرع الشرقى للنيل — والى من ظلوا على الولاء له ، ثم أرسل حاكم القسطنطينية الى مصر ومعه الامدادات ، كما أمر بونوس Bonosus بأن يجمع قواته فى القسطنطينية ، ويسير الى مصر بحرا ليدافع عن مدينة الاسكندرية[3] .

وتتابعت الحوادث ، ودخل نيقتاس مصر ، وسار الى الاسكندرية بمساعدة لونتيوس Leontius حاكم مريوط . وكان طبيعيا أن يصر حاكم الاسكندرية على قتال نيقتاس وعرقلة تقدمه ، ورفض سماع نصيحة شعب مصر بالهرب وقال : « نحن نحارب من أجل الملك حتى الموت »[4]. وكان أن انتهى القتال بينهما لصالح نيقتاس ، وذبح حاكم الاسكندرية، وأرسلت رأسه الى المدينة . ولما علم أهل الاسكندرية بنتيجة القتال ، تشجعوا وأعلنوا الثورة على حكم فوقاس ، ودمروا تمثال الامبراطور، وعمت الفوضى ، ولجأ كبار موظفى المدينة الى الكنائس طلبا للامان ،

---

(١) مصر فى مخطـوط يوحنـا النقيـوسى ، نشر عمـر صـابر ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
Chronique de Jean, Evêque de Nikiou, PP, 421-22.

(٢) كان بالاسكندرية فى ذلك الحين اثنان من البطـاركة احدهمـا خلقدونى او ارثوذكسى والآخر مونوفيزيتى .

(٣) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٥٧ — ١٥٨
Chronique de Jean, P. 422.

(٤) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٥٨ .
Chronique de Jean, P. 422.

وهرب البطريرك الخلقدونى ثيودور الى كنيسة القديس اثناسيوس — على شاطىء البحر ، غير أن الشعب ثار وذبحه ، واستقبل نيقتاس وبوناكيس Bonakis باجلال عظيم[1] .

وفى تلك الاثناء وصل بونوس الى الفرما[2] ، ويذكر يوحنا النقيوسى أن جماعة أبلاطون أمين الملك (فوقاس) عندما علموا بذلك، أرسلوا رسالة خطية الى بوناكيس فى الاسكندرية ، وأخبروه فيها بوصول بونوس الى مدينة الفرما ، وطلبوا منه الاسراع بالمجىء مع محاربيه وبالفعل ترك بوناكيس مدينة الاسكندرية للقاء بونوس ، وتم اللقاء بينهما شرقى مدينة منوف، غير أن الغلبة كانت لاتباع بونوس الذين قبضوا على بوناكيس وذبحوه وأخذوا كثيرا من رجاله اسرى ، كما قتلوا حاكم مريوط لونتيوس ، وثيودور أسقف نقيوس[3] وعندما رأى أبلاطون ومن معه ذلك اختبأوا فى دير اتريب ، غير أن الرهبان أعادوهم الى بونوس الذى أخذهم وحبسهم ، ثم أخرجهم الى مدينة نقيوس وبعد أن عذبهم ، فصل روءسهم عن أجسادهم[4] .

ونتيجة لما حل ببوناكيس Bonakis وحاكم مريوط وأسقف نقيوس ، فقد فر من بقى من الناس ، وساروا الى مدينة الاسكندرية حيث اجتمعوا الى نيقتاس الحاكم من قبل هرقل . أرخون افريقية — وأخبروه

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

Chronique de Jean, PP. 423-24., Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 669.

(٢) عن هذه المدينة انظر ما يلى فى الفصل السادس .

(٣) مدينة نقيوس ، مدينة من مدن مصر السفلى تقع على الطريق من الاسكندرية الى ممفيس وهى مدينة (ابشادى) مركز تلا منوفية . وعن هذه المدينة انظر ، عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١ — ٤ .

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر : مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٦٠ — ١٦٢ .

Chronique de Jean, PP. 425-27.

بكل ماصنعه بهم بونوس ، فجمع نيقتاس كثيرا من القوات من البربر وأهل الاسكندرية والعمال والبحارة ، وجمع أدوات الحرب ، واستعد لقتال بونوس ، ورسم لاهل الاسكندرية خطة مؤداها ألا يحاربـوا بونوس من فوق الاسوار ، وأن يصفوا الصفوف ، وينصبوا المنجنيقات وقاذفات الاحجار على أحد أبواب المدينة ومالبث القتال أن اشتد، ولاذ رجال بونوس بالفرار • وعندئذ خرج نيقتاس بالجيش مع قوات مساعدة من البربر من باب آخر من أبواب المدينة ، وتعقب الفارين وطاردهم وقتل عددا منهم ، بينما كان أهل الاسكندرية يقذفونهم بالاحجار ويرمونهم بالسهام ، وقتلوا عددا كبيرا منهم • وانسحب بونوس بمشقة الى مدينة كريون — بكفر الدوار مركز بحيرة — ومنها الى نقيوس حيث أقام بها أياما مع من تبقى معه من جنود ، ومن نقيوس سار الى مريوط وترك عددا من الجنود لحراسة الطريق ، ثم تابع مسيره فاتجه نحو مدينة منوف فشن عليه نيقتاس حربا فى هذه المدينة ، ونجح نيقتاس فى فتحها ، كما نجح فى فتح سائر مدن مصر ، واضطر بونوس بعد ذلك الى مغادرة مصر ليلا واتجه نحو فلسطين ، ومنها سار الى القسطنطينية • وأرسى نيقتاس دعائم السلام فى ربوع مصر ومدنها ، وعين ولاة فى كل مدينة ، وقضى علـى السرقة والظلم وخفف عن أهلها الضرائب لذلك أحبه المصريون كثيرا(١) •

وبعد هذا الانتصار الذى حققه نيقتاس فى مصر ببضع شهور ، قرر هرقل — أرخون افريقية — أن ينفذ الشطر الثانى من خطته بأن يسدد لفوقاس الضربة القاضية ، فجهز أسطولا كبيرا ، وعهد الى ابنه هرقل الشاب بقيادته ، وبالتوجه نحو القسطنطينية (ربيع ٦١٠م) ووضـع القائد الاعلى للحملةايقونة السيدة العذراء على الصارى الكبير تبركا وتيمنا بما سيحققه من نصر(٢) •

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : مخطوطة يوحنا النقيـوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٦٢ — ١٦٦ . Chronique de Jean, PP. 427-31.

(٢) Georgius Pisida, Heraclidos, II, in C.S.H.B., P. 79., Stratos, Byzantium, P. 87.

ولايعرف على وجه التحديد الاماكن التى توقف فيها هرقل قبل أن يصل الى الدردنيل ، الا أن يوحنا النقيوسى يذكر أن هرقل توقف فى عدد من الجزر والاماكن الساحلية حيث كان يتصل بأهلها ، ويجند أعدادا منهم ، وأن كثيرا من الناس ساروا معه بسفنهم من تلك المناطق(١) .

ويبدو أن سالونيك كانت من الموانىء والمدن الساحلية ، التى توقف فيها هرقل ، وأنه اتخذ من هذه المدينة محطة له ، ومركزا لاعداد سفنه ثم نقطة انطلاق لتقدمه نحو العاصمة القسطنطينية ، وأنه قد انضم اليه من تلك المدينة عدد من الاتباع والانصار أمدوه بالمؤن والاقوات . ويرجح ذلك ما يذكره سعيد بن بطريق من « أنه كان بمدينة صالونيكيه غلام يقال له هرقل مع بعض بطارقة صالونيكية ، وأخذ البطارقة مراكب أوسقوها شعيرا وقمحا وحبوبا ، ووجهوها مع هرقل الى القسطنطينية معونة لهم وقوتا .. »(٢) .

وألقى هرقل مرساته أمام ابيدوس Abydos — على الدردنيل — فى سبتمبر ٦١٠م . وما ان انتشرت انباء وصول اسطول هرقل الى الدردنيل حتى خرج على فوقاس عدد من كبار الشخصيات والقادة وأعلنوا تأييدهم لهرقل القبادوقى (٣) .

وفى الثالث من أكتوبر ٦١٠م أبحر الاسطول متجها نحو أسوار العاصمة المطلة على البحر وعندما علم فوقاس باقتراب أسطول هرقل ، وعلم أن الكثيرين أيدوه ، اشتاط غضبا وحاول أن يواجه الموقف ، ولكن عدد السفن التى كانت تحت تصرفه كان قليلا ، بعد أن تحطم معظم

---

(١) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٦٧ .
Chronique de Jean, P. 431.

(٢) سعيد بن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جا ، ص ٢١٩ .

(٣) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٦٧ .
Chronique de Jean, P. 431.

الاسطول الامبراطورى فى الحملة على مصر ، وللتغلب على هذه المشكلة أمر فوقاس باحتجاز السفن القادمة من مصر والمحملة بالقمح ، وأسر بحارتها ، وسجنهم فى أفدومون Evdomon (١) . وحاول أن يجهز هذه السفن برجاله ، وعهد الى أخيه Domentziolos بقيادة عمليات للدفاع واحتلال الأسوار بجيشه وعرباته الحربية (٢) .

وكانت الخطوة التالية التى اتخذها فوقاس هى أنه تصرف بعنف وشراسة تجاه أسرة هرقل ، اذ أرسل يبحث عن زوجة هرقل — أرخون افريقية — وهى ابيفانيا Epiphania وفافيا Favia خطيبة هرقل الشاب وكانتا فى المدينة ، وأمر بالقاء القبض عليهما ، ووضعهما فى أحد الأديرة . ولكن يبدو أن فوقاس أراد أن يتخذ من هاتين الشخصيتين رهينتين حتى يبقى هرقل على ولائه . وعلى هذا الأساس وضعهما فى أحد الأديرة تحت الحراسة (٣) .

رأى فوقاس أن يستعين بالأحزاب السياسية فى الدفاع عن المدينة ولذلك جعل الخضر يقومون بحراسة أسوار موانىء المدينة ومنها ميناء قيصرية Caesaria وميناء صوفيا Sophia وعهد الى الزرق بحراسة الاسوار التى على يمين الخليج المسمى Ormisdou (٤) وظل الزرق على ولائهم للامبراطور ، أما الخضر فقد تركوا جانب فوقاس

---

(١) أفدومون ، حصن يقع على ساحل البحر على نحو ثلاثة أميال الى الغرب من الباب الذهبى أحد أبواب القسطنطينية .

انظر : بتلر ، فتح العرب لمصر ، حاشية ١ ، ص ٢٨ .

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 460., Stratos, Byzantium, P. 88.

(٣) Theophanis, P. 460.

وهناك جانب اسطورى بشأن هذه الحادثة يذكره يوحنا النقيوسى وهو أن فوقاس فعل ذلك من أجل أن يغتصب فافيا خطيبة هرقل الشاب .

انظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٥٥ .

Chronique de Jean de Nikiou, PP. 420-21.

(٤) Janssens, les Bleus et les Verts, P. 523.

لعدائهم له ، وانضموا الى هرقل ، ولعبوا دورا هاما فى تيسير مهمتـــه فمبجرد أن علموا بوصوله الى المـــدينة أى القسطنطينية وخـــافوا أن يتردد هرقل بسبب اعتقال فوقاس لأمه وخطيبته ، قرروا أن يفعـــلوا شيئا ، ونجحوا بالفعل فى دخول الدير الذى اعتقلهما فيـــه فوقاس ، وأطلقوا سراح كل من ابيفانيا وفافيا ، كما أنهم يسروا لهرقل مهمـــة الهجوم على الميناء الذى يقومون بحراسته وتحصينه وهو ميناء صوفيا ، بل وأرخوا السلسلة التى كانت تغلق مدخل الميناء وسمحوا بذلك لسفن هرقل بالدخول منه (١) •

ومالبث أحد قادة الخضر ويدعى Kalliopas Trômolaemis أن أعلن التمرد ضد فوقاس ، فأرسل فوقاس القائد بونوس Bonosus لقمع هذا التمرد ، فأشعل بونوس النيران فى حى ميناء قيصرية حتى يكبح جماح الخضر (٢) • ومع ذلك فقد هاجمه الخضر ، وانضم اليهم عدد من قوات بونوس نفسه فهرب الأخير على ظهر قارب ، ولكنهـــم أحاطوا به فقفز فى المـــاء ، وعندئذ رشقه جندى برمحه (٣) •

وعلى هذا النحو لم يبق أمام فوقاس — بعد مقتل قائده بونوس — من أمل سوى ولاء حزب الزرق له ، وذلك العداء الشديد الذى يحمله هؤلاء لأعدائهم الخضر ، ولذلك جهز فوقاس أسطولا ، واختار رجاله من حزب الزرق ، وجعله فى ميناء صوفيا واستعد لقتال هرقل • غير أن الخضر ما أن تخلصـــوا من بونوس حتى شرعوا فى مطـــاردة الزرق الموالين لفوقاس ، ويذكر يوحنا النقيوسى أن حزب الخضر وســـكان مدينة قسطنطينية الذين كانوا على البحر ، جمعوا سفنهم وطـــاردوا

---

(١) Janssens, **Les Bleus,** P. 524 ., Bréhier, la transformation P. 407.
Stratos, Byzantium, P. 88.

(٢) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 700.

(٣) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٦٩ ،
Chronique de Jean, P. 432.

الزرق فلجأ هؤلاء الى كنيسة آيا صوفيا (١) .

سقوط فوقاس واعلان هرقل امبراطورا :

وما ان علم فوقاس بذلك حتى أدرك أن نهايته قد اقتربت ، وأن حياته أصبحت فى خطر ، ولذلك لجأ الى القصر الكبير ومعه لونتيوس Leontius — خازن أمواله — وقام بجمع الأمــوال التى كانت فى خزائن الامبراطورية ، والتى جمعها الامبــراطور الســابق موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) وكذلك أموال بونوس ، وألقاها فى البحــر وجعل « مملكة الروم بذلك فقيرة مسكينة » (٢) .

ويعلق بتلر على هذه الرواية التى ينفرد الاسقف المصرى يوحنا النقيوسى بذكرها بقوله : ان تلك الفعلة جديرة بخلق فوقاس ، ويذكر أن ذلك ربما حدث فى اللحظة التى لاح فيهــا نصر هــرقل فى الوقعة البحرية ، ويشير الى أن هذه الكنوز ربما كانت تحملها سفينة الامبراطور حتى لا تضيع هباء أثناء القتال فلمــا نزلت به الهزيمة القى بهــا فى البحر (٣) .

وفى يوم الاثنين الموافق الخامس من أكتوبر ٦١٠م ، دخل لفيف من الجنود والقادة والمــواطنين يقــودهم فوتيوس Photius — الذى كان الامبراطــور قــد اغتصب زوجته — وهاجمــوا القصر الامبراطورى ، واعتقلوا الامبراطور فوقاس ، ونزعوا التاج من فوق رأسه ، وقام فوتيوس بتجريده من ملابسه الامبراطورية ، وألبســه قميصا عاديا ، وبعد ذلك قيده بالســلاسل وربط يديه من خلف ظهره ، ووضع طوقا من الحديد حول رقبته ، ثم جره فوتيوس من رقبته الى

---

(١) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٦٩
Chronique de Jean, P. 432.

(٢) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٧٠ .
Chronique de Jean, P. 432.

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٩ .

ميناء صوفيا ، وأخذه بعد ذلك الى سفينة هرقل الذى أمر بقتله وقطع أعضـــائه (١) .

ويعلق يوحنا النقيوسى على ذلك بقوله : أن مالحق بفوقاس هذا كان جزاء للعار والخسران الذى صنعه بامرأة فوتيوس ، فانها كانت أمة للرب ، وأخذها قهرا دون ارادتها لأنها كريمة الاصل (٢) . ومن المؤرخين المحدثين من يذهب الى القول بأن ماحدث لفوقاس من تمثيل بجثتـــه لا يمثل طبيعة هـــرقل ، بل كان طبيعة العصر وما ســادت فيـــه من عادات (٣) .

وفى نفس الوقت نفذ حكم الاعدام أو القتل فى أفراد أسرة فوقاس وهم دومينيتولوس Domentiolus وبونوس Bonosus أخو فوقاس ولونتيوس Leontius — خازن أمواله — واحرقوا كذلك مثل فوقاس ، « وذروا رماد أجسادهم فى الريح ، لأن النـــاس كانوا يكرهونهم » (٤) .

وبعـــد التخلص من فـــوقاس وافراد أسرته ، قـــام سرجيوس Sergius بطريرك القسطنطينية وأهلها فاستقبلوا هرقـــل بالحفاوة فى المدينة ، وعرضوا عليه التاج ، ويقول المؤرخ نيقفوروس Nicephorus أن هرقل تردد أولا فى أن يتولى العرش ، واعتـــذر

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 5, Chronicon Paschale, in C. S. H. B., PP. 700 — 701.

مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٧٠ .
Chronique de Jean, P. 433.
Cedrenus ; Historiarum Compendium, in C. S. H. B, PP. 712 - 713.

(٢) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٧٠ .
Chronique de Jean, P. 433.

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٠ .

(٤) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٧٠ .
Chronique de Jean, P. 433.

عن قبول التاج ، وعرضــه على كريسبوس أو بريسكوس — صــهر فوقاس — الذى رفض أن يأخذه لنفسه ، وادعى أنه لم يأت طمعا فى السلطة ، ولكن لينتقم من فوقاس على ما ارتكبه من جرائم نحو موريس وأبنائه (١) .

على أن نيقفوروس يناقض نفسه اذ أنه سبق أن ذكر أن هرقل الأب وأخاه جريجوريوس Gregorius قد اتفقا سويا على ارسال ابنيهما الى القسطنطينية أحدهما برا والآخر بحــرا ، وأن من يصــل اليها أولا من حقه التاج أما الثانى فيصبح قيصرا (٢) ، ووفقا لهــذه الخطة فليس هناك مجال لأن يتردد هرقل فى قبول التاج ، وأن يعرضه على صهر فوقاس كريسبوس أو بريسكوس .

ويبدو تمنع هرقل واظهار عدم رغبته فى قبول التاج فيما يذكره الاسقف يوحنا النقيوسى من أن أهل بيزنطة أتوا بهرقل الى كنيســة القديس توماس الحوارى دون ارادته ، ووضعوا التاج فوق رأسه (٣) . وجاء فى الحوليات الفصحية كذلك أن الامبراطور — قرر بعد موت الطاغية — العودة الى والده فى أفريقية بصحبة ذويــه ، « وأوصانا أن نعين أى امبراطور نشاء ، ثم قبل هو الامبراطورية عــلى مضض منه ، ونزولا على طلبنا » (٤) .

وربما أظهر هرقل فى البداية تمنعه وعدم رغبته فى قبول التــاج حين عرض عليه وفقا لمــا جاء فى الحوليات الفصــحية وفى رواية يوحنا

---

(١) Nicephoras, Breviarium, in C.S.H.B., P. 5.

(٢) انظر ما سبق ص ٦١ — ٦٢ .

(٣) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٧٠ .

Chronique de Jean, P. 433.

(٤) Chronicon Paschale, I, in C. S. H. B., P. 708.

يذكر سعيد بن بطريق أن هرقل هو الذى عرض أن يصبح امبراطورا ، وأن يتولى عرش القسطنطينية . انظر : التاريخ المجمــوع على التحقيق والتصديق ج ١ ص ٢١٩ .

النقيوسى ، وأنه عرضه على كريسبوس أو بريسكوس ، صهر فوقاس — على نحو ماذكر نيقفوروس غير أن هرقل — على ما يبدو — كان يدرك فى قرارة نفسه أنه الامبراطور لامحالة فى ذلك اذ ليس هناك من هو بديل عنه ، والا فلماذا استدعى شعب العاصمة بكل فئاته من السناتو والاستقراطية والأحزاب السياسية ، والده هرقل ليخلصه من طغيان فوقاس ، كما أن الطبقة الارستقراطية والأحزاب السياسية لم تكن لتقبل كريسبوس — صهر فوقاس — امبراطورا ، وهم الذين ساندوا هرقل وأيدوا خططه للتخلص من فوقاس •

وحصل هرقل على التاج فى نهاية الأمر ، وقام البطريرك سرجيوس Sergius بتتويجه امبراطورا فى الخامس من أكتوبر عام ٦١٠م ، بموافقة السناتو والشعب وكريسبوس Crispus ويذكر كل من ثيوفانيس وقيدرينوس Cedrenus أن التتويج تم فى كنيسة القديس استيفانوس St. Stephanos بالقصر ، فى حين يذكر يوحنا النقيوسى أنهم وضعوا التاج على رأسه فى كنيسة القديس توماس الحوارى (١) • وفى مساء نفس اليوم أتم هرقل زواجه من فافيا Favia وتسمت من جديد باسم أوداكيا Eudocia وتوجت امبراطورة (٢) •

وانتقل هرقل الى كنيسة أيا صوفيا ، وهناك نادى به السناتو وكبار الضباط ، والاحزاب — وفقا للتقليد — امبراطورا ، وأقسموا له يمين الطاعة والولاء وفقا لنظم البلاط • وفى اليوم التالى حطم تمثال فوقاس المقام فى ميدان السباق ، وأحرق علم الزرق كعقاب لهم على

---

(١) Theophanis, Chronographia, C. S. H. B., P. 461, Cedrenus ; Historiarum, I, in C. S. H. B., P. 713.

مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٧٠ •

Chronique de Jean, P. 433.

(٢) Theophanis, P. 461. Cedrenus ; Historiarum, I, PP. 713 - 714.

استمرارهم فى مساعدة فوقاس (1) .

أسرع هرقل فور تتويجه مباشرة ، بارسال رسالة خطية الى ابيه الذى كان قلقا بشأنه . ويبـدو أن الارخـون مرض بعـد ذلك ، ومات فى قرطاجة (2) وباعتلاء هرقل عرش الامبراطورية البيزنطية فى الخامس من أكتوبر عام ٦١٠م ينتهى عهد الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م)، ذلك العهد الذى يعتبره البعض نهاية عصر رومانى متأخر أو عصر بيزنطى متقدم وبداية للعصر البيزنطى الخالص (3) ويبدأ عهد الامبراطور هرقل موضوع الدراسة .

ولـد الامبـراطور هرقل فى عـام ٥٧٥م ، وانحـدر من أسرة ارستقراطية عريقة ومن المحتمل أن هذه الاسرة من أصل أرمنى ، كما يذكر الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos فى تاريخـه لعصر هرقل ، فقد كتب سيبيوس أن هرقل ينتمى الى بيت أرمنى مشـهور هو بيت الأراشكة Arsacids (4) . هذا فى حين جاء فى تاريخ الاسقف المصرى يوحنا النقيوسى — الذى عاش فى القرن السابع كذلك — أن هرقل من أصل قبادوقى ، ولم يذكر أنه يرجع الى أصول ارمينية (5) .

ويبدو أن رأى يوحنا النقيوسى هو الارجح لأسباب من بينها أن سيبيوس ربما كان متعصبا باعتباره أرمينيا ، فذكر أن هـرقل كـان

---

(1) Chronicon Paschale, I, in C. S. H. B. P. 701, Janssens, les Bleus, P. 524. Stratos Byzantium, P. 91.

(2) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٧٠ .
Chronique de Jean, P. 433.

(3) Ostrogrosky, History of the Byzantine State, P. 95.
السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٢ ، عبد القادر احمد اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩١ .

(4) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 108.

(5) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٦٧ .
Chronique de Jean, P. 431.

أرمينيا كذلك ، ولأن المؤرخين البيزنطيين حينما وصفوا هرقل ذكروا أنه كانت له عينان زرقاوتان وبشرة ناصعة البياض ، وشعر أصفر ذهبى (١) . ولعل هذا مادعا فازيليف Vasiliev الى أن يعلق على ما ذكره سيبيوس Sébeos الأرمنى من أن هرقل يرجع الى أصول أرمينية بقوله : « ان هذا الزعم يخالف دليلا موجودا فى عدة مصادر عن هرقل ذى الشعر الذهبى » (٢) .

وعندما ارتقى هرقل العرش كان فى الخامسة والثلاثين من عمره ، هذا ويعطى جورج البيسيدى Georgius Pisida صورة لهرقل ولكنها غير واضحة تماما ، اذ يصور هرقل على أنه شخصية انسانية كاملة تجمع بين الشجاعة والحكمة مع سائر الفضائل .. ولكن لا يحب أن يغيب عن الذهن أن بسيدى هذا كان معجبا بهرقل ومتحمسا له بل ، وكان صديقا لهرقل وشاعرا لبلاطه (٣) .

كان هرقل جنديا يتسم بالشجاعة والاقدام ، وكان يقاتل دائما فى خطوط المواجهة لقد كان قائدا عسكريا من الدرجة الأولى — على نحو ما سنرى فى العمليات العسكرية التى قادها ضد الفرس . كما كان هرقل متحدثا جيدا ، ومن الطبيعى أن يكون بليغا فصيحا ، كان يتحدث بأسلوب يتسم بالورع والايمان والوطنية والحماس (٤) . كما كان هرقل امبراطورا موهوبا نشطا وكان على قدر عال من الكفاءة . وأن مجيئه بعد فوقاس المستبد جعله حاكما مثاليا يحتذى به (٥) .

---

(١) Cedrenus, Historiarum, in C. S. H. B, I. P. 714.

(٢) Vasiliev, History of The Byzantine Empire. Vol. I. P. 235.

(٣) Georgius Pisida, De Expeditione Persica, I, P. 6., Stratos, Byzantium, P. 93.

(٤) انظر ما يلى فى الفصل الرابع .

(٥) Vasiliev, History, of the Byzantine, Vol. I, P. 237.

المصاعب التى واجهت هرقل عند اعتلائه العرش :

على أن استيلاء هرقل على القسطنطينية واعلانه امبراطورا ، وترحيب الشعب والسلطات المحلية بحكمه ، لا يعنى أن الامبراطورية كلها خضعت له فى الحال ، وانه لم يواجه بعد ذلك أية عقبات أو مشاكل ، اذ تذكر بعض المصادر أن بداية حكم هرقل جابهت الكثير من المشاكل المعقدة والعقبات ، خاصة من جانب أفراد أسرة فوقاس التى تصورت المصادر أن هرقل أباد جميع أفرادها .

ويشير الفصل ١٥٢ من سيرة حياة القديس ثيودور السيكيونى Théodore de Sykéôn بوضوح الى أن هناك شخصين ظلا على قيد الحياة من أفراد أسرة فوقاس رغم ماقام به هرقل من ابادة لهم . الأول هو الشاب دومنيتزيولوس Domnitziolos ، قائد قوات القصر Curopalates وهو ابن أخ فوقاس ، والثانى هو كومينتولوس Comentiolus شقيق فوقاس . وتذكر السيرة أن دومنيتز يولس عاصر مقتل فوقاس وكبار رجال الدولة ، وأن هذا الشاب قد اعتقل — على أن السيرة لاتذكر الظروف التى اعتقل فيها ولا مكان اعتقاله — وكانت اشاعة قد انتشرت بأنه قد أعدم أو مات . وجاء فى السيرة أيضا أن القديس ثيودور [1] لم ينس أفضاله على ديره وما بذله من أجله فقد كتب خطابا فى الحال لهرقل ، يطلب منه أن يطلق سراح دومنيتز يولس Domnitziolos فتلقى هرقل الخطاب بوقار واحترام ، ورد على القديس بخطاب آخر ، بأنه سيكون له الشرف أن يلبى طلب القديس ، وطلب منه أن يصلى من أجله ومن أجل حكمه [2] .

وربما كان دومنيتزيولوس فى آسيا الصغرى حيث كان لدى

---

(١) عن القديس تيودور ، أنظر ما سبق فى تحليل المصادر ص ٢٤ .

(٢) Festugiére (éd.) La vie de Théodore do Sykéon, T. 2 Ch. 152, P. 127.

القديس تيودور الوقت الكافى لكى يتوسط له عند هرقل ، وأنه لم يكن فى القسطنطينية عندما وقعت أحداث مقتل فوقاس وكبار موظفيه [١] .

ومن الملاحظ أن المصادر البيزنطية تخلط بين دومنيتزيولوس Domnitziolos ابن أخ فوقاس وبين كومينتيولوس Comentiolus شقيق فوقاس [٢] . ويشير نيقفوروس الى أنه قد حكم على دومنيتزيولوس بالاعدام مع فوقاس ، هذا فى حين لا يذكر ثيوفانيس أنه مات بل يجعله يقوم بحراسة أسوار القسطنطينية عند اقتراب هرقل منها ، وأن فوقاس هو الذى عهد اليه بأداء هذه المهمة [٣] .

ولا تشير هذه المصادر الى قيام حركات تمرد من جانب أتباع فوقاس وأقاربه ، بعد الخامس من أكتوبر عام ٦١٠م وهو اليوم الذى اعتلى فيه هرقل عرش الامبراطورية البيزنطية ، أما سيرة القديس ثيودور فتذكر أن كومينتيولوس Comentiolus ظل فى قيادة الجيش ، وعاد الى الشرق ليقضى الشتاء فى Ancyra [٤] على أنه لا يوجد ثمة مصدر يشرح الأوضاع فى جيش كومينتيولوس قبل عام ٦١٠م ، ولا أحد يعرف كم من الوقت ظل قائدا لجيشه فى الشرق . ومن غير الواضح أيضا فى أى مكان من الشرق كان كومينتيولوس قد تولى قيادة جيشه ، وربما كان هو القائد العام للجيوش الارمينية نظرا لأن الفرس هددوا أرمينية وشمال سوريا ، أو ربما كان قائد للجيوش الشرقية أو ربما كانت له القيادة على الجبهتين [٥] .

---

(١) W. E. Kaegi, «New Evidence on the early of Heraclius», dans Byzantinishe Zeitschrift, Vol. 66 (1973) P. 311.

(٢) Theophanis, Chronographia, P. 460., Nicephorus, Breviarium, P. 5., Cedrenus, Historiarum, I, P. 710.

(٣) Nicephorus, P. 5, Theophanis, P. 460.

(٤) Festugiére (éd.) La vie de Théodore, Ch. 125, P. 128.

(٥) Kaegi, New evidence, P. 312.

ويرجع اختيار كومينتيولوس Comentiolus لـ Ancyra مركزا لتمرده الى موقعها الممتاز فى قلب آسيا الصغرى ، فمنها كـان يستطيع أن يبسط سلطانه على جميع الفرق العسكرية ، وعلى سـائر مدن آسيا الصغرى ،لم يكن من السهل أن تتعرض تلك المدينة للهجوم ، فضلا عن أنها كانت — احتمالا — مركزا للضباط الفارين من هرقل ، والذين ظلوا على الولاء لفوقاس ، وخافوا من عقاب هرقل ، والذين يمكن أن يكونوا نواة للقيام بتمرد ضد هرقل للأخذ بثأر فوقاس (١) .

ومما لاشك فيه أن تنفيذ حكم الاعدام الدموى فى فوقاس وأخوته وكبار رجال الدولة الآخرين ، ترك نوعا من المـرارة فى نفس كومينتيولوس Comentiolus مما جعله ينتظر لحظة الانتقـام ، ورغبته هذه فى الانتقام لاشك سوف تجعله ينتظر أى فرصة مناسـبة للتمرد والأخذ بالثأر لمـا حل بأفراد أسرته — هذا وشجعه على التمرد اطلاق سراح دومينتزيولوس Domnitziolos ابن أخيـه ، الذى صفح عنه هرقل ليس تلبية لتوسلات القديس ثيودور السيكيونى فحسب بل من أجل أن يمتص غضب كومينتيولوس ويشجعه على أن يعقـد الصلح خاصـة أنه مـازال قائد الجيـوش . غير أن ذلك لم يمنـع كومينتيولوس من الاستمرار فى المقاومة الفعالة لهرقل ، بل ان بقـاء دومينتزيولوس حيـا من بين أفـراد أسرة فوقاس — بعث فى نفس كومينتيولوس الأمـل فى العـودة الى الحـكم والمطالبـة بالعـرش الامبراطورى (٢) .

أما عن مساندى التمرد فقد سبق أن نقل فوقاس عددا من جنوده من أوروبا الى آسيا الصغرى ممن يعول عليهم ، وظل هؤلاء الجنـود على الولاء لذكرى فوقاس ، حتى أنهم حالوا بين هرقل وبين محـاولة عزل أو ايقاف كومينتيولوس Comentiolus من منصبه كقـائد

(١) Kaegi, New Evidence, PP. 313, 319.
(٢) Ibid, P. 313.

لأكبر فرقة من الجنود • وقد ساند هؤلاء الجنود تمرد كومينتيولوس ضد هرقل فى Ancyra (١) ولا تقدم سيرة حياة القـديس ثيودور أى تفسير لموقفهم هذا ، ويبدو أن كومينتيولوس وعدهم بالترقى والمناصب والأموال حتى يضمن مساعدتهم له فى التمرد (٢) •

ومن الممكن أن يؤرخ لتمرد كومينتيولوس Comentiolus وعدم اعترافه بسلطة هرقل بعـد أن وصـل الى Ancyra فى أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر ٦١٠م ، ولعل ما يدعونا الى تحديد أواخر عام ٦١٠م لحدوث التمرد تلك الفقرة الغريبة التى جـاءت فى تاريخ الأسقف يوحنا النقيوسى والتى جاء فيها : « وكان والد هرقل كثير الارتياب لكثرة الحروب التى حدثت •• وكان أسيف القلب قلقـا لـا حل بأبنه » (٣) • غير أن يوحنا النقيوسى لم يذكر شيئا عن هذا التمرد الذى قام به كومينتيولوس ضد هرقل صراحة ، ذلك التمـرد الذى أطالته التوترات الداخلية ، وطبيعة الحكم بعد موت فوقاس •

وتشير سيرة القديس ثيودور الى السفارات التى أرسلت من جانب هرقل الى كومينتيولوس من أجل التفاوض بالطرق السـلمية • فزار الراهب هيروديانوس Hérodianos القديس ثيودور فى طريقه — للتفاوض وقد نبأ القديس ثيودور هيروديانوس عندما سأله عن نتيجـة التمرد الذى قام به القائد كومينتيولوس Comentiolus وما ينتهى اليه هذا التمرد ، بأنه لا جدوى من هذا التمرد ، وأنه لن يسفر عن شىء وسوف ينتهى بسرعة (٤) •

وتبع سفارة الراهب هيروديانوس Hérodianos سفارة أخرى أرسلها الامبراطور وكان على رأسها فيليبكوس Philippicus

(١) Kaegi, New evidence, PP. 313., 314.
(٢) Loc. Cit.
(٣) مخطوطة يوحنا النقيوسى ، نشر عمر صابر ، ص ١٧١ .
Chronique de Jean, P. 431. Kaegi, New evidence, P. 315.
(٤) Féstugiere (éd.) La vie, II, P. 128.

الراهب والقائد السابق لموريس الذى كان فوقاس قد أرغمه على أن يصبح راهبا (١) وقد أرسل الامبراطور هذه السفارة على أمل أن يكسب كومينتيولوس Comentiolus بالطرق الودية السلمية ، غير أن فيليبكوس تأخر فى بيثينيا Bithynia لمراقبة الوضع العسكرى هناك ، وعندما علم بعض الجنود الموالين للقائد كومينتيولوس بوجود فيليبكوس هناك اعتقلوه ، وأخذوه الى كومينتيولوس فى Ancyra وفى الطريق اليها صعد فيليبكوس الى القديس ثيودور فى ديره ، وتلقى بركته وتوسل اليه أن يصلى من أجله ، فصلى القديس من أجله ، وحثه على مواجهة الخطر بلا خوف حتى يتم القضاء على الطغيان والاستبداد (٢) .

وبعد أسر فيليبكوس ، ووصوله الى Ancyra — مركز التمرد — بوقت قليل ، أصدر المتمردون أمرا باعدامه ، مع عدد كبير من كبار الشخصيات ، وكان أن نفذ فيهم حكم الاعدام . أما عن الاسباب الدقيقة لاعتقال فيليبكوس واعدامه فهى غير مؤكدة ، ولكن يبدو أن فيليبكوس لم يكن وسيطا محايدا للصلح وسفيرا الى كومينتيولوس أرسله هرقل لكسب كومينتيولوس بالطرق السلمية فحسب ، ولكن يلوح أن هرقل أرسله كذلك ليكون مراقبا عسكريا ، وكشخص قادر على ردع جنود التمرد والتغلب عليه ، وهذا ماتذكره سيرة ثيودور صراحة (٣) . كان فيليبكوس قائدا سابقا ومن الممكن الاعتماد عليه فى ظل هذه الظروف الصعبة ، فضلا عن ذلك فان فيليبكوس Philippicus كان يتمتع بصلة قوية مع والد هرقل وهو هرقل — ارخون افريقية — اذ خدما سويا فى الشرق ، تحت حكم الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) ، كما يجب على الباحث أن يضع فى الاعتبار كذلك ماكان يكنه فيليبكوس فى نفسه من كراهية

---

(١) انظر ما سبق ص ٥٠ .

(٢) Féstugiere (éd.) La vie, II, P. 128.

(٣) Loc. Cit.

لفوقاس الذى أرغمه على أن يصبح راهبا ، ورغبته فى التخلص من كل ما يمت له بصلة (١) •

وكان أن تحققت نبوءة القديس ثيودور السيكيونى Théodore de Sykéon فلم ينضم الى تمرد كومينتيولوس Comentiolus سائر الضباط ، وكتب قائد الجيش ويدعى Eutychianos وضباط آخـرون للقديس ثيودور لينقذهم من الطغيان الذى يهدد حياتهم • وقد نبأهم مرة أخرى بأن ذلك الطغيان سوف يزول وانه واثق من مساعدة الله لهم• وفى الحال تحققت نبوءته اذ جمع جوستينوس Justinus قائد القوات الارمينية رجاله ، واغتال كومينتيولوس رأس التمرد أثناء الليل ، وكان هؤلاء الارمن قد تجمعوا ضده فجأة (٢) •

وكان جوستينوس ووحـدته العسكرية من الأرمن قد صاحبـوا كومينتيولوس لقضاء الشتاء فى Ancyra ، وربما كان اغتيـال كومينتيولوس على يد جوستينوس Justinus وأتباعه من الآرمن يتنافى مع تماسكهم وتضامنهم معه ، اذ كان هرقل من أصل أرمنى كما ذكر الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos (٣) ولهذا منح هرقل مكافآت خاصة لجوستينوس Justinus ولقواته الارمينية اعترافا بخدماتهم (٤) •

انتهى هذا التمرد بسرعة حتى أن جورج البسيدى Georgius Pisida يفاخر بسرعة انتصار هرقل على هؤلاء المتمردين (٥) • ولكن مما لا شك فيه أن هذا التمرد كانت له خطورته اذ انه وقع فى لحظة حرجة تلك اللحظة التى كان على هرقل أن يحاول فيها توطيد سلطانه وتدعيم حكمه الجديد، كما أن هذا التمرد وقع بالقرب من الجبهة الفارسية المعادية لهرقل •

---

(١) Kaegi, New evidence, P. 315.

(٢) Festugiére (éd.) La vie, II, PP. 128, 129.

(٣) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 108.

(٤) Kaegi, New evidence, PP. 320 — 321.

(٥) Georgius Pisida, Heraclidos I, in C. S. H. B., P. 75.

ولعل هذا مادعا هرقل الى أن يسلك طريق السلام بارســال سفارتى هيروديانوس Hérodianos وفيليبكوس Philippicus محاولا بذلك أن يضمن الاستقرار والهدوء وأن يبعد آسيا الصغرى بقدر الامكان عن غزوات الفرس واغاراتهم • وبمعنى آخر كانت سفارات الســلام تهدف بالطبع الى انهاء التمرد بأقصى سرعة ممكنة من آجل وضع نهاية لكل آثار الحكم السابق ، ولتوطيد سلطة هرقل حتى يمكنه أن يحــول بين قادة الاقاليم الاخرى وبين القيام بحركات استقلال أو تمرد وحتى لايسمح للهجوم الفارسى أن يهدد امبراطورية لازالت تقسمها الحرب الاهلية امبراطورية بلا جيش يقوم بحماية حدها الشرقى(١) •

ويتضح مما سبق أن بداية حكم هرقل ، لم تكن بداية سهلة خالية من العقبات ، بل كان عليه أن يواجــه ذلك التمرد الذى قــام به شقيق الامبراطور السابق فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) ، ذلك التمرد الذى لم يكن معروفا الا بعد نشر ســيرة حيــاة القديس ثيودور السيكيونى Théodore de Sykéon (٢) الذى عاصر السنوات الثلاث الاولى من حكم هرقل ، وكشف الستار عن محاولة التمرد هذه •

على أنه لايبدو أن هرقل قد تخلص من بقايا أسرة فوقاس بالقضاء على كومينتيولوس Comentiolus شقيق فوقاس ، بل كان عليه أن يواجه محاولة أخرى للاستقلال والتمرد قام بها كريسبوس Crispus أو بريسكوس Priscus — صهر فوقاس — وكان كريسبوس — على نحو ماذكر نيقفوروس Nicephorus وليا على مدينة القسطنطينية عندما اقترب هرقل منها وحاول أن يحاصرها وهو من أعظم رجالات فوقاس غير أنه كان حاقدا حانقا عليه • ولهذا تحايل كريسبوس عــلى الامبراطور ، وعمل قدر استطاعته حتى ييسر مهمة هرقل ، ويبدو أن

---

(1) Kaegi, New evidence, P. 319.

(٢) قام Féstugiére بنشر سيرة حياة القديس ثيودور السيكيونى مع ترجمتها الى الفرنسية والتعليق عليها فى عام ١٩٧٠ .

مادفعه الى ذلك — بصرف النظر عن كراهيته لفوقاس — رغبته فى أن يتولى عرش الامبراطورية ، وان كان هرقل — كما يذكر نيقفوروس Nicephorus أيضــا — قد عرض عليه التاج ، ولكنه رفضه (١) • مما جعل موقفه يتسم بالغموض ، اذ كيف يرفض التاج حينما يعرض عليه وهو الذى كما كان يبدو — لم يكن قد حقق طموحاته بعد ، فقد كان يأمل فى الوصول الى السلطة وخلع فوقاس ، ومن أجل ذلك ساند هرقــل ودعاه الى المجىء الى القسطنطينية للتخلص من فوقاس (٢) •

عين هرقل كريسبوس قائدا للجيش المقيم فى قبادوقيا Cappadocia بآسيا الصغرى ، وهناك بدأ كريسبوس يكشف نواياه ، ويعمل كما لو كان مستقلا وأخذ يعامل الامبراطور معاملة سيئة ، فحينما أغار الفرس على الارض البيزنطية وذهب هرقل بنفسه الى كريسبوس فى قيصرية يستشيره فى الامر تمارض أو تظاهر بالمرض فزاره الامبراطور فى خيمته، فلم يحسن كريسبوس استقباله ، ولم يخرج لدى قدومه ، بل ظل فى فراشه ، ومع ذلك فقد احسن هرقل الحديث معه ، وطلب عونه لحماية البلاد من خطر الفرس ، ولكن كريسبوس سخر منه ، وكانت عباراته أثناء المناقشات وقحة اذ قال للامبراطور أنه كان لاينبغى عليه أن يظل فى قصره وجيشه فى الميدان ، أو بمعنى آخر انه كان عليه أن يترك قصره ويذهب الى معسكرات الجيش • فتفهم الامبراطور موقفه هذا ، واستاء من سوء معاملته له ، ولكنه أخفى كلا الامرين لحين تسنح الفرصة (٣) •

وكان نيقتاس Nicetas — ابن عم الامبراطور — قد وصل الى القسطنطينية فى ذلك الحين فعاد هرقل الى العاصمة ، حيث استقبل نيقتاس بحفاوة بالغة كأخ له ورفيق سلاح وجاء كريسبوس Crispus

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C. S. H. B., P. 4. 5.

(٢) انظر ما سبق ص ٦٠ •

(٣) Nicephorus, Breviarium, in C S. H. B., P. 6., Zanoras, Epitomae Historiarum Libri, T. 3., in C. S. H. B. PP. 206 — 207,

بدوره ليهنىء نيقتاس بوصوله • فانتهز الامبراطور هذه الفرصة وجمع — يوم تعميد طفله قسطنطين — مجلس الشيوخ (السناتو) والشعب جميعه والبطريرك سرجيوس ، وسأل الحاضرين : ماهى عقوبة من يهين الامبراطور ، فأجابوا جميعا قائلين : انه يهين الله ، وطلب هرقل من كريسبوس Crispus أن يقول بنفسه ماذا يجب عمله نحو مثل هذا الشخص ، ولم يكن كريسبوس يفهم حيلة الامبراطور ، فأجاب : « ان من يثبت عليه أنه اهان الامبراطور لايستحق أى رحمة » (١) •

وعندئذ قص الامبراطور ماحدث فى قيصرية من تمارض كريسبوس ، واهانته للامبراطور ومحاولته تحقيره كانسان وكامبراطور • وأخيرا أخذ الامبراطور الكتاب المقدس ، وضرب به كريسبوس على رأسه وقال : « بعد أن كنت صهرا سيئا ، كيف يمكن أن تصبح صديقا مخلصا » • وفى النهاية تقرر أن يصبح كريسبوس راهبا ، وبالفعل دخل الدير فى ديسمبر من عام ٦١٢ م (٢) •

أما الجيش الذى كان يعمل تحت لواء كريسبوس Crispus فقد ضمه الامبراطور اليه ، وتوجه اليه بقــوله : « ان كريسبوس كان يعتبركم خدما له حتى اليوم ، أما نحن فسوف نعتبركم منذ اليوم أصدقاء وحلفاء للامبراطورية » وأمر بأن تصرف لهم جراية من القمح سنويا ، فاستقبله الجيش بفرح ، وأعلن ولاءه له (٣) •

وعين هرقل فيليبكوس Philippicus — سفيره أثناء المفاوضـات مع القائد المتمرد كومينتيولوس Comentiolus بعد أن أخرجه من الدير —

(١) Nicephorus, Breviarium, in C. S. H B., PP. 6-7.

(٢) Ibid, P. 7

(٣) Zanoras, Epitomae, in C. S. H. B., T. 3 P. 207.
Nicephorus, Breviarium, P 7.

قائدا لقوات آسيا الصغرى فى قيصرية Caesarea ليحل بذلك محل كريسبوس Crispus [1] .

وبعد أن تخلص هرقل من كريسبوس ، وقضى على محاولته التمرد كان على هرقل أن يواجه الوضع الداخلى السىء للامبراطورية والفوضى المنتشرة فى جميع أرجائها .

---

(1) Nicephorus, Breviarium, P. 8.

الفصل الثانى

الاحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية
فى عصر الامبراطور هرقل

— الفوضى الداخلية فى الدولة البيزنطية فى بداية حكم هـرقل واسبابها •

— نظام وراثة العرش •

— الاحزاب السياسية فى الدولة البيزنطية فى عهد هرقل •

— التفكير فى نقل مركز قيادته الى افريقية (قرطاجة) •

— نظام الثغور •

(معناه — نشأته — جذوره — ادارة الثغر — أقسامه — نتائج نظام الثغور) •

— تحول الدولة البيزنطية الى الطابع اليونانى •

(فى الالقاب — التشريع — الجيش — العملات النقدية)

كانت الامور فى داخل الامبراطورية البيزنطية عندما اعتلى الامبراطور هرقل العرش — فى حالة من الفوضى التامة ، فى جميع النواحى سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية • وترجع هذه الفوضى أولا الى قوة الطبقة الارستقراطية التى يبدو أن فوقاس لم يكن قد تغلب عليها بدليل أنها كانت تتآمر عليه بصفة مستمرة — على نحو ما رأينا — وظلت هذه الطبقة تتسبب فى احداث الفوضى حتى اوائل حكم الامبراطور هرقل[١]•

وتسبب فى احداث الفوضى كذلك النزاع بين المسيحيين أنفسهم من ارثوذكس ومونوفيزتيين وبينهم وبين اليهود ، تلك المنازعات التى حولت العديد من مدن الامبراطورية الى ميادين قتال[٢] •

وكانت المنازعات بين الاحـزاب السياسية سببا ثالثا فى احداث الفوضى العامة[٣] ، ويضاف الى ذلك الوضع المالى والاقتصادى السيىء للامبراطورية البيزنطية والذى ورثه هرقل عن سلفه فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) اذ كانت الخزانة خـاوية ، ويرجع ذلك الى كثرة ما فقـدته الامبراطوريـة من أقاليم واراضى ، فقـد نهبت آسيا الصغرى على يـد حملتين فارسيتين ، وضاع اقليم مابين النهرين Mesopotamia وجـزء من سوريا ، وعانت مصر من الكوارث خـلال الحـرب بين نيقتاس — ابن عم الامبراطور — وبونوس Bonosus قائد الامبراطور السابق فوقـاس ، وكانت الحـرب مع اللمبارديـين فى ايطاليا فى حاجة ماسـة الى المال مـن أجل تجـديد الهدنة مما اضر بالاقتصـاد ضررا بالغـا • حقيقة أن ولاية افريقية كانت ذات اقتصـاد منتعش ولكن تحملها عبء تجهيز واعداد حملتى نيقتاس وهـرقل قد أثر على اقتصادها[٤] •

---

(١) انظر ماسبق فى الفصل الاول

(٢) انظر مايلى فى الفصل الثالث ، وماسبق فى الفصل الاول .

(٣) انظر ما سبق ص ٥٢ — ٥٦ .

(٤) Finlay, History of Greece, Vol. I, P. 316, Stratos, Byzantium, PP. 99 — 100.

أما عن الجيش ، فلم يعد هناك ذلك الجيش القوى المدرب الذى كان موجودا أيام الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) ، فمع مـرور السنين وما تعرض له الجيش من هزائم متتالية ودائمة فى أيام فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) ، لم تعد له الكفاءة على القتال . هذا فضلا عن أن نظام الجيش كان يقوم أساسا علي تجنيد المرتزقة ، وهذا النظام أضحى عديم الفائدة عندما أفلست الخزانة الامبراطورية ، ويضاف الى ذلك أنه لم يعـد فى استطاعة الامبراطورية الحصول على الجنود من آسيا التى تعرضت لغارات الفرس ، وبالتالى تناقص عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية تناقصا شديدا ، نتيجة لعدم الرغبة فى أداء الخدمة العسكرية وكراهية الناس لها . هذا فضلا عن أن الجنود تركوا صفوفهم ومواقعهم ورتبهم ولجأوا الى الاديرة ليصبحوا رهبانا ، على أمل أن يجدوا فيها الامن والسلام (١) .

وفى ظل هذا الوضع السىء للامبراطورية ، لم يكن أمام الامبراطور هرقل من وسيلة للاصـلاح سوى التنظيم الداخلى الذى باستطاعتـه انقاذ الامبراطورية من الدمار ، واعادة بناء اقتصادها المنهار ، وايجاد جيش قادر على الدفاع عنها ، ثم كان على هرقل أن يدعم سلطته ، وأن يوقف المنـازعات بين الاحـزاب ، ويهـدىء الصراعات الدينيـة بين الملكانيين (٢) والمونوفيزتيين وأن يعيدهم الى حظيرة الامبراطـورية ، وأخيرا كان على هرقل أن ينقذ الامبراطورية من خطر الفرس والآفار ويعيد الاقاليم الشرقية التى انفصلت عن الامبراطورية (٣) .

شرع الامبراطور هرقل يعمل بطاقة وجهد كبيرين من أجل وضـع العلاج المناسب لمـا تعانيه الامبراطورية من تدهور ، والعمل عـلى اصلاحها وانقاذها . وبدأ هرقل يعمل أولا من أجل تثبيت سلطته ، وسلطة

(1) Finlay, History of Greece, Vol. I, P. 314, Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 83, Stratos, Byzantium : P. 97.

(٢) عن الملكانيين انظر الفصل الثالث ص ١٥٣ ، حاشية ٣ .

(٣) انظر الفصل الرابع .

أسرته ، وخاصة بعد أن تخلص من حركات التمرد التى قام بها أقـــارب الامبراطور السابق فوقاس (١) •

اتخذ هرقل فى هذا السبيل ما قام فى بيزنطة من نظام الاشتراك فى الحـــكم بمعنى أن يجعل الامبراطور من يرشحه ليكون امبراطورا من بعده شريكا له فى الحكم أثناء حياته ، ولهذا الشريك ما للامبراطور من شـــارات الملك وله أن يتخذ التـــاج واللقب الامبراطورى ، وأن ينقش اسمه على العملات ، ويرد اسمه فى المراسيم الامبراطورية ، واذا مات الامبراطور يتولى هذا الشريك بدوره العرش • وترجع أهمية هذا النظام الى أنه يضمن بقاء الحكم فى الاسرة الامبراطورية ، مع استمرار هـــذه الاسرة فى الحكم ، كما أنه يكفل للامبراطور تعيين من يرغب فى أن يوليه حكم الامبراطورية من بعده (٢) •

ومما لا شك فيه أن اتخاذ الامبراطور هـــرقل لهذا النظـــام كان محاولة منه للعودة بالامبراطورية البيزنطية الى نظام وراثة العرش • على أن الجديد الذى أدخله هرقل على هذا النظـــام هو أنه لم يـــكتف باتخاذ أحد أبنائه كشريك له فى الحكم ، بل اتخذ شريكين منهـــم له فى الحكم ، هذا فضلا عن أنه أشركهما معه منذ ميلادهما •

تزوج الامبراطور هرقل من زوجته الاولى الامبراطورة اوداكيا Eudocia فـــور اعتلائه العـــرش فى الخامس من أكتـــوبر عام ٦١٠م ، ورزق منها بطفلين هما ابنته ابيفانيا Epiphania فى يوليو ٦١١م ، ثم هرقل الصغير (٦١٢م) (٣) وقام الامبراطور هرقل بتعميد

---

(١) انظر ما سبق ص ٧٥ — ٨٤ •

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine, P. 96.

السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣٢ •

(٣) ويطلق المؤرخون على هرقل الصغير اسم « قسطنطين الصغير » وجاء فى الحوليات الفصحية أنه ولد فى ٢٢ يناير عام ٦١٣م ويتفق معه البطريرك نيقفور فى ذلك ، هذا فى حين يذكر ثيوفانيس أنه ولد فى عام ٦١٢م •

انظر : Chronicon Paschale, I, in C.S.H.B., PP. 703-4.

Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 10, Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 461.

ابنه على يد البطريرك سرجيوس Sergius ، وحمله على ذراعية ، والبسه الملابس الامبراطورية ، ووضع التاج على رأسه ، وأعلنه امبراطورا منذ ميلاده وشريكا له فى الحكم (١) .

ولم يلبث هرقل ان أعلن ابنه قسطنطين (هرقل الصغير) قنصلا عاما ، وذلك فى أول يناير عام ٦٣٢ م ، وكان لمنح قسطنطين هذا لقب قنصل Consul أهمية دستورية اذ أنه يدل على أن الامبراطور المشارك أصبح له حق ممارسة الواجبات والالتزمات الامبراطورية ، كما أنه كان اعترافا فعليا بأن قسطنطين كان قد بلغ السن القانونية التى تؤهله لممارسة السلطة الامبراطورية وكان قسطنطين الصغير قد بلغ فى ذلك الوقت التاسعة عشرة من عمره (٢) .

وتزوج الامبراطور هرقل — عندما توفيت اوداكيا Eudocia عام ٦١٢م (٣) — من مارتينا Martina وهى ابنة اخته ماريا ، واعتبر هذا الزواج زواجا غير شرعى تحرمه قوانين الكنيسة والامبراطورية ، لأنه توجد صلة قرابة بين هرقل ومارتينا من الدرجة الثالثة (٤) .

قاوم البطريرك سرجيوس Sergius هذا الزواج مقاومة شديدة ، لكى يثنى الامبراطور هرقل عن اتمامه ، وحاول سرجيوس جاهدا ككاهن عظيم المكانة ، وكصديق للامبراطور أن يؤثر عليه ، وأن ينصحه بالعدول عن هذه الزيجة الغير شرعية ، ولكنه لم يجد لدى هرقل

---

(١) Nicephorus, Breviarium, P. 10, Zanoras, Epitomae Historiarum Libri, T.3, in, C.S.H.B. P. 204.

(٢) Stratos, Byzantium, P. 264.

(٣) توفيت فى قصر البلاشيران ، ودفنت فى كنيسة الرسل المقدسة حيث توجد المقابر الملكية .

انظر : Lebeau, Histoire de Bas-Empire, T. XI PP. 4-5, Stratos, Byzantium, P. 55.

(٤) Nicephorus, Breviarium, P. 16, Stratos, Byzantium, P. 95.

آذانا صاغية إذا اجابه الامبراطور : « إنك تقول الحق ، لأنك تـؤدى واجبك كبطريرك وكصديق ولكن الامر يرجع لنا فى تنفيذ أقوالك » (١) .

ورغم مقاومة البطريرك سرجيوس لهذا الزواج غير الشرعى ، إلا أنه اضطر فى النهاية الى أن يبارك هذا الزواج ، ويضع التاج عـلى رأس الامبراطورة مارتينا Martina بنفسه بل وقام بعد ذلك بتطهير أبناء هرقل من مارتينا تطهيرا روحيا بأن غسلهم بالمـاء كرمـز لتطهيرهم، وان دل تصرف سرجيوس هذا على شيء فانما يدل على أن سلطة الامبراطور كانت مطلقة وكـانت لاتزال تفـوق سـلطة بطريرك الكنيسة (٢) .

وعلى الرغم من مبـاركة سرجيوس لزواج هرقل بمارتينا الا أن اعتراضات الناس والشعب ورجال الدين على هذا الزواج لم تتوقف . فقد كتب البطريرك نيقفوروس Nicephorus — بعد حوالى أكثر من مائتى عـام — أن هرقل خالف بـزواجه من مارتينا شريعة الروم المقدسة ، واقترف بهذا الزواج اثما عظيما ، غير ان الله عاقبه عـلى انتهاكه حـرمة القـربى بأن رزق من مارتينا بتسـعة أطفال مصـابين بعاهات (٣) .

أنجب الامبراطور هرقل من مارتينا Martina فى عام ٦٢٦م طفـلا سمـاه هرقليونـاس Heracleonas ، وجعله الامبراطور وريثا وخليفة له اذ اشركه معه فى الحكم الى جانب أخيه الأكبر من اوداكيـا Eudocia وهو قسطنطين ، ويبدو أنه فعل ذلك لعدة عوامل من بينها تدهور صحته ورغبته فى أن يؤمن هرقليوناس ، وأن يرفع من

---

(١) Nicephorus, Breviarium, P. 17.

(٢) Alexander, «**Heraclius, Byzantine imperal Idology**» in Speculum (1977), P. 230.

(٣) Nicephorus, P. 16-17, Zanoras, Epitomae T. 3 in C.S.H.B., P. 205, Lebeau, Histoire, T. XI, P. 10.

منزلته حتى يصبح له الحق فى وراثة عرش الامبراطورية ، خاصة أنه كان ينظر اليه على أنه ابن غير شرعى ، يضاف الى ذلك ضـــغط مارتينا على هرقل من أجل أن يحفظ حق ابنها فى العرش (١) •

وما لبث الامبراطور هرقل ان رفع هرقليوناس Heracleonas الى مرتبة القيصر (٢) فى أول يناير عام ٦٣٢م وهو ابن السادسة ، وكان للقيصر من قبل امتيازات مختلفة منها أنه يجلس بجانب الامبــراطور ولكن على مقعد أسفل مقعــد الامبراطور ، وكان يجلس على المـــائدة الامبراطورية وله حقوق أن يعيش فى القصر ، ويتمتع بحرس خاص ، وكان هرقل يأمل بذلك أن يتولى هرقليوناس العرش فى سلام بعد أخيه الاكبر • ثم حصل هرقليوناس على لقب أغسطس عام ٦٣٨ م ، وفى العام التالى حمل هذا الامبراطور ابن الثالثة عشرة شارات القنصلية شأنه فى ذلك شأن أخيه الاكبر قسطنطين (٣) •

كذلك عهد الامبراطور هرقل الى أقاربه واخوته بالمناصب والوظائف الكبيرة فى الدولة ، حتى يحكم قبضته عليها ، ويدعم سلطته من خلالهم ، فعين ابن عمه نيقتاس Nicetas فى منصب أمير احـــدى فرق الحرس الامبراطورى Count of Excubitors (٤) ، كمـــا منحـــه رتبة البطريق Patrice (٥) مع احتفاظه بمنصبه كحاكم على

---

(١) Bar Hebraeus, The Chronography, First part, P. 93, Stratos, Byzantium, P. 264, Alexander, Heraclius, P. 231.

(٢) يتولى هذا المنصب أمير سامى المقام من الدم الملكى أو صاحب الحق فى وراثة العرش • وعن هذا المنصب انظر : رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩٠ •

(٣) Lebeau, Histoire, T. XI, P. 168., Bréhier, «**La transformation** de L'empire Byzantine» dans Journal des Savants (1917), P. 409. ; Stratos, Byzantium, PP. 264-65.

(٤) رنسيمان ، الحضارة ، ص ١٦٤ •

(٥) عن منصب البطريق انظــر : رنسيمان ، الحضارة ، ص ٩٢ ، انظر ايضا : Nicephorus, Breviarium, P. 24., Chronicon paschale, P. 703.

مصر • وعندما استولى الفرس على مصر ٦١٩م عينه أرخونا لافريقية ، وظل نيقتاس فى هذا المنصب حتى مات فى عام ٦٢٨ — ٦٢٩م (١) •

ومن أجل أن يوطد هرقل صلة القرابة مع ابن عمه نيقتاس وليعوضه عن العرش وربما ليمنع حقده عليه ، زوج ابنه الاكبر قسطنطين من ابنه نيقتاس وهى Gregoria ، كما زوج ابنا آخر له يدعى ثيودوسيوس Theodosus من ابنة أخرى لنيقتاس تدعى Nicé وبذلك استمر هرقل يوطد بالمصاهرات صلاته مع نيقتاس (٢) •

كما عين الامبراطور هرقل أخاه وساعده الايمن ثيودور Theodore فى منصب عميد القصر Curopalates (٣) ، واستخدمه فى كثير من المهام ، وعمل ثيودور كقائد للجيوش البيزنطية فى حروب هرقل ضد الفرس والمسلمين (٤) •

الاحزاب السياسية فى الدولة البيزنطية فى عهد هرقل :

بذل الامبراطور هرقل جهده من أجل انهاء نزاعات الاحزاب وصراعاتهم التى كانت من أسباب احداث الفوضى فى جميع أنحاء الامبراطورية • والحقيقة أن المصادر لاتشفى غليل الباحث فيما يتعلق بدور الاحزاب فى عهد الامبراطور هرقل هذا وان كانت تساهم بنصيب وافر من المعلومات فى عهد سابقيه موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) وفوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) ولعل مرجع ذلك أن الاحزاب السياسية لم تعد تشكل خطرا بالغا فى ظل حكم الامبراطور هرقل ، الذى استمر واحدا وثلاثين عاما • فمن المعروف أن الاحزاب السياسية وبصفة خاصة حزب الخضر

---

(١) Bréhier, La **transformation,** P. 410, Stratos, Byzantium, P. 96.

(٢) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 24, Lébeau, Histoire T., XI, P. 4, 168.

(٣) عن هذا المنصب انظر ، رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩١ ، أسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٤٢ .

(٤) انظر مايلى فى الفصل الرابع والسادس .

ساند هرقل وانضم اليه ، ووقف الى جانبه ضد فوقاس ، بل ولعب دورا هاما فى تيسير مهمة هرقل عند دخوله القسطنطينية ، بل ان حزب الخضر أعلن التمـــرد ضد فوقاس ، وقتل قائـــده بونـــوس Bonosus أما عن حزب الزرقفكان يميل الى جانب فوقاس ، ولكن بعد مقتل الأخير ، واعلان هرقل امبراطورا وتتويجه (اكتوبر ٦١٠م) كان على هذا الحزب أن يتوارى (١) .

اســـتطاع هرقل أن يمتص غضب الاحـــزاب ، وأن يقضى عـــلى المنازعات التى كانت بينهم،ولعل ما ساعده على ذلك،ما قام به من اصلاح ادارى ، اذ كان هذا الاصلاح الادارى والتقسيم الجـــديد للدولة الى ثغـــــور Themes ضربة قاتلة للاحزاب . اذ أمسى القادة هم الذين يحكمون الثغور ، ولذلك أخذت قوة الاحزاب فى الضعف ، وبـــدأ نفوذهم يقل ، وأخذت مظاهراتهم فى الاختفاء (٢) .

كما أن الاوضاع التى سادت الامبراطورية والمخاطر التى تعرضت لها ، وخاصة من جانب الفرس الذين استولوا على بيت المقدس عـــام ٦١٤م ، وحملوا معهم الصليب المقدس ، قد حركت فى الاحزاب — فى كل من القسطنطينة وسالونيك وسائر اقاليم الامبراطورية — الشعور القومى ، وجعلتهم يتناسون عدواتهم المتبـــادلة ومنازعاتهم المستمرة ، ودفعتهم أيضـــا الى أن يوحدوا جهـــودهم ، وان يصبحوا على أهبـــة الاستعداد دائما للاسراع الى الأســـوار والدفاع عن مـــدنهم ومنازلهم وأسرهم (٣) .

وعلى هذا النحو فان الاخطار المستمرة التى عانت منها الامبراطورية

---

(١) انظر الفصل الاول ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) انظر ما يلى ص ١٠٨ وما يليها ، وانظر أيضا :

Stratos, Byzantium, P. 263.

(٣) Janssens, «Les Bleus et les Verts Sous Maurice, Phocas, et Heraclius» dans Byzantion (1936) P. 535., Stratos, Byzantium, PP. 262-63.

فى عهد هرقل لم تترك فراغا للاحزاب ولم تتح لهم الفرصة للتنازع فيما بينهم ، واحداث الاضطرابات والفوضى فى البلاد ، ويضاف الى ما سبق أن هرقل اتبع سياسة حكيمة تجاه الاحزاب كان لها أكبر الاثر فى تهدئة المنازعات بينهم فعلى الرغم من أن الخضر ساندوه بكل قوة ، وكان لهم اليد الطولى فى دخوله القسطنطينية ، الا أنه لم يحاب هؤلاء على الزرق — الذين أظهروا ميلا لفوقاس — واكتفى هرقل بأن أحـرق علمهم أو رايتهم كعقاب لهم على استمرارهم فى معاونة فوقاس ، وذلك رغبة منه فى الا يثير استياءهم وسخطهم (١) • وأظهر هرقل الحذر بلا شـك فى تعامله مع الاحزاب ، فلم يفضل علانية أحد الحزبين على الآخر ، وربما يرجع ذلك الى انشغال هرقل بالاخطار الخارجية التى هددت الامبراطورية ممثلة فى خطر الفرس والسلاف والآفار ، فضلا عن انشغاله بالمشـكلة الدينية التى كان يسعى جاهدا لايجاد حل لها (٢) •

كذلك يرجع نجاح هرقل فى القضاء على المنـازعات الدمـوية بين الزرق والخضر الى تلك الشعبيـة الكبـيرة التى تمتع بها الامبـراطور هرقل خاصة بعد أن ظهر فى أعين شعبه كبطل للحرب المقدسة فقد أعـاد الصليب الحقيقى الذى انتزعه الفرس فى عام ٦١٤م الى مكانه فى بيت المقدس (٣) •

وساهمت العوامل السابقة فى أنه لم تسمع أى شكوى من جانب الاحزاب خلال حكم هرقل (٦١٠ — ٦٤١م) غير موقفهم من زواج هرقل من ابنـة أختـه مارتينا Martina ، اذ عارضت الاحزاب هـذا الزواج معارضة شديدة ، بل وأن هذا الزواج أحدث نوعا من المشـاركة والاتحاد بين الاحزاب ، وأثار ثائرتهم حتى أن الخضر — الذين كانـوا

---

(١) Janssens, Les Bleus, PP. 532-33.

(٢) انظر الفصل الثالث والرابع .

(٣) Janssens, **Les Bleus**, P. 532., Bréhier, La **transformation**, P. 410.

ينظرون الى هرقل بعين الاكبار والاعزاز — راحوا ينسخرون منه — بسبب هذه الزيجة — حين كان يظهر فى الملعب (الهبدروم) مع مارتينا ، ويستقبحون عمله هذا ، ويوجهون له نداءات بذيئة ، ويحيونه بتحية مهينة أثناء الالعاب (١) .

ومع أن قوة الأحزاب أخذت فى الضعف فى عهد هرقل ، وأخذت مظاهراتهم فى الاختفاء الا أن الاحزاب لم تكف عن لعب دورها ، فالى جانب دوها فى تنظيم سباقات الخيول والعربات ، وجميع الالعاب فى الهبدروم Hippodrome اشتركت الاحزاب فى الاحتفالات والعروض التى كانت تقوم عند تتويج الاباطرة ، وأبرز مثال على ذلك ، عندما قام الامبراطور هرقل بتتويج ابنه هرقل الصغير والمعروف بقسطنطين — كامبراطور وشريك له فى الحكم فى عام ٦١٢ أو يناير ٦١٣م ، نجد الاحزاب تشترك فى احتفالات البلاط البيزنطى بهذا للتتويج ، كما نجدها ترحب بالامبراطور الجديد فى الملعب (٢) .

وعندما أظهر خاقان الافار رغبته فى مصالحة البيزنطيين والتفاوض معهم (٦٢٣م) رحب هرقل بمبادرة الخاقان ، بل وأعد حفلا لاستقباله بنفسه ، وحمل معه الى هرقلة — المكان المحدد للقاء بين الخاقان وهرقل — عدة المسرح وسباق العربات ، اشتركت الاحزاب فى هذا الاحتفال ، وخرج ممثلون عن الاحزاب فى صحبة الامبراطور لاستقبال الخاقان فى هرقلة (٣) .

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 16 Janssens, **Les Bleus**, P. 533, Lebeau, Histoire de Bas-Empire, T. XI, P. 10, Bréhier, **Les Institutions**, P. 200, Stratos, Byzantium P. 95.

(٢) Chronicon Paschale, I, in C.S.H.B., PP. 703-704, Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 10 Theophanis, Chronographia In, C.S.H.B., P. 461, Janssens, **Les Bleus**, P. 533,

(٣) انظر ما يلى فى الفصل الخامس .

وعندما عاد الامبراطور هرقل الى القسطنطينية بعد انتصاره على الفرس واستعادته للصليب المقدس كانوا فى شرف استقباله ، والترحيب به والهتاف له (١) .

الحياة الاقتصادية فى عهد هرقل :

واجه هرقل عند اعتلائه عرش الامبــراطورية البيزنطية فى عــام ٦١٠م اقتصادا منهارا ، هذا وقد أثر على الوضع الاقتصادى كذلك تلك المجاعة التى تعرضت لها الدولة البيزنطية فى السنة الاولى لاعتلاء هرقل العرش اذ « عرض بالروم جوع شديد حتى أكل النـــاس الجيف وجلود البهائم » (٢) . ومما زاد الأمر سوءا ان تعرضت القسطنطينية كذلك فى نفس العام (٢٠ أبريل ٦١١م) لهزة أرضية عنيفة ، دمرت فيها منازل كثيرة ، ويبدو أن التدمير كان على نطاق كبير (٣) .

ونتيجة لمـــا حل بالامبراطورية من المجـــاعة وما ترتب عليها من انتشار مرض الطاعون وما تعرضت له القسطنطينية من هزات أرضية أن عانت الامبراطورية من أزمة سكانية حادة ثم اشتدت حدة هذه الازمة بسبب الاغارات التى شنها الفرس والسلاف والآفار على الامبراطورية ، وتزايد تقدم الفرس ، واستولوا على بقية اجزاء سوريا ومصر وخاصة الاسكندرية . ونتيجة لذلك توقفت حركة التجارة مع آســيا الى حــد كبير ، فقد كانت الاسكندرية مفتاح التجارة الاسيوية تلك التجارة التى كانت تمر عبر خليج عدن والبحر الاحمر والنيل الى كافة أرجـــاء أوربا

(١) Stratos, Byzantium, P. 263.

(٢) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، نشره فازيليف فى مجموعة اعمال الاباء الشرقيين النص بالعربية مع ترجمة بالفرنسية ، جـ٢ ص ٤٥٠ ، ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٩١ .

(٣) Chronicon Paschale, I, in C.S.H.B., P. 702 Addai Scher et Griveau (ed) Chronique de Seert (Histoire Nestorienne) in P. O., T. XIII., P. 527.

تقريبا • وأدى استيلاء الفرس على الاسكندرية كذلك الى احتـــكارهم للتجارة وخاصة تجارة الحرير ، كما نتج عن احتلال الفرس لتلك المدينة أن شلت حركتها ، وأصبحت تعانى من البطالة (١) •

وعانت الامبراطورية من الازمات المالية ، فقد ورث هرقل خزانة خاوية ارهقها ذلك العدد الذى لاحصر له من موظفى البلاط،الذين أحاطوا بالامبراطور وتسبب هذا العدد الهائل من الموظفين فى تضخم الانفاق (٢) كما كانت الدولة تنفق مبالغ طائلة على توزيع الخبـــز واللحم والخمـــر والزيت على سكان العاصمة (٣) • وتحتم كذلك على الامبراطور أن يدفع لكسرى فارس جزية لشراء الصلح معه ، بلغت قيمتها من عشرين الى ثلاثين ألف قطعة من الذهب ، فى كل المعاهدات التى عقدت فى بداية القرن الســـابع كذلك كان من الضرورى الانفاق على الجيش واعـــداده اقتال أعداء الامبراطورية من فرس وآفار (٤) •

وبضياع ولايات الامبراطورية الشرقية ممثلة فى سوريا ومصر ، فقدت الامبراطورية كميات كبيرة من الذهب ، كمـــا قطعت اتصــــالاتها باسواق الذهب ، وقل حجم الذهب المستخدم فى التداول بالتالى ، مما أدى الى ازدياد تدهور التجارة البيزنطية ، اذ أدى تناقص النقـــود الى تدهور التجارة ، وقلت الصادرلت والواردات لانعدام الكميات الكافيـــة من النقود البيزنطية (٥) •

حقيقة أن العملة الذهبية البيزنطية احتفظت بقيمتها ، الا أن درجة نقاوتها أصبحت أقل قليلا ، أما العملات الفضية والبرونزية ، فقد فقدت

---

(١) Lopez, «The rôle of trade in the economic Byzantium in the Seventh Century», in Dumbarton Oaks papers (1959) PP. 70-72.

(٢) Finaly, History of Greece, Vol. I, P. 320.

(٣) بينز الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٧ .

(٤) توفيق اسكندر ، بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ٥٥ — ٥٦ .

(٥) توفيق اسكندر المرجع السابق ،ص ٥٥ .

نصف قيمتها خاصة وان استمرار الحرب مع فارس ادى الى منع وصول الفضـــة الى الدولة البيزنطية • وهكذا هددت الكارثة المـــالية بيزنطـــة بعد ضياع الاقاليم الشرقية التى كانت الدولة البيزنطية تستمد منهـــا الجانب الاكبر من دخلها (١) •

ولهذا سعى الامبراطور هرقل بخطوات واســـعة من أجل اقـــامة اقتصاد الامبراطورية المنهار ، وقد اتخذ فى هذا السبيل عدة اجراءات ، آمل بها أن يحل المشكلة الاقتصادية ، وأولى هذه الاجراءات أنه أصدر قرارا فى أول مايو عام ٦١٢م ، حدد بمقتضاه عدد رجال الدين والموظفين فى كنيســـة آيا صوفيا ، وذلك حتى يوفر رواتبهـــم (٢) • ثم اتخـــذ الامبراطور الاجراء الثانى فى عام ٦١٥م ، وهو اصدار عملة فضية تزن ستة جرامات ، وكانت قيمتها المعلنة ضعف قيمتها الحقيقية ، واستخدم الامبراطور هذه العملة فى دفع المرتبات التى فقـــدت نصـــف قيمتهـــا الشرائية بالتالى (٣) •

واضطر الامبراطور هرقل الى اتخاذ الاجراء الثالث فى عام ٦١٨م فنتيجة لانقطاع ارسال القمح من مصر بعد أن استولى عليها الفرس ، ومع عدم كفاية المعونات التى كانت تأتى الى الامبراطورية من افريقيه — فقد تعرضت الامبراطورية لمجاعة فى تلك الفترة اذ نفذت أكثر مؤنها ، كما أن الطاعون أهلك اعدادا كبيرة من الناس ، وأصاب الامبراطورية قحط شديد ، وأصبحت فى أمس الحاجة لشراء القمح وبأثمان باهظـــة ، وكانت الخزانة خاوية ، ولم يجد هرقل أمامه من وسيلة سوى أن يفرض ضريبة لم تكن مفروضة من قبل وهى ثلاث قطع من الذهب على كل من

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 125.

(٢) Bréhier, La transformation, P. 410, Stratos Byzantium P. 100.

(٣) Chronicon Paschale, Vol. I in C.S.H.B., P, 706,, Bréhier, La transformation, P. 410, Stratos, Byzantium, P. 100.

وعن العملات الخاصة بهرقل انظر ما يلى ص ١٣٧ — ١٣٨ •

يكون له الحق فى الحصول على الخبز المحلى (١) .

ولكن هذا الاجراء لم يكف لسد العجز المـالى الكبير الذى عانته الخزانة الامبراطورية ، هذا فضلا عن أن شعب العاصمة — الذى تعود للحصـول على الخبز — لم يقبل هذا الاجراء ، وقام باثارة الاضطرابات فى العاصمة . فمن المعروف أنه منذ عهد الامبراطور قسطنطين العظيـم وشعب العاصمة يتمتع بمنح يومية من الخبز المجانى ، وكان قسطنطين يقوم بتوزيع تلك المنح على أصحاب المنازل التى تقام فى القسطنطينية ، وذلك لكى يجذب عددا كبيرا من السكان الى مدينته الجديدة . واستمرت هذه المنح تورث للاجيال المتعاقبة طالمـا ظل المنزل يحمل نفس اللقب . وكان رب كل أسرة يحصل على قدر معين من الخبز على حسـب منزلته ، ومكانته ، وعـدد أولاده . وزاد هـذا العطـاء فى عهد الامبـراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ — ٣٩٥م) (٢) .

ومن ثم كان طبيعيا أن يحدث اجراء هرقل هذا ، بفرض ضريبـة على الخبز المحلى ، نوعا من الاضطراب فى القسطنطينية ، اذ أنه تسبب فى أحداث تغيير فى مجرى الحياة فى القسطنطينية بدرجة كبيرة ، وذلك لأن قطاعا كبيرا من الناس كانوا يعيشون على ما توزعه عليهـم الدولة من الخبز واللحم والخمر والزيت (٣) . هذا فضلا عن أن الغاء هـرقل لتـوزيع الخبـز المجـانى كـان لـه تأثـير عـلى طائفـة مـلاك السـفن ، التى كـان تمـوين العاصـمة القسطنطينيـة وتزويـدها بالغلال واحـدا من أهم المهـام التى القيت عـلى عاتقهـم . وكانت هـذه الطائفـة تتمتـع فى عهـد جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ببعض الامتيـازات الهامة ، وفى أثنـاء حكم موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م)

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B,, P. 13, Finlay, History of Greece I, P. 319, Bratianu, «**La question de l'approvisionnement de Constantinople» dans Byzantion** (1930) P. 90., Lebeau, Histoire, T., XI, PP. 19-20, Bréhier, La transfomation, P. 410.

(٢) Lebeau, Histoire, T., XI, P. 20, Finlay, History of Greece, I, P. 319.

(٣) Stratos; Byzantium; P. 101.

صـــدر قانون مؤداه أن قبطان السفينة لا يعاقب عندما تتحطم سفينته بل تتحمل الدولة الخســـارة ، وتدفع له التعويضات اللازمة، أما فى عهد هرقل فقد أصبح أصحاب السفن عملاء أحرارا سعوا فى البحار من أجل مــكسبهم الشخصى ، ومن ثم أثر قرار هرقل على الطــائفة اذ قــل نشاطهم وبالتالى مكسبهم (١) •

وربما كان لغـــاء الخبز المجانى تأثير أيضـــا على طائفة الخبازين الذين كانوا يتمتعون فى أرجاء المدينة بامتيازات من بينها انهم لا يلتزمون بتأدية خدمات وواجبات عامة ، بل يشترون القمح ويقومون بطحنــه ويحصلون لقاء ذلك على ربح خالص الى جانب ما يتقاضونه لغذاء دواب الطاحون ولشراء الوقود اللازم للافرانوالاضاءة • ومن ثم فان عملهم هــذا تــأثر باجــراء هرقل النــاتج عن قلــة القمــح فى اســواق الامبراطورية (٢) •

وعلى الرغم من ابطال توزيع الخبز بالمجان فى القسطنطينية ، الا أنه استمرت توزع على جنـــود الحرس الامبراطـــورى تلك الحصص التى تعرف باسم « خبز البلاط » • وفى عام ٦٢٦ م قام يوحنا سيسمـــوس Joannen Sismus أمين الخــزانة بابطالهـــا كلية ، بحجـــة ســـد نفقات الحرب مع الفرس ، كما حاول أن يرفع سعر الخبز من ثلاث الى ثمان قطع من الـــ Folles فتسبب ذلك فى احداث شـــغب بالعاصمة • وفى ١٤ مايو تجمع الجيش والشـــعب فى كنيســـة آيـــا صـــوفيا ، وفى الوقت الذى بدأ فيه قـــداس الصـــلاة علت أصـــوات الاعتراضات تلعن سيسموس Sismus ، فتـــدخل البطـــريرك سرجيـــوس Sergius وحاول تهدئتهم ، ولكن ما ان تـــم

---

(1) Charanis, «On the social structure of the later Roman Empire», in Byzantion, Vol. XVIII (1944-45), P. 49.

(٢) الباز العرينى ، كتاب والى المدينة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة م ١٩ ، جا ، (مايو ١٩٥٧) ، ص ١٤٢ .

Charanis, On the social structure, P. 49

القداس حتى تعالت الاصوات من جديد وعندئذ اصطحب البطـريرك سرجيـوس Sergius الكسـندر Alexandre والى المدينة ، والكـونت Leontius ، وعددا من السادة ، وصعد البطريرك الى المنصة ، ولم يستطع أن يهدىء المتمردين الا بعد أن وعدهم بخـلع سيسموس من منصبه ، كأمين للخزانة ، وبعـدم زيادة سـعر الخبز ، واعادة التوزيعات الى ماكانت عليه • وعندئذ خرج الجميع من الكنيسة راضـين ، وذهبوا ليصبوا جام غضبهم على تمـاثيل سيسموس التى قاموا بتحطيمها (١) •

وكان طبيعيا ان يرتفع سعر الخبز فى فترة الازمـة التى عانتهـا الامبراطورية ولكن يجب ان نضع فى الاعتبار أن التغيرات التى طـرأت على العمـلة الذهبية (الصـولد Solidus) وعلى العملة الفضـية أثرت تأثيرا قويا عـلى قيمـة المنتجات الغـذائية من حيث الجـودة والخامة (٢) •

بدأت الحكومة البيزنطية تبذل جهـودا مضنية لحل تلك الازمـة بالسعى فى انتاج محصول القمح ، ولذلك بدأت تساعد المنتجين فى تراقيا وآسيا الصغرى وعلى ساحل البحر الاسود على التوسع فى زراعتهـم لهذا المحصول ، وذلك من أجل توفير القوت للمدينة الامبراطورية ، وقد ساعدها على ذلك ما تمتعت به تلك المناطق من الهدوء • وعلى هذا النحو أدى فقدان الامبراطورية البيزنطية لقمح مصر ، الى ازدهار زراعته فى تراقيا وآسيا الصغرى وساحل البحر الاسود (٣) •

---

(١) Chronicon Paschale, PP. 715-16, Lebeau, Histoire, T. XI, PP. 112-13.

وانظر أيضـا :

Lebeau, Histoire, T. XI, PP. 112-13., Bratianu, La question, PP. 90-91.

(٢) Bratianu, P. 91.

(٣) Ibid. P. 90,. Stratos, Byzantium, P. 124,

ويعتبر كارانيس Charanis الامبراطور هرقل مسئولا عن التغييرات الهامة التى حدثت فى الاقتصاد الداخلى البيزنطى اذ أنـــه اعاد تنظيم الطوائف المهنية والتجارية (١) •

نقلت الدولة البيزنطية نظام الطوائف المهنية عن الامبراطــورية الرومانية وكانت الحكومة الرومانية قد سيطرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد فألزمت الابن بممارسة مهنة أبيه ، وجعلت أرباب الحرف والصناعات ينتظمون فى طوائف خاضعة لسلطان الدولة ، وآل هذا النظام الى الدولة البيزنطية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، وانتظم التجار والحــرفيون فى القسطنطينية بل وفى وســائر مــدن الامبراطورية بدورهم فى طوائف (٢) •

وهناك نوعان من الطوائف ، طــوائف خاضعة لسلطة الامبــراطور مباشرة ، وطوائف خاصة • ويتولى الامبراطور الاشراف على الطوائف الخاضعة له ، ويرتبط هذا النوع من الطوائف بالصناعات التى تتعــلق بالسياسة الاقتصادية للدولة كتلك التى تقوم بصناعة وصباغة المنسوجات الحــريرية اللازمة للامبراطور ورجال البلاط والاصـــدقاء ، وهى التى تنتج المنسوجات الغالية الثمن ، والتى توزع بانتظام على كبار الموظفين على انها جزء من مرتباتهم (٣) •

---

(١) Charanis, remarks. PP. 71-72.

وانظر ايضـــا : Lopez, the rôle of Trade, PP. 77-78.

(٢) الباز العرينى ، كتاب والى المدينة ، ص ١٣٦ •

Lopez, «Silk industry in the Byzantine Empire», in speculum, Vol. 20. (1945), P. 4.

ولمزيد من التفاصيل أنظر :

الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠.

(٣) الباز العرينى ، كتاب والى المدينة ، ص ١٣٧ — ١٣٨ •

Lopez, Silk industry, PP. 3 — 4.

وقام الى جانب الطوائف التابعة للامبراطور خمس طوائف خاصة تشتمل تجار الحرير وغزله ، وتجار الملابس الحريرية المحلية ، وصناع الأقمشة الحريرية والصباغين ، وتجار المنسوجات الحريرية المستوردة ، وتقوم هذه الطوائف بصناعة وتجـــارة المنسوجات التى تلى فى المرتبة المنسوجات الامبراطورية وتتولى بيعها للسكان • ولم يـــكن المشتغلون بهذه الطوائف مستخدمين حكوميين ، بل كانوا من أرباب الحرف والتجار المستقلين شأنهم فى ذلك شأن سائر الطوائف (١) •

احدث هرقل تغييرا جذريا فى نظام الطوائف المهنية العامة ، اذ وضع قانونا لم تعد بمقتضاه عضوية الطائفة وراثية ، وأضحى قبول الأعضاء بالطائفة اختياريا بعد أن كان اجباريا فلا يشغل الوظائـــف الخالية بالطائفة الا من يجتاز امتحانا يعقده رؤساء الحرف وموظفون من قبل الامبراطور ، وصارت الدولة تفرض رقابة بالغة الشدة على الاشخاص الذين جرى قبولهم بالطوائف وعمدت الى طرد أولئك الذين تبين أنـــه غير مرغوب فيهم • هذا وقد ظل قانون هرقل هذا ساريا الى أن ادمج فى تشريعات الاسرة المقدونية فى مجموعة الباسيليكا (٢) •

وعلى هذا النحو قيد قانون هرقل القبول فى الطائفة ، ولم يجعله قاصرا على أقارب أعضاء الطائفة أو أهل الحـــرفة كما كان ، وصـــار الالتحاق بالطائفة مرتبطا بشروط خاصة ، ويتوقف على القدرة على اثبات الميل الى الحرفة والرغبة فى العمل بها ، ولم تعد الحكومة ترغم أحـــدا على العمل فى الطوائف الامبراطورية ، وحددت عدد المرشحين بها • ومن ثم أصبح للدولة سلطان قوى على الطوائف (٣) •

---

(١) الباز ، كتاب والى المدينة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .
Lopez, Silk industry, P. 8.

(٢) Lopez, The rôle of trade, P. 77., Lopez, Silk industry, P. 5.
الباز ، كتاب والى المدينة ، ص ١٣٨ .
Charanis, on the social structure, P. 50.

(٣) الباز ، الدولة ص ٣٦٩ .
Lopez, Silk industry, P. 5.

أما فيما يتعلق بالطوائف الموجودة فى مدن الامبراطورية واقاليمها فقد انتقل الاشراف عليها — وفقا لقانون هرقل — من كونت الهبات المقدسة الى حكام الاقاليم انفسهم • على أنه بعد وفاة هرقل بدأت الصناعة تتركز تدريجيا فى العاصمة (١) •

وكان لصناعة الحرير وتجارته أهمية كبيرة فى الدولة البيزنطية ، وليس أدل على ذلك من أنه كان لصناعة الحرير والسلع الحريرية طوائف عديدة ، فكان لمن يغزلون الحرير وينسجونه طائفة كما كا نللحرير الخام طائفة أخرى ، وللملابس المصنوعة من الحرير طائفة ثالثة (٢) •

وانتشرت مصانع الحرير فى الدولة البيزنطية بدرجة كبيرة ، ولذلك شكلت المنتجات الحريرية القسم الاكبر من الصادرات للبيزنطية ، فضلا عن توافر كمية مناسبة للاستهلاك المحلى • ووصل انتاج بيزنطة الى ما هو أبعد من أوربا الغربية ، وليس أدل على ذلك من أنه وجد نسيج فى مدينة لييج Liege ببلجيكا الحالية منقوش عليه اسم الامبراطور هرقل ، ويبدو أن هذا النسيج كان هدية من الامبراطور الى الكنيسة هناك ، أو أنه استخدم كوسيلة للدعاية والاعلان عن المنسوجات الحريرية البيزنطية (٣) •

وكانت صناعة الحرير احتكارا حكوميا يدر على الدولة ربحا طائلا وكانت حكرا على الامبراطور وبلاطه واصدقائه سواء فى الداخل أم فى الخارج ، وفى عهد هرقل كانت الثياب الحريرية تحمل رمز هرقل وشعاره ولعل هذا يعكس نظام الاصلاح الذى فرضه هذا الامبراطور (٤) •

ومن الجدير بالذكر أنه حدث تحول مماثل — فى عهد هرقل —

---

(١) Lopez, Silk industry, PP. 7 — 8.

(٢) الباز ، الدولة ، ص ٣٦٩ •
Lopez, Silk industry, P. 8.

(٣) Lopez, The rôle of trade, P. 77.

(٤) Lopez, Silk industry, PP. 4 — 5.

فى مجال التجارة الخارجية ، فبعد أن كان هناك موظف امبراطورى يدعى The Count of Commerces وكانت مهمته مراقبة التجـارة الخارجية والسماح لها بالمرور من خلال أسواق دولية خاصـة ، تقـام بصفة دورية فى عدد قليل من المراكز داخل الحدود ، ولـم يسمح لأى تاجر غريب بأن يتعدى الى ما وراء الاسواق أو يتصرف فى تجارته الا فى حضور ممثل الحكومة المركزية (١) وفى عهد هرقل حل محل مراقب التجارة هذا عدد كبير من المكاتب التجـارية المحلية المستديمة فى كل مرفا أو ميناء هام ، وفى كل طريق ينتهى الى الامبراطورية ولم يـكن الغرض من المكاتب المحلية الجديدة النهـوض بالمبادلات الدولية بل لرقابتهـا وتأمينها ، ولذلك كانت بمثابة حرس للدفاع التجارى مثلما كانت الثغور حرسا للدفاع الحربى • وكان هذا التحول الذى حدث فى عهد الامبراطور هرقل ضروريا ، اذ كان لازما أن تتم المبـادلات الدولية فى جو أكثـر حرية ، حتى تضمن الامبراطورية استمرار بقاء تلك الاراضى التابعـة لها والمتعزلة عنها والمحاطة باعداء (٢) •

على أنـه رغم محـاولات الامبراطور هرقل لاصـلاح الوضـع الاقتصادى المتدهور بما اتخذه من اجراءات وبما أحدثه من تغييرات ، الا أنه لم يتمكن من حل الازمة الاقتصادية ، وبدأ اليـأس يسـتبد بالامبراطور وجعله يشعر بعدم القدرة على أن يصحح وضع الامبراطورية المتدهور ، ومن ثم بدأ يفـكر فى تـرك القسطنطينية ، والذهاب الى افريقية — على نحو ما يذكر البطريرك نيقفوروس Nicephorus وأرسل اليها بالفعل كنوزه وأمواله الخاصة ، غير أن عاصفة هبت فأغرقت السفن التى كانت تحمل كنوزه (٣) •

وتثير هذه الرواية شكوك استراتوس Stratos ، فيـذكر

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مراقب التجارة انظر :

Lopez, Silk industry, PP. 9 — 12.

(٢) Lopez, The rôle of trade, PP. 73 — 74.

(٣) Nicephorus, Breviarium, in C. S. H. B., PP. 13 — 14.

أن المؤرخين قد اعتادوا أن يذكروا هنا الكثير من الكنوز المفقودة من ذلك على سبيل المثال كنز فوقاس المفقود الذى غرق ، ثم كنز هرقل وقد غرق أيضا ويقول استراتوس لعل ذلك التقليد بين المؤرخين عن فقد الكنوز التى تتعلق بأشخاص بعينهم يرجع الى ميل المؤرخ — الذى يذكر ذلك — الى الشخص نفسه (١) ٠

على أن هذا لا يمنع من سؤال عن الاعتبارات والاسباب التى دعت الامبراطور هرقل الى التفكير فى نقل كرسى الحكم ، ومركز قيادته الى مدينة قرطاجة بافريقية ، ومما لا شك فيه أن افريقية كانت تتمتع بالثروة والرخاء والأمن ، فضلا عن توافر الموارد بها ، تلك الموارد التى أمكن بها من قبل امتلاك مصر والاستيلاء على عرش القسطنطينية ، هذا الى جانب أن مدينة قرطاجة ، مدينة رومانية (بيزنطية) ذات طابع مميز من حيث الثروة الفعلية وعدد موانيها ونشاط سكانها ، فهى لم تكن أقل من أى مدينة امبراطورية أخرى (٢) ٠ ويجب الا ننسى أن افريقية هى موطن هرقل الأول ، وكان لأسرته بها السلطة ، ومن ثم فان هرقل لم يكن يرتبط بالقسطنطينية برباط قوى (٣) ٠

ونظرا لأن هرقل كان على علم بامكانيات افريقية ، فانه أراد أن يتخذ من قرطاجة قاعدة لينظم منها هجماته ضد أعداء الامبراطورية من فرس وسلاف وآفار ، مثلما حدث من قبل عندما هاجم فوقاس (٤) ٠ ومن قرطاجة كان يستطيع أن يعد جيشا يستعيد به مصر من جديد ، ولذا فمن المحتمل أن تكون الرغبة فى جعل قرطاجة عاصمة للامبراطورية البيزنطية قد ارتبطت بالمشروع الكبير لحملات هرقل الشرقية أكثر من ارتباطها بدوافع الجبن والانانية التى نسبها اليه الكتاب البيزنطيون (٥)٠

(١) Stratos, Byzantium, P. 125.

(٢) Finlay, History of Greece, Vol. I, P. 320.

(٣) Ibid, P. 320.

(٤) الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٦ ٠

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 84.

(٥) Finlay, History of Greece, Vol. I., PP. 320 — 321.

ومن الدوافع التى دعت هرقل الى التفكير فى نقل مركز قيادته الى قرطاجة شعور هرقل بالقلق بشأن مصير افريقية خاصة بعد سقوط الاسكندرية ومصر فى يد الفرس ، ومن ثم فقد اراد أن يذهب الى افريقية ليساندها ، حتى أنه لم يشعر بالرغبة فى تغيير العاصمة بقدر ما كانت رغبته فى مساندة افريقية ومساعدتها (١) .

ويبدو أن تلك كانت الاعتبارات والاسباب التى دعت الامبراطور هرقل — بعد أن عجز عن حل الازمة الاقتصادية — الى التفكير فى الذهاب الى موطنه الأول ومركز أسرته ، وفى أن يجعل قرطاجة مركز قيادته الجديد ، لعله يستطيع بذلك أن يصلح من أحوال الامبراطورية ويسترد أقاليمها الشرقية التى استولى عليها الفرس .

أما عن موقف شعب القسطنطينية وبطريركها سرجيوس من محاولة الامبراطور هذه نقل مركز قيادته الى افريقية — فقد كان موقفا جادا — فما ان علم الشعب بنية الامبراطور هذه حتى حاول منعه ، وتجمعت جمهرة منه حول أبواب القصر الامبراطورى ، رافعين ايديهم الى النوافذ مطالبين الامبراطور الا يتركهم وأكثر من ذلك أنهم كانوا يهددون باستخدام العنف من أجل ابقائه (٢) .

ويعلق ليبو Lebeau على ذلك بقوله انه لم يكن هناك شىء أجمل من هذا الحب لامبراطورهم والخوف من فقدانه (٣) .

وعلى العكس من ذلك يرى فنلاى Finlay أن السبب فى قلق الشعب والارستقراطية البيزنطية والبطريرك لرحيل هرقل لا ينبع من الحب له بقدر ما هو ناتج عن الخوف من فقدان القوة والسلطة والثروة والمظاهر العامة برحيل البلاط (٤) .

(١) Stratos, Byzantium, P. 126.

(٢) Nicephorus, Breviarium, In C.S.H.B., P. 14.

(٣) Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. XI, P. 21.

(٤) Finlay, History of Greece, Vol. I, P. 321.

ووسط هتافات الشعب قام البطريرك سرجيوس ، وصحب الامبراطور الى كنيسة آيا صوفيا ، وهناك طلب من الامبراطور أمام جموع من أهل المدينة أن يقسم يمينا بصوت مرتفع أمام المحراب بألا يغادر مدينته ، فلبى الامبراطور طلبه ، واقسم اليمين ، وظل فى المدينة ، خاصة بعد ان وعده البطريرك بتقديم كنوز الكنيسة وثرواتها لحل الازمة الاقتصادية (١) .

وهكذا باءت فكرة الامبراطور بنقل مركز قيادته الى افريقية بالفشل ، وذلك بسبب ما أثارته تلك الفكرة من حماسة دفينة فى نفوس شعب القسطنطينية ، وبسبب ما ابداه البطريرك سرجيوس من معارضة فعالة لتنفيذ هذه الفكرة ، على أن فكرة هرقل هذه ان دلت على شىء فانما تدل على خطورة الوضع فى القسطنطينية التى أمست مثقلة الأعباء ، وعلى أهمية افريقية بالنسبة للامبراطورية البيزنطية (٢) .

نظام الثغور :

يبدو أن الحماس للامبراطور هرقل وحب شعب العاصمة له ، وتمسك بطريركها سرجيوس به دفعه الى القيام باصلاحات فعالة وبالغة الأهمية ، تلك الاصلاحات التى بعثت الحياة من جديد فى جسد الامبراطورية المعتل . وجعل الامبراطور هرقل أساس عمله هذا بناء قوة عسكرية وطنية ، واعادة تنظيم أقاليم الامبراطورية بما ادخله من نظام الثغور Themes . (٣)

فقد بدأ واضحا أنه نتيجة لما تعرضت له الامبرلطورية فى أوائل

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 14.

وانظر ما يلى فى الفصل الرابع .

(٢) السيد الباز ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٦ .

Ostrogorsky, History of the Byzantine, P. 84.

(٣) Charanis, «Some remarks on the change in Byzantium in the Seventh Century» in Mélanges G. Ostrogorsky, Vol. I, P. 71.

القرن السابع — أى فى عهد هرقل — من اغارات الفرس ، وهجمات الآفار والسلاف ثم المسلمين ، أنه ما من مقاطعة واحدة كانت بمنجاة من الخطر . ونتيجة لهذه الاغارات فقدت الامبراطورية لقاليمها الغنية ، التى كانت تعد أهم مورد تستمد منه الامبراطورية الجند القادرين على القتال ، فضلا عن الأموال اللازمة للنهوض بمرافق البلاد والدفاع عن العاصمة ، هذا الى جانب عجز هرقل عن الحصول على المرتزقة الاجانب ، حقيقة أن وجودهم كان بوفرة ، ولكن لم يكن الامبراطور قادرا على الدفع لهم مقابل خدماتهم فقد كانت الخزانة خاوية (١) .

وادرك الامبراطور أنه لابد من انقاذ البقية الباقية من امبراطوريته بآسيا الصغرى باتباع نظام ادارى يحقق لها الصمود أمام زحف الاعداء ، ويوفر الجند الوطنيين الذين يدينون بالولاء لبلادهم ، وليس المأجورين بالمال ، ولهذا قرر الامبراطور أن يترك بعضا من فرقه فى الاقاليم المهددة بالخطر ويبدو أنه وعد بمنح جنوده قطعا من الارض يستغلونها مقابل أدائهم للخدمة العسكرية ، وذلك لترغيبهم فى الاستقرار من ناحية ، وتشجيعهم على الاستماتة فى الدفاع عنها من ناحية أخرى وبذلك وضع الامبراطور هرقل نواة نظام الثغور (٢) .

ودار نقاش حول معنى كلمة ثغر أوثيم Theme وجمعها ثغور أوثيمات ، والتى تقابل فى المصادر العربية كلمة بند أو جند وجمعها بنود

---

(١) رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩٧ .

Stratos, Byzantium, P. 273.

(٢) Diehl, «l'origine du regime des themes dans l'empire Byzantin» dans Etudes Byzantines, PP. 291-92, Diehl, Le monde Oriental, P. 222.

العرينى ، أجناد الروم ، ص ٥ ، العدوى ، الامويون والبيزنطيون ، ص ١٥٨ — ١٦١ ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، جـ١ ، ص ٩٥ .

أو أجناد (١) .

جاء فى خطاب الامبراطور جوستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥) الى البابا فى عام ٦٨٧ م قائمة بالمقاطعات أو الأقاليم العسكرية فى هـذه الفترة ، ولكن لم يشر اليها الخطاب كثغور Themes بل أشـار اليها بكلمة Exercitus أى الجيش (٢) .

وهذا يعنى كما يلاحظ شارل ديل Charles Diehl أن كلمة ثغر لم يكن لها فى البداية أساس جغرافى ، بل انها كانت تطلق على فيلق من الجيش ، ومثـال ذلك جيش يقـال له جيش الاناتوليك Anatoliques ، وجيش يقال له جيش الارميناق Armeniaques وجيش يقال له جيش الاوبسيق Opsikion أما فيمـا بعـد فصار لفظ ثيم Theme يطلق على الاقليم بعد أن كان يطلق على الفرقة من الجيش المرابطة بالاقليم ، وبدأت النصوص تترك المصطلح العسكرى الى المعنى الجغرافى أو الاقليمى ، فنقـول اقليم يقـال له الاناتوليك أو اقليم يقال له الاوبسيق وهكذا (٣) .

ويتفق مـع شـارل ديل Diehl كل مـن لويس بريـه Louis Bréhier وفازيليـف Vasiliev فى أن كلمة ثيم Theme تعنى فى الاصل حامية أو فرقة عسكرية تقيم بطريقة دائمة فى اقليم ما ، وتتولى الدفاع عنه ، ثم بدأت هذه الكلمة تستعمل

---

(١) انظر المسعودى ، التنبيه والاشراف ص ١٧٦ ، وابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٠٥ ، قدامة بن جعفر كتاب الخراج ، ص ٢٥٧ .

هذا وكلمة الاجناد او البنود ، تعنى انه كان لكل جند او فيلق بنـد خاص أو علم كبير يميزها بعضها عن بعض . انظر : العدوى ، الأمويون ، ص ١٦١ .

(٢) Mansi, Sacrorum conciliorum Novaet Amplissima collectio, Vol. XI, PP. 737-38.

(٣) Diehl, **l'origine**, P. 287., Diehl, le monde, P. 225. Diehl, History of the Byzantine Empire, P. 48.

للدلالة ليس فقط على الفرقة العسكرية ولكن تدل أيضا على الاقليم أو المنطقة التى تتمـــركز فيها • (١) وحـــلت بذلك كلمة خـــورا Chora وتعنى اقليم محل كلمة استراتوس Stratos وتعنى جيش (٢) •

أما رنسيمان فانه يرى أن الثغور تعنى الوية من الجند تنزل بصفة دائمة فى أقاليم معينة ، ثم تحول الاسم رويدا رويدا ، فأصبحت الاقاليم نفسها تعرف فى مجمـــوعها باسم الثغور Themes أو Themata أى أن الالوية تعنى المناطق العسكرية ، وصارت كل منها تحمل اســـم فرقتها الخاصة النازلة بها مثل اللواء العسكرى البقلار Buccellarii ولواء تراقيا وهكذا (٣) •

ويستنتج مما سبق أن كلمة ثيم Theme كانت فى البداية مصطلحا عسكريا يعنى فيلق أو فرقة من الجند تتمركز فى اقليم معين ، وتتولى الدفاع عنه ، وصـــارت لفظة ثيم بمـــرور الوقت تطلق عـــلى الاقاليم التى تحتلها تلك الفـــرقة العســـكرية ، أى أمســـت مصطلحا جغرافيا •

ويعزو الامبراطور قسطنطين الســـابع بورفيرجينتوس (٩٤٤ — ٩٥٩) فى كتابه عن الثغور De Thematibus (٤) • قيـــام الثغـــور الأولى أو الثيمات الى الامبراطور هرقل والى خلفائه الاول ، ويـــذكر

---

(١) Bréhier, Institutions, P. 121, 356., Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 275.

(٢) Stratos, Byzantium, P. 276.

(٣) كان الجند الذين يخدمون مقابل جراياتهم يسمون باســـم بقـــلار Buccellarii نسبة الى Buccellum أى خبز الجنود الجاف . انظر بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٧٠ .
Baynes and Moss, Byzantium, P. 296.

(٤) رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٥) Constantinus Porfirogenitus, De Thematibus (ed.) Pertusi, Vatican (1952).

بأن الثغور نشأت فى عهد الامبراطور هرقل (١) .

واعترض بيرتوسى Pertusi الذى قام بنشر كتاب قسطنطين بورفيرجينتوس عن الثغور بشدة على رأى قسطنطين القائل بأن الامبراطور هرقل هو الذى أنشأ الثغور الاولى ويرى أن نشأة نظام الثغور ليس لها قاعدة تاريخية ، وأن للتطور الادارى الكبير لا يمكن اعتباره عمل شخص أو امبراطور واحد ، وان هذا التطور يأتى بالتتابع ويمر بمراحل ، ومع انه لا يشك فى الدور الذى لعبه هرقل فى التحضير والاسراع فى انشاء الثغور الاولى ، الا أنه يذكر أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الثغور بالمعنى الذى أخذته فى عهد قسطنطين بورفيرجينيتوس أى فى القرن العاشر قبل عامى ٦٦٧ — ٦٨٠م ، ويعتقد بيرتوسى Pertusi أن نشأة الثغور الاولى وقيامها كان مؤخرا عن عصر هرقل ، وانه يرجع الى النصف الثانى من القرن السابع (٢)

ويتفق بينز Baynes مع بيرتوسى Pertusi يؤكد نظريته مستندا الى عبارة قسطنطين السابع نفسه من أن نظام الثغور أدخل على يد خلفاء هرقل وورثته ، ووجهة نظره أن هرقل ورث جيشا رومانيا مهزوما هذا فى الوقت الذى هاجم فيه الفرس آسيا الصغرى ، ولهذا اضطر هرقل أن يبحث عن مكان آخر ليجند جيشا منه ، وكان هذا المكان هو القوقاز Caucasus وان الثغور

---

(١) Constantinus Porfirogenitus, De thematibus, P. 109.

(٢) Ibid, P. 110.

وانظر أيضا :

Ostrogorsky, «Sur la date de la compesition du livre de themes» dans Byzantion (1953), P. 74.

هاشم اسماعيل الجاسم ، دراسات تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية العربية منذ الفتح العربى للشام حتى نهاية العصر العباسى الاول ، ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة (١٩٧٧) ص ١٩ .

الاولى قد انشئت فى آسيا الصغرى ولكن هذه البلاد قد مزقت على يد الفرس وبالتالى كان من المستحيل اقامة قوات هناك وتزويدها بالارضى قبل عام ٦٢٦م (١) .

ويبدو أن اعلان قسطنطين السابع أن الثغور قد نشأت فى عهد خلفاء هرقل تصريح جاد وخطير ولكنه تصريح عا مأيضا ، فهو يقرر كمبدأ ، أن وجود الثغور كان فى عهد خلفاء هرقل باستثناء ثغر الارمنياق — الذى كما يذكر قسطنطين أنه نشأ فى عهد هرقل — ، ولكن بصرف النظر عن هذا الاستثناء ، فان قسطنطين يذكر أن لفظة ثغر أو ثيم Theme لفظة يونانية ، ومن المعروف أن اليونانية الحقيقية كانت فى عهد هرقل (٢) .

أما بالنسبة لما ذكره بينز فان عبارته الخاصة بتجنيد جيش فى القوقاز عبارة غريبة وغير مفهومة ، فحتى عام ٦٢٥م كانت منطقة القوقاز منطقة مغلقة أمام هرقل ، أما عن تأكيد بينز بأن الثغور لا يمكن أن تكون قد أنشأت فى آسيا الصغرى قبل نهاية للحرب مع الفرس ، فانه يرمى للى أن آسيا الصغرى كانت محتلة من قبل الفرس ، غير أنه يغفل أن تنظيم آسيا الصغرى الى ثغور لم يمنع العرب فيما بعد من غزوها ، بل وغزو المناطق التى طبق فيها نظام الثغور (٣) .

كما أن هناك ما يؤكد أن الثغور الاولى قد تأسست فى عهد الامبراطور هرقل بل وقبل الهجوم الكبير الذى شنه هرقل على الفرس لذ جاء فى تاريخ المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس Theophanis عبارة فحواها ، « ان هرقل عبر آسيا الصغرى فى أثناء الحرب التى

(١) Baynes, «The emperor Heraclius and the military theme system» in Eng. Hist. review (1952) PP. 380-81.

وانظر ايضا : Stratos, Byzantium, PP. 269-70.

(٢) Constantinus Porfirogenitus, De Thematibus, P. 117.

(٣) Stratos, Byzantium, PP. 273-75.

شنها ضد الفرس فى عام ٦٢٢م ، وتقدم الى أقاليم الثغور ، حيث جمع أعدادا جديدة من الجنود وضمهم الى جيشه »(١) ولكن لم يستخدم ثيوفانيس Theophanis الذى عاش فى القرن التاسع — المصطلحات الجغرافية والكلمات الدارجة فى عصره ، ولكن هذا ما يرفضه أوستروجورسكى Ostrogorsky تماما اذ يرى أن ثيوفانيس لم يفعل أكثر من أنه نقل مصادره أو نسخها ، ولهذا فان ثيوفانيس لم يتحدث عن الثغور ولا عن الاستراتيجوس أى الحاكم العسكرى ولا عن آمر الكتيبة Turmarque ولاعن الوظائف الاخرى قبل القرن السابع ، ولهذا فقد ظهرت هذه الاصطلاحات فى تاريخه فى القرن السابع وعثر عليها بسبب تطور النظام • كما أنه لا معنى لاستخدام هذا التعبير « أقاليم الثغور » فى القرن التاسع ، وفى الوقت الذى أصبحت فيه الامبراطورية كلها مقسمة من الناحية العملية الى ثغور ، وكل اقليم بيزنطى أصبح اقليما للثغور • ومن ثم فان هذا التعبير أى اقاليم الثغور يبدو تعبيرا مميزا للمرحلة الاولى وللدور الأول لتطور نظام الثغور ، وهو تعبير لم يمتد الا الى بعض أقاليم آسيا الصغرى (٢) •

وعلى هذا فليس هناك ما يدعو الى الشك فى صحة شهادة ثيوفانيس والتى حفظها فى عام ٦١١٣ — ٦٢٢م ، وترجع أهمية تلك الفقرة التى اورها ثيوفانيس الى أنها أكدت بطريقة واضحة أن نشأة الثغور سبقت حروب هرقل مع الفرس • ومن ثم فان النصوص التى جاءت عند كل من ثيوفانيس وقسطنطين السابع كافية للقول بأن نظام الثغور بدأ فى عهد الامبراطور هرقل ، وأن الثغور التى نشأت فى عهده كانت ثغورا مستقلة •

وتقتضى الضرورة على الباحث أن يدرس كل ثغر من تلك الثغور التى نشأت فى عهد هرقل ، فلكل ثغر تاريخه الخاص به • هذا وقد ظهرت

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 466.

(٢) Ostrogorsky, sur la date, PP. 52-55.

فى آسيا الصغرى فى عهـد الامبراطور هرقل المعالم ـ الاولى للثغـور التاليـة :

أولا : ثغر الارمنياق أو الثغر الارمنى : Armeniakon

يقع هذا الثغر فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى عند الحدود الارمينية وهو من اوائل الثغور البيزنطية التى نشأت فى آسيا الصغرى فى القرن السابع فيذكر قسطنطين بورفيرجينيتوس أن ثغـر الارمنياق ظهر لأول مرة فى ظل حـكم الامبراطور هرقل ، وأن هرقل هـو الذى أنشأ هذا الثغر (١) .

ويؤكد قول قسطنطين ما ذكره ثيوفانيس Theophanis من أن نشأة هذا الثغر ترجع الى عام ٦٢٧ — ٦٢٨م ، ويذكر أن هناك — فى عام ٦٢٨م — تورمارخ أى آمر الكتيبة الارمينية فى ثغر الارمنياق يدعى جورج ، ويذكر ثيوفانيس كذلك فى نفس الفترة قائدا ارمينيا آخر يـدعى Mezezios وهو سليل أسرة أرمينية ، ولعب دورا هاما تحت حـكم هرقل . (٢) ويذكر الراهب سيبيوس Sébeos الأرمنى أن Mezez Gnoun أصبح قائـدا لاقليم ارمينية البيزنطى بعد انتصار هرقل على الفرس (٣) .

ويعتـرض بيرتـوسى Pertusi على ما يذكره قسطنطين من أن ثغر الارمنياق ظهر لأول مـرة فى عهد هرقل ، ويـذكر بيرتوسى أن قسطنطين حين ذكر ذلك لم يكن متأكدا منه ، وأنه لا يمكن الحـديث عن وجود الثغور قبل أعوام ٦٦٧ ، ٦٨٠م . (٤) وكذلك لم يقبل بيرتوسى اشارة ثيوفانيس بوجود طورمارخ أو آمر الكتيبة الارمينية فى عام ٦٢٧م

(١) Constantinus Porfirogenitus, De Thematibus, P. 117.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S H.B., P. 499.

(٣) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 91.

(٤) Constantinus Porfirogenitus, P. 110.

والقائد الارمنى Mezezios كدليل على وجود ثغر الارمنياق فى عهد هرقــل ، وحجتــه فى ذلك أنه لا يوجــد استراتيجوس Strategus ولكن الذى يوجد هو طورمارخ وهذا يعنى أن بيرتوسى لا يقبل بوجود ثغر بالمعنى الادارى للمنطقة طالمــا لم يرد ذكر وجود قائد عســكرى أى استراتيجوس (١) •

ويبدو أن كلام بيرتوسى Pertusi غير مطابق للحقيقــة لأن كلام قسطنطين واستخدامه لعبارة « اتجرأ أن أقول •• » لا يعبر عن الشك بل عن بعض التأكيــد كذلك كــلام بيرتوسى عن ثيوفانيس غــير صحيح ، لأن أسماء القادة العسكرين الذين نشطوا فى عهد هرقل لــم تذكر كلها ، ومما لا شك فيه أن عددهم كان كبيرا لأن فترة الحرب مع الفرس استمرت ست سنوات ، ولابد أن يكون قد برز خلالها عدد كبير من القادة ، غير أنه من النادر عند ثيوفانيس ذكر الاسماء فى الفتــرة من ٦٢٢ — ٦٢٧م ، فهو لم يذكر سوى اسم التورمارخ جورج مرتين وفى المرة الثانية يحدد منصبه بتورمارخ الارمن • ومما يدل كذلك عــلى أن اشارة ثيوفانيس يقينية ومؤكدة ولا توحى بالشك ، أنه كيف يمــكن أن يوجد صاحب رتبة أو وظيفة فى الثغر قبل أن يوجد الثغر نفســه ، ســواء كانت الرتبــة أو الوظيفــة اســتراتيجــوس Strategus أم كانت طورمارخ أو أى وظيفة أخرى (٢) •

هذا وتعد الاجراءات التى اتخذها الامبراطور هرقل عقب انتصاره على الفرس نقطة تحول نحو النظام الجديد ، فالأرمن كانوا يشكلون جزءا هاما من الجيوش البيزنطية وكان من بينهم قادة الامبراطورية ، وبعد أن استرد هرقل ارمينية الكبرى ، اتخذت عدت خطوات لاعــادة تنظيم هذه المنطقة من بينها أنه لم يعين عليها حاكمــا مدنيا ، ولكنــه

---

(١) Constantinus, Porfirogenitus, PP. 108-109.

(٢) هاشم اسماعيل الجاسم ، دراسات تاريخيــة عســكرية ، ص ٢٦ ، ٢٧ •

Ostrogorsky, sur la date, P. 49.

وضع على رأسها قائدا ارمينيا يدعى Mezezios
أو Mezez Gnoun وهو نبيل أرمنى ، وجعله حاكما لها وكلفه باعادة تنظيمها ، ومنحه السلطات المدنية والعسكرية • وبذلك أحيا الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) الاجراء الذى اتخذ جوستنيان ، والذى عين بمقتضاه الحاكم العسكرى العام Magister Militum per Armenian ووضع هرقل بذلك النواة الاولى لثغر الارمنياق (١) •

وجعل المسعودى (المتوفى ٩٥٦ م) ثغر الارمنياق الثغر الثامن فى فى ترتيبه لثغور الروم وبنودهم ويقول عنه : « بند الارمنياق هو عمل ماسية ، وفى طرف هذا البند عمل خرشنة وآخره بحر مايطس الذى يسميه الكثير من الناس ببحر الخزر » (٢) •

ويضم ثغر الارمنياق ستة أقاليم هى على النحو التالى :

١ — اقليم Helenopontus (ومدنه الرئيسية اماسيا Amaseia وسينوب Sinope) •

٢ — اقليم Pelomoniacos Pontus (ومدنه طرابيزون Trabizond وقيصرية الجديدة New Caesarea) •

٣ — اقليم قبادوقيا الاول Cappadocia I ومن بين مدنه مدينة قيصرية •

٤ — اقليم قبادوقيا الثانى Cappadocia II (ومدنه حصار Hisser الطوانة Tyana Killisa - (

---

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P 91, Grousset, Histoire de l'Armenie, PP. 283-84., Vasiliev. History, Vol. I P. 278, Bréhier, La transformation, P. 412, Brehier, Les Institutions P. 356, Bréhier, vie et Mort, P. 53.

(٢) المسعودى ، التنبيه والاشراف ص ١٧٩ ، وانظر ايضا ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٠٨ ، وقدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، ص ٢٥٨ .

٥ — اقليم ارمينية الاول (ومدنه ملطيه Melitene وارابيسوس Arabyssos) .

٦ — اقليم ارمينية الثانى Aremenia II ومدنه سيواس Sebastia Colonea ساتالا Satala) (١) .

كما انضوى تحت هذا الثغر اقليم بافلاجونيا Paphlagonia واقاليم ارمينية الكبرى ، وارمينية الرابعة Aremenia IV وما بين النهرين Mesopotamia . وعلى هذا النحو كانت حدود ثغر الارمنياق — كما أنشأه هرقل — من الشمال البحر الاسود ، ومن الجنوب نهر الفرات ، ومن الشرق الخط الوهمى من كارس Kars حتى الفرات عن طريق بحيرة فان Van ومن الغرب الخط الوهمى من الطوانة Tyana حتى اماستريس Amastris أو اماسترا Amastra (سينوب) على البحر الاسود (٢) .

وكانت مهمة هذا الثغر الدفاع عن الحدود الشمالية الشرقية ضد أى هجوم يأتيها من الجانب الشرقى أو الشمال الشرقى .

ثانيا : ثغر الابسيق (أوبسيكيون Opsikion)

واسمه مشتق من الفرق التى كونت حرس الامبراطور هرقل ، وقد استقرت هذه الفرق فى آسيا الصغرى فى الجهات المحيطة ببحر مرمرة ممثلة فى أقاليم بيثينيا Bithynia وجالاتا Galatie وميسيا Mysie وفريجيا Phrygie وقد تجمعت هذه الاقاليم كلها لتشكل حكومة الابسيق أو الاوبسيكيون Opsikion (٣) أى (اقليم فرق الحرس الامبراطورى) واختصت

---

(١) Constantinus Porfirogenitus, P. 118, Stratos, Byzantium, P. 278.

(٢) Diehl, l'origine du regime, P. 278, Stratos, Byzantium, P. 278.

(٣) العرينى ، اجناد الروم ، ص ٦ — ٧ .

Diehl, l'origine, P. 279, Bréhier, Institutions, P. 357.

هذه المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهتها لشاطىء القسطنطينية وكان من الضرورى انتقاء الجند المدافع لصد الحملات المباشرة على العاصمة . ولهذا دأبت الدولة البيزنطية فيما بعد على تقوية هذا البند بامـداده بعناصر من جماعات السلاف التى عرفت بالبأس وشدة المراس (١) .

وحمل قائد هذا الثغر لقب كونت Comes ، وذلك عـلى لختلاف مع الثغـور الاخـرى التى حمل قادتهـا لقب استراتيجوس Strategus ، ويرجـع ذلك الى أن القائد العسـكرى للحـرس الامبراطورى كان يحمل هذا اللقب أى لقب كونت (٢) .

نشأ ثغر الاوبسيكيون فى عهد الامبراطور هرقل ، ولعل ما يؤكد ذلك أن كلمة أوبسيكيون Opsikion كلمة لاتينية ، وكان طبيعيا وقد أصبحت الادارة يونانية تحت حكم الامبراطور هرقل ألا تستخدم الكلمات اللاتينية الا فى القليل من النظم هـذا من ناحيـة (٣) ، ومن ناحية أخرى جاء فى الحوليات الفصحية Chronicon Paschale ، انه حدث فى ١٥ مايو عام ٦١٤٣ من بـدء الخليقة (٦٢٦م) تمـرد وثـورة فى القسطنطينية ضد يوحنا سيسموس Joannem Sismus بسـبب ارتفاع أسعار الخبز وكان من بين من تدخلوا لفض التمرد الى جانب الحـاكم المدنى ليونتيوس كونت بيسكون وحامل السيف Comes Piscium et Spatharius (٤) .

ويعترض بيرتوسى Pertusi أيضـا على ما جاء فى الحوليات الفصحية من أن ثغر الاوبسيكيون ظهر فى عام ٦٢٦م ، ويرى أن أول مرة يذكر فيها ثغر الاوبسيكيون كانت فى عام ٦٨٠م عنـدما كان كـونت الاوبسيكيون يحضر جلسات المجمع المسكونى السادس (٥) .

---

(١) العدوى ، الامويون ، ص ١٦٢ .

(٢) Bréhier, Institutions, P. 357.

(٣) Ostrogorsky, sur la date, P. 51., Stratos, Byzantium, P. 280.

(٤) Chronicon Paschale, Vol. I, in C.S.H.B. P. 715.

(٥) Constantinus, P. 109, Mansi, Sacrorum Conciliorum T. XI, P. 200.

فمن هو كونت الاوبسيكيون هذا الذى جاء ذكره فى الحوليات الفصحية وهل كان هناك ثغر منظم بصلاحيات ادارية فى ذلك الوقت يحمل هذا الأسم ؟ • مما لاشك فيه أن ذكر الكونت فى الحوليات الفصحية مرتبط بالحرس الامبراطورى ، اذ أنه حمل نفس لقب قادة الحرس وهو لقب كـــونت Comes • ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص ممن عهد اليهم بالاشراف الكامل على الحرس الامبراطورى ويبدو أن قيام ثغر بجوار العاصمة التى كانت مهددة بالخطر بصفة دائمة قد بـــدأ فى عام ٦٢٦م ، وكان على رأسه من بقى من قوات الحـــرس الامبراطورى بعد رحيل هرقل لحرب الفرس ، ومن المحتمل أن نشأة هذا الثغر وقيامه لم يكن كاملا ، وذلك لأن القائد العسكرى ذكر فى رواية الحوليات الفصحية بعد الحاكم المدنى ، أى أن الحاكم المدنى كانت له المكانة الأولى ، وكان القائد العسكرى يليه فى المرتبة • (١) ومن ثم فان ثغر الاوبسيكيون لم يكتمل سوى فى فترة تلت عصر الامبراطور هرقل ، واحتمالا أن يكون ذلك فى عام ٦٨٠م بالاستناد الى الاشارة الى كونت الاوبسيـــكيون ، والتى وردت فى جلسات المجمع المسكونى السادس •

أما عن الأقاليم التى ضمها هذا الثغر عند اكتماله (٢) فهى عـــلى النحو التالى :

١ — الهلسبونت Hellespont (ومدنه الرئيسية كيزيـــكوس Cyzikos وابيدوس Abydos واليـــون Ilion) •

٢ — بيثينيا Bithynia (ومدنه نيقـــوميديا ، ونيقيه Nicaea ، وبروسه Proussa) •

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 280.
هاشم اسماعيل الجاسم ، دراسات تاريخية عسكرية ، ص ٣٣ — ٣٤.

(٢) ويذكر المسعودى (ت ٩٥٦م) عن هذا الثغر « فيه مدينة نيقيه ، واول عمل هذا البند غصطويلى وآخره خليج القسطنطينية » . وقد جعـــل المسعودى ترتيبه الثانى بين الثغور الروم وبنودهم .
انظر : المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ١٧٧ ، وانظر ايضا ابن خرداذبه ، المســـالك ، ص ١٠٦ ، قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ص ٢٥٧ :

٣ — اقليم جالاتيا Galatia ومن بين مدنه Ankyra

٤ — اقليم فرجيا Phrygia (ومدنه Kotiaion, Dorylaion

٥ — اقليم تراقيا : ومن مدنه هرقله وغاليبولى Gallipolis

هذا الى جانب أقاليم أخرى (١) .

ومن الجدير بالذكر أنه ظهرت بآسيا الصغرى فى تلك الفترة معالم بعض الثغور الاخرى ومنها ثغر الاناتوليك Anatolikon وهذا الاسم مشتق من الكلمة اليونانية Anatoli ومعناها الشرق . فحاكم ثغر الاناتوليك هو الحاكم الشرقى ، وكانت هذه التسمية تطلق على القائد العام للولايات الشرقية من الامبراطورية Magister Militum per Orientem وتقيم فى هذا الثغر الفرق المتمركزة فى الشام ، ثم استقرت فى آسيا الصغرى بعد أن استولى المسلمون على بلاد الشام . وهناك كذلك ثغر تراقيسيون فى غرب آسيا الصغرى ، ويتكون من الفرق المتمركزة فى اقليم تراقيا (٢) .

على أنه مما تجدر الاشارة اليه أن نظام الثغور ، الذى خرج نتيجة للظروف التى عانتها الامبراطورية البيزنطية ، والذى قام على أساس الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية — لم يكن قد قام دفعة واحدة أو بين يوم وليلة ولكنه تكون تدريجيا ، وكانت له جذوره وسوابقه ثم بدأ يكتمل فى عصر الامبراطور هرقل وأسرته ، واستمر يقوى تحت حكم أباطرة الاسرة الايسورية والاسرة المقدونية . ومن ثم يبدو أن نظام الثغور لم يكن وليد القرن السابع (٣) .

---

(١) Stratos, Byzantium, PP. 280-81.

(٢) العدوى ، الامويون ، ص ١٦٢ ، وسام عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، جـ١ ، ص ٢٠١ . وعن هذا الثغر انظر : ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١٠٧ — ١٠٨ ، قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، ص ٢٥٨ ، المسعودى ، المسالك ، ص ١٧٧ .

(٣) Bréhier, Les Institutions, PP. 118-19.

وضع كل من الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥م) والامبراطور قسطنطين العظيــم (٣٣٧ — ٣٦١ م) من بعده نظاما اداريا معقدا ، قام على أســاس الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وذلك على امتداد الامبراطورية الرومانية الشاسعة • ولم يسمح هذا النظــام بامتزاج سلطة فى حقوق سلطة أخرى ، ولم يعد هناك اتصال بين السلطتين الا فى بعض المواضع • واقتضى هذا النظام كذلك تقسيم المقاطعات الى اقاليم أصغر ، وذلك خوفا من تمرد الولاة وقادة الجيش على السلطة المركزية ، والحد من طموحات القادة والحكام المدنيين فى الأقاليم المختلفة (١) •

غير أن اغارات البرابرة والمنــازعات الداخلية ، أجبــرت الدولة البيزنطية على بناء تنظيم ادارى جديد ، يسمح بعدم تجــزئة اراضى الامبراطورية لتبقى آمنة وجاء هذا النظام أو التعديل الجديد عــلى يد الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) والذى أعاد ادماج السلطتين المدنية والعسكرية من جديد ، وأبطل بذلك نظام كل من دقلديانــوس وقسطنطين ، وسعى جوستنيان الى تطبيق هذا النظام فى الأقاليم التى استعادها وعلى رأسها افريقية وايطاليا ، كما طبق هذا النظام كذلك فى ارمينية خاصة بعد أن اشتد الخطر الفارسى عليها (٢) •

ويجب ملاحظــة أنــه نتيجة لفتــوحات جوستنيان انقســمت الامبراطورية الى عدد من الحكومات العسكرية الكبــيرة التى يحــكمها قادة عسكريون أو وكلت الى قادة عسكريين Magistri Militum ففى الشرق كان هناك القائد للعسكرى العام للشرق

---

(١) Diehl, «The Government and administration of the Byzantine Empire», in Cam. Med. Hist. Vol., 4., P. 729.
Baynes and Moss, Byzantium, P 285., Stratos, Byzantium, P. 265.
أسد رسم ، الروم ، جا ص ٢٧٧ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر :
Diehl, l'Origine, P. 291, Diehl, le monde Oriental, P. 222.
رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩٧ ، العدوى ، الامويون ، ص ١٥٩ — ١٦٠ وفتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، جا ، ص ٨٣—٨٤.

Magister Militum Per Orientem والقائد العسكرى العام لارمينية Magister Miltum Per Armeniam وفى الغرب كان هناك القائد العسكرى لتراقيا ، والقائد العسكرى لاليريا Illyricum كما كان هناك قائد عسكرى لافريقية وايطاليا كذلك (١) •

وعاشت هذه النظم طويلا ، فيلاحظ وجود قادة الشرق العسكريين فى تراقيا وفى ارمينية ، وكذلك فى افريقية وايطاليا تحت حكم الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) ثم تحت حكم الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) • ويقر شارل ديل Charles Diehl بأن هذه الحكومات العسكرية التى نشأت فى القرن السادس ما هى الا نموذج محكم للقيادات الكبيرة فى القرن السابع (٢) •

وعملا بما جرت عليه الامبراطورية فى عهد كل من دقلديانوس وقسطنطين وانستاسيوس خصص جوستنيان فرقا خاصة للحدود ، تقيم على الاطراف ، وتتولى صد المغيرين ، وتقوم بحماية حدود الامبراطورية ، وكان جيش الحدود هذا المعروف باسم Limitanei يتكون من جنود من الفلاحين تولرثوا مهنة الجندية ، وحصلوا مقابل الخدمة العسكرية على أراضى • ومما لا شك فيه أن الأخذ بنظام جيش الاطراف يتفق مع ما جرى من قيام أو نشأة نظام الثغور (٣) •

على أنه منذ نهاية القرن السادس ، ولمواجهة هجمات اللمبارديين فى ايطاليا والبربر فى افريقية أوجد الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) نظاما دفاعيا كان له أبلغ الاثر فى قمع هجمات الاعداء فتجمع فى ايطاليا ثلاثة عشرة لقليما قديما تحت سلطة قائد واحد يحمل لقب الارخون

---

(١) Diehl, l'Origine, PP. 289-90., Vasiliev, History, Vol. I, P. 276.

(٢) Diehl ; l'Origine, PP. 291-92.

(٣) السيد الباز ، اجناد الروم ، ص ٥ ، رنسيمان الحضارة البيزنطية ، ص ١٦٠ ، فتحى عثمان ، الحدود ، جا ، ص ٨٣ — ٨٥ . Baynes and Moss, Byzantium, P. 295.

وبذلك قامت ارخونية رافنا • (١) وفى نفس الوقت حدث هذا التحول فى افريقية فتجمعت ستة اقاليم افريقية فى يد ارخون واحد ، عرف باسم ارخون افريقية • وجمع هذا الارخون الى جانب سلطته العسكرية اختصاصات الادارة المدنية ، فقد كان لهذا الارخون أو الحاكم العسكرى الاشراف التام على كل مرافق الولاية وعلى مواطنيها بما فيهم الحاكم المدنى (٢) •

وبذلك اتجه موريس نفس اتجاه جوستنيان فيما استحدثه من وظيفة الأرخون أى القائد العسكرى فى كل من ايطاليا وافريقية ، وفى جعله الحاكم المدنى أقل منه مكانة • وأمكن بهذا النظام الادارى الذى أدخله الامبراطور موريس فى كل من رافنا وقرطاجة — انقاذ ما يمكن أنقاذه فى الغرب اذ أنه حول الممتلكات البيزنطية فى الغرب الى امارات شبه مستقلة شجعت على نمو الولاء فى داخلها لحكومة القسطنطينية (٣) •

ويبدو أن ما اتخذه الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) من اجراءات قضت بانشاء أرخونيتى رافنا وقرطاجة — ذلك النظام الذى يقوم على تجنيد السكان المحليين كجنود نظاميين من أجل الدفاع عن أراضيهم — لدرء أخطار اللمبارديين والبربر ، يعتبر سابقة لما اتخذه هرقل من اجراء لحماية الامبراطورية من الاخطار الخارجية • ويبدو كذلك أن هذا أمر طبيعى فقد نما هرقل وترعرع فى افريقية ، التى كان يحكمها أبوه بسلطة مطلقة ، وكان أرخونا لها ، يجمع فى يده السلطات العسكرية والمدنية • ومن ثم فان نظام الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية فى يد أبيه ، لم يكن بالجديد على هرقل • وربما شعر هرقل بأن هذا النظام هو الذى تحتاجه الامبراطورية فى الاوقات العصيبة التى كانت تمر بها • فقد حثته

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أرخونية رافنا انظر :

Diehl, l'Exarchat de Ravenne, PP. 3-40.

(٢) Diehl, l'Origine, P. 277, Diehl, Le Monde, P. 222.

(٣) وسام عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، جا ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ، ١٩٩ •

الحروب المستمرة مع الفرس والاخطار الناتجة عن الآفار والسلاف على البدء فى تطبيق هذا النظام الذى يعرفه ، والذى يصحح نقاط الضعف فى الادارة ، كما أنه يكفل لها الدفاع عن الامبراطورية (١) .

هذا ويرى البعض أن هناك ثمة تشابه بين النظم الساسانية الفارسية وبين نظم الدولة البيزنطية ، وان اعادة تنظيم الامبراطورية البيزنطية فى القرن السابع مبنى على على ما تم فى دولة فارس فى القرن السادس زمن قباد وكسرى أنوشروان من تقسيم البلاد الى أربعة أقسام كبيرة ، تخضع لسلطان أربعة من القادة العسكريين فالاصبهبذون (٢) الأربعة فى نظام كسرى هم نظائر للقادة الذين شغلوا أرفع مناصب الدولة فى بيزنطة ، والمرازبة (٣) العظام نواب الاصبهبذين هم نظائر لنواب القادة فى تنظيم هرقل للدولة البيزنطية (٤) .

ودرس هرقل عن كثب نظام الحكم عند اعدائه بكثير من الاهتمام ، وذلك قبل أن يبدأ حملاته على فارس ، فبادر هرقل بتقليد هذا النظام والاقتداء به واخذ عن الفرس دمج للسلطتين المدنية والعسكرية فى يد قائد عسكرى يقوم على رأس جيشه فى منطقة معينة ، فكان أن نشأ نظام الثغور أو الثيمات (٥) Themes .

---

(١) السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢٠ .
Vasiliev, History, I, P. 272-73, 277, Stratos Byzantium P. 266.

(٢) الاصبهبذون : هم اصحاب تدبير الملك ، وقد عهد لكل واحد منهم بتدبير جزء من أجزاء المملكة فكل واحد منهم صاحب ربع منها ، ولكل واحد منهم مرزبان ، انظر ارثر كريسينسن ، ايران فى عهد الساسانيين ، ص ٤٩٨ — ٤٩٩ .

(٣) المرازبة : هم اصحاب الثغور ، وكانوا اربعة لكل من الجهات الاصلية ، انظر كريستنسن ايران فى عهد الساسانيين ، ص ٤٩٨ .

(٤) كريستنسن ، ايران ، ص ٥٦٧ ، ٥٨٦ والباز العرينى ، الدولة البيزنطية ص ١٢١ ، حاشية ٢ .

(٥) أسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٧٨ .
Baynes and Moss, Byzantium, P. 285.

ويرى داركو Darko ، أننـــا يجب أن نلاحظ أن ملـــوك الاسرة الساسانية لايعتبرون مبتكرين لهذا النظام العسكرى ، فقد عمل بهــذا النظام قبل الفرس أسلاف هرقل وبصفة خاصة جوستنيان وموريس ، كما أن الفرس تأثروا بالنظام السائد لدى الشعوب التورنية وهم التــرك والهون والافار والمجريون القدماء (١) •

وعلى هذا النحو تكون حركة الاصلاح الادارى للدولة البيزنطية قد بــدأت تحت حــكم الامبرلطــور جوســـــتنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) واستمرت تحت حكم الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) ثم أصبحت أكثر سرعة منذ حكم الامبراطور هرقل الذى أتم بنظام الثغور تطورا تاريخيا بدأ منذ عهد الامبراطور جوستنيان • وكان النظام الجديد أى نظام الثغور عبارة عن ادماج لجيش الاطراف أو الحدود القديم limitanĕi مع نظام الارخونيات اذ أنه بمقتضى هذا النظام استقر الجند فى الاراضى مثلما جرى من قبل فى جيش الاطراف وتغلب العامل العسكرى فى الادارة مثلما كان شائعا فى الارخونيات وأصبح حاكم الثغر العسكرى والذى يعــرف باسم الاستراتيجوس Strategus يقابل ما كان معروفا بالارخون (٢) •

وكان الاستراتيجوس يتولى ادارة الثغر باستثناء ثغر الاوبسيكيون ويلقب الاستراتيجوس بلقب شرفى وهو لقب بطريق Patrician ، وكان حكمه هو القاطع فى الثغر ، وخاصة اذا كان الثغر الواحد يحتوى عــلى عدد من الاقاليم القديمة • ويعين الاستراتيجوس من قبل الامبراطور مباشرة ، كما أنه كان عضوا فى البلاط الامبراطورى ، ويتمتع بمكانة كبيرة فى الدوائر الامبراطورية ، ومن ثم فهو يرتبط مباشرة بالامبراطور • والاستراتيجوس هو القائد العسكرى للقوات فى اقليمه وهو المسئول

(١) Darko, «Influences Touraniennes sur l'evolution de l'art militaire des Grecs, Romans, et Byzantines» dans Byzantion (1937) PP. 135-36.

(٢) انظر : العرينى ، الدولة ، ص ١٢٠ — ١٢١ .
Ostrogorsky, History of the Byzantine, P. 87.
Bréhier, Institutions, PP. 118-19.

عن الشئون الادارية والمالية والاقتصادية ، فضلا عن مباشرته للقضـاء كما أنه المسئول الذى يعتمد عليه فى أمن الاقليم وامانه • وهو بذلك أشبه بنائب الامبراطور أو ممثله فى اقليمه • وكان الاستراتيجوس يتقاضى راتبا ثابتا من الحكومة المركزية ، يتوقف ارتفاعه أو انخفاضه على أهمية لقليمه بالنسبة للامبراطورية(١) •

ويساعد الاستراتيجوس عدد من الموظفين المدنيين الى جانب معاونيه العسكريين ، ومن هؤلاء الموظفين على سبيل المثال : موظف يعرف باسم Protomandator وهو أكثر الموظفين أهمية ، وغالبا ما كان يحمل لقب قاضى الثغر ، وكان على رأس الادارة المدنية ، ومسئول عن الشئون القضائية والمالية ، ومع انه كان يخضع للاستراتيجوس الا أنه كان له الحق فى مراسلة الامبراطور رأسا ، ودون وساطة الاستراتيجوس • وهنـاك موظف آخر مسئول عن التجنيد والمؤن ويشرف على نفقات الجند وهو Chartularius هذا الى جانب دمستق الثغر Domestic • وهكذا كانت السلطة المدنية ممثلة — على قدر الامكان — فى بعض المصالح المدنية مما ساعد على التقليل من بطش الحكام العسكريين(٢) •

ويتضح مما سبق أن السلطات المدنية لم تتخل عن اختصاصاتهـا دفعة واحدة للحكام العسكريين فقد استمر المدنيون يمارسون أعمالهـم المخصصة لهم ، ولكن بمرور الوقت ، وبازدياد نفوذ الاستراتيجوس ، واختصاصات للسلطات العسكرية من أجل دفع الاخطار الخارجية — بدأت حقوق الحكام المدنيين تتضاءل وتقل ، واتخذت التنظيمات الادارية الجديدة طابعا عسكريا خالصا (٣) •

---

(١) Diehl, the Government and administration, PP. 733-34, Baynes and Moss, Byzantium, P. 290, Bréhier, Institutions, P. 360., Ostrogorsky, History of the Byzantine, P. 87., Stratos, Byzantium, P. 276.

(٢) Diehl, The Governmnet, P. 734, Baynes and Moss, Byzantium, P. 291.

(٣) Vasiliev, History, I, P. 278., Stratos, Byzantium, P. 278.

وعلى هذا النحو فان ادماج السلطتين المدنية والعسكرية فى أيدى حكام الاقاليم — وهو السمة المميزة لنظام الثغور — لم يحدث دفعة واحدة ولكنه كان يتم تدريجيا ، حتى أصبحت الادارة المدنية خاضعة للقيادة العسكرية وفقدت أهميتها .

ومما تجدر الاشارة اليه أن جيش الثغر انقسم — بناء على أوامر الاستراتيجوس الى قسمين أو ثلاثة أقسام ، لكل قسم منها امارة كتيبة Turmarchy أو ناحية أو منطقة ويتولى رئاسة الكتيبة أو الناحية قائد يطلق عليه اسم طورمارخ Turmarch أى آمر الكتيبة أو آمر الناحية، وكانت الكتيبة مقسمة الى خمسة سرايا Moirai ، ولكل سرية قائـــد يعرف بطرنجار Drungarius ، كما أن السرية تنقسم الى خمس فصائل Tagmata لكل منها كونت Comes ، ومع كل كونت خمسة قمطرخين وكانت هناك وحدة من عشرة رجال تحت امـــرة جاويش يسمى دقارخ Dekarches (١) .

ومما لاشك فيه أنه ترتب على نظام الثغور تغييرات بالغة الأهمية ، أثرت فى كيان الامبراطورية الاجتماعى والاقتصادى والعسكرى ، وارست دعائمها ، وامدتها بالوسائل الكفيلة بدرء الاخطار عنها . فنتيجة لما قام به الامبراطور هرقل من توزيع الاراضى ليس على السكان المحليين فقط بل وعلى جنود من المقاطعات والاقاليم الاخرى ، فقد شجع هذا جنود المقاطعات الاخرى على الزواج من الاقليم الذى فيه الارض ، وبالتالى

---

(١) قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، رنسيمان ، الحضارة ، ص ١٦٤ الباز العرينى : اجنـــاد الروم ، ص ١٠٣ ، بينز ، الامبراطورية ، ص ١٧٢ — ١٧٣

Diehl, The Government, P. 734, Baynes and Moss, Byzantium P. 298.

هذا ويذكر قدامة بن جعفر أن الطومرخ له قيادة خمسة الاف جنـــدى والطرنجار الف والكونت (القومس) مائتين والقمطرخ اربعين ، اما الداقرخ فعشرة جنود .

حدث اندماج بين السكان المحليين وبين جنود المقاطعات الاخرى(١) •

وترتب على قيام نظام الثغور أيضـــا أن أصبح من اليسير عـــلى الامبراطورية تجنيد جيش من داخلها نواته الجنود من المزارعين ، وذلك بدلا من استخدام المرتزقة الاجانب الذين جرى استخدامهم لفترة طويلة• وقامت الدولة بتقسيم الاراضى التى نزل بها الجند الى ضياع ووزعتها عليهم بشرط أداء الخدمة العسكرية • وللجندى الفلاح ان يحـــوز من الارض ما يكفى لمعيشته بشرط أن يكون فى استطاعته هو واسرته القيام على زراعتها ، ولاينبغى له أن يتصرف فيها بالبيع والشراء ، وله أن يدفع ما عليها من ضرائب • وبهذه الطريقة أمكن ايجاد علاج ناجح للمشـــاكل، التى كان الجنود يجلبونها دائما الامبراطورية عن طريق انعاش الجيش وتغذيته بالدم الجديد ، وبهذا حدث تطور هائل فى صفوف الجيش من الناحية العسكرية والادارية اذ أصبح فلاحو بيزنطة المجندون المستقرون فى الثغور ، عنصرا أساسيا فى القوات المسلحة البيزنطية ، وكانت اراضيهم تمد الجيش بالتموين اللازم له ، والذى يستطيع به أن يحافظ على صلابته• ومن ثم كان هذا النظام دفعة جديدة للامبراطورية جعلتها قادرة على استعادة نفوذها ومكانتها فى الشرق اذ أمدها بالوسائل الكفيلة لايجـــاد قوة عسكرية وطنية مقتدرة ، كما خفف عن الخزانة الامبراطورية عبـــأ ثقيلا ، اذ ان ماتنفقه الحكومة على الجيش ، والدفاع عن الامبراطورية من أموالً قد انخفض مقداره بسبب توزيع الاراضى على الجند(٢) •

ونتج عن نظام الثغور وزيادة المجنود من المزارعين نمو الفلاحة الحرة أو طبقة الفلاحين الاحرار الذين يشكلون العمود الفقرى لمجتمع القرية، والذين حدوا من ابتلاع النبلاء الاقوياء ، فى آسيا الصغرى ومنـــاطق

---

(1) Stratos, Byzantium, PP ; 275-76.

(٢) الباز العرينى ، اجنـــاد الروم ، ص ١٠٨ ، العرينى ، الدولـــة البيزنطية ١٦٢ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ، حسنين ربيع ، دراسات فى تـــاريخ الدولة البيزنطية ص ٧٧ .

Ostrogorsky, History, of the Byzantine, P. 88.

أخرى ، لأراضى صغار الملاك • وحل بذلك محل الطبقة الارستقراطية القديمة من كبار ملاك الاراضى طبقة نامية من صغار الملاك ، الذين كانت مصالحهم لاتتعارض مع مصلحة الامبراطورية ومساعدتها ولا مع الدفاع عن المنطقة التى فيها أراضيهم وممتلكاتهم ، واشتهر هؤلاء بالحرص الشديد ، والغيرة القوية ، على الدفاع عن أملاكهم التى يعتمدون عليها فى معيشتهم وفى شراء الأسلحة ، فضلا عما يدفعونه من ضرائب للدولة[1] •

حقيقة أن بناء قوة عسكرية وطنية ، واعادة تنظيم حكومات الولايات ومناطق الحدود ، كان أمرا يتطلب فترة طويلة تمتد طيلة قرنين أو اكثر من الزمان لذلك فانه لم يكن من المنتظر ، أن يرى هرقل نتائج هذا العمل، ولكن مانعمت به الامبراطورية فيما بعد كان يرتكز أساسا على الدعائم التى أرساها الامبراطور هرقل وخلفاؤه [2] •

تحول الدولة البيزنطية الى الطابع اليونانى :

كان للقرن السابع بصفة عامة وعصر الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١م) بصفة خاصة ، أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ الدولة البيزنطية ، اذ تغير طابعها فى هذا العصر ، ولم تعد رومانية بل أصبحت يونانية الطابع ، أو ذات طابع يونانى متميز ، وان كان قد تم بالتدريج ، وحدث ببطء ، ولم يظهر بصورة واضحة الا فى نهاية هذا القرن الا أن اشعاعه بدأ يظهر فى عهد الامبراطور هرقل • حقيقة أنه يصعب أن نحدد بالطبع متى نستطيع أن نقول ان الدولة البيزنطية بوصفها رومانية قد انتهت أو أن الدولة فقدت طابعها اللاتينى تماما ، فهذا التحول مما لاشك فيه يستغرق فترة من الوقت •

---

(١) هسى ، العالم البيزيطى ، ص ١٢١ ،

Charanis, Some remarks, P. 71., Charanis, On the social structure, PP. 48-49.

الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٥٩ ، ١٦٣ .

Stratos, Byzantium, P. 275.

(٢) هسى ، العالم البيزنطى ، ص ١٢١ .

تعرضت الامبراطورية فى القرن السابع لاغارات الفرس والآفـار والسلاف وأدت تلك الاغارات الى انكماش رقعتها ، وفقدها أجزاء كبيرة من أقاليمها الشرقية ، مع تخريب لمنطقة البلقان والاستيلاء على أجزاء منها • وأدت هذه الاخطار الى فقدان الدولة البيزنطية شيئا فشيئا صفة الامبراطورية العالمية ، والتى ورثتها عن العرف الرومانى(١) •

على أنه نتيجة لهذه الاخطار اصبح العنصر اليونانى هو العنصر السائد والمتسلط فى الدولة ، وأصبحت آسيا الصغرى هى قلب الدولة ومركز الثقل فيها ، وكانت تلك المنطقة خاضعة للنفوذ الكامل للعنصر اليونانى ، ولذا أصبح يسمح لليونانيين بالعمل فى الادارة ، وكان الجيش بطبيعة الحال مكونا من عناصر يونانية • وبعد سنوات قليلة أصبحت عملية التحول الى الطابع اليونانى هذه تسير بخطى أسرع ، واكتمل التحـول الذى أعطى للامبراطورية البيزنطية طابعها اليونانى ، وسمتها المميزة التى سوف تحافظ عليها حتى آخر عهدها(٢) •

وبطبيعة الحال ومع زيادة نفوذ العنصر اليونانى بدأت الالقـاب المستخدمة فى البلاط تتحول من اللاتينية الى اليونانية بدون أن تتغـير طبيعتها الاصلية • كان حاكم الدولة يعرف باسم « الامبراطور Imperator أو أغسطس Augustus ، ولكن الغالبية العظمة من اليونانيين — التى كانت ترى أن هذه الاسماء غريبة عليها — كانت تطلق على الحـاكم اسم « باسيليوس Basileus » أمـا لقـب امبراطور أو اوتوقراطـور Autocrator فكان مجرد لقب عسكرى بالنسبة لهم • أما لقب باسيليوس Basileus الذى عرف به الحكام عند اليونانيين — فكان يعنى لقب ملك • ومن ثم أصبح من المعتاد بالنسبة للامبراطور البيزنطى أن يعرف

(١) Diehl, Le monde oriental, P. 211, Stratos, Byzantium. P. 342.

اسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٧٧ .

(٢) Diehl, Le monde, P. 226, Stratos, Byzantium, PP. 342-43.

اسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٨٠ .

باسم باسيليوس Basileus وتعنى ملك ، ولكن ليس من الناحيــــة الرسمية ، اذ لم يعترف البلاط ولا الادارة بهذا اللقب ، وبالتدريج بدأ هذا اللقب يستخدم رسميا غير أنه لم يكن على قدم المساواة مع لقــب امبراطور اذ لم يستخدم على العملات ولا فى القوانين ، ولا فى الشئون السياسية والدبلوماسية(١) .

وكان الامبراطور هرقل أول من تقلد لقب باسيليوس Basileus اليونانى رسميا ، وذلك فى عام ٦٢٩م ، بل واستخدمه فى الاتصالات الرسمية والمراسيم الامبراطورية . ومنذ ذلك الحين استخدم أباطــرة الدولة البيزنطية هذا اللقب وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن الامبراطورية البيزنطية أصبحت بشكل قاطع ذات طابع يونانى(٢) .

واختلف المؤرخون حول الدوافع التى دعت الامبراطور هرقل الى اتخاذ هذا اللقب أى لقب باسيليوس Basileus فيرى لويس بريه LouisBréhier أن عودة هرقل الى القسطنطينية منتصرا على فارس فى عام ٦٣٩م ، ساعدت على ظهور الصياغة الجديدة للقب الامبراطور . وان اتخاذ هرقل لهذا اللقب كلقب رسمى يعد نوعا من التقديس للنصر الذى حققه ، وانه بمثابة ختم على سجل انتصارته ، التى جعلته يفاخر بكونه الملك العظيم والباسيليوس الوحيد(٣) .

ويذكر فازيليف Vasiliev أن البيزنطيين لم يرغبوا فى اســتخدام لقب باسيليوس رسميا ، وذلك لانه كان هناك باسيليوس آخر يستخدم اللقب وهو ملك فارس ، وانه طالما كان هناك من يشاركهم فى هذا اللقب فقد امتنع الاباطرة عن استخدامه ، ولكن بمجرد أن خضع ملك فــارس

(١) Stratos, Byzantium, P. 343.

(٢) Irfan Shahid, «The Iranian Factor in Byzantium during the reign of Heraclius», in Dumbarton Oaks papers (1972), PP. 295-96, Stratos, Byzantium, P. 343.

(٣) Bréhier, les Institution, P. 50.

وأصبح فعلا تابعا لهم ، ولم تعد توجد منافسة فان الامبراطور هرقل تقلد اللقب رسميا ذلك اللقب الذى ظل اباطرة الدولة البيزنطية يتقلدونه لعدة قرون بصفة غير رسمية(١) •

على أنه مما تجدر الاشارة اليه أن بلاد فارس لم تنزل الى منزلة الدولة التابعة ، بل ظلت قوة عظمى بالرغم من كونها منهزمة ومنهكة ، فلم تسفر هزيمتها عن تغيير جوهرى وأساسى فى بناء الدولة الساسانية ، وينعكس ذلك فى الوثيقة الرسمية التى جاءت فى الحوليات الفصحية Chronicon Paschale والممثلة فى الخطاب الذى أرسله حاكم فارس الجديد وهو قباد أو شيرويه الى الامبراطور هرقل ، والذى يؤكد فيه قباد لقبه « ملك الملوك » • حقيقة أن صيغة الخطاب كانت أكثر خضوعا من صيغ الخطابات السابقة والموجهة من ملوك فارس الى اباطرة الدولة البيزنطية، ولكنها بالتأكيد لاتتنازل عن التفوق للامبراطور البيزنطى ، فهى تجمع بين الاثنين — الى حد ما — كملكين عظيمين(٢) •

ويذكر أوستروجوسكى Ostrogorsky أن هرقل باتخاذه لقب باسيليوس تخلى عن اللغة اللاتينية ، واستخدم اللغة اليونانية كلغة رسمية للامبراطورية ورفض التأثير الفارسى ، وارجع التغيير الذى حدث فى الامبراطورية الى اليونانية ، فيذكر أن التغيير العظيم الذى حدث فى اللقب الامبراطورى فى الدولة للبيزنطية كان بتأثير الصفة اليونانية(٣) •

غير أن أتخاذ الامبراطور هرقل لقب باسيليوس لايمكن أن يوصف ببساطة على أنه تغيير من اللغة اللاتينية الى اللغة اليونانية ، فمنذ أن أصبح الاباطرة يستخدمون لقب أوتوقراطور اليونانى ، ولقب امبراطور

---

(١) Vasiliev, History, Vol. I, P. 241.

وانظر ايضا :

Irfan Shahid, The Iranian Factor, P. 296.

(٢) Chronicon Paschale, Vol. I in C.S.H.B., PP. 735-36.

(٣) Ostrogorsky, History of the Byzantine, P 95.

اللاتينى ، كانت كلمة اوتوقراطور اليونانية هـذه قد أبعدتها كلمـة باسيليوس ، وهى كلمة يونانية أخرى • ومن ثم فان التغيير لم يـكن فقط من لقب امبراطور الى لقب باسيليوس ، ولكن من لقب أوتوقراطور Autocrator الى لقب باسيليوس Basileus أيضا ، وهو تغيير داخـل اللغة اليونانية نفسها •(١) •

أما استراتوس Stratos ففى رأيه أن التأثير اليونانى قد فرض استخدام هذا اللقب فعلا ، فلقد قضى هرقل عدة سنوات من حياته فى معسكر ، وكان من المستحيل بالنسبة له أن يتجنب تأثير اليونانيين الذين يكونون جيشه ، وكان ضباطه وقواته ، وشعوب الاقاليم التى يمر بها يشيرون اليه على انه باسيليوس ، ومن ثم فقد أصبح معتادا على هذا اللقب • ويذكر استراتوس أيضا أن هرقل أدرك أن لقب اوتوقراطور Autocrator ولقب أغسطس Augastus قد أصبحا من الالقـاب القديمة(٢) •

وهناك رأى آخر يرى أن التقليد الرسمى للقب باسيليوس ، ينسب الى عنصر أكثر حيوية فى قيام الامبراطورية الرومانية المتأخرة الا وهو المسيحية نفسها أكثر من تأثير اليونان وفارس • فهذا اللقب الجديد مناسب لحاكم امبراطورية أصبحت ثقافتها مسيحية ، حاكم شهد حربا دينية استمرت عشرين عاما ، حاكم أصبح صاحب الشخصية الدينية •• ويؤيد وجهة النظر هذه أن هرقل اختار لقبه الرسمى بعبارة اصطلاحية وهى « الباسيليوس المخلص للمسيح » وأكمله بألقاب أخرى استخدمها الامبراطور البيزنطى من قبل(٣) • ومن ثم فان لقب باسيليوس يعكس

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تفنيد راى اوستروجورسكى انظر :
Irfan Shahid, The Iranian Factor, PP. 301-302.

(٢) Stratos, Byzantium, P. 344.

(٣) Alexander, «Heraclius, Byzantin imperial ideology» in Speculum, (1977). PP. 232-33.

الصورة الامبراطورية ، التى كان المعاصرون قد تصوروها كصورة مسيحية، أو التى أصبحت فى الحقيقة ذات طابع مسيحى •

على أنه لايمكن تجاهل التأثير الفارسى فى تقلد الامبراطور هرقل للقب باسيليوس Basileus ، بل ان هذا التأثير يظهر فى ثلاثة أوجه : أولها : طبيعة السلام والاستقرار بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية • وثانيها : الاصول الارمينية لهرقل لذ أن هرقل ينسب الى أسرة الاراشكة Arsacits الارمينية التى يرى البعض —(١) أنها من الايرانيين ، وانها الفرع الرئيسى لـ Arsacid الذى حكم بارثيا ، وان قطرات للدم الايرانى القليلة ، التى تجرى فى عروق هرقل ليست أكثر أهمية من حقيقة أن النظام الملكى الارمنى سار على النظام الايرانى البارثى أو كان نموذجا ايرانيا بارثيا(٢) • وثالثها : يفوق أصل هرقل الارمنى ، وهو الحرب بين الدولة البيزنطية وايران الساسانية ، تلك الحرب التى استغرقت عشرين عاما وما كان لها من تأثير على تقلد هرقل للقب باسيليوس ، فقد كان حاكم فارس وملكها هو الوحيد الذى تقلد لقب باسيليوس بطريقة رسمية (٣) •

يتضح من العرض السابق أن عودة الامبراطور هرقل من حروبه مع الفرس منتصرا فى عام ٦٢٩م كان لها أثرها فى تقلد هرقل للقب باسيليوس بدلا من لقب امبراطور ، كما يجب أن نضع فى الاعتبار كلا من التأثير اليونانى والتأثير الفارسى ، واثرهما فى تقليده هذا اللقب الذى يعكس الطابع اليونانى الذى بدأت الدولة البيزنطية تتسم به •

ولم يكن لقب حاكم الدولة هو الذى تحول الى اليونانية فحسب ، فقد بدأت كل الاسماء والالقاب لاعضاء البلاط ، وموظفى الحكومة ، تأخذ بالتدريج اسماء يونانية ، واختفت القاب الرومانية القديمة • ومن

(١) Irfan Shahid, The Iranian Factor, P. 302-305

(٢) Ibid PP. 309-12.

(٣) عن الحرب بين الدولة البيزنطية والفرس انظر الفصل الرابع •

أمثلة القاب الموظفين التى بدأت تأخذ الشكل اليونانى فى عهد هـرقل ألقـاب Logothetes, Eparchs, Strategoi وغيرها • ومن بـين الاسـماء والكلمات التى تحولت الى اليونانية كلمة قلعة Castrum وتحولت الى Kastro وكلمة السوق أو الميدان العام Forum وأصبحت Foros وهـكذا (١) •

أما فى مجال التشريع ، فقد كانت القوانين والمراسيم تنشر أصـلا باللغة اللاتينية ، ولكن بدأت بالتدريج ، وتحـت ضغط الاحـداث تتم كتابتها باليونانية • فمن المعروف أن الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) وضع مدوناته فى القانون باللغة اللاتينية ، فهى اللغة القوميـة للامبراطورية غير أنه استخدم اللغة اليونانية فى بعض متجدداته لانها مفهومة عند كثير من الناس ، ثم وجد نفسه مضطرا لأن يضـع بعض الشروح والتعليقات الخاصـة بالقانون الامبـراطورى باللغة اليونانية أيضـا (٢) •

ومنذ عهد الامبراطور هرقل أصبح التشريع كله باللغة اليونانية ، وكان ذلك طبيعيا ، فقد أصبحت الدولة البيزنطية قاصرة فى عهده عـلى آسيا الصغرى اليونانية ، وللبلقـان وايطاليا وافريقيا ، وكان غـالبية سكانهم يتحدثون باللغة اليونانية ، ونظرا لأن معظم المراسيم والقوانين كانت موجهة اليهم ، فكان من الطبيعى أن تكتب باللغة اليونانية ، ليس هذا فقط بسبب أنها لغة مفهومة من جانب السكان ، ولكن لأنها اللغـة الأصلية لمن يكتبون تلك القوانين أو المراسيم (٣) •

---

(١) Diehl, Le monde Oriental, P. 227, Stratos, Byzantium, P. 344.

أسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٨١ ، عمر كمال توفيق ، تـاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٧٦ .

(٢) Diehl, Le monde Oriental, P. 227.

(٣) Stratos, Byzantium, PP. 344-45.

وتحول الجيش بسرعة الى الطابع اليونانى ، فحتى عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) كانت اللغة المستخدمة فى الجيش هى اللغـــة اللاتينية ، وكان كبار الضباط يتكلمون اللاتينية فهم من أبناء الولايـــات الاوربية ، كما كانوا يحملون أسماء لاتينية ، وبالمثل كانت الســـجلات العسكرية باللاتينية • ويرجع ذلك الى أن الجيش كان يتكون من شعوب مختلفة معظمها من أصل أجنبى ، كما كان المرتزقة يأتون من أجزاء مختلفة من الامبراطورية ، ومن شعوب تعيش خارج حـــدودها ، ومن ثم كانت اللغة التى توحدهم ، والتى يعرفونها فعلا هى اللغة اللاتينية • ومنـــذ القرن السابع وخاصة منذ عهد الامبراطور هرقل لم يعـــد نظام المرتزقة نظاما أساسيا للتجنيد فى الجيش البيزنطى ، وأصبح معظم رجال الجيش عبارة عن عناصر مجندة من الاقاليم الاسيوية ومن ارمينية • ونظرا لأن سكان تلك الاقاليم كانوا يونانيين خلص أو شعوب يونانية ، فـــكان من الطبيعى أن تكون اللغة اليونانية هى اللغة الوحيدة التى يعرفونها ، والتى يتحدث بها الضباط والناس • واستخدم الامبرلطور هرقل كذلك الارمن والعرب ، وهذا يرجع بطبيعة الحال الى أنهم كانوا جيران لليونانيين ، وكانت بينهم مبادلات ، وكانوا يعرفون اللغة اليونانية أكثر من معرفتهم للغة اللاتينية • ومن ثم كانت هناك ضرورة حقيقية لاستخدام لغة واحدة يمكن بها الاتصال فى الجيش أو للربط بين عناصر الجيش المختلفة (١) •

ومن الجـــدير بالذكر أن اســـتراتيجية موريس Maurice's Strategicon كانت مكتوبة باليونانية وقد ألفت هذه المجموعة لسد حاجة ملحة فى الجيش — قبل أن يبدأ هرقل حملته ضد الفرس ، وكـــان ذلك قبل عام ٦٢٢م • وكان معظم الضباط الذين يدرسونها يونانيين (٢) •

وكانت العملات حتى عصر هرقل منقوشة باللغـــة اللاتينية ، وفى بواكير القرن السابع استخدم هرقل الصفات لليونانية على العمـــلات

(١) Diehl, Le Monde, PP. 227-28., Stratos, Byzantium, PP. 345-46.

(٢) أنظر ما يلى فى الفصل الرابع .

البرونزية ثم على النقـــود الفضية والذهبية أيضا وخاصـــة بعـــد عام ٦٢٩م ، حيث بـــــدأت تظهـــر تحت الصليب عبـــارة « بهـــذا تنتصر «En touto nika» تلك العبارة اليونانية بدلا من العبـــارة اللاتينية « فليساعد الله الرومان « Deus adiuta Romanis » (١) .

ففى عام ٦٢٩ أصدر هرقل عملته الفضية المعروفة باسم Milaresion ويظهر عليها هرقل بزيه العسكرى متوجا بالنصر ، ويمسك فى يده اليمنى الصليب المقدس ، الذى استرده من الفرس ، وأعاده الى بيت المقـــدس فى عام ٦٢٩ م (٢) .

ثم أصدر هرقل عملته الذهبية المعروفة باسم الصولد Solidus of Heraclius فى الفترة ما بين (٦٢٩ — ٦٣١ م) وظهر عليهـــا هو ابنه الاكبر قسطنطين من اوداكيا Eudocia . وعـــلى هذا فمنذ عهـــد هرقل بدأت النقوش اليونانية تحل محل النقـــوش اللاتينية على العمـــلات (٣) .

ولعبت الكنيســـة دورا هاما فى التحـــول الى الطـــابع اليـــونانى للامبراطورية فقد قامت الكنيسة فى الاقاليم الشرقية حيث كانت اللغـــة اليونانية ، هى اللغة المستخدمة فى تلك الاقاليم ، كما أن رئيس الكنيسة قد تلقى تعليمه باللغة اليونانية ، هذا الى جانب أن كل الطوائف الكنسية كانت تتحدث هذه اللغة فاللغة الكنسية المستخدمة كانت اللغة اليونانية ، وكان القداس باللغة اليونانية ، وكانت التراتيل والقصائد الكنسية تكتب كذلك باليونانية ، تلك اللغة التى استخدمها آباء الكنيسة فى كتاباتهم (٤) .

وعندما ازداد نفوذ الكنيسة وسلطانها ، فانه كان من المتـــوقع أن تسود اللغة التى تستخدمها الكنيسة ، هذا وقد لعب بطريرك الكنيســـة

---

(١) Stratos, Byzantium, PP. 345-46.

(٢) David Talbot Rice, The Byzantines, PP. 58-59.

(٣) Ibid P. 59., Alfred Bellinger, «The coins, and Byzantine imperial Policy» in Speculum (1956), P. 73.

(٤) Stratos, Byzantium, P. 347.

دورا هاما جدا وكان له نفوذ كبير فى جميع أرجاء الامبراطورية ، وعلى البلاط ، وأبرز مثال على ذلك الدور الهام الذى لعبه البطريرك سرجيوس Sergius بطريرك القسطنطينية الذى كان من الشخصيات الكنسية الهامة ، وكان له تأثير كبير فى اقرار شئون الدولة • ونظرا لان الكنيسة كانت تخاطب الشعب ، وأصبح السكان داخل نطاق الحدود البيزنطية أغلبية يونانية كان من الضرورى أن تكون منشورات الكنيسة وقداساتها مفهومة لغالبية الشعب ، وبطبيعة الحال كانت اللغة التى يجب أن تستخدم هى اللغة اليونانية ، التى تستخدمها الاغلبية • ويضاف الى ذلك أن اللغة اليونانية كانت اللغة التى يتم بها الاتصال مع سائر البطريركيات الأخرى (1) •

ولم يقتصر تأثير اللغة اليونانية على الالقاب الامبراطورية ، وعلى الادارة والتشريع والجيش والعملات والكنيسة فحسب ، ولكن تدريجيا بدأت تسود اللغة اليونانية كل مظاهر الحياة العامة فى المدينة • وعلى هذا فمنذ القرن السابع وعصر الامبراطور هرقل بصفة خاصة أصبحت الدولة البيزنطية دولة يونانية خالصة ، واصطبغت بالصبغة اليونانية ، وسادت الروح اليونانية كافة مظاهر الحياة بها • ولكن من الضرورى أن نشير الى أن هذا التحول لم يتم دفعة واحدة ، بل كان تدريجيا واكتملت معالمه فى نهاية القرن السابع •

---

(1) Diehl, Le monde, PP. 228-29.
Stratos, Byzantium, P. 347.

الفصل الثالث

السياسة الدينية للدولة البيزنطية
فى عصر الامبراطور هرقل

أولا : مشكلة المونوفيزتية .

* الأحوال الدينية فى للشرق المونوفيزيتى فى ظل الاحتلال الفارسى .
* دور البطريرك سرجيوس فى الدعوة لمذهب الارادة الواحدة .
* جهود هرقل فى سبيل نشر المذهب الجديد .
* كيروس ونشر المذهب الجديد فى مصر .
* موقف بابا روما من مذهب الارادة الواحدة .
* مرسوم تقرير الايمان الـ Ecthesis

ثانيا : سياسة الدولة البيزنطية تجاه اليهود فى عهد هرقل :

* اليهود قبل عهد هرقل .
* موقف هرقل المبدئى من اليهود .
* اجراءات هرقل ضد اليهود .

كان من بين الكوارث التى عانت منهـا الامبراطورية البيزنطية فى نظـر الامبـراطور هرقل تلك الخـلافات المـذهبية التى نشـبت بين المونوفيزتيين والارثـوذكس من ناحية ، وبين اليهـود والمسيحيين فى الامبراطورية من ناحية أخرى ، فقد أحالت هـذه الخـلافات أراضى الامبراطورية الى ميادين وساحات قتال ، وهددت تلك الخلافات أيضـا بانفصال الاقاليم الشرقية عن الامبراطورية بل وهددت بزوال ما كانت تتمتع به السلطة الامبراطورية من ولاء فى تلك الاقاليم • ولهـذا رأى الامبراطور هرقل أن الواجب يحتم عليه أن يبحث عن ايجاد حل لمشكلة المونوفيزتيين ، التى كانت سائدة فى الاقاليم الشرقية ، وكذلك لقضـية اليهود الذين انتهزوا كافة الفرص من أجل اثارة المسيحيين وقتلهـم • وربما كان هذا الحل يتمثل فى العمل على تحقيق الوحدة الدينية ، التى بدونها لن تتحقق الوحدة السياسية داخل الامبراطورية ، ولا يمـكن للاخيرة أن تواجه الاخطار التى كانت لاتزال تعصف بها وتهدد كيانها •

أولا : مشكلة المونوفيزتية :

ساد المذهب المونوفيزيتى ، أى مـذهب الطبيعة الواحـدة ، فى الاقاليم الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية ، وبصفة خاصة مصر وسوريا وفلسطين وارمينية ، وذلك على عكس ما كان سائدا فى كنيسـة القسطنطينية من مذهب الطبيعتين ، أى المذهب الاثوزكسى • وهذا ما دفع الامبرلطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) سلف هرقل ، الى أن يفـرض المذهب الملكانى بالعنف والقسوة فى الاقاليم الشرقية وخاصة مصر ، وكان هـذا واحـدا من الأسباب ، التى عجلت بسقوطه • [١] كما كان سببا لفرح المصريين بثورة هرقل ضد فوقاس ، حتى انهم ساعدوا ابن عمـه نيقتاس فى الاستيلاء على مصر ، وكذلك سر المصريون بتتويج هـرقل امبرلطورا عام ٦١٠م ، ورحبوا بمقدم جنوده لاعتقـادهم بأن حـكم هرقل سوف يكون أخف وطأة من حكم سلفه ، وانه سيكون خاتمـة

(١) Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 86.

للاضطهادات ، وسفك الدماء . (١) وبالفعل أظهر الامبراطور هرقل في مستهل حكمه التسامح والتساهل مع المونوفيزتيين ، وحاول منذ ارتقائه العرش ايقاف جميع المظالم والاضطهادات الدينية التى كانت ترتكب ضدهم ، فأصدر فى عام ٦١٠ م مرسوماً عن العقيدة ، حقيقة أن عباراته كانت أرثوذكسية ولكنه أظهر الرغبة الصادقة فى مصالحة المونوفيزتيين ، اذ أورد هذا المرسوم صيغة كيرلس Cyrillus بطريرك الاسكندرية (٤١٢ — ٤٤٤ م) والتى تقول لن فى المسيح طبيعتين متحدتين بلا انفصال ولا امتزاج ولا اختلاف (٢) .وكذلك أظهر نيقتاس — ابن عم هرقل — والذى أصبح حاكما من قبله على مصر — عطفه على المونوفيزتيين ، وحاول حسم الخلافات بينهم ، وسمح لهم فى عهده باعادة تشييد ما كان لهم من مزارات ومشاهد ، وظل البطريرك المونوفيزيتى انستاسيوس فى كرسيه حتى وفاته ، بل واتخذ البطريرك اندرونيقوس — الذى خلفه — مقره بالاسكندرية دون أن يجد أية معارضة (٣) .

الاحوال الدينية فى الشرق المونوفيزيتى فى ظل الاحتلال الفارسى :

وقعت الاقاليم الشرقية فى يد الفرس فى للفترة من (٦١٠ — ٦٢٩ م) ، فاستولوا على مصر عام ٦١٩ م ، وعجز البطريق نيقتاس Nicetas عن الدفاع عنها وهرب نيقتاس وبصحبته البطريرك يوحنا المحسن أو المتصدق Jean l'Auomônier بطريرك الاسكندرية (٦١٢ — ٦١٩ م) وسهل بذلك على الفرس الاستيلاء على مصر وفتح

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ٦ ، على ابراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٠ .
Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 86.

(٢) عن نص المرسوم انظر :
Michel le Syrien, T. II, PP. 402-403.

(٣) الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٣٧٠ .
Bréhier, Histoire de l'Eglise., P. 86.
وعن البطريرك اندرونيقوس انظر ما يلى ص ١٤٤ هامش ٢ .

مدنها من الاسكندرية شمالا حتى أسوان جنوبا ، وبدون أن يلقوا أيـة مقاومة من جانب القوات الامبراطورية (١) .

وبعد أن اكتمل الفتح الفارسى لمصر ، وهدأت أحوال البلاد ، أظهر الفرس تسامحا دينيا كبيرا تجاه المصريين ، كما اظهروا لهم الرفق ولين الجانب ، اذ تركوا لهم الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية ، وعهـدوا بالسـلطة الدينية فى الاسـكندرية للبطريرك اليعقـوبى اندرونيقوس Andronic (٢) بعـد فـرار البطـريرك الملكانى يوحنـا المحسـن أو المتصدق . وبهذا لم يعد هناك خليفة لبطـريرك للكنيسـة البيزنطية فى مصر . والى جانب ذلك اضطهد الفرس ـ طبقـا لسياستهم المعتـادة الكنيسة البيزنطية ، فهرب عدد من الاساقفة ورجال الدين الارثوذكس الى الاقاليم البيزنطية الاخرى ، واستغل المصريون الموقف ، واستولوا على الكنائس الارثوذكسية . وعلى هذا النحو تعـلم المونوفيزتيون فى مصر ، والذين يشكلون غالبية السكان بها ، خلال فترة الاحتلال الفارسى لهم ـ أنه يمكنهم الحياة فى ظل ادارة أخرى غير بيزنطية (٣) .

كذلك احتل الفرس سوريا ، وظلوا سادة عليها لمـدة تقرب من ١٨ عاما وخلال هذه المدة مارس اليعاقبة (٤) المونوفيزتيون شعائرهم الدينية

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن فتح الفرس لمصر انظر الفصل الرابع .

(٢) البطريرك اندرونيقوس من أسرة عريقة بالاسكندرية ، ومـدة بطريركيته ست سنوات ، وتوفى فى عام ٦٢٣م . انظر : السيد الباز ، مصر البيزنطية ، ص ٣٩٠ .

(٣) Bréhier, Histoire, P. 90, Stratos, Byzantium, PP. 284-85.

(٤) اليعاقبة : نسبة الى راهـب سريانى يدعى يعقوب البرادعى ، اعتلى كرسى اسقفية الرها (٥٤١ ـ ٥٧٨) وهو صاحب العقيدة التى تقول ان فى المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة واقنوما واحدا ، وسمى بالبردعى لانه كان يرتدى ثوبا غليظا مقسم الى شطرين يكتسى باحدهما ويتشح بالآخر، ولم يكن يغيره صيفا ولا شتاء حتى اضحى كله رقعا اشبه بالبردعة البالية .. ولهذا سمى بالبرادعى . ولمزيد من التفصيل انظر :

يوحنا دولبانى ، المثال الربانى فى ترجمة واخبار القديس مارى يعقوب البرادعى السريانى ص ١٧ ـ ٢٥ .

وعبادتهم بحرية تامة ، واعاد الفرس الاساقفة المنفيين ، وردت لهم كنائسهم واديرتهم ، ومن ناحية أخرى — وكما حدث فى مصر — اضطهد الفرس الاساقفة الارثوذكس وسجنوهم ، وطردوهم خارج سوريا ، ولم يعد هناك أى بطريرك ارثوذكسى بعد مقتل البطريرك اناستاسيوس Anastasius فى عام ٦١٠ م ، وظل منصبه شاغرا [١] • ونتيجة لذلك أصبح البطريرك المونوفيزيتى اثناسيوس Athanasius هو البطريرك الوحيد فى سوريا ، وكان هذا الاخير رجلا مثقفا ذكيا ، وذا مكانة كبيرة ، فقد أدار الشئون الكنسية فى بطريركية انطاكية بحكمة • ونجح بمساعدة شخصيات عديدة فى البلاط الفارسى — وعلى رأسهم زوجة كسرى شيرين فقد كانت مونوفيزتية ، وكان الملك يحابى من هم على دينها — فى أن يعترف بسلطته الدينية ليس فقط فى سوريا ، ولكن أيضا فى الكنائس المونوفيزتية فى فارس ، واستمر هذا البطريرك المونوفيزيتى يمارس سلطته على الكنائس المونوفيزتية فى فارس حتى بعد أن استعاد هرقل سوريا [٢] •

والاكثر من ذلك أنه فى العام الخامس والعشرين من حكم كسرى — ملك الفرس — والذى يوافق عام ٦١٤ م أصدر كسرى أمرا لجميع أساقفة الشرق بأن يجتمعوا فى البلاط الملكى فى طيسفون Ctesiphon (المدائن) ، وذلك لوضع نهاية لنقاشاتهم ، ولتحديد العقيدة الصحيحة وكان من بين أعضاء هذا المجمع زكريا بطريرك بيت المقدس والاساقفة الارمن ، وقد اعترف بالمونوفيزتيين رسميا فى هذا المجمع ، وتلقى المونوفيزيتون تصريحا بممارسة شعائرهم الدينية [٣] •

---

(١) Michel le Syrien, T. II, PP. 379, 401, Bréhier, Histoire, P. 111.

(٢) Bréhier, Histoire, P. 111, Stratos, Byzantium, PP. 285-86.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذا المجمع انظر :
Ssbéos, Histoire d'Heraclius, PP. 71-72., Bréhier, Histoire p. 89.

ويبدو مما سبق أن فترة الاحتلال الفارسى لسوريا ، والحرية التى تمتع بها أهل سوريا فى ممارسة شعائرهم الدينية خلال فترة هذا الاحتلال علمتهم نفس الدرس الذى تعلمه المصريون ، وهو أنه فى وسعهم أن يعيشوا فى هدوء واطمئنان فى ظل سلطة أخرى غير سلطة الامبراطور البيزنطى •

أما عن فلسطين فقد أصدر كسرى — بعد فتح بيت المقدس — قرارا برد الكنائس والاديرة للمونوفيزتيين ، وأمر كذلك باعادة بناء كل ما تهدم منها وسمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية بحرية • وبالفعل شرع البطريرك موديستوس Modestus الذى وضع على رأس كنيسة بيت المقدس فى أثناء أسر البطريرك زكريا فى اعادة بناء الكنائس المهدمة ، وذلك بفضل المساعدات التى حصل عليها من بطريرك الاسكندرية يوحنا المتصدق [١] •

وفى أرمينية ، وبعد أن اختطف الفرس البطريرك الارثوذكسى فى عام ٦٠٩ — ٦١٠ م أصبح البطريرك المونوفيزيتى منفردا بالزعامة الدينية ، واضطهد الاساقفة الارثوذكس ، وتمتع الارمن المونوفيزتيون فى ظل الحكم الفارسى بحريتهم الدينية كذلك [٢] •

وعلى هذا النحو كان لفترة الاحتلال الفارسى للاقاليم الشرقية ، وما أظهره الفرس خلالها من تسامح دينى تجاه المونوفيزتيين فى تلك الاقاليم ، فضلا عن تشجيعهم لرجال الدين المونوفيزتيين ، كان لهذا التسامح وذلك التشجيع من جانب الفرس للمونوفيزتيين نتائج هامة من بينها ، أنه قوى من عزيمة المونوفيزتيين ، وجعل مذهبهم أكثر قوة وقدرة • ولعل هذا يفسر الجهود التى بذلها هرقل بعد انتصاره على الفرس لمحاولة جمع هؤلاء المونوفيزتيين من جديد حول العقيدة الامبراطورية [٣] •

(١) Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 89.

(٢) Stratos, Byzantium, P. 286.

(٣) Bréhier, Histoire P. 90., Diehl, Le Monde Oriental, P. 153.

أما الارثوذكس ، فقد كان الاحتلال الفـــارسى نقمة عليهم ، اذ عاشوا خلاله فى حالة يرثى لها ، وعانوا من الاضطهاد ومن السجن والنفى والطرد ، وامست السلطة الكنيسة الوحيدة فى الاقاليم الشرقية فى يـــد البطريرك المونوفيزيتى ولم يعد للبطريرك الارثوذكسى ذكر فى الاقاليم الشرقية (١) •

وكان من الضرورى وضع نهاية للشقاق الدينى الذى هدد بشطر الامبراطورية وفصل عرى الاقاليم الشرقية الاكثـــر غنى ، ولتـــوحيد الكلمة وجمع الصـــفوف ، خاصـــة أن الاخطـــار كانت لاتـــزال تحيط بالامبراطورية وتهدد كيانها • ولهذا كان طبيعيا أن يشعر الامبراطـــور هرقل بالحاجة الملحة للتوصل الى حل للمشكلة الدينية باتباع سياســـة دينية جديدة تختلف عن سياسة سلفه فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) ، وكان من الطبيعى كذلك أن يشعر سرجيوس بطريرك كنيسة القسطنطينية ، وصديق الامبراطور هرقل المخلص ، بما ينجم عن الاختلاف فى المـــذهب بين المونوفيزتيين والملكانيين من ضعف وألا يرضى عن ذلك الشقاق الدينى الذى تعانيه الامبراطورية والذى أمس يشـــكل خطرا دائما عليهـــا ، لا سيما وأن سرجيوس كان من أصل سورى ومن أبوين من اليعاقبة (٢)• وكان يمارس الحكم ، ويطلع على خبايا الأمور أثناء غياب الامبراطـــور هرقل عن العاصمة القسطنطينية فى أثناء الحرب مع الفرس • ولا شـــك أن سرجيوس أدرك أن ما حدث من الاختلافات المذهبية بين القسطنطينية والشرق المونوفيزيتى ، والتى استمرت زمنا طويلا ، كان لها تأثير كبير فى انتصارات الفرس • ولهذا أدرك سرجيوس كما أدرك هرقل أنه لابد من العمل على ايجاد وحدة دينية ، وأن الوسيلة لتحقيق الوحدة الدينية بين العناصر المختلفة ، يجب أن تكون فى شكل اتفاق كنسى ، تتم الوحـــدة

---

(١) Michel Le Syrien, T. II, PP. 380-81.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B. P. 506., Héfèle, Histoire des Conciles, T. III, Part, I, PP.317-18.

الدينية من خلاله (١) .

مذهب الارادة الواحدة ودور سرجيوس وهرقل فى الدعوة له .

وظل البطريرك سرجيوس يفكر فى ايجاد صيغة يمكن التوصل من خلالها الى اتفاق يسمح للمونوفيزتيين بالعودة الى حظيرة الكنيسة الارثوذكسية (٢) ومن هنا ولدت فكرة مذهب الارادة الواحدة (المونوثلستية) .

ويعنى مذهب المونوثلستية Monothelism من الناحية اللغوية أن طبيعتى المسيح الالهية والبشرية تتسمان بارادة واحدة ، ومن الناحية التاريخية يعنى هذا المذهب أولا وقبل كل شىء مشروعا للوحدة الدينية ، يهدف الى أن يعود المونوفيزتيون فى الامبراطورية البيزنطية الى الكنيسة الرسمية أى كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية . ولهذا بحث رجالات الامبراطورية البيزنطية ، وعلى رأسهم البطريرك سرجيوس عن صيغة لاهوتية تعبر عن فكرة الوحدة فى يسوع المسيح ، صيغة يمكن

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 112, Ostrogosky, History of the Byzantine State P. 288., Stratos, Byzantium, P. 97.

العرينى الدولة البيزنطية ، ص ١٣٣ ، أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ، ص ٤٣٣ .

(٢) Bréhier, Le Monde Byzantin, P. 153.

جرت عدة محاولات سابقة للتوفيق من بينها محاولة البطريرك كيرلس (٤١٢ — ٤٤٤م) بطريرك الاسكندرية ، والذى كان اتحاد الطبيعتين الالهية والبشرية فى المسيح هو المبدأ الاساسى والهدف النهائى لسياسته الكنسية فقد اهتم باقرار وحدة المسيح . كذلك حاول الامبراطور زينون (٤٧٤ — ٤٩٦م)، ومستشاروه من رجال الدين اتخاذ سياسة الوفاق فى الشرق . فصدر فى عام ٤٨٢ قرار عرف بقرار الوحدة أو الاتحاد Hentoikon . كذلك اقر مجمع خلقدونية ٤٥١م صيغة البابا ليو (٤٤٠ — ٤٦١م) من أن هناك طبيعتين فى المسيح يجب تمييز احداهما عن الأخرى حتى بعد تجسده . وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية .

انظر الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٦٣ — ٧٩ . ربيع ، دراسات ، ص ٤٤ — ٤٨ .

من خلالها ارضاء المخالفين المنشقين على الكنيسة الارثوذكسية ، وبدون أن تضحى الاثوذكسية بشىء فى نفس الوقت وما لبث سرجيوس أن وجد غايته المنشودة فى صيغة الفعل الواحد l'unique Operation فليسوع المسيح طبيعتان وهذا ما يتمسك به من يدين بالمذهب الخلقدونى. ولكن لهاتين الطبيعتين فعل واحد أو عمل واحد ، وهـذا ما يتمسـك به المونوفيزتيون أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (١) .

لما كان البطريرك سرجيوس مقيدا بقوانين مجمع خلقدونية ٤٥١م، التى قبلت الطبيعة المزدوجة للمسيح ، لهذا اعتقد أن الفعل الواحد يجب أن يرتبط بالشخص وليس بالطبيعـة ، وأن أى شخص بأى حـال من الاحوال هو واحد ، وبالتالى يجب أن يكون له فعل واحد ، وعند هـذه النقطة كان يمكن أن تتفق الكنيستان الارثوذكسـية والمونوفيزتية من ناحية العقيدة ، وقد عرف هذا المذهب فى الاقاليم الشرقية بمذهب الفعل الواحد وهذا ما انتهت اليه الكنيسة القبطية فى عام ٦٠٠ م بعد فحص نظرية كيرلس Cyrilus بطريرك الاسكندرية (٤١٢ — ٤٤٤ م) فقد أثبتت هذه لكنيسة وجود وحدة الفعل الواحد فى شخص المسيح (٢).

وبالجملة كان هذا هو المبدأ الاساسى الذى وضعه سرجيوس أمام هرقل ولقد كان هذا فى منتصف الطريق بين الاعتقاد بالطبيعتين والاعتقاد بالطبيعة الواحدة ، ولقد أبقى على الطبيعتين فى البداية ، واضاف الى الطبيعة الواحدة الفعل الواحد ثم الارادة الواحـدة . وبهذا الشـكل الجـديد بدأ البطريرك سرجيوس يعمـل من أجل اتمام الوحـدة بين الكنيستين (٣) .

---

(١) M. Jugie, «Monothelisme» dans Dictionnaire de Théologie Catholique T. 10, deuxiéme partie, P. 2307.
Grumel, «Récherches sur l'histoire de Monothelime» dans l'Echos d'Orient (1929), P. 19.

(٢) المطران يوسف دريان ، لباب البراهين ، ص ٥١ .
Stratos, Byzantium, P. 288.

(٣) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ، ص ٤٣٣ .
Stratos, Byzantium, P. 288.

شرع البطـريرك سرجيوس فى التفـاوض بالفعل مع الاسـاقفة المونوفيزتيين ومع رؤساء الكنائس فى الاقاليم الشرقية ، من أجل تحقيق وحدة الكنائس وايجاد الارضية المناسبة للمصالحة والتوفيق بين العقائد المونوفيزتية والعقائد الخلقدونية • وكان الأسـاس الذى قامت عليـه تلك المفاوضات التمهيدية هو الفعل الواحد ، ولم يكن هناك أى ارتبـاط بالارادة الواحدة ، ويرى بعض الباحثين أن سرجيوس شرع يعـرض على الاساقفة القول بطبيعتين فى المسيح مع فعل واحد ، أى شرع فى تلك المفاوضات منذ عام ٦١٦ م ، وبعد فشل الامبراطور هرقل فى صـد هجمات الفرس (١) •

ومن الجدير بالذكر أن الدور الذى قام به سرجيوس وتفاصـيل المفاوضات الأولى عرفت من خلال عمل القديس ما كسيموس المعتـرف Maximus Confessor ممثلا فى جدله الشهير أو محاورته مع بطريرك القسطنطينية بيروس Pyrrhus خليفة سرجيوس (٢) • ولكن نظرا لأن عمل القديس ما كسيموس ليس تاريخا بل هو جدل فانه لم يحـافظ على أى تتابـع زمنى ، ومن ثم اختلطت تواريخ الحـوادث كلها الى حد ما (٣) •

استهل البطريرك سرجيوس مفاوضـاته التمهيدية ، بأن كتب الى جورجيوس ارساس Georgios Arsas المعروف بكونه رئيس فرقة البولسيين فى مصر (٤) • فقبل ارساس الدعوة الجـديدة ، وكتب

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 112, Diehl, Le Monde Byzantin, P. 153. Stratos Byzantium, P. 289.

(٢) حول عمل القديس ماكسيموس انظر تحليل المصادر ص ١٧ •

(٣) Maximi confessoris, opera Omnia, Maximi Disputatio cum Pyrrho, inP.G. T. 91, PP. 288-354.

(٤) ينتمى البولسيون الى بولس من سميساط ، الذى اعتلى كرسى بطريركية انطاكية فى الفترة من (٢٦٠ — ٢٦٨م) ، وكان بولس هذا رجلا لبقا ماهرا وخطيبا بليغا ، تمكن من انشاء حزب حوله من ابناء ابرشيته ،

يطلب من سرجيوس أن يجمع له نصوص الآباء التى يـدعم بها مذهب الارادة الواحدة ، وأن يرسلها له من أجل أن يحقق بواسطتها اتحـاد البولسيين مع كنيسة القسطنطينية (١) •

ووقع هذا الخطاب فى يد بطريرك الاسـكندرية ، الذى تمنى أن يعاقب ارساس Arsas بأن يعزله ، وأنه رغب فى اتمام عملية العزل غير أن وصول الفرس (٦١٦ — ٦١٩ م) حال بينه وبين ذلك (٢) • هذا ويرجـع كل من هيفليـه Héfèlé واستراتوس Stratos غضب بطريرك الاسكندرية يوحنا المتصدق الى أن اسقف كنيسته كان على اتصـال ببطـريرك القسطنطينية بدون استئذانه أو حتى بـدون علـمه (٣) •

أرسل البطريرك سرجيوس الى ارسال وثيقة كانت معروفة باسم « كتاب ميناس Menas Libel» ، وهـذه الوثيقة هى التى أرسـلها ميناس بطـريرك القسطنطينية (٥٣٦ — ٥٥٢ م) الى فيجيليـوس

ونسب هذا الحزب اليه . وفى رأيه ان المسيح اقنوم واحد ، وان الله تبنى المسيح تبنيا ، ولذلك عقد فى انطاكية عدة مجامع فى الفترة مابين عـامى ٢٦٤ — ٢٦٨ لادانته ، ووصمته هذه المجامع بالهرطقة : لانه امتنع عن القول بأن ابن الله نزل من السماء ، ولانه قال بأن يسوع المسيح بشر وانسان » .

لمزيد من التفاصيل انظر ، اسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ، ص ١٢٠ — ١٣٠ .

اما عن انتماء جورج ارساس الى هذه الطائفة ، فان استراتوس يعتبر ذلك خطأ بدون شك .

انظر :

Stratos Byzantium, P. 289.

(١) Bréhier, Histoire, P. 113, Héfelé, Histoire des conciles, T. 3, P. 319.

Brooks, «**The successors of Heraclius**», in Cam. Med. Hist., Vol. 4 P. 398.

(٢) Maximi confessoirs, Disputatio, Col., 334.

(٣) Héfèlé, Histoire des conciles, T. 3, Part, I PP. 327-28., Stratos, Byzantium, P. 289.

بابا روما Vigilus (٥٣٧ — ٥٥٥ م) (١) ، وكتب فيها ميناس انه توجد فى المسيح ارادة واحدة وفعل واحد (٢) •

اختلف المؤرخون المحدثون حول تاريخ اتصال البطريرك سرجيوس بارساس زعيم البولسيين فى مصر فيرى لويس بريه Louis Bréhier أن ذلك الاتصال تم فى عام ٦١٧ م هذا فى حين يرى بروكس Brooks انه تم فى عام ٦١٨ م ، أما هيفليه Héfèlé فيرجح أن المفاوضات بين سرجيوس وارساس قد جرت فى بداية عا م ٦١٩ ، على أساس أنه العام الذى غزا فيه الفرس مصر وعجز البطريرك يوحنا المتصدق عن أن يتدخل لمنع ارساس من أن يقبل دعوة سرجيوس • على أنه من المعروف أن الفرس فتحوا مصر فى عام ٦١٩م ونتيجة لذلك فقد هرب بطريرك الاسكندرية يوحنا المتصدق الى جزيرة قبرس ، حيث مات هناك فى العام التالى أى ٦٢٠م مما يرجح أن سرجيوس اتصل بارساس فى عام ٦١٩م (٣) • ومن الجدير بالذكر أن فتح الفرس لمصر استغرق ثلاثة أعوام على وجه التقريب (٦١٦ — ٦١٩) • ويبدو أن هذا ماجعل المؤرخين المحدثين يتخبطون فى تحديد التاريخ الذى بدأ فيه البطريرك سرجيوس الاتصال بارساس فى مصر •

وهناك نشاط آخر للبطريرك سرجيوس فى سبيل نشر دعوته الجديدة وهو الاتصال بثيودور اسقف فيران Pharan (فى شبه جزيرة سيناء) أما عن سبب اتصال سرجيوس باسقف فيران بصفة خاصة ، فمن المحتمل أن ثيودور كان مشهورا كرجل حكيم ، ومن المحتمل كذلك بسبب وجود اسقفيته فى وسط كانت فيه المونوفيزتية

---

(١) فقدت هذه الوثيقة لسوء الحظ .

(٢) Bréhier, Histoire, PP. 112-13, Stratos, Byzantium, PP. 289-90.

(٣) Bréhier, P. 113, Brooks, The successors P. 398, Héfèlé, Histoire des conciles, T. 3 Part, I, PP. 327-28.

منتشرة ، وانه أى سرجيوس أراد أن يعرف رد فعل المونوفيزتيين تجاه المذهب الجديد (١) •

اتصل سرجيوس بثيودور Theodorus اسقف فيران وارسل له خطـاب مينــاس ، ووســط فى ذلك الاســقف سرجيوس ماكاروناس Sergius Macaronas اسقف ارســينو (الفيــوم) Arsino بمصر ، وسأله عن رأيه فى الفعل الواحد ، الذى عبر عنه خطاب ميناس(٢)• وكان أن قبل ثيودور — الذى كان ملكانيا (٣) — مذهب سرجيوس عــلى الفور ، وقال قول البطريرك المسكونى ، وقام بزيارة للقسطنطينية من أجل البحث والتنقيب حول هذا الموضوع (٤) •

ويرى لويس بريه Louis Bréhier أن الاتصال بين سرجيوس ، وثيودور اســقف فيران تم فى حــوالى عام ٦١٥ م ، على أســاس أن البطريرك ، تداول مع الاساقفة الارثوذكس حول مذهب الفعل الواحد ، قبل أن يبدأ اتصالاته مع المونوفيزيتيين ، وكان من الضرورى أن يضمن موافقة الارثوذكس قبل استمالة المونوفيزتيين لمشروع الاتحاد • هــذا من ناحية ، ومن ناحية أخــرى فان موافقة أسقف فيران السريعة على المذهب تفسر ذلك اللقب الذى اطلق عليه وهو لقب « المونوثلستى الاول «Premier Monothelité أى أول من اعــتنق مذهب الفعل الواحــد ،

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 290.

(٢) Maximi confessoris, Disputatio cum Pyrrhus, Col. 331.

(٣) الملكانية نسبة الى ملك الروم او الامبراطور البيزنطى ، وكانت تطلق على من يتبعون مذهب امبراطور الروم ، وهم يقولون بأن للمسيح طبيعتين الهية وبشرية . ولمزيد من التفاصيل حول هذه الطائفة انظر :

أبو الريحان البيرونى ، اعياد الملكانية ، منشور فى P.O., T., X, P. 293.
المطران يوسف دريان ، لباب البراهــين ، ص ١٤١ — ١٤٢ حاشية ١ .
أبو البركات ، مصباح الظلمة ، منشور فى P. O., T. XX, P. 663.

(٤) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ص ٤٣٢ •
Bréhier, Histoire, P. 113.

بل ولقد كان ينظر اليه على أنه استاذ المذهب الجديد (١) •

ويتضح مما سبق أن البطريرك سرجيوس بطـريرك القسطنطينية ركز فى اتصالاته الأولى على مصر ، ويبدو أن السبب فى ذلك هو استيلاء الفرس على سوريا وفلسطين فى ذلك الوقت ، وبالتالى لم يكن هناك ثمة وسائل للاتصال سـوى بمصر • كمـا يلاحظ أن سرجيوس اسـتند فى مفاوضاته على خطاب سلفه ميناس للبابا فيجيليوس Vigilus (٥٣٧ — ٥٥٥ م) غير أن البعض يرى أن المقولة المنسوبة الى ميناس مشكوك فيها ، وانه من المحتمل أن الذى وضعها هو سرجيوس وأنـه نسبها الى سلفه ميناس ، لأنه منذ عام ٦٥٣ م احتج مندوبو البابا مارتن الأول Martin I (٦٤٩ — ٦٥٣ م) على صحة هذه المقولة ، وفى عام ٦٨٠ م بحث هذا الموضوع فى المجمع المسكونى السادس ، ووجد انه من المحتمل تزوير هذا الخطاب أو زيفه ، ورأى هذا المجمع أن هناك أكثر من سبب يرجح أن سرجيوس هـو كاتب هذه المقولة ، اذ أنـه لم يعرفها أو لم يعلم بها أحد من قبله • ويذكر هيفليه Héfèlé اننا لا نشك أحيانا فى أن سرجيوس وجد فى صيغة الفعل الواحد الوسيلة التى ظل يبحث عنها طويلا لاقامة الاتحاد ، ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره ثيوفانيس Theophanis — والذى يكرره كثير من المؤرخين — من أن سرجيوس كان من أبوين من اليعاقبة المونوفيزتيين • وهذا يسمح بالاعتقـاد بأنه كان قـد قـدم الصـيغة التى تـكون فى مصـلحة المونوفيزتيين (٢) •

---

(١) Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 113.

وانظر أيضا :

Héfèlé, Histoire de conciles, T. III, Part, I, P. 327., Stratos, Byzantium, P. 290.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 506., Héfèlé, Histoire, T. III, Part, I, P. 332.

المطران أبو يوسف دريان ، لباب البراهين ، ص ٤ •

عرض سرجيوس على الامبراطور هرقل المذهب الجديد ، ورأى الامبراطور فى القول بالطبيعتين مع فعل واحد مخرجا من الازمة اللاهوتية المستحكمة كما وجد فيه وسيلة سهلة للوصول الى الاتحـــاد الدينى بين المونوفيزتيين وكنيسة القسطنطينية ، وهذا الاتحاد اذا ما تحقق فانـــه سوف يكسب العديد من المونوفيزتيين فى الاقاليم الشرقية وعلى رأسها مصر وسوريا وارمينية وغـــيرها ، تلك الاقـــاليم التى ظلت بعيـــدة عن الكنيسة الرسمية فى القسطنطينية (١) .

وما ان اقتنع هرقل بأنه وجد الوسيلة الفعـــالة لتحقيق الاتحـــاد المنشود بين المونوفيزتيين وكنيسة القسطنطينية ، حتى أخـــذ يتحـــدث بدوره عن مـــذهب الارادة الواحـــدة فالتقى هرقل مع بولس الاعـــور Paul Le Borgne الذى كان ينظر اليه كزعيم للمونوفيزتيين الارمن فى قبرس (٢) ، وتم اللقاء فى أرمينية . ومن المحتمل أن الامبراطور هرقل عند عبوره مدينة ثيودوسيوبوليس Theodosioupolis (ارزروم Erzeroum) (٣) أجرى مفاوضات مع بولس الاعـــور هذا ، وكان من الواضح أنه يود أن يناقش معه المذهب الجديد وذلك لمعـــرفة رد فعله على شخصية مونوفيزتية بارزة ، ويبـــدو كذلك أن مادعا هرقل الى التفاوض مع بولس الاعور هو اعتقاده بأن المذهب ، الذى عرضـــه

---

(١) Héfèlé, Histoire, des conciles, T., III, Part, I P. 332.

(٢) وكان يطلق على هؤلاء اسم Acéphales اى من ليس لهـــم رئيس ، وجرت تسميتهم بهذا الاسم لانهم لم يبلغوا فى نضالهم مايؤدى الى تعيين بطريرك لهم من بينهم ، هذا وقد ساد نوع من الغموض والحيرة حول شخصية بولس الاعور هذا وحول مقابلة هرقل له .

(٣) مدينة Theodosioupolis والتى يسميها الارمن Carin أو Karin هى الان ارزروم Erzeroum (ارض الروم) تعتبر واحدة من اهم المـــدن فى الامبراطورية البيزنطية سواء من الناحية العسكرية أم من الناحية التجارية، فهى تقع على الطريق التجارى المؤدى الى فارس ، كما انها تحرس الممرات المؤدية الى كل من فارس والقوقاز وهى لاتبعد كثيرا عـــن منابع اعـــالى الفـــرات .

لمزيد من التفاصيل انظر :

Stratos, Byzantium, P. 410.

سرجيوس ، سوف يساهم فى ارجاع الارمن المونوفيزتيين الى الارثوذكسية ، وكان هرقل يأمل ذلك ، خاصة أنه اعتمد على الأرمن بدرجة كبيرة فى حروبه مع الفرس (١) •

وعندما دعا هرقل بولس الى مذهب الفعل الواحد ، أراد بولس أن يطلع على الوثائق ، التى يستند اليها المذهب الجديد ، وعندئذ أرسل له سرجيوس على الفور كتاب ميناس وبرفقته خطاب ثيودور من فيران ووجهة نظره فى مذهب الفعل الواحد • ومع ذلك لم يقبل بولس المذهب الجديد ولم يوافق عليه ، وعاد الى قبرس • ولهذا أصدر الامبراطور هرقل قرارا ضد بولس ، أبطل فيه مذهب الفعلين والارادتين ، وأرسل هذا القرار الى اركاديوس Arcadius أسقف قبرس (٢) •

وكان الحدث الهام فى تاريخ المونوثلستية Monothelitism هو ذلك اللقاء الهام الذى تم بين الامبراطور هرقل وكيروس Cyrus أسقف فاسيس Phasis — فى بلاد الاكراد — فى عام ٦٢٦ م • ومن الثابت أن هذا اللقاء تم فى عام ٦٢٦ م اذ يؤكد المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس Theophanis أن هرقل ذهب الى لازيقا Lazica فى السنة الخامسة من حربه مع الفرس تلك الحرب التى بدأت فى عام ٦٢٢ م (٣) ويؤكد ذلك أيضا ما جاء فى الجلسة الثالثة عشرة للمجمع المسكونى السادس ٦٨٠ م ، ففى هذه الجلسة قال جريجورس شماس كنيسة القسطنطينية وكاتبها للمجمع ، « لقد وجدت فى محفوظات ابينا البطريرك الجليل المطران كيروس — الذى كان عندئذ على فاسيس — رسالة بعث بها الى سرجيوس الذى كان بطريركا لهذه المدينة الملكية منذ ٥٦ عاما ، وفى هذه الرسالة ، يسأل كيروس سرجيوس عن قضية

---

(١) Héfèlé, T. III., Part I, P. 334.

(٢) **Grumel, Récherches sur l'histoirede Monothelisme PP. 6-7,** Bréhier, Histoire, PP. 113-14., Stratos, Byzantium, PP. 290-91.

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 485.

الفعلين » • وقد عقدت هذه الجلسة فى عام ٦٨١ م ، فاذا رجعنـــا الى الوراء ٥٦ عاما نصل الى عام ٦٢٦ م (١) •

وجاءت تفاصيل هذا اللقاء ، الذى تم بين هرقل وكيروس ، ومادار فيه — فى واحد من خطابات البطريرك سرجيوس ، التى أرسلها الى البابا هونريوس Honorius بابا روما • فيذكر سرجيوس أنه بعد المفاوضات والمناقشات بين الامبراطور هرقل وبين بولس الاعور مضى بعض الوقت قبل أن تتم تلك المقابلة الهامة بين الامبراطور وبين كيروس من فاسيس فى اقليم لازيقا فى عام ٦٢٦ م ، وذكر الامبراطور لكيروس فى ذلك اللقاء ، الحوار الذى دار بينه وبين بولس الأعور ، وعرض عليه مذهب الفعل الواحد ، ولكن يبدو أن كيروس اعترض على المذهب الجديد فى البداية ، ولم يفهم كيف يمكن أن تتفق نظرية الفعل الواحد وقوانين مجمع خلقدونيه ٤٥١ م ، وحاول البطريرك سرجيوس اقناع كيروس بناء على طلب الامبراطور منه ، بأن أرسل له رسالة أحد أسلافه ، وهو مينـــاس الى البابا فيجيليوس Vigilus بابا روما ، والتى تتضمن الاشارة الى فعل واحد وارادة واحدة فى المسيح • (٢) وذكر له سرجيوس أيضا عدة استشهادات من الآباء تؤيد ذلك ، ومن بين هؤلاء الآباء على سبيل المثال — أسقف الاسكندرية ايلوج Euloge (٥٨١ — ٦٠٨ م) (٣) ، والذى خصص كتابا بأكمله للدفاع عن خطاب ميناس • وما لبث كيروس أن اقتنع وأعلن قبوله للمذهب الجديد ، بل وأصبح فيما بعد أحد المدافعين عنه ، وكان

---

(١) Mansi, Sacrorum conciliorum Novaet Amplissima collectio, T.X, Col. 588.

(٢) انظر نص خطاب سرجيوس لهونريوس فى :
Mansi, Sacrorum Conciliorum,T., X Col. 530.
وانظر ترجمته الى العربية فى الملحق الخامس .

(٣) ايلوج وهو من زعماء الكنيسة الملكانية فى أواخر القرن الســـادس وأوائل القرن السابع ، وتولى بطريركية الاسكندرية فى الفترة من ٥٨١ — ٦٠٨م ، وكان من أصدقاء البابا جريجورى الكبير ، واشتهر بالتبحر فى علم اللاهوت وبقوة بيانه وبحماسه فى مناهضة المنشقين .
انظر : السيد الباز ، مصر البيزنطية ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

هذا تقدما هاما جدا فى الدعوة للمذهب الجديد ، وذلك لما كان يتمتع به كيروس أسقف فاسيس من مكانة كبيرة (١) •

ولم يتوقف الامبراطور هرقل ولو للحظة واحدة عن المضى فى تحقيق الوحدة الدينية ، هذا وان كان لم يقم بأى عمل بصفة رسمية قبل نهاية حربه مع الفرس • فقد أراد الامبراطور هرقل أن يستفيد من عبوره ارمينية من أجل أن يعمل على تهدئة النزاعات الدينية التى قسمت هذا الاقليم منذ مجمع خلقدونية الشهير ٤٥١ م ذلك المجمع الذى رفض كثير من الاساقفة الأرمن الاعتراف به ، وبصفة خاصة هؤلاء الارمن الذين اعترفوا بسلطة فارس (٢) •

وكانت أول مهمة رسمية قام بها الامبراطور هرقل بعد عقد السلام مع الفرس عام ٦٢٨م ، هى اعادة تنظيم ارمينية ، والعمل على ارجاعها الى الارثوذكسية ، وذلك بالدعاية لمذهب الفعل الواحد هناك • وكان هرقل قد عهد الى القائد الارمنى Mezez Gnuni بتنظيم ارمينية البيزنطية ، وجعله حاكما عليها ، وقام هذا القائد بناء على أوامر هرقل بزيارة البطريرك أزر Ezr فى دوفين أو دوين — Dovin or Dwin عاصمة أرمينية الفارسية — وقابله هناك ، وطلب منه أن يأتى للقاء الامبراطور هرقل ، غير أن آرز Ezr رفض ذلك فى البداية ، وعندئذ هدده Mezez بأنه اذا لم يؤكد اتحاده مع الكنيسة البيزنطية ، فسوف يعزله البيزنطيون ، ويعينون آخر على ارمينية بدلا منه تحت السيطرة البيزنطية ، وبالتالى تصبح سلطته قاصرة على ارمينية الفارسية فحسب • وكان هذا تهديدا خطيرا ، لأنه كان يعنى

(١) Héfélé, Histoire, T. III, Part. P. 337.
Bréhier, Histoire, P. 114., Brooks, The successors, P. 398.
اسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ، ص ٤٣٤ ، أسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٣١ •

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر :
Sébèos, Histoire d'Heraclius, P. 87. Lebeau, Histoire de Bas-Empire, T. XI, P. 159.

أن الكنيسة الارمينية سوف تنقسم مرة أخرى الى قسمين ، ولهـذا طلب آزر من الامبراطور هرقل أن يرسل له قانون الايمان الجديد وكان أن كتب له الامبراطور خطابا ، وأرسله له فى الحال (١)

وبعد أن تسلم آزر خطاب الامبراطور هرقل ، ذهب على الفـور للقائه ، وأعلن آزر للامبراطور اعترافه بمذهب الفعل الواحد ، واكـد للامبراطور اتحاده مع الكنيسة البيزنطية ، ثم عاد الى دوفين بعد أن حصـل من الامبراطور هرقل على منحـة تتمثل فى ثلث مـدينة كولب Kolb (٢) ، ومنـاجم الملح المحلية كمكافأة له ، ودفـع ذلك آزر أن يجتهد فى طريق عودته من أجل كسب الاساقفة والسادة الى المـذهب الجديد (٣) •

وحدثت بعد ذلك اضطرابات خطيرة فى ارمينية ، اذ قامت بهـا حركة ضد الخلقدونية ، وعمل الامبراطور هرقل على ايقاف تلك الحركة ، بأن أمر الكاثوليكى آرز بالدعوة الى عقد مجمع لمناقشة الأمر • وكان أن عقـد هذا المجمـع فى عـام ٦٣٣ م فى مـدينة ثيودوسيوبوليس Theodosioupolis (ارز روم) (٤) وحضر هـذا المجمـع عـدد كبـير من الاساقفة والامراء الأرمن ، وصحب اسقف سيونى Siounie آزر ، الذى ادعى المرض ، الى هذا المجمع • ومن المحتمل أن الامبراطور هرقل حضر هذا المجمـع بنفسـه اذ يذكر هيفـليه Héfélé أن الامبراطور اصطحب معه لمجمع كارين Carin الاساقفة البيزنطيين الذين أصبحوا يعملون من أجل الاتحاد ، ويرى هيفليه كذلك أن سرجيوس قد شارك فى أعمال مجمع كارين Carin فمن غيره كان يستطيع

---

(١) Sébèos, Histoire d'Heraclius, PP. 91-92.

(٢) مدينة كولب مدينة فى القوقاز تشتهر بمناجم الملح . أنظر :
Stratos, Byzantium, P. 401.

(٣) Sébèos, P. 92.
وانظـر ايضا : Bréhier, Histoire, P. 114.

(٤) عن هذه المدينة انظر ص ١٥٥ هامش ٣ .

أن يقوم بهذه المهمة وهو الوسيط لعمل هذا الاتحاد (١) •

وبعد مناقشات طويلة استمرت شهرا تقريبا ، تقرر أن تتعهد الكنيسة الارمينية بأن تكف عن مناقشة قوانين مجمع خلقدونية ٤٥١م ، وكذلك تم التوقيع على الاتحاد مع الكنيسة البيزنطية (٢) •

على أن قرارات المجمع لم تضع حدا للاضطرابات ، ولم تتوقف الفتنة فى أرمينية ، فقد ثار عدد من الاساقفة ضد آزر — بعد عقد المجمع السابق — ولاموه لاتفاقه مع البيزنطيين عن جهل وقلة تعلم ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الارمن كانوا يدركون جيدا ، أنه ليست هناك ثمة فجوة كبيرة تفصل بين عقيدتهم وعقائد البيزنطيين ، ولكن اعتراضهم كان ينبع من نزعة قومية عنيدة ومتصلبة ، فقد كرهوا مجمع خلقدونية ٤٥١ م على وجه الخصوص ، اذ بسببه خضعت الكنيسة الارمينية لبطريركية القسطنطينية وارتبطت بها (٣) •

واصل الامبراطور هرقل جهوده من أجل الدعوة للمذهب الجديد وتحقيق الاتحاد وذلك بأن بدأ التفاوض مع اثناسيوس Athanasios بطريرك انطاكية المونوفيزيتى • ويذكر ثيوفانيس Theophanis أنه بعد عودة هرقل منتصرا من حرب الفرس ، وبينما هو فى هيرابوليس Hierapolis (منبج) قدم بطريرك اليعاقبة لمقابلته وأقسم له اليمين ، ووعده هرقل بأن يجعله بطريركا على انطاكية اذا قبل قرارات مجمع خلقدونية ، فقبل اثناسيوس المجمع المذكور ، واعلن ان فى المسيح طبيعتين ، وسأل اثناسيوس الامبراطور عن الفعلين والارادتين ، وما القول هل فى واحدة أم اثنتين ؟ ويتابع ثيوفانيس روايته فيذكر أن الامبراطور استغرب عند سماع هذه الالفاظ الجديدة وانه بعث برسالة الى سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، واستدعى فى نفس الوقت كيروس

---

(١) Héfélé, Histoire, des conciles T., III, part, I, P. 335.

(٢) Loc. Cit.

(٣) Bréhier, Histoire, PP. 116-117, 155-56.
Stratos, Byzantium, P. 293.

اسقف فاسيس ، وسأله فى الأمر ، فوجده موافقا على مذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة • ويذكر ثيوفانيس كذلك أن بطريرك اليعاقبة اثناسيوس أعلن عندئذ أنه حيث يوجد الفعل الواحد فهناك الطبيعة الواحدة ، وأن الامبراطور عندما اطلع على تلك الآراء قام بارسالها الى يوحنا بابا روما ، غير أن الأخير أدان البدعة الجديدة ولم يقبلها (١) •

ونهج المؤرخون البيزنطيون منهج ثيوفانيس ، وقالوا قوله أو نقلوا عنه (٢) •

وبامعان النظر فى رواية ثيوفانيس السابقة الذكر ، يبدو أنه لم يكن على صواب بالمرة ، فيظهر ثيوفانيس هرقل على أنه احتار وارتبك بعد سؤال اثناسيوس ، وانه استغرب لسماع هذه الالفاظ الجديدة ، وهذا على عكس ما نعرف تماما من أن هرقل كان مشغولا مع سرجيوس منذ عام ٦١٥ م بهذه المسألة ، ولماذا يستدعى هرقل كيروس ويسأله ، وهو يعلم علم اليقين أن كيروس أقر مذهب الفعل الواحد منذ عام ٦٢٦ م وبعد المفاوضات التى دارت بينهما • وبعد هذا كله يدعى ثيوفانيس أن الامبراطور هرقل كتب الى البابا يوحنا بابا روما ، ولكن هذا البابا انتخب فى ديسمبر من عام ٦٤٠ م أى قبل وفاة هرقل مباشرة ، وبعد أكثر من تسع سنوات من وفاة اثناسيوس بطريرك انطاكية (٣) •

وعلى العكس من رواية ثيوفانيس يعطى ميخائيل السريانى Michel le Syrien صورة مختلفة تماما عن تلك المقابلة بين الامبراطور هرقل والبطريرك اثناسيوس ، فيذكر ان هرقل ارسل الى اثناسيوس اعتراف الايمان ، ويورد ميخائيل السريانى نص خطاب

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 506-507.

(٢) انظر : Cedrenus, Historiarum compendium, T. I, in C.S.H.B., P. 736.,
Zanoras, Epitomae Historiarum Libri, T. 3, in C.S.H.B., PP. 212-13.

(٣) الانبا ايسيذورس ، الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، ص ٧٥ •
Stratos, Byzantium, P. 294.,

هــرقل الى اثناسيوس ، ورد أثناسيوس بالكــامل على الامبــراطور هرقل (١) .

هذا ويذكر ميخائيل السريانى أنه عندما ذهب الامبراطور هرقــل الى منبج ، أتى البطريرك اثناسيوس لزيارته ، ومعه اثنا عشر اسقفا ، وانهم مكثــوا يتجادلون عنــده اثنى عشر يوما ، وأوعــز اليهم هرقل بالاعتراف بمجمع خلقدونية ٤٥١ م وقبوله ، ولكنهم أبوا ذلك ، ولهــذا غضب هرقل ، وأمر باضطهاد المونوفيزتيين ، ونشر مرسوما يأمر فيــه بأن كل من لا يتمسك بمجمع خلقدونية تقطع أنفه وتصلم اذناه ، وتصادر أملاكه أو يؤخذ بيته . ويذكر ميخائيل السريانى أن هــذا الاضطهــاد استمر فترة طويلة حتى انحاز عدد من الرهبان الى المجمع ، وان رهبان الموارنة (٢) فى منبج وحمص اظهروا كيدهم ، واستولوا على معظــم الكنائس والاديرة (٣) .

وكتب المؤرخون السريان الآخرون نفس الشىء تقريبا ، واكدوا جميعا أنه لم يتم التوصل الى أى اتفاق بين الامبراطور هرقل ، وبين البطريرك اثناسيوس بطريرك انطاكية (٤) .

---

(١) انظر نص خطاب هرقل الى اثناسيوس

Michel le Syrien, T., II, PP. 402-403

ورد اثناسيوس Michel le Syrien, PP. 405-408.

(٢) الموارنة : نسبة الى راهب من حماة يدعى مارون ، وكان يقول بأن للمسيح طبيعتين واقنوما واحدا ومشيئة واحدة ، وتبعه فى مقالته هذه أهل حماة وقنسرين وشيزر ومعرة النعمان ، كما تبعه جماعة من الروم ، ولهــذا سمى تابعوه المــاورنة أو الموارنة نسبة الى اسمه ، ولما مات بنى له اهل حماة ديرا وسموه دير مارون ، وكان هذا الدير كما يذكر المسعودى « ذو بنيان عظيم ، وحوله أكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان » .

ولمزيد من التفاصيل : انظر المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ١٥٣ — ١٥٤ ، يوسف داود ، كتاب جامع الحجج الراهنة فى ابطال دعاوى الموارنة، ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٣) Michel le Syrien, I. II, PP. 412-13.

(٤) Chronique de Seert in P.O., T, XIII, P. 544.
Bréhier, Histoire, PP. 115-16,

على أن رواية ميخائيل السريانى هذه يصعب تصديقها لأسباب عدة من بينها أن ديونيسيوس التلمحرى Denys Detell-Mahré بطريرك اليعاقبة (٨١٥ — ٨٤٥ م) والمؤرخ الشهير المعاصر لثيوفانيس والذى أخذ عنه ميخائيل السريانى روايته هذه ، قد ضاع مصنفه ، ولم يبق منه سوى ما اختصره ميخائيل السريانى وغيره ، ولهذا لايجوز الجزم فى صحة رواية ميخائيل السريانى ، كمـا أن خطاب هرقل الى اثناسيوس والرد عليه ، واللذين أوردهما ميخائيل السريانى (١١١٦ — ١١٩٩ م) قد كتبا بعد قرون من الحدث ، تقدر بنحو خمسة قرون ، فكيف يمكن أن يظلا على حالتهما الاصلية بعد مرور تلك القرون الخمسة على كتابتهما • ويضاف الى ذلك أن عبارة ميخائيل السريانى عن الاضطهادات غير مقنعة ، فلا شخصية هرقل ولا سياسته الدينية تسمح بالاعتقاد فى أن هرقل اتخذ مثل هذه الاجراءات • وكذلك يرى البعض أنه لا معنى لأن يقول ميخائيل السريانى أن رهبان الموارنة قد قبلوا مجمع خلقدونية ، فقد كان هؤلاء من انصاره • وأخيرا اذا لم يكن قد تم اتفاق بين اثناسيوس وهرقل ، فهل كان كرسى بطريرك انطاكية الارثوذكسى الشاغر سيظل شاغرا حتى عام ٦٣٩ م ، أم كان على الامبراطور هرقل أن يسرع بشغله ؟ (١) •

ومن المحتمل أن هرقل واثناسيوس قد توصلا بالفعـل الى نوع من الاتفاق غير أنه على ما يبدو أن هذا الاتفاق لم يتخذ صفة رسمية بسبب وفاة اثناسيوس فى يوليو ٦٣١م ، فقد كتب راهب يدعى يوحنا — فى مذكراته — الى صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس ، بعـد اعـادة الصـليب المقـدس ، أن البطـريرك اليعقـوبى اثناسـيوس اتفق مع الامبراطور هرقل • وهـذه العبـارة تجعلنـا نعتقد أنه تم التوصل بالفعل الى ثمة اتفاق بين هرقل واثناسيوس ، ولكن لم يكن هناك فسحة من الوقت بسبب وفاة اثناسيوس (٢) •

---

(١) المطران يوسف دريان ، لباب البراهين ، ص ١٣٦ — ١٣٧ حاشية ١ •
Stratos, Byzantium, P. 295.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر :

Stratos, Byzantium, PP. 296-97.

ولقيت قضية الاتحاد نجاحا كبيرا فى الاسـكندرية ، فقـد وجه الامبراطور هرقل جهوده الرئيسية بعد ذلك نحو مصر ، التى تمتع فيها المونوفيزتيون ، غداة جلاء الفرس عنها عام ٦٢٩ م — بسلطة ونفـوذ قويين • وكان البطريرك المونوفيزيتى المصرى بنيامين [١] عـلى رأس كنيسة الاسكندرية ، ويبدو أن البيزنطيين لم يصطدموا به عند استعادتهم مصر ، بل على العكس سمحوا له بأن يظل مقيما فى الاسكندرية ، وليس هناك سجل أو تدوين يظهر أن هرقل حاول التفاهم مع بنيامين • ومـن المحتمل — وكما يرى استراتوس Stratos أن هرقل حاول أن يكسبه ويضمه الى صف المذهب الجديد [٢] •

أما عن البطريرك الملكانى جورج ، والذى أرتقى كرسى كنيسـة الاسكندرية فى عام ٦٢٠م ، وعانى الكثير أثناء سيطرة الفرس على مصر ، ثم رأى بعينيه هرقل يضع نهاية لهذه السيطرة فى عام ٦٢٨ — ٦٢٩م فقد توفى بعد ذلك فى عام (٦٣٠ — ٦٣١م) ولذلك عين الامبراطـور هرقل كيروس Cyrus اسقف فاسيس [٣] — والذى عرف فيما بعد فى المصادر العربية باسم المقوقس — خليفة له • وقد عينه هرقل من أجـل أن ينشر مذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة فى الاسكندرية ، فقـد كان كيروس من أوائل من أيدوا هذا المذهب وعملوا لأجله [٤] •

---

(١) كان بنيامين راهبا مصريا ، واتصـل بالبطريرك اندرونيق الذى اعجب بصفاته الحميدة ، ولذلك استبقاه معه فى مدينة الاسكندرية ، وصار بنيامين قسا ، وحاز اعجاب البطريرك اندرونيق وثقته ، فاشركه معه فى ادارة امور البطريركية والكنيسة ، ومالبث بنيامين ان انتخب لمنصب البطريرك بعد ان توفى اندرونيق (٦٢٣م) خاصة وأن الاخير اوصى بأن يخلفه فى البطريركية انظـر :

ساويروس بن المقفع ، تاريخ بطارقة الاسكندرية الاقباط ، ص ٢٢٦ وما يليها ، الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٣٩٠ — ٣٩١ ، ص ٣٩٧ — ٣٩٨ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ص ١٢٦ — ١٢٨ •

(٢) Stratos, Byzantium, P. 297.

(٣) تقع مدينة فاسيس فى شمال شرقى آسيا الصغرى •

(٤) Héfélé, Histoire des conciles, T. III, Part, I, P. 339.
Bréhier, Histoire, P. 117.

تلقى البطريرك بنيامين بمزيد من الحذر والقلق خبر قدوم البطريرك الجديد كيروس فى عام ٦٣٠م حتى انه لم ينتظر حتى يصل ، ولم يحاول أن يلقاه بل قام على الفور بترتيب الامور المتعلقة بالكنيسة ، فـيذكر ساويرس بن المقفع أنه كتب على الفور الى جميع الاساقفة فى كرسيه لكى يختفوا ، وأنه دبر حال الكنيسة ورتبها ، وتقدم الى الكهنة والشعب ، وأوصاهم أن يثبتوا على عقيدتهم حتى الموت ، أما هو فقد تسلل خفية تحت جنح الظلام من الاسكندرية ، ومضى الى الصعيد ، وأقام مختفيا هناك فى دير صغير لمدة عشر سنوات (١) .

وصـــل كيروس Cyrus الى الاسكندرية فى خريف عام ٦٣١م ، وأقام فيها ليس كبطريرك فقط ، ولكن كحاكم لمصر أيضا . وكرمز لسلطته كان يرتدى فردتى حذاء ، احدهما سوداء وترمز للون الدينى ، والاخرى ارجوانية وترمز للون الامبراطورى ، ويــذكر ساويرس أن هــرقل « أرسل واليا الى أرض مصر يدعى كيروس ليــكون بطــركا وواليــا معــا » (٢) .

أراد هرقل أن يجمع كل السلطات فى شخص كيروس ، بسبب الوضع المضطرب فى مصر ، وبسبب الفشل فى الوصول الى أى تفاهم مع المصريين ، ولهذا خول لكيروس السلطات المدنية والعســكرية الى جانب ســلطته الدينية والروحية . فأصبح لكيروس بذلك سلطانا مطلقا (٣) .

وراح كيروس فى الحال يحاول الوصول الى تفاهم مع العنــاصر المختلفة فى الكنيسة ، خاصة وان الاغلبية فى مدينة الاسكندرية كانت من المونوفيزتيين ولكن كان هؤلاء منقسمين الى شيع ومذاهب ومن بينهم الـــ Severiens وقد أطلق عليهم اسم الثيودوسين Theodosiens (٤)

(١) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطارقة الاسكندرية ص ٢٢٦ .
(٢) ساويرس بن المقفع ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٣٣ ، الباز العرينى ، مصر البيزنطية ص ٤٠٠ .
(٤) الثودوسيون : نسبة الى راهب يدعى ثودسيوس ، كان من بين =

وكان على كيروس كذلك أن يستميل الملكانيين بمصر الى المذهب الجديد على أن المذهب الجديد لم يلق نوعا من التوفيق فى أول الامر فقد رأى المونوفيزتيون أنه ما دام لله ارادة واحدة فلابد من التسليم بأن له كذلك طبيعة واحدة ، ورأى اتباع المذهب الملكانى أن المذهب الجديد يخالف تماما المذهب الخلقدونى • (١) على أن كيروس نجح بالتفاوض حينا ، وبالضغط والوعود حينا آخر ، فى اقناع عدد من موظفى الكنيسة المونوفيزتية المصرية ليوافقوا على المذهب الجديد ، ويرتبطوا بالكنيسة الاثوذكسية ، وكان أن قبل عدد منهم ذلك ، ومن هؤلاء قيرس أسقف نقيوس وفكتور اسقف الفيوم • وفى ذلك يذكر ساويرس بن المقفع أنه « ضل جماعة منهم بالعذاب ، وبعضهم بالهدايا ، وبعضهم بالخداع والسؤال فخالفوا الامانة ، ولم يسمعوا وصية الاب بنيامين » (٢) •

ودعا كيروس فى صيف عام ٦٣٣ م الى مجمع فى الاسكندرية ، حضره عدد كبير من الاساقفة المونوفيزتيين ، كما حضره ممثلون عن المذاهب أو الاحزاب المختلفة ، وانتهى المجمع الى اقرار الاتحاد والمذهب الجديد ، وأصدر هذا المجمع تسعة قرارات للحرمان ، يتعلق القرار

=

من شهدوا مجمع خلقدونية ٤٥١م ، ولم يذعنوا لاحكامه ، وتشبع له بعض الرهبان الذين على شاكلته ، وقيل انه زور قانون الايمان على لسان هذا المجمع على ما يوافق بدعة نسطور ، وذهب هذا الراهب الى اورشليم ونودى به هناك اسقفا عليها .

انظر : المطران يوسف دريان ، لباب البراهين ص ٤٧ .

وانظر : Héfèlé, Histoire, T. III., Part I, P. 339.,

Stratos, Byzantium, P. 298.

(١) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٣٣ ، العرينى ، مصر ، ص ٤٠٠ .

(٢) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطارقة الاسكندرية ، ص ٢٢٧ .

وعن العذاب والاضطهادات التى انزلها كيروس بالمصريين انظر : ساويرس ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٣٦ — ١٤٣ ، العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤٠٢ — ٤٠٦ .

السابع منها بضرورة اقرار مذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة (١) .
وقد بذل كيروس من الجهـــود ما جعل هذه القـــرارات مقبـــولة لدى المونوفيزتيين ، هذا وان كان قد أضاف اليها بعض الشروح والتفسيرات التى تنحى المونوفيزتية جانبا بعض الشىء (٢) .

واحتفل فى الثالث من يونيه من عام ٦٣٣ م فى كنيسة الاسكندرية بقبول الاتحاد رسميا ، كذلك احتفل بكيروس نفسه بطريركا رسميا ، وتناول جميع رجال الكنيسة ، وذوو المناصب المدنية والعسكرية وعـــدد كبير من السكان القربان من أيدى البطريرك (٣) .

ويذكر ثيوفانيس Theophanis أنه اشترك مع كـــيروس Cyrus فى العمل على نشر المذهب الجديد فى مصر ثيودور اســـقف فـــيران Pharan وأنه نتيجة للتقارب بينهما قل شـــأن مجمع خلقدونية حتى ان اليعاقبة من الثيودوسيين Theodosiens لم يخشوا القول بأنهم لم يذهبوا الى مجمع خلقدونية ، ولكن هذا المجمع هو الذى سعى اليهم (٤) .

واخبر كيروس الامبراطور هرقل فى الحال بهذا النجاح وباعـــلان الاتحاد ، وكتب أيضا خطابا مطولا اليه ، وأرسله الى سرجيوس مع وثيقة الاتحاد التى تحوى قرارات الحرمان التسعة ، وكـــان من بين ما جاء فى هذا الخطاب ما ذكره كيروس لسرجيوس بطريرك القسطنطينية : أعلن لكم أن جميع رجال الدين ، وكذلك من هم من حزب الثيودوسيين Theodosiens وجميع الشخصيات الهامة من عسكريين ومـــدنيين ،

---

(١) عن قرارات الحرمان التسعة انظر :
Mansi, Sacrorum conciliorum, T. XI, col. 606-608.,
Héfèlé, Histoire de conciles T. III, Part, I, P. 341.

(٢) Loc. Cit.

(٣) Bréhier, Histoire, P. 118.

(٤) Theophanis, Chronographia, In C.S.H.B., P. 507.
وانظر أيضا :
Cedrenus, Historiarum compendium, I, In CS.H.B., P. 736.

وعددا من أفراد الشعب فى هذه المدينة — أى مدينة الاسكندرية — قد اتحدوا معنا فى الثالث من يونيه ، وتم ذلك فى الكنيسة المقدسة ، وان هذا الحدث لا يملاء الاسكندرية وحدها بالفرح والسرور ، فحسب ، بل يملأ كافة البلاد المجاورة بالفرح والسرور أيضا (١) .

وادخل خبر الاتحاد البهجة والسرور على نفس كل من الامبراطور هرقل والبطريرك سرجيوس حتى ان هذا الأخير بعث بخطاب الى كيروس . وفى هذا الخطاب يمدح سرجيوس كيروس على ما بذله من جهود فى جعل كنيسة الاسكندرية واتباع الثودوسيين ينضمون الى الكنيسة الارثوذكسية الرسولية الجامعة ، ويقدم له الشكر لأنه بفضل هذا الاتحاد سقط جدار الخلاف والشقاق بين الكنيستين (٢) .

كما أشاد البطريرك سرجيوس فى خطابه الاول الى البابا هونريوس Honorius (٦٣٣ — ٦٣٤ م) بهذا الاتحاد ، وذكر له أنه بفضل ما بذله كيروس من جهود ، أصبحت كنيسة الاسكندرية والكنيسة الاثوذكسية الجامعة المقدسة ، وجميع الشعب الحبيب للمسيح فى مدينة الاسكندرية قطيعا واحدا للمسيح ، وأصبحت كل مصر وطيبة وليبيا واقاليم مصر الاخرى ، تعلن عقائد الكنيسة القويمة ، بفضل مساعى كيروس بطريرك الاسكندرية (٣) .

وهكذا فان الاتحاد الذى تم فى مصر ، بالعودة الى كنيسة القسطنطينية بعد انشقاقها عليها يعتبر تتويجا لسياسة هرقل وسرجيوس الدينية . فبعد أن تم الاتحاد فى ارمينية ، والاتحاد المفروض فى

---

(١) انظر نص خطاب كيروس الى سرجيوس فى :
Mansi, Sacrorum, XI, Col. 562-63.

(٢) انظر خطاب سرجيوس الى كيروس فى :
Mansi, Sacrorum, X, Col. 971, 74.

وانظر أيضا الملحق الرابع .

(٣) أنظر نص خطاب سرجيوس الى هونريوس فى :
Mansi, Sacrorum, T. XI, oCl. 531.

انظر ترجمته فى الملحق الخامس .

انطاكية والاتحاد فى الاسكندرية بدأ وكأن الامبراطورية كلها قد اجتمعت حول مذهب مجمع خلقدونية الى جانب موافقتها على مذهب الفعل الواحد، ولم يعد ينظر الى الامبراطور هرقل كغاز للفرس ومسترد للصليب فحسب ، ولكن كحاكم نجح فى التغلب على المشاكل والنزاعات الدينية التى تسببت فى الحاق الضرر بالامبراطورية ، وحلت بذلك العقيدة الواحدة محل عدم وجود القومية الواحدة (١) •

معارضة مذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة :

ورغم محاولات الامبراطور هرقل لتحقيق وحدة الكنائس بايجاد صيغة التوفيق الجديدة ، ونجاح هذه الصيغة فى تحقيق الاتحاد بالفعل فى أقاليم مختلفة من الامبراطورية ، الا أنه ظهر من يعارضها • وبداية أتت هذه المعارضة من فلسطين حيث لم يكن هناك مشكلة المونوفيزتية ، بل كانت هناك مشكلة اليهود — على نحو ما سنرى فيما بعد — وتزعم هذه المعارضة الراهب صفرونيوس Sophronius وهو أصلا من اقليم دمشق ، ودرس بها علم البلاغة والبيان ، وجال بعد ذلك بالاديرة ، والتقى بعديد من الرهبان وبمشاهير النساك ، وكان من بين الاديرة التى جال بها دير بمدينة الاسكندرية ، وآخر فى بيت المقدس ، ومن بين النساك الذين تعرف عليهم والتقى بهم ، ناسك يدعى يوحنا موسخوس John Moschus وهو راهب من سيناء ، وقد ظل هذا الراهب يتنقل مع صفرونيوس من دير لآخر ، وصحبه صفرونيوس فى رحلاته وفى تنقلاته فى فلسطين وفى مصر ، واشترك الصديقان أى صفرونيوس ويوحنا موسخوس Moschus فى المناقشات التى دارت فى مدينة الاسكندرية بين الملكانيين والثيودوسيين Theodosiens وساندا معا جهود البطاركة الارثوذكس افلوجيوس Evlogios وثيودوروس Theodorus ويوحنا المحسن أو المتصدق Jean l'Aumônier

---

(1) Bréhier, Histoire, P. 118, Stratos, Byzantium, PP. 298-99.

وعاونهما على اقناع المونوفيزتيين فى مصر بترك المونوفيزتية (١) •

وذهب صفرونيـــوس Sophronius وموسخوس Moschus الى افريقية (قرطاجة) حيث قابلا هناك الراهب ما كسيموس المعترف Maximus confessor (٢) ثم مضى الثلاثة الى رومـــا ، حيث مات موسخوس بها فى عام ٦١٩م • ومن المحتمل أن صفرونيوس عاد بعد ذلك الى فلسطين ، حيث استقر فى دير القديس ثيودوسيوس Theodosius بالقرب من بيت لحم • وفى أثناء وجود صفرونيوس Sophronius فى فلسطين ، علم بالجهود التى تبذل لاتحاد الكنائس من خلال الصيغة الجديدة ، وعلم بمحاولة كيروس Cyrus فرض مذهب الارادة الواحدة فى مصر • وكان صـــفرونيوس عنـــدئذ فى الثمانين من عمره ، فرحل الى الاسكندرية فى محاولة منه لاقناع البطريرك كيروس بألا يستمر فى نشاطاته هذه (٣) •

وعرف باللقـــاء الذى تم بين الراهب صفرنيوس Sophronius والبطريرك كيروس بطريرك الاسكندرية ، عن طريق اشارات جـــاءت فى خطاب ما كسيموس المعترف Maximus confessor الى بطرس المشهور ، وكذلك من خلال خطاب البطريرك سرجيوس الى البابا هونريوس Honorius بابا روما (٤) •

وفى أثناء وجود صفرونيوس Sophronius فى الاسكندرية ، شرح له كيروس الحاجة الماسة الى ضرورة وجود اتحاد دينى ، والتخلى عن

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 118.,

(٢) انظر ما يلى ص ١٧٨ هامش ٣ •

(٣) Bréhier, Histoire, P. 119.

(٤) Maximi Confessoris, Opera, in P.G., T. 91, PP. 142-43.

وانظر خطاب سرجيوس للبابا فى :

Mansi, Sacrorum, T. X ; P. 531.

وانظر الملاحق ايضا •

الانقسام ، الذى أحدث ضررا بالغا بالعقيدة وما زال يشكل خطرا عليها . ورغبة من كيروس Cyrus فى كسب رضاء صفرونيوس فقد قرأ كيروس عليه بنود الاتحاد وقراراته التسعة قبل أن يعلنهـا غـير أن الراهب صفرونيوس Sophronius اعترض على بند الارادة الواحدة ، وتمسك بضرورة اعلان أن فى المسيح فعلين وارادتين ، وناشد كيروس وتوسل اليه بألا يعلن هذه البنود التسعة ، وخاصة البند السابع منها الخاص ، بالارادة الواحدة ، ولكن كيروس لم يعر توسله اهتماما (١) .

وقرر صفرونيوس Sophronius أن يتابع مساعيه فى القسطنطينية على أمل أن يجد المساعدة من بطريركها سرجيوس Sergius من أجـل الدفاع عن الارثوذكسية ، وأن يكسب سرجيوس الى ضرورة أن يمحو تعبير الفعل الواحد من وثيقة الاتحاد ، ولم يكن صفرونيوس يتصـور أن سرجيوس كان مؤمنا بالمذهب الجديد وأنه الموحى به (٢) .

وما ان علم كيروس Cyrus برغبة صفرونيوس Sophronius فى الذهاب الى القسطنطينية ، حتى عهد اليه بأن يسلم البطريرك سرجيوس رساله معه ومعها صورة من وثيقة الاتحـاد . ويعتقـد هيفليه Héfèlé أن سلوك كيروس Cyrus هذا نوعا من النبل والسمو ، فقد عهد الى صفرونيوس — على الرغم من معارضته للمذهب الجـديد — باتخـاذ سرجيوس بطريرك القسطنطينية وسيطا لحسم الخـلاف المـذهبى بينهمـا (٣) .

---

(١) Mansi, Sacrorum, T. XI, Col. 531.,
Maximi, Opera, in P. G., T. 91, Col., 142.

سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٢ .

Crumel, **Recherches sur l'histoire de Monothélisme, P. 19**, Bréhier, Histoire, P. 120, Héfèlé, Histoire, T. III, Part, I, P. 342.

(٢) Héfèlé, Histoire T. III, Part, I, PP. 342-43.

(٣) Ibid, P. 343.

وتم اللقاء بين صفرونيوس Sophronius وسرجيوس فى العاصمة القسطنطينية ، على أن ما حدث من مناقشات ومن تبادل وجهات النظر بين سرجيوس Sergius وصفرونيوس لم يعرف لسوء الحظ سوى من خطاب سرجيوس الى البابا هونريوس Honorius والذى ذكر فيه سرجيوس أنه حاول ان يشرح لصفرونيوس المزايا التى تنتج عن الاتحاد ، وضرورته السياسية والخطر الذى يترتب على ضياع ذلك الجهد الكبير ، الذى بذله كيروس Cyrus سدى ولكن صفرونيوس Sophronius لم يكن يهتم بالضروريات السياسية ، وان صفرونيوس سرعان ما وجد نفسه فى ركن ضيق عندما طلب منه سرجيوس أن يأتى بشهادات ونصوص الآباء القديسين وآباء الكنيسة ، التى تنص حرفيا على وجود فعلين فى المسيح ، ويذكر سرجيوس كذلك فى خطابه أن صفرونيوس Sophronius لم يستطع أن يفعل ذلك بالمرة (١) .

ويذكر سرجيوس Sergius أيضا فى خطابه للبابا هونريوس Honorius أنه كتب لكيروس Cyrus بطريرك الاسكندرية وطلب منه أن يتم الاتحاد الآن ، وألا يسمح بالكلام عن فعل أو فعلين ، بل يكتفى بأن يذكر أن المسيح يفعل كل مايليق بالاله والانسان من أعمال ، وأنه الكلمة المتجسد بلا انقسام وذلك على نحو ما جاء فى المجامع المسكونية المقدسة (٢).

---

(١) Mansi, Sacrorum, T., XI, Col. 534.
وانظر ايضا : Héfélé, Histoire, T. III, Part. I, P. 345., Grumel, **Récherches**, PP. 20-21.

ومن الغريب مايرويه سعيد بن بطريق اذ يذكر أن صفرونيوس خرج الى القسطنطينية ، فقابله سرجيوس بطريركها ، وقص عليه صفرونيوس ماكان بينه وبين كورس بطريرك الاسكندرية ، فعجب سرجيوس بطريرك القسطنطينية من ذلك . فلما كان بعد يومين قدمت هدايا من كورس الى سرجيوس ، فانصرف عن رأيه وصار مخالفا لصفرونيوس موافقا لكورس . انظر :

سعيد بن بطريق ، **التاريخ المجموع** ، ج٢ ، ص ١٢ .

(٢) Mansi, Sacrorum, T. XI, Col. 534.
Héfèlé, Histoire, T. III., Part, I, P. 345.

ويرى جـــروميـــل Grumel أن فى ذلك افـــراطا من سرجيوس ، ويستند فى حكمه هذا على خطاب سرجيوس الى كيروس — الذى حفظ فى أعمال مجمع اللاتيران Lateran (٦٤٩م) ، والذى يبدو من خـــلاله ان سرجيوس نادى بالمذهب الارثوذكسى فى اتفاق الاتحاد ، وأكثر من ذلك ناقش هـــذا الخطاب بدون جدوى التوصـــية الخاصة بعدم ترك الكلام عن الفعل الواحد والفعلين (١) .

كانت الاسباب التى قدمها سرجيوس لصفرونيوس Sophronius من أجل أن يبرر استخدام الفعل الواحد تعبر عن مهارة وحذق ، فقـــد أظهرت تلك الاسباب المحاذير الخاصة بالصيغتين أى صيغة الفعل الواحد والفعلين . فذكر سرجيوس أن لفظة الفعل الواحد مع ورودها عند بعض الآباء القديسين الا أنها تبدو غريبة ، وتزعج مسامع بعض الناس ، كما أنها تجعل الكثيرين يعتقدون بابطال الطبيعتين ، وأنه منعا لذلك يفضل اعلان اتحاد الطبيعتين ووجودهما فى المسيح بلا تجزؤ وبلا انقســـام وهذا لم يكن ولن يكون . أما لفظة الفعلين فانها تجعل الكثيرين يتشككون اذ أنها لم توجد عند أى من الآباء القديسين ، ومن ثم لاتجد ما تستند اليه . يضاف الى ذلك أنه ينتج عنها القول بارادتين مختلفين متضادتين فى شىء واحد . وهذا يعـــد كفرا ، لانه من المستحيل أن يكون فى كائن واحد ارادتان (٢) .

وفى النهاية نجح سرجيوس Sergius فى اقنـــاع صفرونيـــوس Sophronius بألا يثير مسألة الفعل الواحد أو الفعلين هـــذه ، وان يكتفى بأقوال الآباء الارثـــوذكس القديسين ، وآل صفرونيوس عـــلى

(١) Grumel, **Recherches**, P. 21.
وانظر نص خطاب سرجيوس الى كيروس فى :
Mansi, Sacrorum, T.X. Col. 972-76.
وانظر ترجمته الى العربية فى الملحق الرابع .

(٢) Mansi, Sacrorum, T. XI, Col. 534., Grumel, **Recherches**, P. 21.,
Héfèlé, Histoire, T. III Part, I, P. 345,

نفسه بأن يتمسك بتعهده هذا • ويذكر جروميل Grumel (١) اننا اذا ماتذكرنا ان سرجيوس كان قد بالغ فى مدح هذه الصيغة أى صيغة الفعل الواحد منذ عشر سنوات ، والتى تركها من الآن فصاعدا ، فان نجاح صفرونيوس Sophronius كان عظيما ، وكان أعظم لأنه استطاع بمقاومته أن يبعد الهرطقة • وهذا النجاح لم يستطع الوصول اليه مع كيروس Cyrus وقد نجح الآن فى انتزاعه من سرجيوس (٢) •

وعاد صفرونيوس الى فلسطين فى أواخر عام ٦٣٣م وبداية عام ٦٣٤ م ، وكان أن اختير بطريركا على بيت المقدس ، اذ كان كرسى بطريركية بيت المقدس شاغرا منذ موت البطريرك مودستوس Modestus فى ديسمبر من عام ٦٣٠م (٣) • ويذكر سعيد بن بطريق ، أن أهل بيت المقدس جعلوه بطريركا على مدينة بيت المقدس لحسن امانته (٤) • وقام الامبراطور هرقل بالتصديق على انتخابه • هذا ويرى البعض أن هرقل أخطأ بتصديقه هذا على انتخاب صفرونيوس بطريركا على بيت المقدس • وأنه من المحتمل أن الامبراطور هرقل تصور أنه سوف يستميل صفرونيوس بتصديقه على انتخابه بطريركا على بيت المقدس ، كما استمال اثناسيوس Athanasius من قبل بالتصديق على انتخابه بطريركا على انطاكية • ومن المحتمل كذلك أن هرقل ظن أو اعتقد أن عدم التصديق على انتخاب صفرونيوس سوف يزيد من عناده وصلابة رأيه ، هذا الى جانب الاعتقاد بأن صفرنيوس قد اتفق أخيرا مع سرجيوس (٥) •

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر :
Mansi, Sacrorum, T. XI, Col. 535, Grumel, **Recherches**, PP. 21-22.
Héfélé, Histoire, T. III, Part, I, P. 346.

(٢) Grumel, **Recherches**, PP. 22-23.

(٣) Bréhier, Histoire, PP. 120-21.

(٤) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ٢٨ •

(٥) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١١٨ — ١١٩
Stratos, Byzantium, P. 301.

ومـــا أن اعتلى صفـــرونيوس Sophronius كرسى بطـــريركية بيت المقدس ، وأصبح بذلك أكثر نفوذا وتأثيرا ، حتى راح يعقـــد مجمعـــا للمطارنة (١) ، والأساقفة والكهنة التابعين له ، وحرر فى هذا المجمع رسالته المقدسة أو خطابه المجمعى ، كما كانت العادة ، فقد قضى العرف أن يوجه البطريرك الجديد ومجمعه ، رسائل سلامية الى سائر البطـــاركة تعـــلن الانتخاب الجديد ، وتنقل بيانا بعقيدة البطريرك المنتخب . وهذا ما حدث فقد أرسل صفرونيوس أعمال مجمعه وخطابه المجمعى الى البابا هونريوس Honorius بابا رومـــا (٢)، والى البطـــريرك سرجيـــوس بطـــريرك القسطنطينية ، والى سائر اخوانه من البطاركة الآخرين (٣) .

وقد ادرج خطاب صفرونيوس Sophronius هذا تحت أعمال المجمع المسكونى السادس (٦٨٠م) وتلى فى الجلسة الحادية عشرة لهذا المجمع ووصل الينا عن هذه الطريق ، ويعرض صفرونيوس فى مقدمةهذا الخطاب أو تلك الرســالة — أسفه لأنه ترك وظيفته ومنصبه الأول ، وترك معه

(١) وعن تاريخ عقد هذا المجمع ، فان ثيوفانيس Theophanis يذكره تحت حوادث العام العشرين من حكم هرقل أى عام (٦٣٠م) هذا فى حين أن صفرونيوس كان قد حضر المجمع الذى عقده كيروس فى الاسكندرية فى مايو ٦٣٣م ، وكان فى ذلك الحين لايزال راهبا ، ثم سافر الى القسطنطينية عند سرجيوس ، ومن القسطنطينية عاد الى بيت المقدس حيث انتخب بطريركا كما سبق أن ذكرنا وعقد المجمع ، وبما أن هذه الحوادث استغرقت عـــدة شهور ، فان صفرونيوس بلا شك لابد وانه عقد مجمعه فى اواخر عام ٦٣٣م ، أو بالاحرى فى أوائل عام ٦٣٤م .
انظر :

Theophanis Chronographia, in C.S.H.B., P. 507,
Mansi, Sacrorum, T. X., PP. 650-52.

(٢) ذكر ثيوفانيس البابا يوحنا بدلا من هونريوس وتبعه فى ذلك كل من قيدرينوس وزانوراس .
انظر :

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 507.,
Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., PP. 736-37.
Zanoras, Epitomae, T. III, in C.S.H.B., P. 213.

(٣) Mansi, Sacrorum, T., X. Col. 608, Héfélé, Histoire, T., III, part, I P. 368.
Bréhier, Histoire, P. 132, Stratos, Byzantium, P. 301.
أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ص ٤٣٩ .

بالتالي الطمأنينة وراحة البال ، وانه لم يقبل الأسقفية الا كرها ، ولهذا فوض أمره لزملائه ، وطالب مساعدتهم له كآباء وكأخوة ، وانه أعلن ايمانه أمام زملائه وفقا للعرف القديم • وبعد هذه المقدمة يأتى الجزء الأساسى من الخطاب ، وينقسم الى ثلاثة أقسام ، يعالج الأول منها الثالوث المقدس ، أما الثانى فيعرض تفصيلا لعقيدة التجسد فى ضوء مجمع خلقدونية ، ويتعلق القسم الثالث من الخطاب بعملية الخلق (١) •

على أن النقطة الاساسية فى الخطاب كانت تدور حول تأكيد الفعل الالهى والانسانى فى المسيح ، وانهما نتيجة طبيعية وضرورية لطبيعته المزدوجة فلكل طبيعة فعلها الخاص بها ، فحسب اعتقاد النساطرة (٢) يوجد فى الطبيعة المزدوجة فعل واحد ، ولكن عملين متميزين الهى وانسانى ، وبهذين العملين يمكن معرفة الاختلاف فى الطبيعتين • أما الاعتقاد بأن لهذين الطبيعتين فعل واحد متميز فان ذلك يخضعها لجوهر واحد ، وبالتالى لطبيعة واحدة مثل المونوفيزتيين (٣) •

وفى نهاية الخطاب اعترف صفرونيوس Sophronius بالمجامع المسكونية الخمسة (٤) وكذلك بشروحها العقائدية وتفسيراتها ، واعترف

---

(١) عن المحتوى التفصيلى لهذا الخطاب انظر :

Grumel, Recherches, PP. 24-29, Héfèlé, Histoire T., III, part, I, PP. 369-75.

(٢) النساطرة أو النسطورية نسبة الى رجل يدعى نسطوريوس من أصل فارسى ، نشأ فى مدينة جرمانيقة (مرعش الآن) فى أواخر القرن الرابع . وكان أول من تولى نشر بدعة النسطورية بين الناس جهرا وتحمس لمناصرتها حتى اشتهرت باسمه . وأصبح نسطوريوس كاهنا على كنيسة انطاكية ، ثم أصبح بطريركا على القسطنطينية فى عام ٤٢٧ م فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير ، واشتهر بالتقوى والفضيلة وفصاحة اللسان .

لمزيد من التفاصيل انظر : المطران يوسف وريان ، لباب البراهين ، ص ٣٨ — ٤٠ .

ابو البركات ، مصباح الظلمة ، ص ٦٥٨ — ٦٥٩ ، ٦٦١ .

(٣) Bréhier, Histoire, P. 123.

(٤) المجامع المسكونة الخامسة هى : مجمع نيقيه ٣٢٥م ، مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١ م ، مجمع افسوس ٤٣١ م ، مجمع خلقدونية ٤٥١ م ، ومجمع القسطنطينية الثانى ٥٥٣ م .

كذلك بجميع كتابات كيرلس Cyrillus بطريرك الاسكندرية (٤١٢ — ٤٤٤) ، وبصفة خاصة ما هو ضد نسطوريوس Nestorius — وبخطابه عن الاتحاد وبخطابات الشرقيين لتأكيد هذا الاتحاد • بمعنى انه قبل كل ما قبلته الكنيسة ورفض كل ما رفضته • وختم صفرونيوس خطابه طالبا من زملائه أن يصححوا له ما هو خطأ فى خطابه المجمعى هذا ، وأنه سوف يعترف لهم بهذا الجميل (١) •

ويرى لويس بيريه Louis Bréhier أن خطـاب صفرونيوس هـذا لا يعد اعتراضا او احتجاجا أو نوعا من الجـدل القلمى ، ولكنه اعـلان للايمان والعقيدة مجرد من كل صفة عدائية لسرجيوس Sergius ، فقد طلب صفرونيوس منـه أن يرسـل له رده حول موضـوع العقيـدة الصحيحة (٢) •

غير أن سرجيوس تجاهل خطاب صفرونيوس هذا ، وأبدى عدم رغبته فى تلقى هذا الخطاب ويرجع موقف سرجيوس هذا الى أنه كان يعترض اعتراضا شديدا على الفعلين والعملين ، ويرى أنه من الضرورى ابعادهما ، لمـا يؤديان اليه من ارادتين متضادتين فى المسيح (٣) •

أما البابا هونريوس Honorius بابا روما (٤) فقـد كتب لكل من صفرونيوس Sophronius وكيروس بأن يكفا عن الكلام عن الافعـال وعددها ، ويحثهما على فض النزاع ، وقد اطلع البابا هونريوس البطريرك سرجيوس Sergius على هذين الخطابين ، ولكن لسوء الحظ فان هذين

وعن هذه المجامع انظر : حنانيا الياس كساب ، مجموعة الشرع الكنسى ص ٤١ ، ٢٤١ ، ٢٨٨ ، ٣٦٤ ، ٤٤٦ .

(١) Héfélé, Histoire, T. III, part, I PP. 375-76.

(٢) Bréhier, Histoire, P. 123.

(٣) Mansi, Sacrorum, T. XI, Col. 455., Grumel, Recherches, P. 27.

(٤) اعتلى هونريوس العرش البابوى فى ٢٧ اكتوبر ٦٢٥ م بعد وفاة البابا بونيفاس الخامس ، وهونريوس من اسرة ميسورة الحال من campanie فى ايطاليا انظر : Héfèlé, Histoire, T. III, part, I, P. 347.

الخطــابين مفقــودان (١) • ورد صفرونيوس عــلى البــابا هونريوس (٦٢٥ ـــ ٦٣٨ م) بأنه ســيفعل ذلك اذا ما فعــله كيروس بطـــــريرك الاسكندرية ، وأرسل صفرونيوس الاسقف استفين من دورا Stephen of Dora الى روما فى محاولة لكسب البابا الى جانبه ، ولكن اســتيلاء المسلمين على بيت المقدس عام ٦٣٧ م وما تبــع ذلك من وفاة البطــريرك صفرونيوس حال دون ذلك (٢) •

ولم يكن صفرونيوس بطريرك بيت المقدس هو الوحيد الذى رفع لواء المعارضة فى وجه مذهب الفعــل الواحد والارادة الواحدة ، بل كان هنــاك معــارض آخــر وهو القــديس ماكسيموس المعترف Maximus Confessor الذى كان واحدا من رجال اللاهوت الذين قلقوا بشــأن المذهب الجديد أى مذهب المونوثلستية Monotheletism (٣) •

البابا هونريوس (٦٢٥ ـــ ٦٣٨ م) والمذهب الجديد :

وعندما وجد سرجيوس بطــريرك القسطنطينية معارضـــة كل من صفرونيوس Sophronius بطــريرك بيت المقــدس ، وان ماكسيموس المعترف أصبح ينادى بما نادى به صفرونيوس ، رأى أنه من الافضل أن

---

(١) Bréhier, Histoire, PP. 123-124.

(٢) Brooks, The Successors, P. 399.

(٣) ولد ما كسيموس فى القسطنطينية حوالى عام ٥٨٠م ، وعمل كسكرتير اول للامبراطــور هرقل (٦١٠ ـــ ٦٤١ م) ودخــل ديــر خريسبوليس Chrisoupolis عام ٦١٢ ـــ ٦١٣ م ، وسرعان ما أصبح رئيسا لهذا الدير ، ثم فر منه عقب استيلاء الفرس على مدينة خريسبوليس فى عام ٦٢٦م ، وذهب ما كسيموس الى افريقية مع سائر الرهبان ، وتعــرف هناك عــلى صفرونيوس ، ثم عاد ماكسيموس الى ديره فى عام ٦٣٠ م ، ثم اتجه الى الاسكندرية فى عام ٦٣٣ م ليعمل الى جوار صفرونيوس من اجل الدفاع عن الارثوذكسية ، وكان عندئذ فى حوالى الثالثة والخمسين من عمره .

انظر :

Maximi confessoris, Opera, in P. G. T. 91., Col. 142,

Grumel, «Notes d'Histoire de Chronologie sur la vie de Maximus confesseur», dans Echos d'Orient, (1927) PP. 24-25.,

Montmasson, «Chronologie de la vie de Saint Maxime le confesseur (580-662)» dans Echos d'Orient (1910) P. 153.

يعرض الامر على البابا هونريوس (٦٢٥ — ٦٣٨ م) بابا روما ، فكتب له يستوضح رأيه ويحصل على موافقته وقبوله (١) .

واعتمد سرجيوس فى ذلك على ما حققه من انتصارات فقد عرض فى خطابه للبابا هونريوس رواية كاملة عن جهود الامبراطور هرقل ، وجهوده هو لارجاع المونوفيزتيين الى وحدة العقيدة مع التمسك بقبولهم لمجمع خلقدونية ، كما شرح له الجهود التى بذلت لايجاد صيغة ودية تيسر عملية الاتحاد ، وأطلعه على ما قام به فى ارمينية ، ولقاء الامبراطور هرقل مع بولس الاعور ، ولقائه مع كيروس أسقف فاسيس Phasis ، والذى أصبح بطريركا على الاسكندرية ، وأطلعه كذلك على النتائج التى توصل اليهـا ، وأخبره بأن كيروس Cyrus على رأس المؤيدين للمذهب الجديد ، وأنه قام بجمع أصحاب المذاهب المختلفة فى الاسـكندرية تحت لواء واحد ، وذكر له المعارضين للمذهب وعلى رأسـهم صفرونيوس بطـريرك بيت المقدس وأنه سعى لتدمير المذهب الجديد ، كمـا سعى لاشـعال النزاع والشقاق . وأنهى سرجيوس خطابه موضحا بأنه سيكون لرأى البابا ثقل وشأن عظيم ، واقترح عليه ضرورة رفض تعبير الفعل الواحد والفعلين ، وابطال هذه العبارات ، اذ أنها تقف حجر عثرة فى سبيل الاتحاد لأنهـا تشكك السذج من المؤمنين ، فهم يأخذون تعبير الفعل الواحد بمعنى أن الارادة البشرية فى السيد المسيح تضـاد الارادة الالهيـة ، فتفعل هذه ما لا تريده تلك على نحـو ما يحدث فينا نحن البشر الضـعفاء ، وركز البطريرك سرجيوس على النتـائج السياسية التى يمكن ان تترتب على اتحاد الكنائس والقضاء على الصراعات الدينية (٢) .

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 121.

أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .

(٢) ارجع الى خطاب سرجيوس الى هونريوس فى .

Mansi, Sacrorum, T. XI Col. 530-38.

وترجمته الى العربية فى الملحق الخامس .

Héfèlé, Histoire, T., III, Part, I, PP. 343-46.

أما عن تاريخ هذا الخطاب الذى بعث به البطـريرك سرجيوس الى البابا هونريوس Honorius فيذكر بيريه ، Bréhier أنه وفقا لتفاصيل الخطـاب نفســه ، يمكن أن نؤكـد أنه كتب فى الفترة ما بين انتخـاب صفرونيوس Sophronius بطريركا على بيت المقدس وبين اعلان خطابه المجمعى أى بين الشهور الأولى من عام ٦٣٤ م ، ونهاية هذا العام (١) وهذا فى حين يرى هيفليه Héfèlé أن هذا الخطاب كتب فى الحال بعـد المقـابلات التى تمت بين صفرونيوس وسرجيوس ، وبعـد ارتقـاء صفرونيوس كرسى بطريركيـة بيت المقـدس (٦٣٣ أو ٦٣٤ م) مباشرة (٢) .

وكان ان رد البابا هونريوس Honorius (٦٢٥ — ٦٣٨ م) عـلى البطريرك سرجيوس بخطاب رضى واستحسان،ولدينا النص اللاتينى لهذا الخطـاب ، كما أن هنـاك ترجمة له باليونانية مع النص اللاتينى ضمن جلسات المجمع المسكونى السادس ٦٨٠ م وقد أوردها منسى Mansi ويضـاف الى ذلك أن هنـاك ترجمـة لرد هونريوس بالفرنسية نشرها هيفليه Héfèlé (٣)

وقد حرر هذا الخطاب سكرتير البابا هونريوس (٦٢٥ — ٦٣٨م) وهو الأب يوحنا Jean ، وكان رجلا واسع الاطلاع . وامتـدح البـابا هونريوس فى رده على سرجيوس جهود الأخير وجهود كيروس Cyrus من أجل اتمام الاتحاد وأقر البابا قرار سرجيوس بشأن ابطال عبـارات الفعل الواحد والفعلين ، وعالج هونريوس Honorius مسألة الجدل فى الكلمات وأنه يجب أن تترك هذه المسألة للنحاة واللغويين ، ونصح بالصمت

---

(١) Bréhier Histoire, P. 121.

(٢) Héfèlé, Histoire, T. III, Part, I, P. 343.

(٣) انظر النص اللاتينى وترجمته باليونانية فى :
Mansi, Sacrorum, T. XI, Col. 538.

والترجمة الفرنسية فى :
Héfèlé, Histoire, T. III, part, I, PP. 350-53.

على عدد الافعال ، ولكنه قبل الارادة الواحدة • بمعنى آخر وعلى نحو ما يرى هونريوس فى خطابه ان فى المسيح طبيعتين متحدتين فى شخص واحد الكلمة ، وبما أنه ليس هناك سوى شخص واحد ، فانه لا يوجد أكثر من فعل واحد ، وان المسيح بالتالى يفعل الاعمال الالهية والانسانية • ومن ثم فقد كانت حجة هونريوس كالتالى : حيث أنه لا يوجد سوى شخص واحد ، فانه لا يوجد سوى فعل واحد وبالتالى ارادة واحدة (١) •

واعلن هونريوس أن الطبيعتين تعملان بلا اختلاط أو امتزاج فى شخص المسيح وان كلتيهما تقوم بعمل ما يخصها ، ولكى يبرهن على أنه لا توجد فى المسيح ارادة بمعنى متضاد أو متعارض أشار الى عبارة بولس الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثه فى الاصحاح الثانى من « صلب رب المجد » ، كما اقتبس من كلام يوحنا ومن انجيله فى الاصحاح الثالث ، وأورد نصوصا أخرى من القديس متى Mathieu وغيره (٢) •

ومن ثم أقر هونريوس Honorius مذهب سرجيوس وصدق عليه مستخدما صيغة الارادة الواحدة قدوة بسرجيوس ، وداوم هونريوس على هذا حتى الموت ، وقد اعترف بآرائه الارثوذكسية على الرغم من صدور قرار الحرمان ضده فى المجمع المسكونى السادس ٦٨٠ م (٣) •

---

(١) ولمزيد من التفاصيل انظر :
Mansi, Sacrorum, T. XI Col., 538.,
Héfèlé, Histoire, T. III, Part, I, PP. 350-51, 536-63.

(٢) انظر : Héfèlé, Histoire, T. III. Part, I, PP. 350-51,
Bréhier, Histoire, P. 122.

واورد سعيد بن بطريق اجزاء من رسالة هونريوس الى البطريرك سرجيوس . انظر التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) وعن قرار الحرمان ضد هونريوس انظر : الجلسة الثالثة عشر للمجمع المسكونى السادس ٦٨٠ م فى : حنانيا الياس ، مجموعة الشرع الكنسى ، ص ٥١٠ — ٥١١ ، ٥٢١ — ٥٢٣ .

Stratos, Byzantium, P. 301, Diehl, Le Monde P. 154,
Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T.XI P. 174.

ويرى بيريه Bréhier ان هونريوس لم تكن لديه رغبة أو ميل الى الارادة الواحدة ولكن رغبته فى اقامة السلام فى الكنيسة جعلته يحترس من صفرونيوس Sophronius الذى كان ينظر اليه كشخص ملح مزعج . ومن ثم فقد اقتنع هونريوس بضرورة وضع نهاية للمناقشـــات وتبنى صيغة الارادة الواحدة (١) وأوصى فى خطابه الأول بتجنب تعبيرات القوة والقوتين أو الفعـــل والفعلين وذلك بدافع اعادة الســـلام الى الكنيسة ، والخـــوف من رؤية المونوفيزتية تســـتولى على تعبير الفعـــل الواحـــد والنسطورية على تعبير الفعلين (٢) .

واذا كان البابا هونريوس Honorius قد اعترف فى خطابه الأول للبطريرك سرجيوس Sergius بالارادة الواحدة فى شخص المسيح ، فانه قد جاء على لسانه بالحرف الواحد فى خطابه الثانى لنفس البطـــريرك ، والذى ورد ضمن أعمال المجمع المسكونى السادس ٦٨٠ م — نحن نعترف بطبيعتين متحدتين فى مسيح واحد ، وان كلا منهما تفعل وتتصرف بالاتحاد مع الأخرى ، فتعمل الطبيعة الالهية فى المسيح ما هو الهى ، وتعمل الطبيعة الانسانية أو البشرية ما هو انسانى أو تعمل فى الجسد ، ونعلن أيضا أنه توجد فى شخص المسيح طبيعتان بلا امتزاج أو اختلاط ، وان كلاهما تعمل ما يخصها (٣) .

مرسوم شرح العقيدة وتقرير الايمان الـ Ecthesis :

وما لبث البطـــريرك سرجيوس أن عدل موقفه ، فتخلى عن فكـــرة الفعل الواحد على حين أقر فكرة الارادة الواحدة فى شخص المسيح ، وأذيعت هذه الصيغة الجديدة فى مرسوم أعده البطريرك سرجيوس نفسه ، وأعلنـــه الامبراطور هرقل فى عام ٦٣٨ م ، وعرف هذا المرسوم باســـم Ecthesis اى (شرح العقيدة وتقرير الايمان) . وأعلن الـــ Ecthesis

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 122.

(٢) Héfélé, Histoire, T. III, part, I, P. 364.

(٣) انظر نص خطاب هونريوس الى سرجيوس فى :
Mansi, Sacrorum, T.XI, Col., 579-82.

أو البيان الجـديد للعقيدة الارثوذكسية على جدران كنيسة القديسـة صوفيا (١) •

ويمكن الاعتقاد بأن اصدار الامبراطور هرقل لرسومه المعروف بالـ Ecthesis (شرح أو تقرير الايمان) انما كان يمثـل رد القسطنطينية على خطاب صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس ، ويمكن الاسـتناد فى ذلك الى ما ذكره بيروس Pyrrhus بطريرك القسطنطينية وخليفـة سرجيوس Sergius فى جـدله مع القـديس ماكسـيموس Maximus (٢) من أن خطاب صفرونيوس الذى ألقاه فى المجمع المنعقـد عام ٦٣٤ م ، أجبرنا على أن نتصرف بما هو ضد ارادتنا • وهـذا يعنى اعلان الـ Ecthesis (٣) •

ويـذكر كل من ثيوفانيس Theophanis وقيدرنوس Cedrenus وزانوراس Zanoras أن الامبرطور هرقل ما ان علم بخطاب صفرونيوس Sophronius الذى أصدره فى مجمعه حتى فكر فى أن يفعـل شيئا جديدا فأعلن ما سمى بالمرسوم ، ولم يذكروه باسم الـ Ecthesis (٤) والحقيقة أن هذا المرسوم ما هو الا الـ Ecthesis أى شرح العقيـدة أو تقرير الايمان ، وذلك بالاستناد الى أن كلا من ثيوفانيس وقيدرنوس وزانوراس لم يتحـدثوا عن الـ Ecthesis على الرغم مما أحدثه هذا المرسوم من ضجة كبيرة فى الكنيسة فى تلك الاثناء • ومن ناحية أخرى فان فحوى المرسوم الذى ذكره الكتاب البيزنطيون ومضمونه هو نفس فحوى

---

(١) Grumel, «Recherches sur l'histoire de Monothélisme» dans Échos d'Orient (1930) P. 17.
السيد الباز ، الدولة ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .
Héfèlé, Histoire, T. III, Part, I, P. 387.

(٢) عن القديس ماكسيموس انظر ما سبق ص ١٧٨ هامش ٣ .

(٣) انظر : Mansi, Sacrorum, T. X., Col., 741.,
Héfèlé, Histoire, T. III., Part, I, P. 387.

(٤) Theophanis, Chronographia in, C.S.H.B., 507.,
Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 737.
Zanoras, Epitomae Historiarum, T, III, P. 213.

ومضمون الـ Ecthesis فقد جاء فى كل منهما عدم الاعتراف بفعل ولا فعلين فى المسيح ، وهذا هو بالتحديد هدف الـ Ecthesis .

هذا وتذكر المصادر البيزنطية هذا المرسوم تحت حوادث عام ٦٣٤ م أنه تبع خطاب صفرونيوس مباشرة ، على أنه كان من الضرورى أن تكون هناك فسحة من الوقت تتيح للامبراطور الفرصة للتأكد من فشل مذهبه للتوفيق والاتحاد بعد أن حقق هذا المذهب نجاحا فى الاسكندرية . ومن ثم فمن المعقول أن تكون هناك عدة سنوات بين مجمع صفرونيوس Sophronius وبين مرسوم هرقل ، وتقودنا هذه السنوات بسرعة الى تاريخ اصدار الـ Ecthesis فى عام ٦٣٨ م (١) .

ونص الـ Ecthesis أى تقرير الايمان محفوظ ضمن أعمال مجمع اللاتيران Lateran عام ٦٤٩ م ، فقد عرض هذا المجمع برئاسة البابا مارتن الأول Martin I (٦٤٩ — ٦٥٣ م) محتوى الـ Ecthesis فى الجلسة الثالثة عشرة له ، وجعله بتاريخ أول سبتمبر عام ٦٣٨ م (٢) . هذا وقد اورد منسى Mansi فحوى هذا المرسوم ومحتواه فى موسوعته عن تاريخ المجامع الكنسية (٣) .

وكانت الفقرات الرئيسية فى هذه الوثيقة بعد ذكر العقائد الخاصة بالثالوث والتجسد — تتعلق بشخص المسيح ، وتحفظ له سجايا وصفات كل من الطبيعتين ، وأنه لا يوجد سوى اقنوم واحد وشخص واحد الاله الكلمة ، متحد مع الجسد الحى بروح عاقلة رشيدة ، بمعنى ان الاله والانسان ليس سوى اقنوم واحد وشخص واحد يتحمل الآلام بجسده وبدون ان تتأثر الوهيته (٤) .

---

(١) انظر : Grumel, Recherches, (1928), PP. 8-9.

(٢) Héfélé, Histoire T. III, part, I P. 388.

(٣) Mansi, Sacrorum, T. X. Col. 678.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن محتوى الـ Ecthesis انظر :
Mansi, Sacrorum, T.X. Col. 991-95.,
Héfélé, Histoire T., III, part, I, PP. 388-90.
Grumel, Recherches, (1930), P. 17.

وتصل الوثيقة فى النهاية الى غرضها الرئيسى وهو تحريم الفعل الواحد والفعلين مع اثبات أنه لا توجد فى شخص المسيح سوى ارادة واحدة فقط وبطبيعتين بلا اختلاط أو انفصال • وتوج كل ذلك بذكر المجامع المسكونية ولعنات الحرمان ضد الهراطقة (١) •

ويتضح مما سبق أن محتوى الـ Ecthesis كان مطابقا لخطاب البطريرك سرجيوس Sergius الى البابا هونريوس Honorius ومخالفا بطبيعة الحال لخطاب صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس ، كذلك يظهر أنه كان هناك ثمة تشابه بين الـ Ecthesis وبين خطابى هونريوس فقد استقبح هونريوس تعبيرات الفعل الواحد والفعلين ، غير أنه لم يستقبح سوى الكلمات وليس معناها الحقيقى ، فيلاحظ أنه قال فى خطابه الثانى : ان الطبيعة الالهية تعمل فى المسيح ما هو الهى . وتعمل الطبيعة الانسانية ما هو من اختصاص الانسانية • وهذا يعنى أن هونريوس علم فى الحقيقة بالقوتين أو بالفعلين مع أنه لم يرد اثبات هذا التعبير ، ويقدم رأيه عن الارادة الواحدة معنى مختلفا عن المذهب الذى يسانده الـ Ecthesis كما يرى هيفليه (٢) •

ورغب الامبراطور هرقل فى أن يرى الـ Ecthesis مقبولا ومعروفا فى كل مكان ، وكانت الظروف فى ذلك الوقت ملائمة لتحقيق رغبة الامبراطور هذه ، فصفرونيوس بطريرك بيت المقدس ، والمعارض الاول لمذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة ، والمناصر للطبيعتين والفعلين قد منعه حصار المسلمين لمدينة بيت المقدس ثم استيلاؤهم عليها فى عام ٦٣٧ م من الاشتراك فى الصراع ومات قبل اعلان الـ Ecthesis ، وشغل منصبه أسقف ملكانى ، يدين بالمذهب المونوثلستى أى مذهب الارادة الواحدة ، وهو سرجيوس اليافاوى Sergius of Jaffa • هذا وقد قبل الـ Ecthesis بطاركة آخرون من بينهم مقدونيوس Macedonius

---

(١) Mansi, Sacrorum, T. X., Col. 994-95., Héfèlé, PP. 389-90., Grumel, P. 17.

(٢) Héfèlé, Histoire, T. III, part, I, P. 390.

بطريرك انطاكية ، وكان قد عين بطريقة غير قانونية ورسمه البطـريرك سرجيوس ، وظل فى القسطنطينية ، حيث سـاند أتبـاع مذهب الارادة الواحدة ، ولم يظهر فى مدينته الاسقفية أى انطاكية ، اذ هددها المسلمون واسـتولوا عليهـا فى عام ٦٣٨ م • وحمل المـاجيستروس اوستاث Le Magistros Eustathe نص الـ Ecthesis الى كيروس Cyrus مع صليب من الذهب به قطعة من الصليب الحقيقى ، وذلك من قبل البطريرك سرجيوس ، فابتهج كيروس به ، وهلل وغنى التراتيل والترانيم ليشكر الله على أنه أعطى لشعبه امبراطورا وحاكما عاقلا (١) •

وعبر كيروس عن ابتهاجه بالـ Ecthesis فى خطاب أرسـله الى البطريرك سرجيوس ، وجاء هذا الخطاب ضمن الجلسـة الثالثة لمجمـع اللاتيران عام ٦٤٩ م (٢) وجاء فيه أن كيروس لم يقر الـ Ecthesis مرة واحدة أو مرتين بل عدة مرات ، وأنه هنأ من كانوا معـه على الأسـلوب الحسن الذى كتب به ، وأنه أنشد لله الاناشيد من كل قلبه ، لأنه وهبهم حاكمـا رشيدا ، يحكم كنائسه بحكمة اذ أنه قادهم الى بر الأمان بثقة وايمان (٣) •

وفى الأشـهر الأخيرة من عام ٦٣٨ م ، دعا البطـريرك سرجيوس Sergius الى مجمع بالقسطنطينية ، فأقر هذا المجمع الـ Ecthesis ، وأمر جميع المخلصين والمؤمنين بقبوله • وبعد قليل وفى ٩ ديسمبر من نفس العام (٦٣٨ م) توفى البطريرك سرجيوس ، وعين الامبراطور هرقل بيروس Pyrrhus خليفة له فى يناير من العام التالى (٦٣٩ م) ، وذلك لأن هرقل كان يحب بيروس لكونه صديقا حميما لسرجيوس طوال عمره ، ولهذا جعله

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 133,
Héfèlé, Histoire, T. III, part, I PP. 390-91.

(٢) انظر نص الخطاب فى :
Mansi, Sacrorum, T. X., Col. 1003.

(٣) Loc. cit.

هرقل محل سرجيوس (١) •

وحاول بيروس Pyrrhus جاهدا متابعة جهود سلفه سرجيوس من أجل نشر المذهب الجديد كتب للقديس ماكسيموس بعد أن ذاع صيته وبلغت شهرته الآفاق — من أجل أن يكسبه الى صف المذهب الجـديد أى مذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة ، كتب اليه طالبا المساعدة والتأييد لهذا المذهب وبذل بيروس ما وسعه الجهد فى هذا الخطاب لكى يستميل القديس ماكسيموس المعترف • غير أن كتاب بيروس هذا مفقود ، ولم يبق سوى رد ماكسيموس Maximus على هذا الخطاب (٢) وفى هذا الرد يمدح القديس ماكسيموس سرجيوس ويجعله موسى الجديد والوسيط الجديد ، ويتمنى ماكسيموس فى رده أن يكون قادرا على الحفاظ على هذا المذهب والتمسك به ، ويطلب ماكسيموس فى رده على البطـريرك بيروس شروحا وايضاحات جديدة ، عن معنى كلمات الفعل الواحد ، والارادة الواحدة ، وبأى الأسـاليب يمكن أن تفهـم ، وذلك حتى يكون قـادرا على ادراك ما يحتويه خطاب البطـريرك بيروس له • وذكر له أننـا فى الواقع نلفظ بألفاظ مجردة من المعنى ، ولكن عن طريق الكلمات نستدل على الافكار ، ولهذا السبب نرى الآباء يتنـازلون أكثر من مرة عن الكلمـات ، ولكنهم لا يتنازلون عن الافكار اذ يكمن فيها سر النجاة والخلاص (٣) •

والشىء الغريب أن ماكسيموس فى رده على بيروس امتدح البطريرك

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 30., Bréhier, Histoire, PP. 132-33., Hérèlé, Histoire, T. III, part, I, P. 391.

(٢) ويؤرخ لخطاب ماكسيموس هذا الى بيروس ، ردا على خطابه — فى عام (٦٣٣ — ٦٣٤ م) أى بعد اتفاق الاتحاد الذى تم فى الاسكندرية ، أو قبل صدور شرح الايمان الـ Ecthesis فى عام ٦٣٨ م . أى بين عامى (٦٣٣ — ٦٣٨ م) •

انظـــر : Grumel, Notes, P. 28.

(٣) انظر نص رد ماكسيموس على بيروس فى :
Maximi confessoris, Opera, in P. G. T., 91. Col., 590-92, 96.
وانظر ايضا :
Grumel, Notes d'histoire, PP. 27-28, Grumel, Recherches, P. 33.

سرجيوس Sergius وجعله موسى الجديد والوسيط لجديد ، ويبدو من هذه العبارة أن القــديس ماكسيموس لم يشارك فى الصراع ، وأنه ناصر المذهب الجديد أى مذهب الفعل الواحد والارادة الواحدة فى البداية ، ولم يكن خصما له ولا عدوا ، ولعل أبرز دليــل على ذلك ما جاء على لســان ماكسيموس نفسه ، اذ يذكر فى بداية جدله ومحاورته مع بيروس Pyrrhus أنه انفصل عن الاخير بسبب مذهب الارادة الواحدة وتقرير الايمان أى الــ Ecthesis (١) ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمكن الاعتقاد بأن احترام ماكسيموس لكنيسة روما وموقف البابا هونريوس Honorius (٢) • جعله يتردد كثيرا قبل الشروع فى القيام بأى عمــل يعادى به المذهب الجديد (٣) •

عقد بيروس Pyrrhus مجمعا فى القسطنطينية (٦٣٩ م) ، وأقر هذا المجمع الــ Ecthesis من جــديد ، وأيد ما ســبق أن اقره سرجيوس Sergius وكيروس Cyrus بطريرك الاسكندرية فيشير بيروس نفسه فى نهاية الجدل ، الذى دار بينه وبين القديس ماكسيموس الى أنه عقد ذلك المجمع لاقرار الــ Ecthesis ، وأن ماكسيموس أبدى دهشته لعقــد بيروس هذا المجمع اذ أنه لم يعقد وفقا لقوانين المجامع ، كما تنص السنة الكنسية ، فلم تصدر رسالة عن جماعة البطاركة ، ولاقرار يحدد الزمان والمكان لعقد المجمع ، الى آخــره من الشروط الواجب توافرها لعقــد أى مجمع (٤) •

ويورد مجمع اللاتيران Lateran (٦٤٩ م) فى جلسته الثالثة بعض العبارات التى جاءت على لسان بيروس Pyrrhus عن هذا المجمــع من

---

(١) Maximi confessoris, Col., 288.
وانظر ايضا : Grumel, Notes d'histoire, P. 28.

(٢) عن موقف هونريوس انظر ما سبق ص ١٧٨ وما يليها .

(٣) Grumel, Notes, P. 28.

(٤) Mansi, Sacrorum, T.X. Col., 673,
Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 508.

بينها : لقد قررنا بعونه تعالى أن نرسل الى من لم يحضروا المجمع رسالة عامة بما قد جرى لدينا ، من أجل أن يسجل كل واحد منهم موافقته على تعاليمنا المستقيمة بتوقيعه عليها • وجاء أيضا على لسان بيروس فى مجمع اللاتيران فى الجلسة الرابعة لقد أقر هذا الـ Ecthesis سرجيوس وكيروس بكتاباتهم وفى سجلاتهم الخاصة (١) •

هذا وأرسلت صورة من الـ Ecthesis الى ايطاليا ، وعند وصولها الى روما كان البابا هونريوس Honorius (٦٢٥ — ٦٣٨ م) قد مات منذ الثانى عشر من أكتوبر من عام ٦٣٨ م ، وخلفه على الكرسى الرسولى القديس سفيرينوس Severinus وأوفد هذا البابا الجديد الى القسطنطينية من يخبر البلاط والبطريركية بانتخابه ، ويرجو الامبراطور أن يصدق على هذا الانتخاب فاشترط هرقل الاعتراف بمضمون الـ Ecthesis قبل التصديق على انتخاب البابا الجديد • غير أن هذا البابا رفض قبول الـ Ecthesis والموافقة عليه على الرغم من الضغط الذى بذله الارخون اسحق فى روما • ومع ذلك فقد مات هذا البابا الجديد بعد شهرين وأربعة أيام من تعيينه ، وبدون أن يحرم مذهب الارادة الواحدة أو الـ Ecthesis (٢) •

ويتضح مما سبق أن شرح العقيدة أو تقرير الايمان Ecthesis لقى معارضة من البابا سفيرينوس Severinus بابا روما (٦٤٠ م) • ويستدل بيريه Bréhier على ذلك بأن المبعوثين من قبل البابا الى القسطنطينية ليطلبوا من الامبراطور — وفقا للعادة — أن يصدق على الانتخاب عادوا بعد شهر ليسلموا نص الـ Ecthesis للبابا ، كما طلب منهم فى القسطنطينية غير أنهم ردوا على ذلك بأنهم لا يستطيعون سوى الارتباط بكلام البابا ، فثار هرقل ، ووعد المبعوثين بالحصول على موافقة

(١) Mansi, Sacrorum, T.X. Col. 674.

(٢) Héfèlé, Histoire T. III., Part. I, P. 391., Diehl, Le Monde, P. 155., Brooks, The successors, P. 400.

اسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ص ٤٢١ .

البـــابا ، وأعطى فى الحال تصريحـــا بالترسيم ، اذ ما قبـــل البـــابا لـــ Ecthesis أولا (١) .

ولكن ســـفيرينوس Severinus بابا روما أدان الـــ Ecthesis قبل وفاته ، وذلك فى الكتاب اليومى لبابوات روما ، حيث نص على عقيدة الايمان فى الباب الثالث ، البند السادس ، وكان من العادة تلاوة هـــذه الوثيقة قبل المجمع المسكونى السادس ٦٨٠ م . فقد جاء فى تلك العقيدة : « نعترف بأن نحافظ أيضا على قرارات بابوات الكرسى الرسولى وهـــم طيبى الذكر سفيرينوس Severinus ويوحنا Joannis ، وثيودوروس Theodorus ومارتينوس Martinus الذين عرف عنهم أنهم قضوا على جميع المشاكل ، وعلى جميع الفتن التى ظهرت فى القسطنطينية ، وعـــلى كل شكوك جميع المتبجحين ، من أجل الحفاظ على عقيدتهم ، ونقر بالفعلين الى جانب الطبيعتين ، وندين بالحرمان من أدانوها ، ونقبل كل من قبلوها بايمان خالص » (٢) .

ويتضح مما سبق أن سفيرينوس Severinus عقد مجمعا ليـــدين الـــ Ecthesis بشكل رسمى ، وذلك لأن ما وعد به بابوات روما من تأييد القرارات التى أصدرها سفيرينوس ويوحنا وثيودر ، ضد أتباع مذهب الارادة الواحدة ، لدليل قاطع على أنها صدرت عن أحد المجامع ، كما ان بقاء سفيرينوس Severinus فى الكرسى الرسولى لمدة وجيزة ، لم تمنعه من أن يدين أتباع مذهب الارادة الواحدة فى مجمع ، لأن خليفته يوحنا الرابع Jean IV (٦٤٠ — ٦٤٢ م) عين بابا لروما فى ٢٤ ديسمبر من عام ٦٤٠ م ، قبل وفاة هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١ م (٣) .

وعقد يوحنا الرابع كذلك مجمعا فى روما (٦٤١ م) أدان فيه مذهب الارادة الواحدة ، وأعمال هذا المجمع مفقودة ، ولكن أشار اليها كل من

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 134.

(٢) Mansi, Sacrorum, T. X. Col. 679.

(٣) Ibid, Col. 679-80.

ثيوفانيس Theophanis ومـــانسى Mansi [١] . هذا وأرسلت محـــاضر جلسات هذا المجمع الى بيروس Pyrrhus بطريك القسطنطينية [٢] .

وهكذا لم يحقق الـــ Ecthesis الأهداف المرجوة منه اذ لم يكسب تأييد المونوفيزتيين ، ولم يبق على الســـلام بينهم وبين أتبـــاع مذهب الطبيعتين والفعلين ، فضلا عن أنه أثار الصراع من جديد بين البـــابوات فى روما والقسطنطينية ، وذلك لتمسك كنيســـة روما بوجـــود طبيعتين وارادتين ، والمرســـوم يعترف بطبيعتين للمسيح الهيـــة وبشرية ، ولكن بارادة واحدة . وهكذا لم يقض هذا المرسوم على النزاعات والخلافات بين المونوفيزتيـــة والارثوذكسية بل زادها ، وزاد ما كان يعمـــل على تدمير المسيحية فى الشرق كما زاد من روح العداء والكراهية والفوضى . ولم يحقق هرقل من ورائه ما كان يصبو اليه من أن تكون كنيسة القسطنطينية سيدة الارثوذكسية ، وأن تكون مركز الكنيسة الدينى والعلمى [٣] .

ولهذا وجد الامبراطور هرقل نفسه مضطرا الى التبرؤ من هـــذا المرسوم أى الـــ Ecthesis (شرح او تقرير الايمـــان) ، فقد جاء فى كتاب هرقل الى البابا يوحنا الرابع Jean IV فى بداية عام ٦٤١ م مـــا معناه « اننى لم أنشىء الـــ Ecthesis ، ولم آمر به ، وانما الذى أنشأه هو البطريك سرجيوس ، الذى حملنى على توقيعه واذاعته ونشره بعـــد عودتى الى القسطنطينية ، فانقدت اليه واذا رأيت الآن ما تأتى عنه من الاختـــلافات الدينيـــة فانى أصرح ببراءتى منـــه ، وبأنى لم أكن أنـــا مؤلفه » [٤] .

---

(١) Mansi, Sacrorum, T. X. Col., 607.,
Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 508.

(٢) انظر : Héfélé, Histoire, T. III, Part, I, PP. 393-97., Bréhier, Histoire, P. 134.

(٣) Grumel, Recherches, (1930), P. 19.

(٤) Mansi, Sacrorum, T.X., Col. 9.
Héfélé, Histoire, T. III, Part, I, P. 387.
المطران يوسف دريان ، لباب البراهين ، ص ٥٧ — ٥٨ .

ويتضح من العرض السابق أن جهود هرقل وسرجيوس من أجل المصالحة بين المونوفيزتيين والارثوذكس ، واعادة المونوفيزتيين الى حظيرة الكنيسة الامبراطورية قد ضاعت هباء وسدى ، وخاصة بعد أن استولى المسلمون على معظم الاقاليم الشرقية ،التى تدين بالمونوفيزتية ، والتى حاولت الكنيسة البيزنطية،أن تخضعها بشتى الطرق لمذهب الارادة الواحدة ففشلت • ولعل فشل سياسة هرقل الدينية يرجع الى العناد والانانيــة أو الى الاهتمامات الشخصية سواء كانت فردية أم جماعية ، والتى جعلت أنبل المحاولات تضيع هباء ولا تصل الى شىء (١) •

ثانيا — سياسة الدولة البيزنطية تجاه اليهود فى عهد هرقل :

واذا كان الامبراطور هرقل قد حاول جاهدا مع البطريرك سرجيوس لايجاد حل لمشكلة المونوفيزتية فى الاقاليم الشرقية ، فقد كان عليــه أن يواجه مشكلة أخرى هى مشكلة اليهود • فقد وجدت فى الاقاليم الشرقية — الى جانب المونوفيزتيين — طائفة أخرى هى طائفة اليهود • وانتشرت احياءها فى جميع المدن الكبرى على ساحل البحر المتوسط • وتكاثر عدد اليهود وخاصة فى بلاد ما بين النهرين وفى سوريا وفى فلسطين ، وقد حظيت هذه البلاد بأعداد كبــيرة منهم • وأضمر اليهود العداء للامبراطورية البيزنطية ، وامتلأت قلوبهم بالحقد والكراهية لها ، ولم يكفوا عن اظهار عداوتهم لها خاصة بعد أن أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية بها ، وبعد أن راحت الامبراطورية تعمل على وضع حد للديانة اليهــودية بل وانهاء الوجود اليهودى بها • وأمسى اليهود عنصرا قويا يهدد أمن وسلامة الامبراطورية • ومع ذلك لم يقلق البيزنطيون بشأن اليهــود غير أنهم ضيقوا عليهم الخناق بعض الشىء بما اتخذوه من اجراءات صارمة ضدهم، من بينها حرمانهم من مزاولة بعض المهن ، وفرض ضريبة خاصـــة عليهم هذا الى جانب تجريدهم من بعض الحقوق المدنية ، وكلما حدثت فتنــة بالامبراطورية ، ألحق الضرر بهم وبأمتعتهم لذلك اغتنم اليهود كل فرصــة

(١) Stratos, Byzantium, PP. 283, 304.

لالحاق الضرر والأذى بالمسيحيين (١) .

وإذا ما تتبع الباحث علاقة اليهود بالامبراطورية فى ايجاز شديد قبل حكم الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) يجد أن هذه العلاقة بدأت تفسد منذ عهد الامبراطور جوستنيان (٥٢٧—٥٦٥م) حقيقة أن جوستنيان احترم حقوق اليهود المدنية ، وأذن لهم بحرية العبادة واقامة الشعائر الدينية ، ولكنه لم يسمح لهم بالشهادة أمام المحاكم على المسيحيين الارثوذكس ، ولم يأذن لهم بشراء أى شىء له علاقة بالكنيسة والكنائس . ثم تدخل جوستنيان فى أمور العقيدة فحرم القول بالـ Deuterosis (نكران اليوم الآخر وقيام الموتى) ، وأمر بحرمان من يقول هذا القول من اليهود الصدوقين ، واعتباره وثنيا غير يهودى (٢) .

واتخذ اليهود موقفا معاديا من المسيحيين ودولتهم واعتصموا بجبال فلسطين ، فأمر جوستنيان بتدمير معابدهم ، فثاروا فى عام ٥٢٩ م ، واضطروا والى الشرق أن يجهز جيشا لمحاربتهم ، ونجح فى قتل عدد كبير منهم وما لبث اليهود أن ثاروا ثانية فى عام ٥٥٥ م ، وذبحوا عددا من المسيحيين فى فلسطين ونجسوا الكنائس وأحرقوها ، ونجحت حكومة جوستنيان فى اخماد هذا التمرد ، وجرى الانتقاص مما تمتعوا به من حقوق (٣) . وفى عام ٥٦٩ أغلق الامبراطور جوستين الثانى (٥٦٥— ٥٧٨م) معبد اليهود Synagogue فى قلب الحى اليهودى فى القسطنطينية

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 108, Finlay, History of Greece, Vol. I PP. 325-26. Stratos, Byzantium, P. 75.

أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ، ص ٤٣٠ — ٤٣١ .
رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جا ، ص ٢٣ .

(٢) انظر : أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جا ، ص ٣٦٩ .
Sharf, «Byzantine Jewry in the Seventh Century» in Byzantinische Zeitschrift, (1955), P. 105.

(٣) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله جا ، ص ٣٦٩ .
Sharf, Byzantine Jewry, P. 105.
السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٩٩ .

وحوله الى كنيسة (١) .

وأحدث اليهود شغبا فى مدينة انطاكية (٥٩٢ م) فى عهد الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) فأمر الامبراطور بطـردهم من المدينـة . ويقال أن السبب فى هذا يرجع الى أن رجلا من النصارى استأجر بيتـا ليسكنه ، فلما انتقل منه بقيت فيه صورة لمريم ، ثم اسـتأجر البيت من بعده رجل يهودى ، فلما دخله ، ووجد تلك الصورة بال عليها ، فرفع خبره الى الملك (الامبراطور) فأمر بنفى اليهود عن انطاكية ، وحلق أوسـاط رؤوسهم وجعل تلك سمة يعرفون بها . وهكذا يعزو محبوب المنبجى طرد اليهود من مدينة انطاكية الى الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) وهذا ما لم تذكره المصادر الأخرى (٢) .

وظهر عداء اليهود وكراهيتهم للمسيحيين بصورة أوضـح فى ظل حكم الامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) غير أنه لا يعرف على وجه التحديد سبب ثورة اليهود فى عهد هذا الامبراطور ، هل ثاروا لأن السلطات كانت تضغط عليهم ، ويتمثل هذا الضغط فيما فرضـه عليهم الامبراطور فوقاس من ضريبة خاصة ، وفى تحريمه عليهم ممارسة بعض المهن ؟ أم ثاروا لأنهم كانوا مضطهدين من جانب حزب الخضر ، اذ أنهم ربطوا أنفسهم بحزب الزرق ؟ على أية حال انتهز اليهود فرصـة النزاع بين الاحزاب من أجل الحاق الضرر والاذى بالمسيحيين (٣) .

ويقال أن اليهود بعد عودتهم الى انطـاكية ، ثاروا على المسيحيين بها ، ونكلوا بهم منتهزين فرصة انشغال الامبراطور فوقاس (٦٠٢—٦١٠م) بحربه مع الفرس ، فتعرض لهم البطريرك القديس انستاسيوس بكل غيرة

---

(١) Sharf, Byzantine Jewry, P. 105.

(٢) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، منشور فى :
P. O., T., VIII, PP. 439-40.

(٣) انظر الفصل الاول ص ٥٦ — ٥٧ وانظر أيضا :
Bréhier, Histoire, P. 108, Bréhier, vie et Mort, P. 48, Stratos, Byzantium, P. 75.

وحزم ، فكادوا له وأمسكوه ، وبعد تعذيبه أخذوا يجــرونه فى شوارع المدينة حتى قضى نحبه (١) •

هذا وقد اتهم اليهود بمساعدتهم للفرس ومعاونتهم لهم ، فقــد نظروا اليهم كمحررين ، وتحالفوا معهم علنا ، بل واتفق اليهود على أن يمدوهم بالمعلومات ، وعلى أن يكونوا ادلاءهم على الطرق ، وعندما كان الفرس يستولون على مدينة من مدن الشام ،كان اليهود يهرعون الى ابادة المسيحيين بها (٢) •

وعندما اصطدم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) بعداء اليهود ، وأدرك مدى كراهيتهم وخصومتهم للامبراطورية أمر بتنصيرهم وتعميــدهم • وتذكر المصــادر السريانيــة وعلى رأســها ديونيسيوس التلمحــرى Denys. Detell-Mahré أن فوقاس أصدر أوامره فى عام ٦١٠ م بتعميد كل يهود الامبراطورية بالقوة ، ويفصل ديونيسيوس لذلك فيقول : ان الامبراطور فوقاس أمر بتعميد جميع اليهود فى المناطق الواقعة تحت سلطانه وسيطرته ، وأنه أرسل الوالى جورج Georges الى بيت المقــدس والضواحى المجاورة لها ، وجمع سائر اليهود • وعندما دخل عليه رؤساء تلك النواحى سألهم : هل أنتم خدام الامبراطور ؟ فأجابوا : نعم ، فأكمل ، سيد الارض يأمر بتعميدكم • ويذكر ديونيسيوس انهم التزموا الصمت ، ولم يجيبوا بكلمة ، فسألهم الوالى جورج لماذا لا تتكلمون ؟ فأجاب كبير منهم يدعى جوناس Jonas قائلا : نحن نفعل كل ما يأمر به سيد الارض ، ولكن بالنسبة لما يطلبه الآن ، فلن نستطيع أن نفعله ، لأن زمن التعميــد المقدس لم يأت بعد • ويتابع ديونيسيوس حديثه أو روايته ، بأن الوالى

---

(١) انظر الفصل الاول ، وانظر أيضا :

Starr, «Byzantine Jewry on the eve of Arabe conquest», in Journal of The Palestine (1935), PP. 283-48.,

المطران يوسف دريان ، لباب البراهين ، ص ١١٩ •

Sharf, Byzantine Jewry, P. 105.

(٢) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ص ٤٤٩ •

Sharf, P. 105., Stratos, Byzantium, P. 75.

جورج عندما سمع هذه الكلمات اشتاط غضبا ، ونهض من مكانه ، وصفع جوناس Jonas على وجهه وقال لهم جميعا : اذا كنتم خدما فلماذا لا تطيعون سيدكم ؟ ثم أمر بأن يعمد الجميع ، وارغامهم على ذلك طوعا أم كرها (١) .

وفى مدينة صور ، وفى عام ٦١٠م حدثت مذبحة لليهود بعد أن اكتشف أنهم كانوا يدبرون مؤامرة ضد المسيحيين فى هذه المدينة . ويروى لنا تفاصيل ذلك سعيد بن بطريق ، فيذكر أن اليهود فى مدينة صور كتبوا ليهود بيت المقدس ، وقبرس ودمشق وجبل الجليل وطبرية ، من أجل أن يتجمعوا فى ليلة عيد الفصح ليقتلوا النصارى (المسيحيين) الذين بمدينة صور ، ويستولوا على المدينة . وبلغ هذا الخبر البطريق المقيم فى صور وأهل صور ، فما كان منهم الا أن أخذوا اليهود الموجودين بصور ، وقيدوهم بالحديد وسجنوهم ، وأغلقوا أبواب صور ، ووضعوا عليها المنجنيقات . وفى ليلة عيد الفصح اجتمع زهاء عشرين ألف يهودى أمام صور ، غير أن البطريق وأهلها حاربوهم من فوق الحصن ، فهزم اليهود ، وانفضحت مؤامرتهم ، وما أن شعروا بذلك حتى صبوا غضبهم على الكنائس خارج مدينة صور ، وراحوا يهدمونها . غير أنهم كلما هدموا كنيسة أخرج أهل صور مائة من اليهود المقيدين عندهم وضربوا أعناقهم ، ورموا برءوسهم الى خارج الحصن . وقتلوا ألفى رجل ، وهرب الباقون فى فوضى ، فخرج عليهم أهل صور ، وعملوا فيهم القتل والذبح . وبذلك انهزم اليهود ، ورجع من بقى منهم الى بلدانهم بالخزى (٢) .

---

(١) Chronique de Denys Detell-Mahré, Quatrieme Partie, trans. par Chabot, P. 4.

هذا ويعزو البعض هذه الرواية التى ذكرها ديونيسيوس التلمحرى ، عن تعميد فوقاس لليهود الى الامبراطور هرقل . انظر ما يلى ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(٢) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جا ، ص ٢١٨ — ٢١٩ وانظر أيضا :

Starr, Byzantine Jewry, P. 285, Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. XI, P. 8.

أما عن موقف الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) المبدئى من اليهود ، فانه لم يكن موقف الرجل الساخط أو الحانق على الشعب اليهودى اذ أن علاقته باليهود لم تكن سيئة قبل اقامته فى بيت المقدس فى عام ٦٣٠ م • ومن الشواهد على موقف هرقل المتعاطف مع اليهود فى بداية الأمر ، أنه أنقذ اليهود فى مدينة الرها من الموت الذى حكم به عليهم أخيه ثيودور • ويفصل ذلك محبوب المنبجى ، وميخائيل السريانى : قلا عنه • فيذكر المنبجى أن ثيودور — شقيق الامبراطور هرقل — بعد أن أخرج الفرس من مدينة الرها ، أمر بقتل اليهود الذين كانوا بتلك المدينة ، وذلك لأنهم عاونوا الفرس على الحاق الأذى والضرر بالمسيحيين ، غير أنه عندما شرع فى قتلهم ، ذهب واحد منهم يدعى يوسف الى الامبراطور هرقل ليلا ، وأخبره بالأمر وسأله الصفح عنهم ، فما كان من هرقل الا أن لبى طلبه ، واستجاب لندائه ، وكتب لأخيه ثيودور بأن يعفو عنهم • وما أن وصل كتاب الامبراطور الى أخيه بالعفو عن اليهود ، وبألا يمسهم بسوء حتى أمسك ثيودور عما عزم أن يفعله بهم [١] •

هذا فى حين جاء فى تاريخ سيبيوس الارمنى Sébeos أن أسباط اليهود الاثنى عشر تجمعوا فى مدينة الرها فى الوقت الذى انسحب فيه الجيش الفارسى منها ، وأغلقوا أبواب المدينة وحصنوها ، ولم يسمحوا للقوات الامبراطورية بدخولها ، ولذلك أمر الامبراطور هرقل بحصار مدينة الرها وعندما أحس اليهود أنهم لن يستطيعوا مقاومة الحصار ، قدموا عروض السلام للامبراطور ، وفتحوا أبواب المدينة ، فأمر الجيش بالانسحاب وأن يظل كل منهم (أى من اليهود) فى منزله ، أى سمح لهم بأن يعودوا فى أمان وسلام الى منازلهم [٢] •

ويتضح من الروايتين السابقتين وان اختلفت تفاصيلهما ، أن

---

(١) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، منشور فى : P.O. T., VIII, P. 466.

وانظر ايضا : Michel le Syrien, T. II, P. 410.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 94-95.

الامبراطور هرقل كان رحيما باليهود ، وأنه أحسن معاملتهم الى حد كبير ، فقد أبعد عنهم أذى أخيه ثيودور ، وسمح لهم بالعودة الى منازلهم فى أمن وســــلام •

على أن قضية اليهود ظهرت أول ما ظهرت فى عهد هرقل فى طبرية ، فقد استضاف نبيل يهودى يدعى بنيامين الامبراطور هرقل وحاشيته ، وهو فى طريقه الى بيت المقدس من أجل اعادة الصليب المقدس اليها وذلك فى عام (٦٢٩ — ٦٣٠ م) وأنه ما لبث ان شكا ســكان مدينة طبــرية المسيحيين للامبراطور من المعاملة السيئة ، التى يتعرضون لها على يــد بنيامين هذا نفسه • فسأل الامبراطور بنيامين اليهودى عن سبب اضطهاده للمسيحيين ، ومعاملته السيئة لهم ، فأجاب بنيامين بكل صراحة أنهم أعداء دينه فهو يهودى وهم مسيحيون ، فاندهش هرقل لصراحته ، وحذره ولقنه الدين المسيحى بل وعمــده فى بيت أحد المسيحيين ويدعى يوســتاثيوس النابلسى Eustathus Neopolitae (١) •

وعندما سار هرقل نحو طبرية ، استقبل وفدا من اليهود القــادمين من الجليل ومن الناصرة ومن القرى والمدن المجاورة ، وقدموا له الهدايا ودعوا له ، وسألوه أن يعطيهم الامان ، فأعطاهم الامان ، وكتب لهم بذلك عهدا (٢) • ويدل ذلك على مدى حرص اليهود وحيطتهم فقد أخذوا منــه العهد كتابا وعليه الخاتم الامبراطورى •

وما لبث سلوك الامبراطور هرقل أن تغير تجاه اليهود بعــد اعادة الصليب فمع أن الامبراطور هرقل ، لم يكن يميــل بطبيعته الى اتخــاذ اجراءات غير انسانية ، هذا الى جانب أنه أعطى عهدا بالامان لليهود من قبل ، الا أنه كان مضطرا لاتخاذ بعض الاجراءات ضدهم خاصة بعد أن علم بما ألحقه اليهود من ضرر بالمسيحيين فى بيت المقدس ، فى عام ٦١٤ م •

---

(١) Theophanis Chronographia, in C.S.H.B., P. 504.

(٢) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ٥ .
Expugnationis Hierosolymae, A.D. 614, in C.S.C.O., P. 149.

وكان أول اجراء اتخذه الامبراطور هرقل ضد اليهود بعد وصوله الى بيت المقدس مباشرة لاعادة الصليب اليها ، أنه أمر باقصاء اليهود عن المدينة المقدسة ، وأمر بألا يسمح لهم بالسكنى فيها أو الاقتراب منها على بعد لا يقـــل عن ثلاثة أميـــال (١) • وربمـــا كان ذلك احتراما للصليب المقـــدس (٢) • أو أن هرقل اتخـــذ هذا الاجـــراء ليجعـــل الصليب ذا فاعلية (٣) وان كان هرقل باتخاذه هذا القرار قد أحيا نفس القرار القديم ، الذى سبق أن أصدره الامبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨ م) لأول مرة فى عام ١٣٦ م بمنع اليهود من أن يعيشوا على بعد أقل من خمسة كيلو مترات من مدينة بيت المقدس (٤) •

أما الاجراء الثانى الذى اتخذه الامبراطور هرقل ضد اليهود ، فقد اتخذه تحت ضغط والحاح من جانب الرهبان والقساوسة فى مدينـــة بيت المقدس ، والذين أطلعوه على الدور الفعال الذى قام به اليهود فى مساعدة الفرس فى الاســـتيلاء على المدينـــة وفى تخريبهـــا ، وفى هدم كنائسها واحراقها ، وفى قتل المسيحيين الموجودين بها (٥) وطلب منه هـــؤلاء الرهبان والقساوسة الانتقام من اليهود لفعلتهم هذه ، غير أن الامبراطور ذكر لهم ، أنه سبق أن أعطى اليهود عهدا بالأمان ، وأقسم لهم بالحفاظ على حياتهم ، وأنه لا يمكنه الحنث فى يمينه ، غير أن الرهبان والقساوسة اقنعوه بأن يمينه لايعد سببا لعدم ذبح اليهود وقتلهم ماداموا قدمكروابه، وحصلوا منه على عهد ووعد بالحفاظ على حياتهم من قبل أن يعلم بمـــا ألحقوه بالمسيحيين من أضرار هذا من ناحية ، ومن ناحيـــة أخرى وعده الرهبان بأن يكفروا عن حنثه فى قسمه ، بأن يصـــوموا هم وجميـــع

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P., 504.

(٢) Bréhier, Histoire, P. 109.

(٣) Lebeau, Histoire, du Bas-Empire, T. XI, P. 170.

(٤) Stratos, Byzantium, P. 306.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر :

Expugnationis Hierosolymae, A.D. 614, in C.S.C.O. PP. 121-24.

Couret, «La Prise de Jerusalem par les perses en 614» dans Revue de l'Orient Chretien (1897) , PP. 149-50.

المسيحين أسبوعيا كل عام على الدوام (١) وكان أن اقتنــع الامبراطور هرقل بهذا ، وأمر بالحملة على اليهود ، وبغلق معابدهم ونهب أرزاقهم فى جميع ولايات الامبراطورية ، حتى انه لم ينج منهم الا من اختفى أو هرب الى البرارى والجبال والأودية (٢) .

ومنذ ذلك الحين أرسل بطريرك بيت المقدس وأساقفته منشورا ، الى جميع الأقاليم الامبراطورية ، يؤكدون فيه على المسيحيين بصــوم سبعة أيام من كل عام غفرانا لنقض هرقل العهد وقتله اليهود ، لايزالون يدعونها أسبوع هرقل (٣) .

غير أن بعض المؤرخين المحدثين لا يقبلون هذا الاجراء الخاص بقتل اليهود وذبحهم ، وذلك لأن شخصية هرقل لم تكن تسمح له باتخاذ مثل هذا الاجراء (٤) ، فى حين يعتبر البعض الآخر أن مقتل اليهود فى عــام ٦٣٠م ما هو الا نتيجة لسجل طويل من عدم ولاء اليهود ، وخيانتهم ، وأنه كان تمهيدا لأحداث عام ٦٣٢م ، عندما أمر الامبراطور هرقل بتعميــد اليهود تعميدا فعليا فى جميــع أراضى الامبراطورية . ذلك أن شــعور الامبراطور هرقل بالخطر الذى يشكله اليهود على الامبراطورية أخــذ يتزايد ، ولم يجد حلا لمواجهة هذا الخطر سوى أن يصدر قرارا بتعميد اليهود فى الامبراطورية (٥) ، والرأى السائد أن الامبراطور هرقل اتخذ هذا القرار بتعميد اليهود فى عام ٦٣٤ م ، فى الوقت الذى بدأ فيه المسلمون

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : سعيد بن بطريق ، التــاريخ المجموع ، جـ ٢ ، ص ٥ — ٦

Expugnationis, in C.S.C.O., P. 149.

الانبا ايسيذدوس ، الخريدة النفيسـة ، جـ٢ ، ص ٩٠ .

(٢) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(٣) Expugnationis Hierosolymae, P. 149.

Expugnationis, P. 149.

بتشر ، تاريخ الامة القبطية ، ص ١٢٠ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٩٩ .

(٤) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .

Stratos, Byzantium, P. 306.

(٥) Sharf, Byzantine Jewry, P. 105.

يتقدمون نحو فلسطين وبلاد الشام (١) .

أما عن الأسباب التى دفعت الامبراطور لاتخاذ مثل هذا القرار ، فيبدو أنه أراد أن يكون جبهة قوية ضد المسلمين ، ففى عام ٦٣٤م زحف المسلمون على فلسطين ، ولم يقو حاكمها سرجيوس على الصمود وتراجع أمامهم ، وما كاد ينسحب حتى تطوع اليهود لخدمة المسلمين ، فتجسسوا لحسابهم ونقلوا اليهم المعلومات الضرورية ، واشتروا منهم ما غنموا من متاع وأسرى ، ويبدو أن ذلك أوغر هرقل عليهم ، ودفعه الى أن يصدر قراره بتعميد اليهود فى عام ٦٣٤م ، اذ أنه من الضرورى ابعاد ذلك الخطر الذى يشكله اليهود على الامبراطورية بجعلهم يعتنقون المسيحية (٢) .

ولم ينفذ قرار الامبراطور بصرامة وشدة ، لأنه بعد صدور قرار التعميد تم توقيع عقد تجارى باسم « رب ابراهيم واسحاق ويعقوب » (٣) . ومع ذلك فان عددا كبيرا من اليهود قد عمدوا وتحولوا الى المسيحية ، كما عبر الكثير منهم حدود الامبراطورية واتجهوا نحو فارس لتجنب العنف والقسوة (٤) . ويؤكد ذلك رواية كاتب الـ Doctrina Iacobi وهو معاصر للأحداث — أتى الى القسطنطينية من قرطاجة لشئون تجارية ، وعمد بالقوة ، وبعد عدة شهور من اقامته فى القسطنطينية رحل ثانية فى ١٣ يوليو عام ٦٣٤ م . كما أن المرسوم أعلن

---

(١) Sharf, Byzantine Jewry, P, 109.
Bréhier, vie et Mort, P. 54, Bréhier, La transfomation, P. 450.

(٢) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .
Starr, Byzantine Jewry, P. 288, Bréhier, Histoire, P. 110.

ويرجع ساويرس بن المقفع اتخاذ هرقل لقرار التعميد الى أنه رأى مناما قيل له فيه أن أمة مختونة سوف تقضى عليه وتبيد امبراطوريته ، فظن هرقل أنهم اليهود لذلك أمر بتعميدهم . انظر ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكندرية ص ٢٢٨ .

(٣) Starr, Byzantine Jewry, P. 289.,
Sharf, Byzantine Jewry, P. 110.

(٤) Michel le Syrien, T. II, P. 414.

فى افريقية ، ونفذه بشدة جورج George الذى عين أرخونا لافريقية ، ويذكر كاتب الـ Doctrina أسماء من كانوا على دينه وعمدوا ، كما يذكر أنه بمجرد وصوله الى افريقية ، دعا جورج جميع اليهود وعمدهم بأمر من هرقل ويقول : عندما سمعنا هذه الكلمات اعترانا خوف شـديد ولم يستطيع أى منا الاجابة ، واغتاظ الارخون لأن يهوديا يدعى نـون Noun أجاب بأن الوقت المقدس للتعميد لم يحن بعـد ، وان الارخون صفعه على وجهه وقال : اذا كنتم عبيد الامبراطور فلماذا لا تنفـذوا أوامر سيدكم ؟ ويذكر أنهم عمدوا سواء طوعا أم كرها (١) •

وكانت النتيجة الاكثر وضوحا لمرسوم هرقل وقراره بتعميد اليهود أن زادت كراهية اليهود للامبراطورية وللبيزنطيين ، هذا فضلا عن أن هذا القرار حولهم الى حلفاء للمسلمين ، فقد هرب عدد كبير منهم الى الرها ، وهناك أساءت السلطات معاملتهم ، فاضطروا الى الفرار ، ووصلوا الى جزيرة العرب ، وطلبوا مساعدة المسلمين (٢) • وأكثر من ذلك أنهم أثاروا المسلمين على البيزنطيين ، وأنهم صاروا لهم أدلاء ومرشدين على الطرق ، وأصبحوا جواسيس لهم وسماسرة ، هذا ويعبر كاتب الـ Doctrina عن مظاهر الفرح والسرور ، التى اعترت اليهـود فى قرطاجة لسماعهم أخبار الهزائم الاولى ، التى حلت بسرجيوس حاكم فلسطين البيزنطى على يد المسلمين ، ويذكر وجود اليهود فى صفوف المسلمين (٣) •

ولم يكتف الامبراطور هرقل بالاجراءات السابقة التى اتخذها ضد اليهود بل راح يعمل على استئصالهم وابادتهم ونفيهم من كل مكان حتى خارج حدود امبراطوريته • فقد أقنع الحاكم القوطى فى أسبانيا ويدعى سيسبو Sisebut بطرد اليهود واقصائهم عن بلاده ، وبالفعل اتبـع

---

(١) انظر : Bréhier, Histoire, P.110.
ومن الجدير بالذكر ان ديونيسيوس التلمحرى يروى رواية مماثلة عن تعميد اليهود ولكنه يعزوها الى الامبراطور فوقاس . انظر ما سبق ص ١٩٥ .
(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 95.
(٣) Bréhier, Histoire, P. 111, Bréhier, La transformation, P. 450.
Sharf, Byzantine Jewry, P. 110., Stratos, Byzantium, P. 307.

سيسبو النصيحة ، وقام بطرد جميع اليهود ــ الذين لم يستطع ارغامهم على التعميد من بلاده • كذلك أقنــع هرقل داجوبرت Dagobert ملك فرنسا بأن ينضم الى مشروع استئصال اليهود وابادتهم ، وحثه على أن يستخدم نفس الشدة تجاه تلك القومية التعسة (١) •

وهكذا تحول موقف الامبراطور هرقل تجاه اليهود من موقف الرجل المتعاطف معهم والمدافع عنهم الى موقف الرجل الساخط الحانق عليهم ، وذلك بعــد أن علم بما ألحقه اليهــود بالمسيحين وبكنائسهم من أضرار بالغــة •

* * *

(١) Lebeau, Histoire de Bas-Empire, T.XI, PP. 8-9.
Finlay, History of Greece, Vol. I. P. 326.

الفصل الرابع

الدولة البيزنطية والفرس
فى عصر الامبراطور هرقل

- استيلاء الفرس على مدن الشام ومصر
- استيلاء الفرس على خلقدونية ·
- استعدادات هرقل لحرب الفرس ·
- حملات هرقل ضد الفرس ·
- عودة هرقل الى العاصمة ·
- تنفيذ بنود الصلح مع الفرس واعادة الصليب المقدس ·
- نتائج حروب هرقل مع الفرس ·

ركزت الامبراطورية الفارسية الساسانية اهتمامها على التوسع نحو الشرق ، وسعت جاهدة الى فرض سيطرتها على الاقاليم الواقعة بينها وبين الامبراطورية البيزنطية وبصفة خاصة سوريا وفلسطين • وكانت أرمينية أضعف من أن تنهض بعبء الدولة الحاجزة بين القوتين الكبيرتين البيزنطية والفارسية ، لذلك اشتبكت الامبراطوريتان فى حروب دامية على الحدود الشرقية ، خاصة فى منطقة ما بين النهرين وشمال سوريا ، وكشف الصراع بين الجانبين عن أهمية هذه المنطقة فى احتكاك الفرس والبيزنطيين تجاريا وحربيا (١) •

وكانت الامبراطورية البيزنطية فى صراعها مع الفرس ، تلجأ الى الدبلوماسية والسلم حينا ، وتضطر أحيانا الى دفع الجزية ، أو تلجأ الى تحصين وتحسين وسائلها الدفاعية على الجبهة الشرقية ، لحمايتها من الخطر الفارسى • وحاول الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢–٦٠٢م) أن يتحاشى الخطر الفارسى بالمفاوضات والحلول السلمية مع الفرس ، غير أن مصرعه على يد جنوده ، مالبث أن فجر الموقف ، فقد استغل ملك الفرس الساسانى كسرى الثانى (٥٩٠ – ٦٢٨م) الكوارث الداخلية التى ألمت بالدولة البيزنطية ، والتى حدثت على أثر وفاة موريس وارتقاء خليفته فوقاس Phocas (٦٠٢ – ٦١٠م) العرش ، وشرع كسرى منذ عام ٦٠٣م فى مهاجمة حدود الامبراطورية البيزنطية ، بخطة محكمة لانتزاع أقاليمها فى الشرق ، بل وهدد العاصمة البيزنطية ذاتها ، وكانت حجته فى ذلك هى الانتقام لصديقه وحميه الامبراطور موريس (٢) ولو صح ادعاء كسرى هذا لكان مصرع فوقاس كافيا لوقف القتال بين الفرس والبيزنطيين ولكن فى الحقيقة أن كسرى أدرك خلال حروبه مع البيزنطيين مدى الضعف الذى أصابهم ، لذلك كان كلما حقق انتصارا عليهم كلما ازدادت رغبته فى التوغل فى أراضى الدولة البيزنطية ، ولعل كسرى كان يتطلع

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، انظر ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ١ ، ص ١١٤ – ١١٨ .

(٢) انظر ما سبق فى الفصل الاول ، ص ٤٥ وما يليها .

الى تحقيق حلم الاكاسرة الفرس فى الحصول على منفذ يطل على البحر المتوسط ، ليحققوا السيادة على الطرق التجارية ، وأتاحت أحوال الدولة البيزنطية السيئة ، وما سادها من فوضى واضطراب وضعف — الفرصة لكسرى لتحقيق هذا الحلم ، كما توفرت لدى كسرى — بالاضافة الى أحوال الدولة البيزنطية السيئة — مقومات تحقيق هذا الحلم ممثلة فى الجيوش المدربة ، هذا فضلا عن خزانة عامرة بالأموال ، هذا فى حين كانت الامبراطورية البيزنطية تفتقر الى كل هذا ، فليس لديها الجيش المدرب ، ولا الأموال اللازمة (١) .

استيلاء الفرس على مدن الشام ومصر :

تولى هرقل عرش الامبراطورية البيزنطية فى الخامس من أكتوبر عام ٦١٠م والفرس على مشارف الامبراطورية ، اذ استولوا على الرها وآمد وما بين النهرين ونفذوا الى آسيا الصغرى وهددوا خلقدونية ، وأصبحوا على أبواب القسطنطينية ذاتها . هذا فى الوقت الذى تعرضت فيه الامبراطورية لاغارات السلاف (الصقالبة) (٢) ولم يكن أمام هرقل من وسيلة سوى أن يلجأ الى العروض الدبلوماسية مع الفرس وأن يطلب الصلح من ملكهم كسرى . ومن أجل ذلك أرسل هرقل الرسل بهدايا عظيمة وخطابات الى الملك كسرى الثانى من أجل السلام قائلا له : « ان فوقاس الذى قتل الامبراطور موريس صديقكم ، قتلناه نحن » . وتصور هرقل أنه يستطيع بأساليب المديح والاطراء والمداهنات ، أن يخلق نوعا من المصالحة بينه وبين كسرى (٣) ولكن كسرى رفض الاستماع الى رسل هرقل ، وهدد باخضاع الامبراطورية البيزنطية لسيادته ولسلطانه ، وبجعل ثيودوسيوس Theodosus ابن الامبراطور موريس حاكما عليها

---

(١) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٢٣ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٤٤ ، السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٢) انظر ما يلى فى الفصل الخامس ، وارجع كذلك الى الفصل الاول .

(٣) Michel le Syrien, T. II, P. 400.
Bar Hebraeus, The Chronogrphy, First Part, P. 87.

واستولى على الهدايا التى أتى بها الرسل ، بل وأمر بقتلهم [١] •

وتذكر بعض المصادر أن الامبراطور هرقل لم ييــأس من رفض كسرى للسلم مقابل ضريبة أو جزية سنوية ، وأنه أرســل مكررا طلب السلام والصلح ، وفى هذه المرة أجاب ملك الفرس بصلف ووقاحة : « أنه لم يسالم النصارى ما لم ينكروا لصلوب ويعبدوا الشمس »[٢] •

واستمر الفرس فى متابعة خطتهم ، التى استهدفت انتزاع الجناح الشرقى من الامبراطورية البيزنطية ، ففى ربيــع أو بداية صيف عــام ٦١١م ، بادر القائد الفارسى شهرباراز Sahrbaraz [٣] بالتقدم نحو انطاكية — التى تعد من أكبر المدن فى أعالى الشام — مستغلا الاحوال السيئة فى هذه المدينة ، والناجمة عن الشغب والاضطرابات التى قام بها الديمات Demes ، وعن ثورة اليهود ، واستولى شهر باراز على المدينة ، وأخذ عددا كبير من الاسرى وأرسلهم الى فارس ، كما قتل الفــرس بطريرك المدينة • واستمر شهرباراز فى تقدمه فاستولى على افامية ، ثم سار الى حمص وفتحها فى أكتوبر ٦١١م [٤] •

---

(١) وانظر ايضا : Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 65.
Chronique de Jean, Evêque de Nikiou, (éd.) Zotenberg, P. 419.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 464,
Zanoras, Epitomae Historiarum Libri, T. 3, in C.S.H.B., P. 205.

(٣) شهرباراز Sahrbaraz لقب يعنى خنزير الملك ، وكان الخنزير رمزا للقوة والرجولة فى فارس • انظــر :

Patkanian, «Eassi d'une histoire de la dynastie des Sassanides» dans Journal Asiatique (1866), P. 221.

(٤) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، منشور فى P.O., T. VIII, P. 420.
وانظر ايضا :
Michel le Syrien, T. II, P. 400, Bar Hebraeus, The Chronography, F. part, P. 87, Sir persy, History of Persia, P. 482.

واستدعى كسرى قائده شاهين Sahin وأمره بالمسير نحو الغرب وذلك بهدف أن يغطى جيش شهر باراز ، الذى سار جنوبا نحو فلسطين . وليمنع الهجوم عليه من قيليقية (١) . خرج شاهين على رأس جيش فارسى آخـر وعبـر هـذا الجيش قيليقيـة ودخـل قبـادوقيا Cappadocia ونجح فى الاستيلاء على عاصمتها قيصرية Caesaria ، وقتل عددا كبيرا من أهلها واصطحب الباقى أسرى ، وعاد بهم ، وذلك فى أواخر الشتاء وبداية ربيع عام ٦١١م ، ويبدو أن الهجوم الفارسى الذى قاده شاهين ضـد قيصرية قد نسق فى مايو ٦١١م ، مع هجوم القـائد الفارسى شهر باراز على مدن الشام (٢) .

وكان طبيعيا ألا يقف هرقل مكتوف الايدى ، أمام تقدم الفـرس ، ولهذا أعد قواته ، وغادر القسطنطينية ، واتجه نحو قيصرية ، لمساعدة القائد البيزنطى الشهير بريسكوس Priscus (٣) فى محـاربة الفـرس ، وبعد أن رتب بريسكوس قواته ، قام بحصار الفرس فى قيصرية وحقق نجاحا مبدئيا ، وكان فى امكانه أن يستمر فى الحصار ، ويحقق نجاحا تاما ، اذا كانت لديه الفرصة لابادة الجيش الفارسى ، خاصة بعد أن واجهت هذا الجيش مشكلة نقص المؤن والغذاء ، ولكن بريسكوس لم يحـاول أن يستغل هذه الفرصة ، ومكن الفرس من أن يأخذوه على غرة ، ويحرقوا المدينـة ، بل ويخـرجوا منها تاركين الجيش البيزنطى مشتتا منهـزما

=

اخطأ ثيوفانيس اذ ذكر ان امامية سقطت مع الرها ، هذا فى حين ان الرها كانت قد سقطت فى عام ٦٠٩م ، أما سقوط امامية فكان فى فترة تالية .

انظـــر : Theophanis, Chronographia, P. 461.

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 65.

(٢) Festugieré (ed), La vie de Théodore de Skyéôn, T. II, P. 129, 258., Kaegi, «New evidence on the early reign of Heraclius» in Byzantinishe Zeitschrift, Vol. 66 (1973), PP. 322-23.

يذكر الراهب سيبيوس ان هجوم شاهين على قيصرية حدث فى عـام ٦١٠م .

انظـــر : Sébeos, Histoire, P. 63.

(٣) عن هذا القائد انظر الفصل الاول ص ٥٤ — ٥٥ ، ٦٠ ، ٨٢ — ٨٤

ولا عجب فى موقف بريسكوس هذا اذ من المعروف أن بريســكوس كان يراوده الأمل فى اعتلاء عرش الامبراطورية (١) •

وفى نهاية عام ٦١٢م كانت الحالة لاتزال خطيرة ، غير أن البيزنطيين كانوا قد استردوا قيصرية من الفرس ، وكان لتلك المدينة أهمية كبيرة ، اذ كانت تعد واحدة من أقوى المناطق الرئيسية فى آسيا الصغرى ، غير أن الفرس باستيلائهم على الجزء الأكبر من سوريا وخاصة انطاكية كانوا قد قطعوا وسائل اتصال الامبراطورية بفلسطين ومصر وافريقية(٢) •

وكان على الامبراطور هرقل أن يضع خطة يهدف بها الى منع شطر لامبراطورية شطرين ، وأن يتجنب الخطر الذى يهدد مصر ، ولذلك كان عليه أن يسعى الى استرداد سوريا ، وكان لابد أن يعهد بهذه المهمة الى القائد القادر على آدائها ، فوقع اختياره على فيليبكوس Philippicus (٣) صهر الامبراطور السابق موريس ، الذى تولى قيادة الجيوش البيزنطية منذ زمن طويل ، غير أن هذا القائد كان قد ارتدى ثياب الرهبان ، وترك خدمة الجيش ليخدم الكنيســة ، فما كان من الامبراطور هرقل الا أن أخرجه من الدير ، وعينه قائدا ، وأرســله الى أقاليم الشرق مع قوات عديدة وذلك ليحل محــل بريسكوس Priscus الذى اضطر للانسحاب من قيصرية (٤) •

وما ان حــل الربيــع حتى أتى شـــاهين ونزل فى ارزن الــروم Theodosioupolis واستولى عليها ، وحاصر ملطية Melitène (٥)

---

(١) Sébeos, P. 65., Kaegi, New evidance, PP. 324-25.
وعن تلك المحاولة التى قام بها هذا القائد انظر الفصل الاول ص ٨٢ — ٨٤ •

(٢) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ج ٢ ، ص ١٩٠ •
Stratos, Byzantium, P. 105.

(٣) عن هذا القائد انظر الفصل الاول ، ٥٠ — ٥١ •

(٤) Sébeos, Histoire d'Heraclius P. 66.

(٥) ملطية مدينة قديمة فى آسيا الصغرى ، وهى اليوم المدينة التركية Malatiya •
انظـــر : Stratos, Byzantium, P. 402.

واستولى عليها بعد أن أخضعها بالقوة كذلك ، ثم اندفع الى الامام حيث انضم الى جيش شــهرباراز فى اقليم بسيدى Pisidie فى جنوب آســيا الصغرى (١) •

أما فيليبكوس philippicus فبعد أن أعاد تنظيم جيشه ، اتجه نحو قيصرية فى قبادوتيا Cappadocia ، ثم عبر اقليــم أرارت Ararat فى أرمينية ، وهدد بغزو الاراضى الفارسية(٢) • وعندئذ أصدر كسرى أمرا الى قادته بمنع البيزنطيين من تهديد الاراضى الفارسية وابادتهم عن بكرة أبيهم • وحاول قادة الجيش الفارسى أن يقطعوا الطــريق على فيليبكوس وجيشه ، فسلكوا طرقا وعرة ، مما أدى الى هلاك الكثير من رجالهم ، هذا فضلا عما فقدوه من خيول • وكانت النتيجة أنهم لم يتمكنوا من ملاحقة الجيش البيزنطى بالسرعة التى تصوروها ، و لاكثر من ذلك أن جيشهم بعد عن الميدان ، هذا فى الوقت الذى حقق فيه فيليبكوس هدفه ، وعاد الى الاراضى البيزنطيـــة متخــذا طــريق قيصرية — ارزن الــروم Theodosioupolis-Caesaria (٣) •

أما الجيش الفارسى الذى لم يتمكن من ملاحقة البيزنطيين ، فبعد أن أخذ قسطا من الراحة ، عاد وسار ثانية حتى وصل الى اقليم انطاكية ، فى الوقت الذى وصل فيــه الامبراطور ومعــه ابن عمه نيقتاس واخوه ثيودور Theodorus على رأس جيشه الى هذا الاقليم • ودارت معركة دامية أمام أبواب انطاكية فى عام ٦١٣م حتى أن دماء المحاربين جرت أمواجا أسفل أسوار انطاكية » (٤) • وبعد أن أنهك التعب الجانبين توقف

---

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 68.

(٢) Ibid, P. 66.

اقليم ارارات ، أحد الاقاليم الارمينية الكبيرة ، يقع فى وسط أرمينية بين بحيرتى فان Van وشيفان Chevan وأشهر مدنه Erivan

انظــر : Stratos, Byzatium, P. 391.

(٣) Sébeos, PP. 66-67.

Féstugiere (ed) La vie, T. II P. 157.

(٤) Sébeos, P. 67.

القتال ، وعجز البيزنطيون عن استكمال ما حققوه من انتصار ، بسبب ما تعرضوا له من خسائر ، فضلا عن نقص المؤن ، أما الفرس فقد حصلوا بسرعة على الامدادات ، ولهذا قاموا بضربة مضادة وبقوات كثـيرة ، وهزموا البيزنطيين الذين اضطروا الى الانسحاب نحو قيليقيه ، وهناك رتبوا لصد الفرس مؤقتا ، غير أن الفرس صفوا لهم هناك أعدادا كبيرة من الجنود المسلحين ، ولهذا لم يكن أمام البيزنطيين سوى الانسحاب • وانسحب الامبراطور هرقل تاركا قيليقية تسقط فى يد الفرس ، وعاد الى القسطنطينية بخفى حنين [1] •

ونتيجة لاخفاق هذا الجهد الذى قام به الامبراطور هرقل فى عـام ٦١٣م أصبح الطريق مفتوحا أمام الفرس ، للاستيلاء على باقى سوريا وفلسطين ، بل ومصر • ونجح شهرباراز Sharbaraz بالفعل فى الاستيلاء على دمشق عام ٦١٣ م ودخل فلسطين حوالى نهاية هذا العام وبداية العام التالى ، واستولى على جميع المدن الساحلية بدون مقاومة [2] •

وساعد شهرباراز على أن يحقق هذا النجاح ويصل اليه بسهولة وبدون أدنى جهد أو مقاومة — الاوضاع السيئة داخل سوريا وفلسطين ، ممثله فى تمرد اليهود ونزاعهم مع المسيحيين ، ثم النزاع بين الاحـزاب السياسية ، ومن ناحية أخرى الحالة الدينية التى كانت عليها تلك الاقاليم ، فقد كان غالبية سكان سوريا على المذهب المونوفيزيتى ، ولم يدينـوا بمذهب الحكومة المركزية أى المذهب الارثوذكسى الرسمى ، ولهذا كثيرا ما تعرضوا لضغط الحكومة البيزنطية واضطهادها • ولهذا كان من الطبيعى أن يفضل المونوفيزتيون الخضوع للفرس ، وأن يكونوا سعداء لخضوع الدولة البيزنطية وهزيمتها • أما بالنسبة لفلسطين فكانت الحالة مماثلة ، على الرغم من أن أهلها كانوا يدينون بالمذهب الارثوذكسى ، وكانو أشبه

(١) Sébeos, Histoire, P. 67.

(٢) Ibid, P. 68., Expugnationis Hierosolymae, A.D. 614 in C.S.C.O. Scriptores Arabici, T. 26., Theophanis, Chronographia in C.S.H.B., P. 463, Michel le Syrien, Chronique T. II, P. 400.

بأصدقاء للحكومة البيزنطية وعلى عقيدتها ، الا أن النزاع بين المسيحيين واليهود فى تلك المدينة ، جعل الدفاع عنها من الامور الصعبة كذلك ، فضلا عن أن جيشها كان صغيرا جدا ويفتقر الى الخبرة والتدريب (١) ٠

تابع شهرباراز مسيره وذهب تجاه بيت المقدس ، وكان لبيت المقدس وضعها الخاص عند المسيحيين ، ونتيجة لحبهم لهذه المدينة ، وعناية الاباطرة الدائمة بها والبطاركة بتزينها ، فقد تجمعت فيها ثروات ضخمة ، ويبدو أن ذلك أثار حماسة الفرس للاستيلاء عليها حتى من قبل عصر كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨م) ، خاصة ان الفرس كانوا مدركين تماما أنه بسقوط قلعة هذه المدينة سوف تسقط الدولة البيزنطية ويتقلص نفوذها (٢) ٠

وفى حين أكد كل من الانبا اسطراط ومؤلف الحوليات الفصيحة Chronicon - Paschale — وهما مصدران معاصران — أن العام الذى استولى فيه الفرس على بيت المقدس هو عام ٦١٤م ، يذكر الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos أن فتح بيت المقدس كان فى السنة الخامسة والعشرين من حكم كسرى ابرويز ، وهى توافق النصف الثانى من سنة ٦١٤م والنصف الاول من سنة ٦١٥م ويبدو أن هذا هو الذى جعل المؤرخين المتأخرين أمثال ثيوفانيس Theophanis ومحبوب المنبجى ، وميخائيل السريانى ، وابن العبرى ، يذكرون فتح بيت المقدس فى عام ٦١٥م (٣) ٠ وازاء ذلك انقسم المؤرخون المحدثون أيضا ، فمنهم من ذهب

---

(١) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 238,
(٢) Stratos, Byzantium, P. 107.

(٣) Expugnationis Hierosolymae, P. 120, Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 704., Sébeos, P. 68, Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 463., Michel le Syrien, T. II, P. 400, Bar Hebraeus, The chronography, F. Part, P. 87.

محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ص ٤٥١ ، ١٩١ . ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٩١ ٠

الى أن فتح الفرس لبيت المقدس كان فى عام ٦١٤م[١] ، ومنهم من ذكر أنه تم فى عام ٦١٥م (٢) •

ويقال أن شهرباراز Sharbaraz أراد الاستيلاء على المدينة سلميا فيرى الانبا اسطراط أنه عندما تقدم كبار القواد الى المدينة ، ونظـروا اليها والى الديارات التى كانت حولها ، ارادوا أن يصالحوا أهلها ، عنـد ذلك أدرك البطريرك زكريا — بطريرك بيت المقدس — أنه من الضرورى عقد الصلح ، غير أن أهل المدينة اجتمعوا مع البطريرك ، ورفضوا مصالحة العدو ، فما كان منه الا أن أمر بجمع عساكر الروم ليكونوا لهم عونا فى حربهم للفرس (٣) •

ويرى سيبيوس Sébeos أن شهرباراز أرسل من مقره فى قيسارية بفلسطين الى أهل بيت المقدس يدعوهم للاستسلام والتسليم ، على أن ينعموا لقاء ذلك بالسلام والرخاء ، وخضع أهل المدينة جميعـا فى أول الأمر ، بل قدموا هدايا كثيرة للقائد الفارسى وللامراء الفرس ، وطلبوا من القائد بعض الحرس الفارسى لحماية المدينة وحراستها ، وبالفعل وضع الحرس الفارسى على المدينة • ولكن بعد عدة شهور وثب أهل المدينـة وشبابها على الحرس الفارسى وقتلوهم ، ثم أغلقوا أبواب المدينة ، وحدث قتال بين المسيحيين واليهود من أهل بيت المقدس ، أباد فيه المسيحيون اليهود ، أما من بقى من هؤلاء اليهود فقـد وقف الى جانب الفـرس وساندهم (٤) •

وجمع شهرباراز قواته وشرع فى حصار مدينة بيت المقدس ، بعد أن رأى أنه لا جـدوى من الاستيلاء عليهـا بدون قتال ، ونصب آلاته

---

(١) Vasiliev, History, I, P, 237, Bréhier, Vie et Mort de Byzance, P. 49.

(٢) Diehl, History of the Byzantine Empire, P. 41, Sir Persy, History of Persia, P. 482., Patkanian, Eassi d'une histoire de la dynastie des Sassanides, P. 212.

(٣) Expagnationis Hierosolymae in C.S.C.O., PP. 68, 116-17.

Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 68.

ومعداته ، وأقام المنجنيقات لقتال أهل المدينة وبدأ الحصار ، وظل الفرس يضربون المدينة بالمنجنيقات خلال مدة الحصار التي امتدت الى نحو تسعة عشر يوما (١) • وعلى الرغم من ذلك فقد قام أهل المدينة بدفع العديد من الفرس بعيدا عن الاسوار الضخمة عند اقترابهم ، وصـــدوهم بشجاعة بسيل من الحجارة والسهام ، وبعد معارك طويلة ، حفر الفرس سراديب أسفل الاسوار ، ودعمُوها بالخشب ، وأشعلوا فيها النيران عند لحظة معينة ، فانهـــارت الاسوار ، ودخل الفـــرس المدينة ، وهرب من كانوا يحرسون الاسوار ، واختفوا فى الجبال ، كما لجأ كثير منهم الى الكنائس للاحتماء بها (٢) •

استولى الفرس على المدينة ، وأبادوا خلال ثلاثة أيام عددا كبيرا من سكانها ثم أشعلوا فيها النيران • وتروى المصادر وعلى رأسها الانبا اسطراط أن الفرس كانوا يقتلون كل من يلقوه من أهل المدينة بحقد شديد وبلا رحمة ، وأنهم لم يتركوا يومئذ شيخا ولا شابا ولا امرأة ولا صبيـــا ولا راهبا ولا عذراء ، بل انهم دخلوا ديرا يقال له دير العذارى — يقع الى الشرق من المدينة المقدسة — وكان به ما يقرب من أربعمائة راهبة ، فتعرض الفرس لهؤلاء الراهبات ، وجعلوا يتقاسمونهن فيما بينهم (٣) •

عمل الفرس على تخريب الكنائس والهياكل ، وأشعلوا النيران فى كنيسة القيامة وسلبوها كنوزها ، وأشـــعلوا النيران كذلك فى كنيســـة القديس ستيفن St Stephen ولم يفلت من أيديهم سوى كنيسة المهد

---

(١) يذكر سيبيوس Sébeos ان مدة الحصار كانت تسعة عشر يوما ، أما الانبا اسطراط فيروى أنها كانت عشرين يوما . انظر :

Sébeos, P. 68., Expugnationis, in C.S.C.O., P. 69.

(٢) Expugnationis, P. 69., Sébeos, P. 68., Chronicon Anonymum (ed.) Guidi, in C.S.C.O., Scriptores Syri, T. IV., P. 22.

وانظر أيضا مرثية القديس صفرونيوس المنشورة فى :

Couret, La prise de Jerusalem, PP. 142-43.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر :

Expugnationis, in C.S.C.O., PP. 120-21., 125-26.

فى بيت لحم ، وذلك بسبب ما كان يعلو بابها من فسيفساء تمثل صـــورة الحكماء القادمين من الشرق فى ثياب فارسية [١] .

وهكذا عانت مدينة بيت المقدس من وحشية الفرس ، ومن نهبـــهم وسلبهم لها ، ومن قتلهم لسكانها ومن اشـــعال النيران فيها ، وقـــدر المؤرخون عدد القتلى بما يتراوح بين ٥٧ ألفـــا [٢] و ٩٠ ألفـــا [٣] . اما الاسرى فقد قدروا عددهم بـــ ٣٥ ألفـــا [٤] . ومما لاشك فيـــه أنهم يبالغون فى ذلك .

أسر الفرس البطريرك زكريا ، بطريرك بيت المقدس ، واجبروا عددا من رجال الدين على الادلاء بمـــكان الصليب المقدس ، وعذبوهم حتى دلوهم عليه ، وكان محفوظا فى جبل الزيتون فى عدة صـــناديق مع كنوز أخرى [٥] وبعد أن استولى الفـــرس على عود الصليب ، جمعوا الاموال والمجوهرات والذهب ، وما عمرت به المدينة من كنوز ، وحملوها الى كسرى مع الاسرى ، الذين تجمعوا فى جبل الزيتون [٦] .

ويقال ان كسرى ارسل الصليب وما معه من آنية أخرى الى بيت خـــاص بالكنـــوز ، كان قد أقامه فى طيســـفون Ctesiphon (المدائن) على الشاطىء الشرقى لدجلة [٧] . أما الاسرى فقد أمر كسرى بالاحسان

---

(١) Chronicon Anonymum (éd) Guidi, P. 23., Vasiliev, History, Vol. I. P. 237., Bréhier, Histoire de l'Eglise, PP. 80-82., Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T. XI, P. 12, Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 86, Stratos Byzantium, P. 109.

(٢) Sébeos, Histoire, P. 69.

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 463, Cedrenus. Historiarum Compendium in C.S.H.B., P. 715, Zanoras, Epitomae Historiarum Libri, T. III., P. 208., Michel le Syrien, T. II; P. 400, Bar Hebraeus, The Chronography, First part, P. 87.

(٤) Sébeos, Histoire, P. 69.

(٥) Chronicon Anonymum, in C.S.C.O., P. 22.

(٦) Expugnationis in C. S. C. O., P. 135.

(٧) Chronicon Anonymum, P. 22.

اليهم والرفق بهم ، وباعادة كل منهم الى مكانه ، كما أمر باعادة بنـــاء المدينة • ونفذ الأمر الملكى فى الحال ، بل ان الفرس عينوا مودســـتوس Modestos (١) بطريركا على بيت المقـــدس ، وسمحوا له بأن يعيــــد بناء الكنائس والاديرة التى خربت وتهدمت ، وجاء فى خطاب لمودستوس أرسله الى رئيس أساقفة ارمينية ، لقد عادت كل كنائس بيت المقـــدس الى سيرتها الأولى ، تصلى فيها القسس ، ويسود الســـلام مدينـــة الله وما حولها (٢) •

ومن نتائج سقوط مدينة بيت المقدس فى يد الفرس عام ٦١٤ م ، لن وفدت الى مصر وبصفة خاصة الى الاسكندرية أفـــواج من المسيحيين اللاجئين ، وكرس بطريرك الاسكندرية يوحنا الرحوم أو المتصدق كافة موارده لتقديم المساعدة والعون لهؤلاء اللاجئين الفارين من الفرس ، وبذل فى سبيل اعادة الكنائس الى بيت المقدس الى سابق عهدها مقادير وافرة من المعادن والدواب ، ومن القمح والخضر والسمك الملح و لنبيذ والحديد ، فضـــلا عن الصناع ، ولما كانت الكنيسة ليس لديهـــا موارد كافية ، فقد طلب من أغنياء الاسكندرية المساعدة ، وبدأ بنفسه ، اذ أرسل النقود والطعام والملابس الى بيت المقدس ، وافتدى الرهبان والراهبات الذين اعتقلوا فى أديرة المناطق المختلفـــة (٣) • وأكثر من ذلك أرســـل البطريرك يوحنا المتصدق فى عام ٦١٤م كل من ثيودور أسقف اماثوس Amathus فى قبرس ، وجورج اســـقف العـــريش ، واناستاسيوس Anastasius رئيس دير القديس انطون فى سيناء ، ارســـلهم الى فلسطين بأموال وفيرة لفداء الاسرى ويقال انه فى سبيل تـــقديم تلك

---

(١) كان مودستوس قسا لدير القديس ثيودور St. Theodore وواحدا من المهتمين باصلاح وتجديد وعمارة الاماكن المقدسة .
انظر : Sébeos, P. 70., Note 4.

(٢) Sébeos, P. 70.

(٣) العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٣٨٧ .
Stratos, Byzantium, p. 112.

المساعدات الجليلة لاهل بيت المقدس انفق مما لديه مائة الف قطعة ذهبية من كنوز الكنيسة (١) .

وكان لسقوط مدينة بيت المقدس فى يد الفرس عام ٦١٤ م ابلغ الاثر على الامبراطورية البيزنطية ، بل على المسيحية أيضا ، وكذلك على المدينة ذاتها . فبالنسبة للامبراطورية البيزنطية كان لهذا الحدث الاثر المدمر عليها ، كما كان له رد فعل فى القسطنطينية ، فقد انزل الفرس بالبيزنطيين قادة العالم المسيحى لطمة قاسية ، باستيلائهم على تلك المدينة المقدسة ، اذ اضحت تلك المدينة المرتبطة بأصول الديانة المسيحية فى ايدى الفرس الوثنيين ، الذين أمضوا فى الحط من هيبة الامبراطورية أمام العالم المسيحى بنقلهم صليب الصلبوت — الذى كان موضع احترام المسيحيين كافة وفى كل مكان ، والذى كانوا ينظرون اليه على أنه أثمن الكنوز تداسة فى العالم المسيحى — الى عاصمة بلادهم طسيفون Ctesiphon على الشاطىء الشرقى لنهر دجلة (٢) . وعم القسطنطينية شعور عميق بالأسى والحزن ، بل وعم هذا الشعور المسيحية جمعاء ، اذ كانت هذه أول مرة تقع فيها المدينة المقدسة فى يد غير مسيحية ، ولقد آثار هذا الحدث فى القسطنطينية فزعا حقيقيا ، وراح أهل القسطنطينية يغرقون بدموعهم ما نجح البطريق نيقتاس — ابن عم الامبراطور هرقل وحاكم مصر من قبله — فى انقاذه من آثار التعذيب ، ممثلة فى الاسفنجة والرمح الذى اخترق جانب السيد المسيح ، وكان نيقتاس Nicetas قد انتزع هذين الاثرين من يد جندى فارسى مقابل مبلغ كبير من المال ، ثم أرسلهما الى القسطنطينية (٣) .

---

(١) العرينى ، مصر ، ص ٣٨٧ .

Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 82., Stratos, Byzantium, P. 112.

(٢) العدوى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٤ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٨ .

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 86.

(٣) Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 82., Lebeau, Histoire de Bas Empire, T. XI, P. 12; Stratos, Byzantium, P. 111.

عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٧ .

وبالنسبة لمدينة بيت المقدس ، فان ما ترتب على فتح الفرس لها من تخريب وتدمير ونهب وسلب ، يعتبر نقطة تحول فى تاريخ هذه المدينة • اذ أصبح من غير الممكن أن تعود هذه المدينة ثانية لما كانت عليه من ازدهار ، فلن تعود اليها تلك المبانى الرائعة داخل أسوارها ، فقد ازال الفرس تلك المبانى وجعلوها هى والارض سواء • فضلا عن ذلك فقد قضت حملة الفرس على بيت المقدس على معالم المدينة اليونانية الرومانية ، وافسدت الزراعة ، وخربت المدينة ، ودمرت العديد من أديرتها وكنائسها ، كما شلت حركة التجارة تماما (١) •

ويضاف الى ذلك كله أن حملة الفرس على بيت المقدس تسببت فى اضعاف هيبة البيزنطيين أمام جيرانهم العرب ، وشجعتهم على مهاجمة الأراضى البيزنطية بعد أن تحرروا من الخوف الذى يتحكم فيهم ، بل اتحدت القبائل العربية فيما بينها ، وأصبح فى امكانهم القيام بهجوم عام فيما بعد عند ظهور الاسلام (٢) •

ولا يجب أن يغفل الباحث هنا الدور الذى لعبه اليهود فى مساعدة الفرس فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ٦١٤ م ، وبخاصة من كان يعمل منهم كجنود فى الجيش الفارسى ، وكان هؤلاء اليهود من مدن فلسطين المختلفة من طبرية ، ومن الناصرة، ومن الجليل ، ومن قيسارية ونابلس ومدن أخرى ، فاستخدمهم الفرس كأدلاء ومرشدين لهم ، وتعاون اليهود مع الفرس تعاونا كاملا ، ولقاء ذلك ولقاء تطوعهم فى الجيش الفارسى ، تمتع اليهود بحماية الفرس (٣) •

---

(١) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٨ .
Vasiliev, History, I, P. 238.

(٢) العرينى ، الدولة ، ص ١١٩ ، عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ص ٦٦ — ٦٧ .
Vasiliev, History, I, P. 238.

(٣) Stratos, Byzantium, P. 108.
ولمزيد من التفاصيل انظر الفصل الثالث .

وبفضل مساعدة اليهود دخل الفرس المدينة المقدسة وشقوا طريقهم داخلها وتروى المصادر أن اليهود قتلوا مع الفرس من النصارى المسيحيين مالا يحصى عددهم ، بل واشترك اليهود مع الفرس فى احراق الكنائس ودور العبادة المسيحية (١) • ودبر اليهـود مؤامرة استهدفت هدم قبر يسوع المسيح ولكن كان لهذا العمل أثره العكسى على الفرس ، اذ عندما علم القائد الفارسى بمؤامرة اليهود ، طردهم شر طردة ، واخبر كسرى فأمر بنهب أموال اليهود وصلبهم (٢) •

وبعد ثلاث سنوات من الاستيلاء على بيت المقدس ، أى فى عـام ٦١٧م ، منع الفرس اليهود من البقـاء فى مدينة بيت المقدس أو حتى الاقامة فيها ، ويذكر ميخائيل السريانى أن الفرس أسروا بعض اليهود ، ولم يسمحوا لهم بالبقاء فى بيت المقـدس ولا فى الاقليم كله أى فى فلسطين (٣) ، ويتضح من هذا أن هنـاك بعض الغموض فى موضـوع علاقة الفرس باليهود ، فلا يعرف لمـاذا حدث خلاف بينهما وهل كان هناك ضغط من المسيحيين فى فارس على كسرى ؟ أم كان هذا الخـلاف بين الفرس واليهود نتيجة لضعف اليهود فى مقابل ادعاءاتهم ومطالبهم المستمرة ؟ وعلى هذا النحو لا يعرف على وجه التحـديد لماذا سـاءت علاقة الفرس باليهود حتى طردوهم من بيت المقدس بل من فلسطين كلها •

كان فتح الفرس لمدينة بيت المقدس آخـر فتوحاتهم فى بـلاد الشام ، وكان طبيعيا أن يستمر الفرس بعد ذلك فى متابعة خطتهم التى استهدفت انتزاع الاقاليم الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية ، وأن يتموا فتوحاتهم بالاستيلاء على مصر • لذلك بعد أن أكمل الفـرس

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جا ، ص ٢٦ ،

Cedrenus, Historiarum, T.I. in C.S.H.B., P. 715. Michel le Syrien, II. P. 400.

(٢) Chronicon Anonymum, in C.S.C.O., P. 23.

(٣) Michel le Syrien, T.II, P. 400, Stratos, Byzantium, P. 111

استعداداتهم الحربية حوالى نهاية خريف أو شتاء عام ٦١٦ م ، بدأوا فى المسير نحو مصر عن طريق غزة والصحراء ، فاستولوا أولا على العريش (رينوقولورا Rhinokulura) ثم على بلوزيوم (الفرما) بدون عناء ولا مشقة ، وخرب الفرس كنائسها واديرتها ، ثم استولوا على ممفيس وأخذوا طريقهم الى بابليون ، غير أنه لم يرد ذكر فى المصادر عن اخضاع الفرس لهذه المدينة الحصينة أو لاستيلائهم عليها .

ولسوء الحظ فان المعلومات الخاصة بهذه الحملة قليلة ، حتى ان اسم قائد تلك الحملة موضع خلاف بين المؤرخين ، فمنهم من يذكر أنه شهر باراز Sharbaraz (١) ومنهم من يذكر أنه شاهين (٢) ، ويضاف الى ذلك أن الجزء المتعلق بتاريخ هذه الفترة مفقود فى مخطوطة يوحنا النقيوسى .

سار جيش الفرس برا بعد فتح ممفيس ، يساعده أسطول عظيم فى نهر النيل واتجه الفرس نحو مدينة الاسكندرية متتبعين الشاطىء الغربى للنيل عن طريق الفرع الكانوبى (٣) ، حتى وصلوا الى بوابات الاسكندرية ، وشاع الاضطراب والفزع فى المدينة عند سماع نبأ اقتراب الفرس منها ، غير أن مدينة الاسكندرية كانت من المناعة والحصانة ما جعلها تصمد فى مقاومتها للفرس ، فقد كانت المدينة محاطة بالاسوار ، وكان لها أبواب حصينة (٤) .

---

(١) Michel le Syrien, II, P. 401, Bar Hebrareus, The Chronography, P. 87., Sir Persy, History of Persia, P. 482, Stratos, Byzantium, P. 113.

حسن بيرنيا ، تاريخ ايران القديم ص ٢٧٢ .

(٢) Nicephorus, Breviarium Rerum Post Mauricium Gestarum, in C.S.H.B., P. 10.

الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ، ١٨٢ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٥٣ ، العرينى ، مصر البيزنطية ص ٣٨٧ .

(٣) أنظر عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية ص ١١ — ١٨ .

(٤) Chronicon Anonymum (éd.) Guidi, in C.S.C.O., P. 22.

وتحتم على الفرس حصار تلك المدينة الحصينة ، التى لا يجدون فيها مطمعا ، وفى أثناء الحصار كان الفرس يهاجمون المناطق المحيطة بالمدينة من الريف ، ولاسيما ما فيه من الاديرة ، ويشفون بذلك ما فى نفوسهم من الغيظ لفشلهم أمام مناعتها وصمودها • فيذكر ساويرس ابن المقفع أنه كان بأطراف المدينة ستمائة دير عامرة ••• يعيش فيها الرهبان فى آمن وبلا خوف ولكن احاط بهم الفرس ، وقتلوهم جميعا بالسيف الا عددا قليلا منهم ، ونهب الفرس ما حوته هذه الاديرة من اموال وآنية ، ثم هدموا تلك الاديرة ، وتركوها خاوية على عروشها (١) •

تم للفرس الاستيلاء على مدينة الاسكندرية بالخيانة والخديعة اذ يروى صاحب التاريخ السريانى المجهول أن الفرس حاصروا المدينة لمدة طويلة ، ولم يستطيعوا فتحها ، وعندئذ خرج لهم المدعو بطرس Petrus — وكان قد قدم الى الاسكندرية منذ طفولته للدراسة — ووعد قائد الفرس بأن يسلمه هذه المدينة وكان بطرس هذا قد وجد فى أحد الكتب ما يلى :

« اذا ما اشتد الضيق فى الاسكندرية فسوف تسقط من الباب الغربى المطل على البحر » • ويبدو أن بطرس دل الفرس على ذلك ، فاستعدوا وركبوا مراكب الصيد وفى الفجر والظلام لازال مخيما ، استتروا فى مراكب الصيد هذه ، واختلطوا بالصيادين ، ودخلوا المدينة ، وذبحوا حرس الابواب وفتحوها لزملائهم • وحاول بعض أهل الاسكندرية الهروب من المدينة عن طريق البحر ، ولكن الرياح دفعت بالسفن ، التى كانت تحمل كنوز الكنيسة وأموال أهل المدينة ، الى معسكر الفرس ، فأرسلوها الى كسرى مع مفاتيح المدينة (٢) ، وذلك فى السنة الثامنة والعشرين من

---

(١) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطارقة الاسكندرية ، ص ٢٢١ .

(٢) Chronicon Anonymum, in C.S.C.O., PP. 22-23.

حكم كسرى (٦١٨ — ٦١٩م) (١) • ويتضح من هذه الرواية أن مدينة الاسكندرية فتحت عنوة وبالخديعة والخيانة •

عامل الفرس أهل الاسكندرية بقسوة وعنف ، فيذكر ساويرس أن الوالى الفارسى نائب كسرى ومقدم الحرب •• أمر كل شاب فى مدينة الاسكندرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ — ٥٠ عاما أن يخرجوا ليأخذوا عشرين دينارا ، وعندما اجتمع شباب المدينة ، كتب اسماءهم ، وهم يظنون أنهم يأخذون العطية التى وعدهم بها ، ولكن عندما علم بخروجهم جميعا ، أمر جيشه أن يحيط بهم ويقتلهم جميعا بالسيف ، وبلغ عدد من قتلهم ثمانية ألف رجل (٢) •

ويرى بتلر أن الفرس ان كانوا قساة ، فان شريعة الحرب عندهم لا تبيح لهم أن يقتلوا أهل مدينة سلمت لهم بغير قتال ، ويرى كذلك أنه من المضحك ما جاء فى رواية ساويرس من ذكر الوعد ، الذى وعده القائد باعطاء المال ، وكذلك كتابة أسماء ثمانية آلاف من الشباب تمهيدا لقتلهم ، ويستبعد بتلر فى نفس الوقت أن يكون ساويرس ذلك المؤرخ المصرى مخطئا كل الخطأ ، وهو الذى يقيم فى مصر ويعرف أخبارها (٣) •

حقيقة أن رواية ساويرس تنم عن روح القسوة والعنف التى عامل بها الفرس أهل الاسكندرية ، كما تظهر مدى كراهية ساويرس للفرس ، غير أن ما جاء بها بشأن كتابة أسماء ثمانين ألف تمهيدا لقتلهم ليس بالأمر المضحك كما ذهب بتلر ، بل من المحتمل أن الفرس لجأوا الى هذه

---

(١) الطبرى ، الرسل ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 10., Michel le Syrien, II P. 401, Vasiliev, History, I, P. 239.

(٢) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكندرية ، ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٥٦ — ٥٧ .

الوسيلة كنوع من الحيلة والخديعة ، هذا وان كانت تلك المقتلة ، التى ذكرها ساويرس مبالغا فيها ، ولم يرد لها ذكر فى الرواية السريانية عن فتح الاسـكندرية ولكن هذا لا يمنع أن الفرس تصرفوا بوحشية خلال السنوات الأولى من الاحتلال •

أما نيقتاس Nicetas حاكم مصر،فما أن علم بسقوط الاسكندرية فى يد الفرس حتى خارت شجاعته ، وعزم على الفرار ، وسلم الادارة الى قائد الجيش اسحق Issac وابحر على ظهر سفينة ، كما اكتشـف بطريرك الاسكندرية يوحنا المتصدق مؤامرة لاغتياله فقرر بدوره أن يذهب بعيدا ، وقد تبع هذا السلوك السىء عدد كبير من الموظفين الرسمين ، الذين شحنوا ثرواتهم فى السفن ، ولكن الفرس نجحوا فى الاستيلاء على هذه السفن بما فيها ، وما كان منهم الا أن أرسلوا الموظفين بكنوزهم وثرواتهم الى كسرى [1] •

أبحر نيقتاس ومعه يوحنـا المتصـدق بطريرك الاسـكندرية الى القسطنطينية ولكن عندما وصلا الى جزيرة رودس سقط يوحنا فريسـة للمرض ، فعاد ثانية الى قبرص ، حيث مات فى نفس المـكان الذى ولد فيه وهو اماثوس Amathus • والواقع أنه لم يكن أمام نيقتاس سوى الهرب ، فلم يكن لديه سوى قليل من الرجال ، فضلا عن كونهم غـير مدربين ، وليس لديهم خبرة بفنون الحرب والقتال ومن ناحية أخـرى لم يكن أهل الاسكندرية على استعداد لمـد يد العون له لمواجهة الفرس ، نظـرا لكراهيتهم لكل ما هو بيزنطى ، ورغبتهم فى التخلص من الحكم البيزنطى فضلا عن أن القمح لم يعد يصل الى مدينة الاسكندرية من ريف مصر ، ولهذا لجـأ يوحنا المتصدق الى استيراد القمح من صقلية ، غير أن ذلك لم يكن كافيا فلما طال أمد الحصار ونفذت الاقوات ، ولم يأته

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٢٢ •

المدد من قبل هرقل ، ايقن الناس أنه لابد لهم من الاستسلام ، ولم يستطيع نيقتاس أن يفعل شيئا أمام ذلك سوى الرحيل (١) •

تابع الفرس تقدمهم ، فاستولوا على صعيد مصر دون مقاومة تذكر ، وبلغوا فى فتوحاتهم اطراف وادى النيل حتى أسوان ، غير أنهم لم يتخلوا عن سياسة العنف والقسوة تجاه المصريين ، فعندما وصل القائد الفارسى مدينة نقيوس (ابشادى مركز تلا بمحافظة المنوفية) أخبره قوم بالمدينة عن جماعة من الرهبان ، يعيشون فى الجبال ، يقدر عددهم بسبعمائة راهب ، وان لديهم أموالا كثيرة ، وانهم يحتمون فى حصن ، فأرسل القائد الفارسى جيشه ، فأحاط بهم وحاصرهم فى الليل ، وما ان اشرقت شمس الصباح حتى اقتحم عليهم الحصن وقتلهم جميعا ولم يبق أحد منهم (٢) •

أحدث فتح الفرس لمصر والاسكندرية أثرا بالغا فى العالم آنذاك ، فقد عادت مصر الى ظل السيطرة الفارسية ، بعد فترة تزيد على التسعة قرون ، وكان الملوك الساسانيون يطمعون دائما فى أن يمدوا حدود ايران الى ما كانت عليه أيام الهخامدتشيين Achaemenides ومن ثم فقد زادت حملة الفرس هذه على مصر والاسكندرية من النفوذ الفارسى بدرجة كبيرة (٣) • كما كان سقوط الاسكندرية والاستيلاء على مصر ذا وقع شديد على البيزنطيين ، فالاسكندرية كانت مركزا ثقافيا كبيرا ، فضلا عن كونها ميناء عظيما على البحر المتوسط ، كما أن مصر كانت مخزن غلال القسطنطينية وبضياعها توقفت امدادات القمح المصرى ، مما

---

(١) بتلر ، فتح العرب ، ص ٥٩ .

Stratos, Byzantium, PP. 111-13, 284.

العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٣٨٨ .

(٢) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكندرية ، ص ٢٢٢ .

(٣) حسن بيرنيا ، تاريخ ايران القديم ، ص ٢٧٢ .

Sir Persy, History of Persia, P. 482, Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 86.

كان له أبلغ الاثر على الاحوال الاقتصادية فى العاصمة البيزنطية (١) .

محاولة الفرس الاستيلاء على خلقدونية :

وبينما كان الفرس يتقدمون فى مصر ، وعلى رأسهم شهر باراز ، دخل جيش فارسى آخر آسيا الصغرى تحت قيادة شاهين (٢) ، وتاريخ غزو الفرس لآسيا الصغرى موضع خلاف بين المؤرخين كذلك ، فبينما يجعله مؤلف الحوليات الفصحية Chronicon Paschale فى عام ٦١٥م ، فان ثيوفانيس Theophanis يجعله فى عام ٦١٦م وكذلك نيقفوروس Nicephorus أى فى نفس الوقت الذى تم فيه غزو مصر (٣) .

يتضح مما سبق أن الفرس وضعوا خطة استهدفت وضع الامبراطورية البيزنطية بين شقى الرحى ، ففى الوقت الذى غزا فيه شهر باراز بجيشه أقاليم الامبراطورية الشرقية ، ونجح فى الاستيلاء على معظم بلاد الشام ومصر ، نجد شاهين يدخل بجيشه آسيا الصغرى ، وينجح فى الوصول الى خريسبوليس Chrysoupolis (سكوتارى الآن) بل ويقيم معسكره فى خلقدونية ، التى تقع على بحر مرمرة بالقرب من البوسفور ، وفى مواجهة العاصمة البيزنطية ذاتها ، بل اراد شاهين أن يعبر البوسفور ويستولى على القسطنطينية نفسها (٤) .

---

(١) Vasiliev, History, I, P. 239, Ostrogorsky, History, P. 86., Stratos, Byzantium, P. 114.

(٢) يذكر المؤرخون الارمن وعلى رأسهم سيبيوس خطأ أن قائد الجيش هو شهر باراز وليس شاهين ، ويخالفهم المؤرخون البيزنطيون فى ذلك . انظر :

Sébeos, Histoire, d'Heraclius, P. 77, Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 706, Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 10.

(٣) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 706, Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 464, Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 10.

(٤) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 706, Sébeos, Histoire, P. 77.

وكان استيلاء شاهين على خلقدونية يشكل أقصى درجات الخطورة على العاصمة البيزنطية ، خاصة أن الفرس تمكنوا من الاقامة بها ، وعاش أهل القسطنطينية فى قلق وذعر ، خاصة أن الامبراطور هرقل كان فى ذلك الوقت أضعف من أن يدخل فى حرب مع الفرس ، فعاصمته بلا قـوة وبلا جيش يكفى لصد العدو (١) • ويختلف المؤرخون فى توضيح موقف هرقل فيذكر الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos أن الامبرلطور هرقل عندما شعر بان الفرس قادمون لتخريب امبراطوريته وتدميرها ، فانـه عاملهم كأصدقاء رغما عنه واكرامهم كضيوف ، بل أرسل لهم الهدايا وذهب للقاء قائدهم شاهين ، وتحدث معه ، ووعده بدفع اتاوة للخزانة الملكية ، وأنه سوف يرسل الى كسرى بعض الهدايا ، وطلب منه أن يعقد معـه معاهدة سـلام ، وكان أن وافق شـاهين والفـرس على ما طلبـه الامبراطور (٢) •

أما المصـادر البيـزنطية وعلى رأسـها الحـوليات الفصـحية Chronicon Paschale وتاريخ القديس نيقفوروس Nicephorus فانها تذكر أن شاهين عنـدما أتى الى تخوم خلقـدونية طلب مقابـلة الامبراطور، فقبل الامبراطور دعوته ، وأرسل حاشيته عبر البوسفور ليصطحبوه ، وعندما التقى شاهين بالامبراطور ، قدم له فروض الطاعة والولاء ، وأجرى معه حديثا دار حول ضرورة ترك الخلاف بين البيزنطيين والفرس ، وأن يدع الطرفان الحرب جانبا ، وأن يعيشا فى سلام ، وبين شاهين الاضرار التى تنجم عن استمرار العداء بين الدولتين ، وما تحمله الحروب من خراب ودمار • وفى النهاية اقسم شاهين يمينا على ضرورة تحقيـق المصـالحة بين البيزنطيين والفرس وأعـرب الامبراطور عن موافقته على ذلك ، وطلب من شاهين أن يؤكد يمينه بوثيقـة ماليقبلها كسرى ، وعندئذ طلب شاهين من هرقل أن يرسل معه مندوبين أو سفراء

---

(١) Lebeau, Histoire De Bas-Empire, T. XI, P. 15, Patkanian, Essai, PP. 200-201.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 78-79.

لكسرى للتفاوض معه حول عقد الصلح والسلام ، وتزكيتهم عند كسرى وتأثر الامبراطور هرقل بكلام شاهين المعسول ، واستشــار رجاله فى الأمر فأعربوا عن قبولهم مبادرة شاهين هذه ، وبذلوا كافة المســاعى لتحقيقها [١] .

أعد البيزنطيون سفارة تكونت من البطــريق أوليمبيوس Olympius ووالى المــدينة ليونتيــوس Leontius ، والقس أناستاســيوس Anastasius وسينكلوس Syncellus قيم كنيسة القديسة صوفيــا والمسئول عنها [٢] وقد حملت هذه السفارة معهــا خطابا لكسرى ، وقد كتب جورج البسيدى Georgius Pisida هذا الخطــاب نيابة عن السناتو [٣] .

ويختلف المؤرخون المحدثون حول الاسباب التى دعت الســناتو وليس الامبراطور الى أن يكتب هذا الخطــاب ويرسله الى كسرى مع السفراء ، فيرى البعض أن السناتو كانت له اليــد الطولى على هرقل ، وان الارســتقراطية البيــزنطية ، نجحت فى أن تطغى على ســلطات الامبراطور ، خلال فترة الاضطرابات العــامة التى عمت الامبراطورية بعد سقوط موريس ، وان هرقل كان مشغولا مع معارضيه السياسيين فى الداخل قبل أن يهتم بضروريات الاعداد للحرب مع الفرس [٤] .

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., PP. 11-12, Chronicon Paschale, in C.S.H.B., PP. 708-709.

وانظر ايضا :

Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B., I, P. 718.

(٢) Chronicon Paschale, P. 709, Nicephorus, Breviarium, P. 13.

(٣) انظر النص الكامل لهذا الخطاب فى :

Chronicon Paschale, in C.S.H.B., PP. 707-709.

وترجمته الى العربية فى الملاحق . وعن هذا الخطاب انظر :

Kaegi, **«Two notes on Heraclius»,** in Revue des Etudes Byzantines, T. 37, (1979), PP. 221-22.

(٤) Finlay, History of Greece, Vol. I, P. 343.

ويرى البعض الآخر أن كسرى لم يكن ليعترف بهرقل ، أو أنــه رفض الاعتراف بشرعية خلفاء موريس ، وأعلن نفسه خليفة لموريس[١] •

على أنه كان من الطبيعى أن يوجه السناتو الخطــاب الى كسرى ، فالسناتو كان يعتبر نفســه مسئولا عن نجاة الامبراطورية ، فضلا عن أنه بدأ يقوم بــدور هام فى السياسة الامبراطورية منذ تولى هــرقل العــــرش (٢) •

انسحب شاهين بجزء من جيشه وبصحبته السفراء البيزنطيون من خلقدونية الى فارس ، وكان شاهين يعامل هؤلاء السفراء طول فتـــرة عبوره الاراضى البيزنطية أحسن معاملة ، ولكنه ما أن عبر تخوم فارس حتى قيد السفراء البيزنطيين بالسلاسل ، وأرسلهم الى كسرى ، الذى أساء معاملتهم •

وعندما علم كسرى بأن شاهين قدم لهرقل فروض الطاعة والولاء ، غضب عليه ، اذ كان كسرى يطمع فى أن يأتى شاهين بهرقل اليـــه ، وكان جزاء شاهين على غير ما كان يتوقع فبدلا من أن يشكره كسرى عــلى صنيعه هذا ، أمر بتعذيبه (٣) •

أصدر كسرى أوامره فى الحال لجنوده فى خلقدونية بعبور مضـــيق البوسفور ومهاجمة العاصمة البيزنطية ، فجهزوا عددا كبيرا من السفن ، واستعدوا لمهاجمة القسطنطينية بحـــرا ، ودرت معركـــة بحـــرية بين الطرفين ، ولى فيها جنود الفرس الادبار ، وهلك فيها منهم أربعة آلاف

---

(١) Bréhier, Histoire, P. 82.

(٢) عن دور السناتو أنظر ما سبق ص ٦٠ ، ٧٢
وانظر ايضـــا :

Diehl «Le Senat et le peuple Byzantin au VII et VIII Siécles» dans Byzantion I, (1924) PP. 207-208.

(٣) Nicephorus, Breviarium, in C.S H.B., P. 13., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 718., Lebeau, Histoire De Bas-Empire, T. XI, P. 16.

رجل فضـــلا عن السفن ، ولم يجرؤ الفرس على اعادة الكرة ثانيـــة . اذ من المعروف أن الفرس لم يكونوا بحارة بأى حال من الاحوال ، وليست لديهم خبرة بقتال البحر ، فـــكيف يهاجمـــون القسطنطينية بأســـطول بحـــرى ! (١) .

وعلى هذا النحو كادت الامبراطورية البيزنطية تهوى أمام اتساع الخطر الفارسى ، وابتلاعه للولايات البيزنطية الكبرى ممثلة فى (ما بين النهرين) Mesopotamia ، وسوريا وفلسطين ومصر وخلقدونية ، بل وتهديده القسطنطينية نفسها ، وخرج الفرس من قتـــالهم مع الدولة البيزنطية محملين بأعداد لا تحصى من الاسرى ، ومحملين بالثـــروات وبأعمدة الرخام والمرمر ، وبأوانى النحاس وبلوحات وشارات عـــديدة من آسيا الصغرى ومن بلاد الشام (٢) .

استعدادات الامبراطور هرقل لحرب الفرس :

لم تكن القسطنطينية فى ذلك الوقت موضع تهديد من جانب الفرس فحسب بل ومن جانب الآفار Avars كذلك — الذين عبروا تراقيا ، وهددوا العـــاصمة البيزنطية من ناحيـــة البر ، ووصلت حـــالة الدولة البيزنطية السيئة فى ذلك الوقت الى درجة أن فكر الامبراطور هـــرقل فى ترك عاصمته والذهاب الى قرطاجة فى افريقية ، لولا أهل القسطنطينية ، وضغطهم مع البطريرك عليه ليقســـم يمينا فى كنيسة آيا صوفيـــا بأنه لن يترك عاصمته (٣) .

حاول سرجيوس Sergius بطريرك القسطنطينية أن يعيد الهـــدوء للامبراطور ، وان يصرف شكوكه وخيبة أمله ، على أن هرقل أخبر البطريرك بأن المشورة والنصيحة والعظات ليست كافية ، وأنه يحتاج الى الوسائل فالامبراطورية لا يمكنها مواجهة ذلك العدد من الاعداء دون تجهيـــز

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 79.

(٢) Michel le Syrien, T. II, P. 401.

(٣) انظر ما سبق فى الفصل الثانى .

جيش ، ودون دبلوماسية وكلاهما يحتاج الى المـال الذى لا يمتلكه ، وأدرك سرجيوس — الذى لم يكن رجـل دين ، وراع كنيسـة فحسب بل كان شخصا ذا أفق واسـع — ان الامبراطور على صـواب ، وأن القرارات الكبيرة ضرورية فى وقت الازمات ، فشرع فى اتخاذ قـرار بنفسه ، واظهر بعد نظره ، وذلك بأن وضع بشعور وطنى حقيقى كنوز الكنيسة تحت تصرف الامبراطور • وتمثلت كنوز الكنيسة فى تلك الاموال المخصصة لاعمال الخير ، وفى الشمعدانات وأطباق الكنيسة وآنيتهـا المصنوعة من الذهب والفضة ، وكانت ثروة الكنيسة هائلة ، فقدمتها كلها للدولة ، وأرسلت كلها الى دار سك العملة لتحول الى عملات جديدة ، يمكن بها دفع رواتب للجند وشراء السلام (١) •

غير أن هذه التضحية من جانب الكنيسة ، كان لها صفة القـرض مع التزام من جانب الدولة — ممثلة فى شخص الامبراطور — برد قيمـة هذا القرض عقب نهاية الحرب ، ويبدو أن ذلك القرض تم فيما بين عامى ٦١٩ — ٦٢٠م عندما بدأ سك العملات الجديدة ، وفى الوقت الذى بدأ فيه هرقل يعد لحملة عسكرية جديدة (٢) •

وفى نفس الوقت اتخذت اجراءات اخرى للحد من النفقات ، ممثلة فى الغاء توزيع الحصـة المجانية من القمح ، الذى كان يتسلمه سـكان العاصمة منذ أيام الامبراطور قسطنطين العظيم ، وتحمل الاهالى الحرمان

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 466, Cedrenus, Historiarum in C.S.H.B., P. 717-18., Bréhier, «La transformation de l'empire Byzantin sous le Heraclides» dans Journal des Savants (1917), P. 410.

(٢) ويرى ثيوفانيس Theophanis أن القرض تم خلال العـام الاول لحملة هرقل على الفرس ، وهذه الحملة بدات فى عام ٦٢٢ م • على أن القرض أعطى للاستعداد للحملة ، ولابد أن هذا الاستعداد استغرق وقتا طويلا •

انظر :

Theophanis, P. 466, Bréhier, La transformation, P. 410., Stratos, Byzantium, P. 127.

بدون اعتراض ، ولاشك فى أن هذا الاجراء كان ضروريا ، وخاصة بعــد ان فقدت الامبراطورية مصر مزرعة الغلال الامبراطورية فى عام ٦١٦م . كما فرضت الضرائب الباهظة على رجال الدين ، وجرى تخفيض ٥٪ من رواتب الموظفين ، وذلك كله لملء الخزانة الامبراطورية الخاوية ، وحتى يتيسر للامبراطور اتخاذ الوسائل الضرورية لخوض غمار حرب ضروس ضد الفرس (١) .

واذا كانت مشكلة المال قد حلت ، فقد بقيت مشكلة أخرى وهى اعداد الجيش ، لقد ادرك هرقل أن تنظيم الجيش البيزنطى ضرورة لابد منهــا وانه طالما يتحتم عليه مواجهة الفرس فعليه أن يستوعب دراسة الطرق العسكرية عند الفرس وجوانب القوة فى جيشهم . وايقن هرقل أن العنصر الاساسى فى الجيش الفارسى ، هو سلاح الفرسان الذى يتكون من الطبقة الارستقراطية فى الدولة ، وكانت له المكانة الأولى دائما فى الميدان وقصب السبق فى ساحة القتال ، وكان سلاح الفرسان الفارسى مجهزا تجهيزا عاليا ، ولذا كان يعول عليه فى احراز النصر فقد كان خيالة الفــرس رماة مهرة ، وعلى أعلى مستوى من التدريب والخبرة ، يضاف الى ذلك أن الجيش الفارسى كان يعمل به جنود وطنيون وليس جنود مرتزقة . هذا فى حين كان عماد الجيش البيزنطى سلاح المشاة الثقيلة ، أما سلاح الفرسان فكان يمثل قوة صغيرة للاستطلاع والاغارات السريعة ، وكان الجيش البيزنطى يعتمد على مرتزقة أجانب ، وثبت عدم جدوى هذا النظام عندما أصبحت الخزانة الامبراطورية خاوية(٢) .

كان اصلاح الجيش أمرا حيويا وجوهريا ، ولذلك انسحب الامبراطور هرقل — قبل بداية حربه مع الفرس فى شتاء عام ٦٢١م — خارج أسوار

---

(١) Darko, «Influences touraniennes sur l'evolution de l'art militaire de Grecs, des Romains, et des Byzantins» dans Byzantion (1937) p. 123.

اومان ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٤ .

(٢) Stratos, Byzantium, pp. 128 - 29.

القسطنطينية وأقام فى قصر هيريا Hieria (١) على الشاطىء الاسيوى، حيث تفرغ تماما لدراسة الخطط العسكرية والامكانيات العسكرية الموجودة لديه . وطرح خططه للحرب ، وحاول تنظيم حملته . وعكف هرقل خلال عزلته ، التى استمرت حتى عيد الفصح ٦٢٢م على اعداد كتيب ارشادات للخطط الحربية والتكتيكية ، يسترشد به ضباطه وجنوده وقادته(٢) وبعد انتهاء هرقل من اعداد هذا الكتيب ، قضى عدة أشهر فى تدريب جنوده ، وكان يدير تلك التدريبات بنفسه . وبذلك أعطى هرقل المعـركة قبـل المعركة(٣) .

قرر الامبراطور قيادة الجيش بنفسـه ، وسـار بذلك على نهـج الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) الذى قاد الحرب بنفسه ضد الآفار وكان من الطبيعى أن يواجه هرقل نفس المعارضة الشرسة ، التى واجهها موريس من جانب مستشاريه وذلك لأنه منذ عصر ثيودوسيوس الاول Theodosius I (٤٩١ — ٥١٨م) لم يكن هناك امبراطور قبل موريس قد

---

(١) يقع قصر هيريا جنوب خلقدونية اقيم على انقاض معبد هير وادخل عليه جوستين الثـانى بعض التحسينات وجمـله ، من أجـل زوجتـه صوفيانا Sophiana واعاد تسميته من جـديد ، وكذلك غير هرقل اسـمه وجعـله باسـم قصر هيريا Hierea . لمزيد من التفاصيل انظر :
Stratos Byzantium pp. 399 - 400.

(٢) ومن الجدير بالذكر ان هناك كتيبا عسكريا بعنوان استراتيجية موريس Strategicon of Maurice وكان يعتقد انه كتب فى عهد الامبراطور موريس اذ انه ينسب اليه ، غير ان الابحاث الحديثة تذهب الى ان هذا الكتيب وضع فى عهد هرقل فيما بين عامى (٦١٩ — ٦٢٨ م) وهـذه الفترة من الفترات الهامة فى التاريخ البيزنطى اذ شرع الامبراطور هرقل خلالها فى قتال الفرس بعد أن اعاد تنظيم جيشه وتدريبه . ولا يستبعد أن يكون مؤلف استراتيجية موريس هو هرقل وانه وضعه اثناء عزلته فى قصر هيريا ، خاصة وأن جورج البسيدى يذكر أن هرقل الف كتاب ارشـادات للخطط العسكرية سماه « معلم العلوم العسكرية » انظر :
Georgius Pisida De Expeditione Persica acr. 111, V. 122 - 131, p. 18, acr. 111, v. 343-53, pp. 41-42, Darko, Influences, pp. 122-23., Bréhier, Institutions, p. 342.

(٣) Pisida, Heracliados, 11 pp. 83-84., 111, pp. 83-84., Darko, Influences, pp. 124-26, Bréhier, Histoire, p. 92, Stratos, Byzantium p. 135 .

نزل الى ميدان القتال ، وقاد جيشه بنفسه ، هذا ولم تؤثر المناقشـــات الطويلة والنصائح من جانب مستشاريه على قراره هذا (١) .

ونظرا لأن الامبراطور هرقل كان يخشى جانب الآفار ، فقد أرسل خطابا الى خاقانهم يذكره بالمعاهدة التى تربطهما سويا ، ومدحه بكثـير من المبالغة وذكر أنه يعتبره كوصى وأب للامبراطور الشاب قسطنطين ابنه ، وذلك طبقا للعادة التى كانت سائدة فى تلك الايام ، ووعده بمبلغ كبير من المال وذلك حتى يستطيع أن ينقل قواته من أوربا الى آسيا بدون أن يعوقها عائق (٢)

وفى الرابع من ابريل ٦٢٢م وبعد الاحتفال بعيد الفصح ، ذهـب الامبراطور الى الكنيسة فى اليوم التالى — أى كنيسة القديسة صوفيا — ودعا اليه كل من البطريرك سرجيوس والحـاكم بونوس Bonus ورجال السناتو وكبار الموظفين والوجهاء والاعيـان ، وأعلن ابنـه قسطنطين Constantin (٣) كخليفة وشريك له فى العرش ،ونائبا عنه أثنـاء غيابه عن العاصمة ، ونظرا لأنه قاصرا اذ لم يتجاوز العاشرة من عمـره ، فقد عهد الامبراطور الى البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس Bonus بتولى شئون الامبراطورية ، وكان بونوس رجلا كريما له خبرة ودراية بالشئون الادارية (٤) .

وبعد الصلاة والابتهال والتوسل ، أمسك الامبراطور بايقونة المسيح المخلص ، وجعلها لواء له ، وتقدم بها نحو الميناء ، وهناك ودع عائلته والبطريرك وأصدقاءه ، ثم ركب السفينة وأبحر فى حملته التاريخية (٥) .

---

(١) Ostrogorsky, History of the Byzantine, p. 90.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر ما يلى فى الفصل الخامس .

(٣) يبدو أن الامر التبس على سعيد بن بطريق اذ يـذكر أن هرقل استخلف أخاه قسطنطين .

انظر : سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ٢ .

(٤) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., p. 17, Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., p. 416., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B. p. 718., Lebeau, Histoire, T. XI, pp. 88-89., Bréhier, Histoire, p. 91.

(٥) Cedrenus, Historiarum, I in C.S.H.B., pp. 718-19.

وبعد أن عبر البوسفور ، ابحــر الى خلقــدونية ، واخــذ منها الطريق الامبراطورى الكبير عبر آسيا الصغرى ، والذى يؤدى الى قيصريــة قبادوقيا Cappadocia وكان قد أمر جنوده بالتجمع هناك(١) • وعلى طول هذا الطريق اقيمت الحصون ، التى شكلت نظاما دفاعيا ممتازا ، والتى استطاع هرقل أن يجمع منها فرقا جديدة لجيشه ، هذا وما أن وصــل الامبراطور الى قيصرية ، حتى استخدم حصنها كمقر أساسى للامدادات خلال فترة الحرب ، وقضى هناك الصيف كله الى جوار جيشه ليدرب القوات الجديدة ، وعكف على دراسة الخطط الحربية ، وابتكر أســاليب جديدة ، من ذلك أنه قسم الجيش الى قسمين واعطى الجنود الدروع والخوز والابواق ، وامر بأن يهاجم كل قسم القسم الآخر وان يشتبكا سويا ، ولكن بدون سفك أو اراقة دماء بل يكتفوا باحــداث الضجيج والصراخ وكأنهم فى ميدان القتال • وكان يهدف من وراء ذلك كله الى أن يشجعهم على مواجهة العدو بدون جهد ومشقة ، وأن يهاجموه بجــرأة واقدام وثبات(٢) •

ويبدو أن الفرس كانوا على علم بالاستعدادات البيزنطية ، ففى خلال نفس الصيف ، الذى أخذ فيه هرقل جيشه الى اسيا ، احكم كسرى قبضته على المسيحيين الارثوذكس فى مملكته ، وفرض ضرائب جــديدة من أجل تجهيز جيشه (٣) • ونظرا لأنه كان هناك مدخلان رئيسيان الى فارس أحدهمــا شــــمالى الى ارزن الــروم Theodosioupolis والى اذربيجان Atropatene Media ، والآخر جنوبى من ملطية Melitene سميساط Samozata (٤) ويــؤدى الى الموصــل ،فــانه بمعــرفة

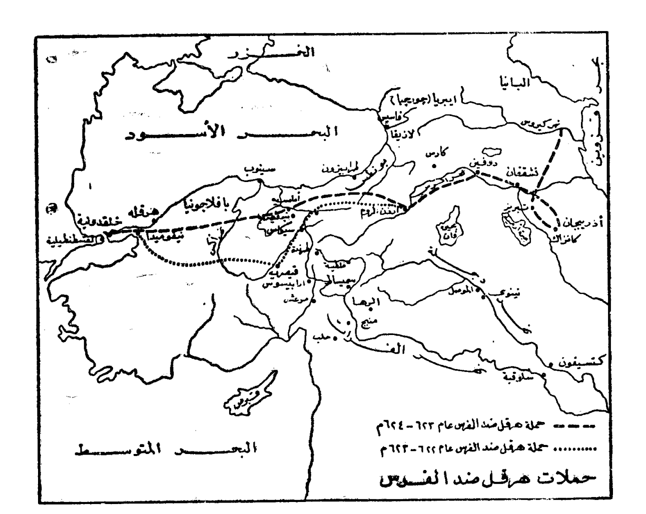
---

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, pp. 80-81.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., pp. 466-68., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., pp. p. 719.

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., p. 465., Stratos Byzantium p. 131.

(٤) سميساط : مدينة قديمة ، تقع على الشاطىء الايمن لنهر الفرات ، وكانت مركزا للاتصال مع الشرق ، وهى الآن المدينة التركية Samsat انظر : Stratos, Byzantium, p. 408.



حملات هرقل ضد الفرس

هذه الحقيقة كان على الفرس الذين يتوقعون الهجوم البيزنطى أن يحتلوا الطـريق الممتـد من ملطية حتى ســاتالا Satala مفتاح الطرق بين بونطس وارمينية (١) •

حملات هرقل ضد الفرس :

كانت خطة الامبراطور هرقل تهدف الى استعادة المناطق التى اغتصبها الفرس واجبارهم على قبول سلام عادل ومنصف ، ولكن نظرا لأنه كان من العسير الاتجاه نحو سوريا وفلسطين ومصر لاستعادتها ، لذلك كان على هرقل أن يضرب الفرس أولا فى عقر دارهم وفى قلب فارس ذاتها• ولذلك مالبث هرقل ان ترك قيصرية فى خريف ٦٢٢م ، بعد ان انتهى من تدريب جيشه واعداده على النحو اللائق ،وشق طريقه الى ارمينية ، وذلك فى محاولة منه لارغام الفرس على التخلى عن مراكزهم فى آسيا الصغرى، وما ان دخل هرقل تخوم ارمينية وحدودها حتى اصطدمت طليعة جيشه بفرقة من الفرسان الفرس بها كتيبة من العرب ، فتصدى لهم البيزنطيون، وقبضوا على قائدهم ، واتوا به أمام الامبراطور مكبلا بالاغلال مـع أسرى آخرين ، ويبدو أن الامبراطور هرقل أمر باطلاق سراح هذا القائد ووعده بالحرية لذا ما قدر جميله عليه وانحاز الى جانبه (٢) •

وعند حلول فصل الشتاء تقابل جيش الفرس مع الجيش البيزنطى، واصبحا وجها لوجه ، ولم يشأ هرقل الدخول فى معركة مع خصومه وهم فى أماكن حصينة لذلك استمر فى الزحف نحو الشرق ، وعرج الى منطقـة بونطس pontus وتظاهر انه سوف يقضى الشتاء هناك ، فانخدع الفرس بذلك ، غير أن هذا كان يعنى بالنسبة لهرقل بداية الحملة ، اذ أنه ما ان رأى الفرس ينسحبون حتى رجع من حيث أتى ، وسار نحو فارس عن

---

(١) Stratos, Byzantium, p. 139.

(٢) Georgius, pisida, De Expeditione persica, 11, p. 22,
Theophanis, Chronographia in C.S.H.B., p. 468.
Cedrenus, Historiarum, I in C.S.H.B., p. 720.

طريق ارمينية • وعندئذ أصبح شهرباراز فى حيرة من أمره ، ولم يكن يدرى ما العمل ؟ فاذا هو تبـــع البيزنطيين عبر المنـــاطق الجبلية الوعرة والتى تحفل بالمصائد والفخاخ سوف يعرض جيشه للخطر ، واذا لم يفعل تكون كارثة كبرى ، لأن الامبراطور من الممكن أن يهاجم فارس من اطراف ارمينية ، ولهذا فكر شهرباراز فى الاتجاه نحو الشمال الغربى ، ليهدد المناطق الرئيسية بالنسبة للعاصمة البيزنطية ، ويجبر هرقل بذلك على ترك جميع خططه • ومع ذلك فقد تابع هرقل خططه ، واستمر فى الاتجـــاه نحو فارس ، على غير ما كان شهرباراز يتوقع ، وما ان ادرك شهرباراز أن هرقل لم يعره اهتماما وان البيزنطيين لم يتعقبوه ، حتى اتجه نحو الشرق ثانية ليحول بين هرقل وبين هدفه ، وحتى لايتمكن من غزو فارس ، عن طريق أرمينية • وعاد شهربارز وتبع الجيش البيزنطى ، ولكنه تردد فى مهاجمة البيزنطيين ، وانسحب الى التلال المجاورة ، وراح يقوم من هناك بمناوشات متتالية(١) •

استمرت المناوشات الحربية بين الطرفين خمسة عشر يوما ، اضطر القائد الفارسى بعدها الى مغادرة التلال التى كان يحتمى بها ، ودخول المعركة وامر الامبراطور جنوده بالتظاهر بالهرب ، وعندئذ ظهر الفرس من كمينهم وهموا لملاحقتهم بأقصى سرعة فانقض عليهـــم البيزنطيون واضطر الفرس الى الانسحاب والفرار(٢) •

ولكى ينقذ شهرباراز جزءا من جيشه ، أشعل النيران فى كميات من الخشب حتى انتشر الدخان فى السماء • وبهذه الطريقة تمكن الفرس من

---

(١) Georgius pisida, Expeditione, 11, pp. 24-28, Theophanis, Chronographia in C.S.H.B., p. 468., Cedrenus Historiarum, I in C:S.H.B. p. 720.

(٢) Georgius pisida, Expeditione, III p., 35-36., Theophanis, p. 470.

الانسحاب والاحتماء فى الجبال (١) • وكانت مطاردة البيزنطيين الفـرس الهاربين عنيفة ، فقد نجـح البيزنطيون فى الايقاع بالكثـيرين منهم فى الوديان الضيقة ، حيث قضوا عليهم ومزقوهم اربا ، وهرع بعضهم الى الممرات الضيقة ، وشاهدهم البيزنطيون يمتطون الصخور والمرتفعات ، أما الباقى فقد انسحبوا فى رعب وفزع شديد(٢) •

وقع معسكر الفرس بكل مافيه فى ايدى البيزنطيين ، الذين جمعوا غنائم واسلابا كثيرة ، وبعد أن احتل البيزنطيون المعسـكر الفارسى واستولوا عليه رفعوا ايديهم الى السماء ، وتوجهوا الى الله بالشكر ، والى امبراطورهم بالمديح والثناء ، فبعد أن كانوا يخشون التراب الذى يدوسه الفرس ، وجدوا أنفسهم اليوم يحتلون معسكرهم ويجبرونهم على الفرار (٣) •

لم يهتم الامبراطور هرقل بعد ذلك بمطاردة باقى الفرس ، لأن من بقى من جيوشهم لم يعد يشكل تهديدا بالنسبة للبيزنطيين ، هـذا الى جانب أن الامبراطور كان مضطرا للعودة الى القسطنطينية على جنـاح السرعة لأن الآفار نقضوا معاهدة السلام ، وكانوا على وشك غزو الاراضى البيزنطية • ولهذا ترك الامبراطور الجيش فى ارمينية تحت رعاية قادته ليقضى الشتاء هناك ، وعاد هو الى القسطنطينية (٤) • ولم تذكر المصادر اسم القائد الذى تركه هرقل على رأس الجيش ، ولكن من المحتمل أن يكون أخوه ثيودور الذى غالبا ما كان يأخذ مكانه (٥) •

وعلى هذا النحو حقق هرقل بحملته الاولى هذه (٦٢٢ – ٦٢٣م)

---

(١) Georgius pisida, Expeditione, III, p. 36., Stratos, Byzantium, p. 142.

(٢) Theop hanis Chronographia, in C.S.H.B. P. 471.

(٣) Georgius Pisida, Expeditione, III, p. 39,

(٤) Theophanis, p.471., Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B. p. 721.

(٥) Lebeau, Histoire, T. XI, p. 94., Stratos, Byzantium, p. 143.

نصر مبينا على الفرس ، فقد نجح من خلال هذه الحملة فى تطهير آسيا الصغرى من الفرس ، ولم يتحقق هذاالنجاح بهجوم مباشر بل بخدعة حربية ماهرة ، اذ أجبر هرقل الفرس على أن يقاتلوا فى المواقع التى اختارها هو ، واظهر هرقل للبيزنطيين بهذه الحملة انه من السهل هزيمة الفرس ، وانه يمكن خداعهم بسهولة ، ونجح هرقل بذلك فى أن يرفع من معنويات جيشه بل والبيزنطيين جميعا ، وأعاد اليهم الثقة فى نفوسهم وفى قوتهم • والحقيقة أنه لولا حادثة الآفار التى أعاقت هرقل عن الاستمرار فى الهجوم لانتهت المعركة فى عام ٦٢٣م ، اذ أن كسرى لم يجهز جيشا آخر لمواجهة البيزنطيين فبعد هزيمة شهر باراز وما قام به جهود جنونية ليسد الطرق والمواقع المؤدية الى فارس ، لم تعد هناك قوة فى فارس قادرة على مواجهة البيزنطيين(١) •

وعندما سمع كسرى انباء هزيمة جيش شهرباراز ، اعترته حالة من القلق ولكنه مالبث أن شعر بالارتياح عندما علم برحيل هرقل الى عاصمته • ويبدو أن الفرس استفادوا من توقف البيزنطيين أثناء عام ٦٢٣م فى اصلاح جيشهم وتقويته وفى اتخاذ كافة الاجراءات لمواجهة الموقف ، وخاصة بعد أن اتضح لهم ان البيزنطيين وعلى رأسهم هرقل فى مقدورهم مهاجمة الفرس فى عقر ديارهم ، فأرسل كسرى الى شهرباراز أمرا بغزو الاراضى البيزنطية (٢) • ولكن لم يتمكن شهرباراز من غزو آسيا الصغرى عام ٦٢٣م ، لانه استغرق وقتا طويلا فى اصلاح قواته ، وفى الحصول على الامدادات ، وكان كسرى يأمل أن يجبر هرقل بهذه الغزو على سحب قواته من المناطق والمواقع ، التى احتلها فى الشمال فى حملته الاولى ، وفى نفس الوقت يأمن أى خطر للغزو من هذا الجانب •

---

(١) اومان ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ .
Finlay, History of Greece, vol. I, p. 344.,
Stratos, Byzantium, p. 144.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., p. 471.,
Cedrenus, Historiarum, I in C.S.H.B., p. 712,
Stratos, Byzantium, p. 152.

وفى مارس ٦٢٤م غزا شهر باراز آسيا الصغرى ، وتغلغل فى الاراضى البيزنطية حتى وصل الى خلقدونية(١) •

أرسل هرقل رسالة تحذير الى كسرى ، اما أن يقبل الصلح والسلام والا فانه سوف يهاجم بلاد فارس عما قريب ، ولكن كسرى لم يقبل عرض الصلح ، ولم يعر تحذير هرقل أى اهتمام أو اعتبار لأنه لم يتصور أن البيزنطيين يمكنهم غزو فارس ، واعتقد أن هرقل لن يتوجه نحوها(٢) • ومع ذلك فقد بعث كسرى الى هرقل برسالة ردا على رسالته له ، اتضح من بين ثناياها أن كسرى كان يميل الى السلام والصلح(٣) •

رحل هرقل فى ٢٥ مارس ٦٢٤م الى نيقوميديا مصطحبا معه زوجته مارتينا واطفاله قسطنطين واوداكيا وحسب طريقته المعتادة ذهب فى عرلة الى قصر هيريا على الساحل الاسيوى ، وبعد أن احتفل مع اسرته بعيد الفصح فى ١٥ ابريل عام ٦٢٤م ، بالقرب من نيقوميديا أعاد اطفاله الى العاصمة بينما اتجه هو وزوجته شرقا ، فى ٢٠ ابريل ليتولى قيادة الجيش(٤) •

تتبع الامبراطور الطريق الامبراطورى الكبير الذى يربط بين القسطنطينية وساتالا Satala وهو أكثر من ألف كيلو متر ، ولذلك فقد وصل الامبراطور الى ساتالا فى بداية مايو ، وأصبح جيشه الان فى قمة الاستعداد وزاد عدده حتى بلغ نحو ١٢٠,٠٠٠ رجل ، توغل هرقل بهذا الجيش فى ارمينية وتقدم بسرعة فائقة واستولى على مدينة ارزن الروم Theodosioupolis من الفرس وتابع مسيره حتى دخل ارمينية الفارسية ووصل هرقل الى عاصمتها دوفين Dovin واستولى عليها بالقوة وسلبها ثم أحرقها(٥) • اعتبر استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B. P. 17.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., pp. 471-72.

(٣) انظر نص الرسالة التى بعثها كسرى الى هرقل فى :
Sébeos, Histoire d'Heraclius, pp. 79-80.

(٤) Chronicon paschale, in C.S.H.B., p. 714.

(٥) Sébeos, Histoire d'Heraclius, p. 81.

المسيحية واحراقها فضيحة ، غير أن جورج البسيدى Georgius pisida حاول أن يقلل من وقع هذا الحادث بقوله : ان المدينة المسيحية من الافضل أن يحطمها ملك مؤمن تقى على أن تقع فى أيدى كافر مثل كسرى[١] •

استمر هرقل فى تقدمه ، واستولى على نشقفـــان Naxcawan [٢] بالقوة بعد أن خربها[٣] وقبل أن يدخل الامبراطور الاراضى الفارسية جمع قواته ، وأخذ يبث فيهم روح الحماس بخطبة ألقاها عليهم كان لها وقع عظيم فى نفوسهم [٤] •

اندهش كسرى والفرس لغزو هرقل وخصوصا لسرعة تقدمه ، وعندما أحس كسرى بجدية هذا الغزو جمع جيشا من بلاد فارس كلها ، ووضع شاهين على رأس هذا الجيش ، واستدعى فى نفس الوقت شهرباراز على وجه السرعة لينضم الى شاهين ويواجها العدو بقوة واحدة[٥] •

أما فيما يتعلق باستدعاء كسرى لشهرباراز فى يونية ، فيذكر البطريرك نيقفوروس Nicephorus أن كسرى بعث برســـالة لشـــهرباراز طالبـــا منه العودة فى الحال من بلاد الروم أو من الاراضى البيزنطية ومواجهة هرقل وجيشه ، لأنه عاجز عن مواجهتهم ، غير أن رسالة كسرى وقعت فى يد هرقل فمزقها ، وكتب رسالة أخـــرى على لسان كسرى مختومـــة بخاتمه ، وأرسلها الى شهرباراز ، وقد جاء فيها أن الفرس هزموا الروم،

---

(١) Georgius pisida, Heracliados, II, p. 85.

(٢) نشقفان مدينة ارمينية قديمة تقع فى شمال نهر الرس على حدود اقليم ارارات ، وتقع الان فى ارمينية الروسية .

انظر : Stratos, Byzantium, p. 403.

(٣) Sébeos, Histoire d'Heraclius, p. 81.

(٤) عن نص هذه الخطبة انظر :

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B. p. 472.
Lebeau, Histoire, T. XI, pp. 95 - 96.

(٥) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 472.,
Cedrenus, Historiarum, I in C.S.H.B., P. 721.
Lebeau, Histoire, T. XI, P. 95.

وان كسرى لم يعد فى حاجة اليه ، وعليه أن يستمر فى حصار خلقدونية ، ويستمر فى سلب البيزنطيين ونهبهم(١) .

ولعل هذا يفسر ماذكره كل مـــن سيبيوس Sébeos وثيوفانيس Theophanis من أن جيش شهرباراز ظهر فى فارس بعد أن بدأ الشتاء، فقد مضت أربعة أشهر بين استدعاء كسرى لشهرباراز وبينوصوله(٢) أما كسرى فقد اختار من جانبه ٤٠ الف رجل ، وجعل نفسه على رأسهم وسار بهم حتى وصل الى مدينة كانزاك Ganzac عاصمة اقليم اذربيجان(٣) وما ان سمع هرقل أن كسرى فى مدينة كانزاك مع أربعين الف من رجانه، حتى اتجه نحوه ، وكان معه بعض العرب الذين تقدموه للاستطلاع ، فتصدى لهم حرس كسرى ، غير أن العرب قتلوا بعضهم واسروا البعض الاخر وساقوهم الى هرقل ، وعندما سمع كسرى بذلك هجر المدينـــة ، وترك الجيش ولاذ بالفرار لينجو بنفسه ، وتابعه جيشه ، فلحق هرقل بهم ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وأخذ كثيرا من الاسرى ، وفر الباقون ولكنه شتت شملهم ، واحتل مدينة كانزاك بدون مقاومة واحرق بيت النار الشهير بها وازال كل شيء(٤) .

علم هرقل بأن كسرى هرب الى مدينة تبريز Thebarmes, Tibarmais التى تقع فى الجزء الجنوبى من أذربيجان — وانه أحرق جميع الاعشاب والمحاصيل فى طريقه حتى يعانى الجيش البيزنطى من نقص فى المـــؤن

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 19.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 81-82., Theophanis, P. 476.

(٣) Lebeau, Histoire, T. XI, P. 97., Bréhier, Histoire de l'Eglise; P. 93., Ostrogrosky, History, P. 91., Stratos, Byzantium, P. 366.

(٤) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 473., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 721., Lebeau, Histoire, T. XI, P. 97.

ارثر كريستنسن ، ايرن فى عهد الساســانيين ، ص ٤٣١ ، حســن بيرنيا ، تاريخ ايران ص ٢٧٤ .

والطعام ، وكان هذا هو التكتيك الفارسى المعتاد عندما يتغلب عليهم اعداؤهم ، ومع ذلك ذهب هرقل الى مدينة تبريز واحرقها ، واشعل النيران فى معبدها ، واستمر فى مطاردة كسرى عبر مضايق الليديين (سكان ما بين النهرين) ، وراح كسرى يهرب من مكان لاخر فى تلك الاماكن الوعرة أما هرقل فقد استمر فى مطاردته دون توقف وهو يدمر المدن والحقول(١) .

أقبل الشتاء ووصل كسرى الى ميسوبوتاميا Mesopotamia (مابين النهرين) حيث حشد جيشا جديدا تحت قيادة شاهين فى الوقت الذى وصل فيه شهرباراز بجيشه الى نينوى Niniveh على الشاطىء الشمالى لنهر دجلة حيث استراح واصلح جيشه ، أما هرقل فبعد أن قضى هو ورجاله ثلاثة أيام فى الصلاة والصوم وتجنب الآثام رأى ضرورة قضاء الشتاء فى البانيا Albania (٢) وعندئذ اتخذ قرارا خطيرا بالانسحاب شمالا عبر اذربيجان وارمينية الفارسية حتى يصل الى البانيا القوقازية حيث قضى الشتاء هناك . وبطبيعة الحال كان هناك خطر عليه ، من جانب جيش شهرباراز ، حقيقة كان هذا الجيش متعبا ومجهدا بعد مسيرته الطويلة(٣) . ولكن كان على هرقل أن يبحث عن حلفاء له من شعوب القوقاز المحاربة ليكونوا عونا له على قتال الفرس .

كان الشتاء هذا العام (٦٢٤م) قارس البرد ، وكان هرقل يحمل معه كميات ضخمة من غنائم الفرس رجالا وعتادا ، وفى نفس الوقت كان يتعرض لهجمات الجيش الفارسى ، ولهذا عندما وصل الى البانيا أطلق سراح خمسين الفا من الاسرى الفرس الذين كانوا فى حالة يرثى لها من شدة البرد ، ويذكر ثيوفانيس Theophanis أن هرقل فعل ذلك

---

(١) Theophanis, p. 473., Cedrenus, I, p. 721.

(٢) البانيا : تقع فى جورجيا ، ويحدها من الشمال القوقاز ومن الشرق بحر قزوين ومن الغرب ايبريا ومن الجنوب اذربيجان .

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 474, Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 722.

لما كان يتحلى به من رحمة ، فقد عالج نفوسهم واجسادهم قدر المستطاع ، وكان هؤلاء الاسرى يبكون تأثرا ، ويدعون له ليهلك طاعون العالم كله وهو كسرى ، وان يصبح هو محرر بلاد فارس بأجمعها(١) .

كتب هرقل داعيا جميع أمراء البانيا Albania وايبريا Iberia (بلاد الابخاز) فى جورجيا ولازيقا Lazica بأن يجابوا له ولقواته المؤن ويخدموا تحت لوائه لبعض الوقت ، فاطاع ذلك بعض حكام لازيقا ورفض آخرون(٢) .

وعلى هذا النحو يكون هرقل قد أعاد بهذه الحملة (٦٢٤م) وما حققه خلالها من انتصارات — الهيبة للبيزنطيين الى حد كبير ، كما أثبت للعالم أن الامبراطورية الفارسية كانت تعانى من نفس حالة الضعف الداخلى ، التى كانت تعانى منها الامبراطورية البيزنطية ، وانها غير قادرة على القيام بمقاومة وطنية ضد أى عدو نشط(٣) .

دارت بعض أحداث حملة هرقل التالية فى البانيا ، اذ بذل كسرى فى هذه الحملة جهودا أكثر فلم ينتظر نهاية فصل الشتاء ، بل سارع باعداد ثلاثة جيوش لمواجهة الغزو البيزنطى أحدهم بقيادة شهرباراز والآخر بقيادة شاهين أما الجيش الثالث فكان يتكون من جنود ليسوا على دراية ، ومن ثم فقد دعم بفرقتين من القوات الممتازة ، تحمل كل منهما اسم من أسماء ملوك الفرس وهما فرقة Chosroygetes وفرقة Perozites ، وقد عهد كسرى الى Sarablangas (ومعناها النمر الملكى) — وكان رجلا شجاعا — بقيادة هذا الجيش

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 474-75.

(٢) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ٢ .
Bréhier, Histoire de l'Eglise, P. 93. Stratos, Byzantium, P. 158.

(٣) Sir Persy, History of Persia, P. 484., Finlay, History of Greece Vol. I, P. 344.

الثالث(١) . وعندما وصل الجيش الاخير الذى تولى قيادته Sarablangas الى تخوم البانيا لم يجروء على مواجهة الامبراطور ومحاربته مباشرة ، بل حاول التحايل عليه بالاختباء فى الجبال ، وقطع الطريق على هرقل ، الذى لم يكن قد خرج من معسكراته الشتوية بعد ، ومن ثم فقد اكتفى Sarablangas بأن تصبح السيادة للفرس على الممرات التى تؤدى الى فارس من البانيا Albania (٢) .

أما هرقل فقد ايقن أنه ليس من الحكمة بعد ذلك أن يقاتل فى فى البانيا لذلك فعند حلول الربيع ، غادر حقول البانيا الواسعة حيث المؤن الكثيرة ، واتجه نحو فارس ، وكانت مسيرته طويلة نظرا لبعد المسافة ، وعندئذ قرر Sarablangas الاتجاه نحو فارس عن طريق أقصر لكى يسبق الامبراطور . وفى نفس الوقت وصل جيش فارسى آخر بقيادة شهر باراز الى مسرح العمليات ، واصبح الجيش البيزنطى محاصرا ، بين جيشين فارسيين أحدهما من خلفه وهو جيش شهر باراز والآخر اقترب من جناحه وهو جيش Sarablangas بل وحاول الجيشان الفارسيان الانضمام معا والعمل سويا ضد البيزنطيين(٣) .

حاول الامبراطور اضعاف جيش Sarablangas بالهجوم عليه حتى لا يتيح له فرصة الانضمام الى جيش شهر باراز ، خاصة وان قواته كانت منهكة ومتعبة بعد الرحلة الطويلة التى قطعتها ، وراح الامبراطور يهاجمه ليل نهار ، ويتحرش به بهجمات متتابعة ليضعفه ويخيفه ، غير أن Sarablangas كان حريصا على الا يدخل معه فى قتال وانتظر وصول الجيشين الفارسيين الآخرين ، على أن الفرس أبطأوا

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 475., Cedrenus, Historiarum, I, C.S.H.B., P. 722.
Lebeau Histoire, T. XI. P. 101., Stratos, Byzantium, P. 159.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 475., Lebeau, Histoire, XI, P. 101.

(٣) Theophanis, PP. 475-76., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 722.

فى سيرهم مما أتاح الفرصة لهرقل وجعله قادرا على أن يهاجم جناحهم ممثلا فى جيش Sarablangas (١) •

ونجح هرقل فى أن يسحب الفرس الى ميدان المعركة ، الذى اختاره بنفسه ، اذ غادر معسكره عند الغروب ، وسار طول الليل ، وعسكر فى مكان خصيب بعيدا عن الفرس ، فظن هؤلاء أنه ينشد الفرار ، فلاحقوه بلا نظام ، وعندئذ كر عليهم هرقل ، ودخل معهم فى قتال عنيف وهزمهم ، وأهلك الكثيرين منهم ونكل بهم (٢) •

ووصل فى تلك الاثناء جيش شاهين الذى قدره سيبيوس Sébeos بنحو ٣٠ ألف مقاتل ، وعسكر فى مدينة Tigranokert بالقرب من Tarnaout الحالية ليكون بذلك خلف البيزنطيين • وشن هرقل فى الحال هجوما على جيش شاهين وكبده خسائر فادحة ، اذ قضى على جزء كبير منه وشتت شمل الباقى • وهنا جمع شهر باراز من بقى من جيش شاهين وجيش Sarablangas وقرر أن يشن هجوما جديدا على هرقل • هذا فى الوقت الذى كان حلفاء هرقل من لازيقا وايبريا قد تركوه ، ونقضوا عهدهم معه وانسحبوا الى بلادهم • ولا شك فى أن رحيل هؤلاء الحلفاء ، كان صدمة قاسية بالنسبة لهرقل ، وكان مبعث سرور وفرح فى نفس الوقت بالنسبة للفرس ، اذ أعاد الثقة الى نفوسهم ، وتمنوا أن يهاجموا البيزنطيين (٣) •

وكان من الطبيعى بعد تلك الكارثة التى حلت بهرقل والبيزنطيين على اثر رحيل حلفائهم ، أن يحاول هرقل بخطبه فى جيشه ، أن يرفع من روحه المعنوية ، ويبعث فيه الشجاعة والثقة بالنفس ، ثم كان على

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 476-77., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 722.

(٢) Theophanis, PP. 477-78.

(٣) Sébeos, Histoire, P. 82.

وانظر ايضا :
Theophanis, P. 478., Cedrenus, I, PP. 723-24.

هرقل بعد ذلك أن يعد الجبهة وينظم الصفوف (١) .

عسكر الجيشان الفارسى والبيزنطى كلاهما فى مواجهة الآخر من الصباح وحتى الغروب ، ولكن دون أن تصدر أى اشارة عن بدء القتال . وعند المغرب تابع الامبراطور سيره ، فعاد الفرس وتبعوه من الخلف ، ثم حاولوا أن يغيرون طريقهم فى محاولة منهم لمفاجأة هرقل وجيشه من الامام ، ولكنهم تعثروا بالمستنقعات واضطروا للخروج منها ، واتجه الامبراطور الى تخوم ارمينية مع فارس ، وكانت هذه المنطقة تابعة للفرس ، ولهذا فقد هجره كثيرون من عسكره ، وانضموا الى شهر باراز ، ولكن بسبب حلول فصل الشتاء ذهب كل منهم الى ذويه ، وتشتت شملهم (٢) .

وأراد هرقل أن يتوج هذه الحملة بعمل مشرف ، ولهذا عندما علم بأن شهرباراز يعسكر فى قلعة البانيا Albania وان قواته تعسكر من حوله — قرر مهاجمة الفرس ليلا ، وانتقى نخبة من فرسانه ومشاته وخيرة رجاله وجعلهم فرقتين ، ورحلت الفرقة الاولى فى أول الليل من أجل أن تثير الرعب والفزع فى معسكر الفرس ، أما الفرقة الثانية فجعل هرقل نفسه على رأسها ليكمل هزيمة الفرس ووصل على الفور الى مدينة A9i حيث كانت هناك طليعة جيش شهر باراز ، وكانت تقدر بخمسمائة رجل ، فتصدوا لهرقل الذى انقض عليهم واهلكهم (٣) .

أسرع البيزنطيون بالهجوم على مدينة Aii وحاصروها من ثلاث جهات وقاوم الفرس مقاومة بطولية ، وقاتلوا من أسطح المنازل ، التى

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن خطب هرقل فى جنوده انظر :
Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 478-79., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., PP. 723-24.

(٢) Theophanis, Chronographia, P. 479, Cedrenus, Historiarum, I, P. 724.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر :
Sébeos, Histoire, PP. 82-83., Theophanis, PP. 479-80., Cedrenus, I, PP. 724-25.

كانوا يتسلقون اليها ، غير أن هرقل أشعل النيران فى المدينة ، وكان كل من يحاول الخروج منها للفرار يقتل ، ومن لم يستطع النجاة من الموت التهمته النيران ، أما شهر باراز فقد نجا ، وعاد بمن تبقى من قواته ، ووقعت أسلحة شهر باراز ممثلة فى سيفه وترسه الذهبى ، ورمحه المرصع بالاحجار الكريمة بل وحذائه فى ايدى البيزنطيين (١) •

وتعقب هرقل ورجاله من بقى من الفرس مشتتا هنا وهناك ، والذين ما ان علموا بهزيمة شهر باراز حتى لاذوا بالفرار فلاحقهم الامبراطور ، وقضى على الكثيرين منهم ، وجمع أسرى آخرين ، وعاد الباقون بعارهم وخزيهم الى بلاد فارس • واخيرا جمع هرقل جيشه ، وقضى الشتاء فى منطقة بحيرة فان وفى المعسكرات التى كان شهر باراز قد أعدها ليقضى بها الشتاء لعام ٦٢٥م • (٢) •

أصبح هرقل بهذه الحملة سيدا على أرمينية الفارسية وعلى اذربيجان Atropatene-Media وجزء من فارس،واصبح له نفوذ وسلطان على الفرس ، بل وفى نهاية هذه الحملة استولى على معسكراتهم الشتوية فى اقليم فان Van حقيقة نجح الفرس من خلال هذه الحملة فى منع البيزنطيين من غزو بلاد فارس ، ولكن هذا النجاح كلفهم كثيرا وغاليا ، فقد دمر جيش شاهين ، وجزء من جيش شهر باراز وجيش Sarablangas وخرجت الكثير من المناطق من تحت السيطرة الفارسية(٣) •

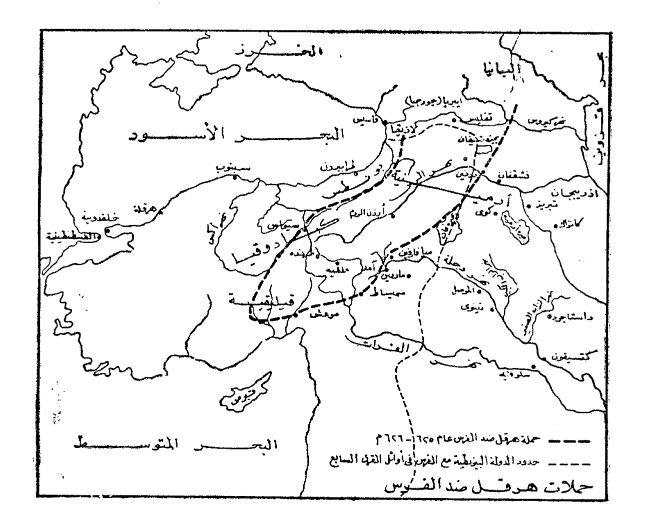
كان على هرقل أن يغادر معسكراته الشتوية فى منطقة بحيرة فان Van وان يعود الى آسيا الصغرى على جناح السرعة ، فقد ترك عاصمته منذ ثلاثة أعوام ، حقيقة أن كل عام منها تميز بانتصارات

---

(١) Sébeos, Histoire, P. 83, Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 480, Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B., P. 725.

(٢) Sébeos, Histoire, P. 83., Theophanis, Chronogrphia, in C.S.H., P. 480., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 725.

(٣) Bréhier, Vie et Mort, P. 51, Stratos, Byzantium, PP. 163-65.



حملات هرقل ضد الفرس

عظيمة ، ومآثر مجيدة ، غير أن جيشه ألم به الضعف من السير المضى على مرأى من الاعداء ، وصعوبة التنقل وقضاء شتويتين قاسيتين فى منطقة باردة وعرة ، ولهذا كان من الضرورى أن يجنح هرقل وجيشه للراحة فى الحقول الخصبة فى آسيا الصغرى ، حيث يسهل عليه قربه من تراقيا الحصول على جنود جدد ، وفى نفس الوقت ينعم جنوده بالدفء . والى جانب ذلك علم هرقل بالاتفاق ، الذى تم بين كسرى والآفار وعلم كذلك بمسير شهر باراز نحو القسطنطينية ومعه جيش جديد للهجوم عليها بالتعاون مع الآفار ، ويضاف الى ذلك الحالة التى ترك عليها مدينته(١) . ولذلك كان على هرقل أن يعود الى قواعده بسرعة ، وان يعبر الفرات ثانية ، حتى يمنع الجيش الفارسى من المرور الى القسطنطينية(٢) .

استدعى الامبراطور مجلس الحرب ، وقرر أن يتحرك الجيش بأسرع ما يمكن وكان أمامه طريقان كلاهما أصعب من الآخر ، وكان عليه أن يسلك أيا منهما ، كان الاول فى اتجاه تارانتوم Tarantum (٣) والآخر فى اتجاه سوريا ، أما طريق تارانتوم فكان أقصر واقرب ولكنه يفتقر الى المؤن . أما طريق سوريا فكانت تتوفر فيه المؤن ، ولكن كان لابد من عبور جبال طوروس المغطاة بالجليد . وتقرر اختيار هذا الطريق الاخير مع ما فيه من صعوبات(٤) ويبدو أن هناك سببا آخر دفع هرقل وجيشه الى اختيار هذا الطريق هو أنه كان أحد الطرق التى يسلكها الفرس عادة عند القيام بغزواتهم ، وبالتالى فمن المحتمل أن يسلك

---

(١) انظر ما يلى فى الفصل الخامس .

(٢) **Lebeau, Histoire, T. XI, PP**. 107-108., Stratos, Byzantium, P. 167.

(٣) مدينة تارانتوم هى مدينة طرنده الآن ، وتقع فى ارمينية على بعد ١٠٠ ك شمال غرب ملطية . انظر : Stratos, Byzantium, P. 409.

(٤) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 481.

الجيش الفارسى المتجه نحو القسطنطينية هذا الطريق (١) .

تحرك الجيش البيزنطى فى أول مارس ٦٢٥م مصطحبا معه عددا من الاسرى الفرس ، وعبر جبال طوروس خلال سبعة أيام ، ثم وصل بعد ذلك الى نهر دجلة بمشقة بالغة ثم عبر النهر وسار نحو ميافارقين Martyropolis ثم آمد (ديار بكر) . وهناك توقف الجيش كله والاسرى للراحة ، واغتنم الامبراطور هذه الفرصة ، وأرسل رسالة الى القسطنطينية قص فيها جميع ماجرى له (٢) .

وكان شهرباراز يترصد للامبراطور ، ولهذا أرسل الامبراطور نخبة من رجال الجيش لتأمين العديد من الممرات ، أما هو فتقدم نحو الشرق مع بقية الجيش تاركا ديار بكر ، وتابع سيره حتى تقابل مع شهر باراز عند الفرات وكان على الفرات جسر من الحبال والاغصان والصوف ، فقطعه شهر باراز وسحبه الى الشاطىء الآخر ، فلما وصل الامبراطور لم يجد الجسر ، ولكنه وجد مخاضة فعبر منها النهر فى نهاية مارس ٦٢٥م ، واحتل سميساط Samosata وتابع سيره حتى وصل الى مرعش Germanicia ،وتقدم الى نهر ساروس Sarus فى قيليقية . أما شهر باراز فقد أعاد الجسر وعبر الفرات بدون مشقة واقتفى آثار الامبراطور ، الذى ما لبث أن عبر نهر Sarus من فوق جسره ، ثم وجد مكانا مناسبا ليستريح فيه الجيش والخيول فعسكر فيه وعلى هذا النحو لم يفصل الجيشان سوى جسر نهر ساروس Sarus (٣) .

أقبل شهر باراز فوجد أن الجسر وابراجه ، قد وقعت فى أيدى البيزنطيين وعلم بأنهم أقاموا معسكرهم على الضفة الشرقية لنهر ساروس Sarus ، وأحس البيزنطيون بقدوم شهر باراز ولهذا عبروا

---

(١) Stratos, Byzatnium, PP. 167-68.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 481., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 725., Lebeau, Histoire, XI, PP. 108-109.

(٣) Theophanis, PP. 481-82., Cedrenus, I, PP. 725-26.

الجسر فى مجموعات هجومية غير منظمة لمحاربة الفرس ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وحاول الامبراطور أن يوقف هذه الهجمات غير المنظمة ، والتى ربما توقع رجاله فريسة فى أيدى الفرس • وقرر شهر باراز أن يستغل ما عليه البيزنطيون من فوضى وسوء تنظيم ، فاخفى رجاله فى كمـائن على حافة النهر ، وغادر معسكره متظاهراً بالهـرب ، وعنـدئذ أسرع البيزنطيون بمهاجمة المعسكر وبملاحقة شهر باراز — على الرغـم من أوامر الامبراطور بألا يتعقبوه — وعندما رآهم شهر باراز يبتعـدون عن النهر ، أدار لهم وجه ، واخذ فى الفرار منهم بدوره ، وعندئذ ظهـر جنود الكمائن واغلقوا عليهم مدخل الجسر ، وفاجأوهم ومزقوهم اربا اربــا (١) •

وبعث هذا النصر الثقة فى نفوس الفرس ، فهاجموا المتـاريس والمعاقل المبنية على الجسر ، وعندما وجد الامبراطور ، ان الفرس يقتلون حرس الابراج والمعاقل فى محاولة منهم للاستيلاء على الجسر ، خـرج لنجدة رجاله ، وانقض على الفرس ، وعبر الجسر بشجاعة بالغة ، على الرغم من قلة رجاله حتى أن شهر باراز نفسه أخذته الدهشة ، وحـاز الامبراطور اعجابه • (٢) وطالت المعركة وقربت الشمس من الغروب ، وعندئذ انفصل الجيشان ، وتراجـع الفرس ، أما الامبراطور فجمـع جيشه ، وذهب الى سيواس Sebastea فى آسـيا الصغرى ، حتى يمكنه مراقبـة التحركات التى يقوم بها الفـرس والآفـار لحصـار القسطنطينية • أما الفرس فقد تحركوا نحو الجنوب حتى يضمنوا طريقا للعبـور الى الشـاطىء المقابل للقسطنطينية • أما كسرى فقد انتابته نوبة الغضب ، وأرسل رجالا يسلبون كنوز جميع الكنائس الواقعـة فى تخومه واجبر جميع المسيحيين على اعتناق مذهب النساطرة ، كيـدا

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 482-83., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 726.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر :

Theophanis, PP. 483-84., Cedernus, I, PP. 726-27.

فى الامبراطور هرقل والى جانب ذلك فرض ضرائب جديدة رغبة منه فى أن يدبر تكاليف حروبه مع هرقل بالاضافة الى احتياجه الى الاموال بعـــد تحالفه من الآفار ، وكان الذهب وحده من أقوى الاسلحة لاقناع الآفار بالتحالف معهم ضد البيزنطيين(١) •

أمر كسرى بالتعبئة العامة وكون جيشا من الاجانب والغرباء ، ومن المواطنين والخدم والعبيد ومن كل الاجناس والطبقات (٢) • ودعم هذا الجيش ببعض القوات النظامية من نخبة رجاله ، واطلق على هؤلاء اسم « جبهة الذهب أو كتائب الذهب Chrysolochas » واطلق عليهم كذلك اسم «حملة الرماح الذهبية» لان رماحهم كانت مطلية بلون الذهب واسند كسرى قيادة هذا الجيش الى شاهين ، وأرسله ضد الامبراطور ، أما جيش شهر باراز فقد ذهب الى القسطنطينية ليتعاون مع الآفـــار فى الهجوم عليها وحصارها (٣) •

وعندما علم الامبراطور بذلك قسم جيشه الى ثلاثة أقسام ، وارسل احدهمـــا الى القسطنطينية لحمايتها من الهجوم الفـــارسى الآفارى ، وأرسل قسما آخر ليقوم بمهاجمة شاهين وهو بقيادة ثيودور شـقيق الامبراطور ، أما القسم الثالث فجعله تحت قيادته ، وذهب معـــه الى منطقة لازيقا Lazica الواقعة جنوب شرقى البحر الاسود حيث أقام مدة ، وحاول أن يتحالف مع الخزر (٤) والشعوب المسيحية فى منطقـــة

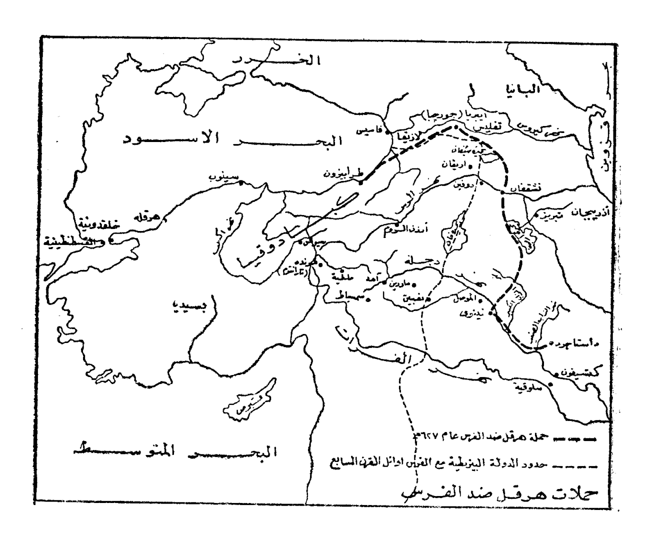
---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 484., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 727. Lebeau, Histoire, XI, PP. 111-12., Finlay, History of Greece, I, P. 344., Stratos, Byzantium, P. 160.

(٢) Theophanis, P. 484., Cedrenus, I, I. 727.

(٣) Cedrenus, P. 727., Theophanis, PP. 484-85.

(٤) الخزر شعب من أصل تركى ، استقروا فى منطقـــة القوقاز فى النصف الاخير من القرن السادس ، واستوطنوا المنطقة الواقعة بين نهرى الدون والفولجا (اتل) . وشهدت بداية القرن السابع قيام امبراطورية الخزر ، وتوسع الخزر على حساب الفرس ، واستولوا على العديد من المدن =



حملات هرقل ضد الفرس

القوقاز للتعاون معه فى شن هجوم مكثف على بلاد فارس ، ويبدو أن ما دفعه الى ذلك — كما سبق أن ذكرنا — هو ما سيطر عليه من فكرة أن القوات البيزنطية عاجزة بمفردها عن قتال الفرس وهزيمتهم تماما ، غير أنه تناسى مدى الذعر الذى ساد فارس بعد أن استنفدت كل الاحتياطى بها ، بل واضطر كسرى الى الاستعانة بالاجانب وبالخدم والعبيد الى جانب السادة والوجهاء ، كذلك يبدو أن هرقل لم يضع فى اعتباره أنه برحيل كل من شهرباراز وشاهين لم يعد هناك جيش فى فارس يدافع عنها •

ذهب هرقل الى طرابيزون Trebizond على البحر الاسود ، وتحرك من هناك الى لازيقا ، ثم ارسل هرقل البطريق اندرياس Andreas الى حاكم الخزر زيبل Ziebil وحمله هدايا عديدة من أجل أن يبحث معه أمر التحالف ، فما كان من أمير الخزر الا أن بعث بسفارة يصحبها الف فارس الى لازيقا حيث يقيم الامبراطور ، وعرضت عليه هذه السفارة كل التفاصيل والترتيبات المتعلقة بالحلف المقترح • وبناء على هذا الرد من جانب حاكم الخزر Ziebil قرر هرقل الذهاب للقائه شخصيا • وتم اللقاء بين هرقل وزيبل Ziebil عند تفليس Tiflis عاصمة ايبريا Iberia (جورجيا الحالية) فى صيف عام ٦٢٧م (١) •

وفى هذا اللقاء قدم زيبل هو ومن معه من الخزر فروض الطاعة والولاء للامبراطور هرقل ، الذى مالبث أن خلع تاجه ، ووضعه على رأس

= التابعة لهم . ولمزيد من التفاصيل عن الخزر انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الترك ، م ٤ ، ص ٨٨ — ٩٠ ، م ١٤ ، ص ٢٥٣

Lebeau, Histoire, XI., PP. 116-17., Note 2.

آرثر كريستنسن ، ايران فى عهد الساسانيين ، ص ٦٣١ ،

Grousset, l'empire des steppes, P. 235., Patkanian Essai, P. 206, Stratos, Byzantium, P. 199.

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., PP. 17-18., Lebeau, Histoire T. XI, PP. 17-18., Patkanian, Essai, P. 207., Stratos, PP. 199-200.

زيبل Ziebil كما خلع عليه خلعة ملكية واقراطا ، ومنح الامــراء الذين كانوا معه اقراطا أيضا وهدايا أخرى (١) .

خشى الامبراطور هرقل أن يفعل معه الخزر ما فعله الآفار معه ، فطلب منهم تأكيد الحلف،وعندئذقدمزيبل Ziebil ابنه الشاب للامبراطور، وكان يبلغ من العمر ١٤ — ١٥ عاما ، ليعلمه ويربيه ، ثم اختــار زيبل أربعين ألف رجل من الاقوياء ، وضمهم الى جيش الامبراطور(٢) ووعده هرقل بأنه اذا انتصر عــلى الفرس سوف يزوجه من ابنته اوداكيا (٣) التىيذكر نيقفوروس أن زيبل ما ان رأى صورتها حتى هام بها حبا وانبهر بجمالها ، وبذلك زاد هرقل فى تأكيد الحلف ، وأصبح جيش الخزر وقائده تحت تصرف الامبراطور (٤) .

أصبح التحالف بين الامبراطورية البيزنطية والخزر خــلال تلك الفترة عاملا هاما فىسياسة بيزنطة ، بل من أهم خصائص الدبلوماسية البيزنطية فى الشرق ، ذلك أن الخزر باعتبارهم حلفــاء للامبــراطور البيزنطى هرقل قد حاربوا معه الفرس ، وحاصر الحليفان تفــليس Tiflis سويا ، وحاول البيزنطيون دك أسوار المدينة ، كمــا حاولوا تحويل مجرى نهر كيروس Cyrus ليحرموا المدينة من المــاء ، وعلى الرغم من المدد الذى بعث به كسرى لاهل المدينة ليدعموا به دفاعها ، وعلى الرغم من الدور الكبير الذى قام به ستيفن Stephen قائد حاميتها

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B. PP. 17-19., Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 486., Cedrenus, Historiarum, I.P. 728. Grousset, L'empire, P. 235.

(٢) Theophanis, P. 486, Cedrenus, Historiarum, I, P. 728.

(٣) يبدو أن هذا الزواج لم يتم ، اذ حدث أن أمر هرقل ابنته أوداكيا بأن تغادر القسطنطينية لاتمام الزواج ، وبينما هى فى الطريق (٦٣١م) شاعت أنباء عن مقتل زيبل ، ولهذا عادت أوداكيا بناء على أوامر من هرقل . انظر :

Nicephorus, Breviarium, P. 25.

(٤) Nicephorus, P. 18.

الا أن المـدينة سقطت فى يد البيـزنطيين والخزر نظرا لطـول مـدة الحصار(١) • ويقال أن خاقان الخزر أرسـل لهرقل رأس ستيفن الذى آثر جانب الفرس على الرغم من كونه مسيحيا أرثوذكسيا(٢) •

قرر هرقل — بعد ذلك غـزو فارس ذاتها مع خلفائـه من الخزر والايبريين وأهل لازيقا Lazica بل وعزم على المسير رأسا الى طسيفون Ctesiphon (المـدائن) عاصمة الفـرس فى حوالى النصف الأول من شهر سبتمبر ٦٢٧م ، وخاصة بعد أن بلغته معلومات عن الضعف الذى ألم بالفرس بل وانتشار السخط بينهم لطول مدة الحرب وبدأ هـرقل سيره من تفليس Tiflis بأقصى ما استطاع من سرعة متجها نحـو الجنوب ، وترجع سرعته هذه الى أنه كان تواقا للقاء جيشه الذى كـان ينتظره فى اقليم Kogovit ، كما كان تواقا أيضا لعبور نهـر الرس Araxes — الذى يصب فى بحر قزوين (بحر الخزر) ويخترق الاراضى الفارسية — قبل أن يحتال الفرس ويحولوا بينه وبين عبوره ، كما أن هناك سببا ثالثا لسرعته وهو أن يعبر منطقة أرمينية البيزنطية بـدون استهلاك موارد تلك المنطقة من خلال عبوره لهـا بهذا الجيش الضخم • وتحققت آمال هرقل وتحقق له ما أراد ، فوصل أولا الى نهـر الرس وعبره ، ثم التقى بجيشه الذى كان قد عبر آسيا الصغرى تحت قيادة أخيه ثيودور — فى منطقة Kogovit على الطرف الشمالى الغربى لبحيرة أرميـة(٣) •

أغار الامبراطور هرقل على بلاد فارس فجأة ومعه الترك (الخزر) فى شهر سبتمبر وقبل حلول فصل الشتاء ، وعندما علم كسرى جمع جيشا

---

(١) Ostorgorsky, The Byzantine Empire P. 18, Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 92., Patkanian, Essai, P. 206.

(٢) Grousset, Histoire d'Armenie, P. 275.

(٣) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 83.; Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 487.

وجعل رازاتوس Rhazatus قائدا عليه وأرسله ضد هرقل[١] • ويقــدر عدد هذا الجيش باثنى عشر ألف مقاتل[٢] •

مضى هرقل على رأس جيش بالغ القوة يقــدر عدد جنوده بحوالى ٧٠ ألف رجل[٣] ، بالاضافة الى ٤٠ ألف فارس من الخزر ، فعبر منطقة Her وزارواند Zarewand [٤] فى أرمينية الفارسية ، وفاجأ قوات كسرى فى اذربيجان Atropatene Media ، وما أن علم الفرس بوجهة البيزنطيين حتى تجمعوا فى اقليم نشقفان Naxcawan ، وبذل Rhazatus [٥] أقصى ما لديه من جهد ، وسار مواصلا الليل بالنهار ليلحق بهرقل وليسد عليــه الطرق المؤدية الى اذربيجان[٦] •

كان هرقل فى عجلة من أمره حتى يصل الى آشور Assyria ليتمكن من عبور جبال الاكراد الوعرة قبل حلول الشتاء ، الذى سيغلق الممــرات بثلوجه ، فبوصوله الى آشور ومهما كانت حالة الجو فانه سوف يتمكن من السير الى طسيفون Ctesiphon بلا عقبات[٧] • وبذل رازاتوس Rhazatus جهــدا كبــيرا فى ســبيل اعاقة هرقل ومنعــه من النزول الى آشــور على أنه لم يخطط لمنعه وذلك لأنه كان ينتظر آخر تعــزيزات وعده بهــا كسرى حتى يستطيع القيام بهجوم مضاد ، هذا فضلا عن أنه كان يقتفى آثار البيزنطيين فى أرض استنفد البيزنطيون كل ما بهــا من مؤن ، ولم

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B. PP. 487-88.

(٢) الطبرى ، الرسل والملوك ، جـ٢ ، ص ١٨٣ .

(٣) الطبرى ، الرسل ، جـ٢ ، ص ١٨٣ .

(٤) اقليمان من الاقاليم التسعة التى تتبع أرمينية الفارسية ، يقــع هير Her فى الشمال الغربى من بحيرة ارمية وله حد مشترك مع تبريز ، ويقع زارواند Zarewand جنوب هــير Her وغرب بحيرة ارمية .

انظر : Stratos, Byzantium, P. 399.

(٥) تكتب ايضا Razatis و Rusati, Roc-Vehan

(٦) Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 83-84.

(٧) لمزيد من التفاصيل انظر :

Sébeos, P. 84, Stratos, PP. 208-209.

يتركوا لجيشه شيئا ، ولذلك هلكت الكثير من خيوله ومن جنوده جوعا ، وظل لوقت طويل غير قادر على خوض غمار المعركة(١) .

وصل هرقل بجيشه الى اقليم Chamaetham الذى يتاخم نهــــر الزاب الكبير فى شهر أكتوبر ، وأراح جيشه به لمدة سبعة أيام ، ثم استأنف الجيش المسير . وفى أول ديسمبر عبر الامبراطور الزاب الكبير وأقام معسكره بجوار نينوى Niniven (٢) ، وكان رازاتوس فى أعقابهم ، غير أنه لم يستطع عبور النهر من نفس المخاضة ، التى عبر منها البيزنطيون ، لأنه من المحتمــل أن البيزنطيين كانوا يحرسونها ، ونجح رازاتوس فى عبور النهر من ممر على بعد ثلاثة أميال من النهر ، وأقام معســكره على مقربة من النقطة التى يلتقى فيها الزاب بنهر دجلة(٣) .

وما ان علم هرقل بوصول رازاتوس Rhazatus حتى أرسل دوريات مستمرة للحصول على معلومات عن الفرس ، ثم أرسل الامبراطور قائد الجيش ويدعى Baanes وهو أرمنى الاصل مع نخبــة من رجال جيشه ، فاحاط هؤلاء بفرقة فارسية وطوقوها ، وقتلوا عددا كبيرا من أفرادها ، ومن بينهم قائد الفرقة نفسه وجاءوا الى هرقل برأسه وسيفه ، وبستة وعشرين أسيرا من بينهم حامل سلاح رازاتوس ، فسأله هرقل عن خطط سيده ، فأخبره أن لديه أمرا بالقتال ، غير أنه ينتظر ما أرسله كسرى من مدد يقدر بثلاثة آلاف رجل ، وأنهم لم يصلوا بعد(٤) .

عزم الامبراطور على اجبار الفرس على خوض غمار المعركة قبــل وصول الامدادات اليهم ، فجمع جيشه وصف الصفوف وخطب فى الجند ،

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.SH.B., P. 488., Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B, P. 730.

(٢) نينوى : مدينة كبيرة تقع على الشاطىء الشمالى لنهر دجلة قبالة الموصل الحالية ، وعند التقاء الزاب بدجلة .

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 488-89. Cedrenus, Historiarum, I in C.S.H.B., P. 730.

(٤) Theophanis, P. 489., Cedrenus, P. 730.

واضطر رازاتوس الى تقسيم جيشه الى ثلاث مجموعات ومضى لمواجهة الامبراطور ، واشتعلت المعركة بين الطرفين فى ١٢ ديسمبر وكانت معركة ضارية أظهر كلاهما خلالها عزيمة وشجاعة • وتعرض الفرس لخسائر فادحة اذ سقط رازاتوس قائد الفرس فى المعركة مع ثلاثة من قادتهم وكبار ضباط الجيش الذى فنى عن آخره • واستولى البيزنطيون على ثمانى وعشرين راية من رايات الفرس(١) •

هدأت المعركة بعد ذلك، وعاد الفرس الى معسكرهم ، ثم مالبثوا أن انسحبوا الى سفح جبل فى شمال نينوى خائفين وسلب البيزنطيون جثث القتلى الفرس ، وكان من بين أسلابهم سيوف كثيرة ورماح وأحزمة مرصعة بالذهب الخالص والاحجار الكريمة ، ووقع فى أيديهم كذلك خوذة القائد الفارسى رازاتوس Rhazatus ودرعه المذهب ورمحه(٢) •

كان الانتصار الذى حققه البيزنطيون فى نينوى عظيما ، اذ فتح الطريق أمامهم الى طيسيفون Ctesiphon عاصمة الفرس ، وأصبحوا على مقربة منها • غير أن البيزنطيين بدأوا يشعرون بالتعب فلم يطاردوا الفرس الهاربين الى التلال ولم يتعقبوهم(٣) • وفى ٢١ ديسمبر ٦٢٧م علم الامبراطور بأن كسرى أرسل الامدادات ممثلة فى ثلاثين ألف رجل الى الجيش الفارسى المنهزم فى نينوى ، وأنهم يتبعون الامبراطور عن كثب ، فيما كان من هرقل الا أن احتل نينوى أولا ، ثم غادرها سائرا على طول الضفة الشرقية لنهر دجلة ، ولكنه كان مضطرا لأن يؤمن عبوره لأن الطريق الى طيسيفون شقت به القنوات لرى المنطقة ، وقد عرقلت تلك

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 489-90.

وانظر ايضا : Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 731.

الطبرى ، الرسل ، ج٢ ، ص ١٨٣ •

Nicephorus, Breviarium, I, P. 731.

(٢) Theophanis, P. 491., Cedrenus, I, P. 731.

(٣) Bréhier, Vie et Mort, P. 52., Stratos, Byzantium, P. 213.

القنوات سير البيزنطيين ، وعبر هرقل الزاب الكبير ، ثم تقدم الى الزاب الصغير فى منطقة وعرة دون أن يعلم كسرى عن خطته شيئا ، وعندما وصل هرقل الى مسافة ٧٥ك٠م من الزاب الصغير أرسل قائد قواته ويدعى جورج Georgios ومعه فرقة من الفرسان تقدر بحوالى ألف فارس للاستطلاع ، ونجح جورج فى الاستيلاء على أربعة جسور على نهر الزاب ، واكتملت المفاجأة حينما اسر جميع الفرس الذين تولوا حراسة تلك الجسور ثم عبر هرقل الزاب الصغير فى ٢٣ ديسمبر ، ونزل معسكره بالقرب من قصر Yesdem حيث أراح جيشه وكذلك خيله ، وحيث احتفل بعيد الميلاد هناك(١) •

وعندما علم كسرى باحتلال البيزنطيين للجسور الاربعة التى على نهر الزاب الصغير ، وأنهم عبروا هذا النهر ، أصدر أوامره الى الجيش بأن يقطع الطريق على البيزنطيين فى الحال ، فعبر الجيش الفارسى نهر الزاب ، وترصد للامبراطور فى جانب آخر من النهر • أما هرقل فقد غادر قصر Yesdem فى ٢٦ ديسمبر ، وذهب الى قصر آخر من قصور كسرى يعرف باسم Rusa أو Rousa ودمره ولما لم يجد مقاومة من الفرس فقد تبع مسيره حتى عثر على قصر ثالث من قصور كسرى وهو Beglali فاستولى عليه ، وعلى ما به من تحف ، وعلى ما بحديقته من حيوانات • وجاء الى هرقل بعض الارمن المقيمين فى فارس ، وأخبروه أن كسرى يعسكر بفيلته وجيشه بجوار قصر داستاجرد Dastagerd (٢)

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 492., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 731.

(٢) داستاجرد أو داستكرد او الدسكرة كما يسميها العرب ، مدينة قوية التحصين فى فارس ، تقع على مسافة ١٠٧ ك٠م من طيسيفون ، وقد اتخذها ملوك الفرس كمقر لاقامتهم منذ القرن السادس الميلادى واقام بها كسرى منذ عام ٦٠٦ م وكان بها كنوزه . ويرجع سبب اقامة كسرى بها الى أن المنجمين تنبأوا له بأن هلاكه سوف يكون فى طيسيفون .
انظر :
Lebeau, Histoire, T. XI., P. 137., Sir persy, Hist. of Persia, P. 485. Stratos, Byzantium, PP. 215, 395.

حسن بيرنيا ، تاريخ ايران القديم ، ص ٢٧٥ ،
آرثر كريستنسن ، ايران فى عهد الساسانيين ، ص ٤٣٨ .

وعندئذ استشار الامبراطور رجاله وقرر أن يظل فى قصر Beglali (١) •

وأكد بعض الرعاة الذين قبض عليهم هرقل ، أن كسرى فى قصر داستاجرد منذ ٢٣ ديسمبر ، ولهذا بعد أن مكث هرقل فى قصر Beglali من يومين الى ثلاثة أيام ، أرسل نصف جيشه الى دا ستاجرد Dastagerd فى حين سار هو فى طريق آخر يدمر القصور الملكيـــة المختلفة • ودخل الجيش البيزنطى داستاجرد فى ٤ يناير ٦٢٨م ، فى حين وصل اليها هرقل فى اليوم التالى ، وعندئذ اضطر كسرى أن يغـــادر قصره فى داستاجرد ويلجأ الى طيسيفون Ctesiphon (٢) •

استولى هرقل على قصر داستاجرد Dastagerd وما وجد به من كميات هالة من الاموال والعطور والحرائر ، والفلفل ، والسكر ، والزنجبيل والبسط المزخرفة ، وكميات من خشب العود ، ومن الذهب والفضـــة • ونظرا لكثرة تلك الاشياء وعدم قدرة البيزنطيين على حملها كلهـــا فقد أحرقوها بالنار ، كما أحرقوا معسكر كسرى • ووجد البيزنطيون فى قصر داستاجرد ثلاثمائة راية بيزنطية ، كانت قد وقعت فى يد الفرس أثنـــاء المعـــارك معهم ، هذا وأطلق الامبراطور سراح كثـــير من أسرى الرها والاسكندرية وغيرهما من سائر المدن البيزنطية التى دمرها الفرس بأعداد هائلة والذين وجدهم فى المدينة•ثم أراح الامبراطور رجاله ، واحتفل بعيد الغطاس فى السادس من يناير ، ودمر باقى قصور كسرى الضخمة الفخمة العجيبة والعامرة بكل غريب ومذهل ومدهش ، وكانت قصـــورا رائعة البناء ، فسوى بها الارض ، ليجعل كسرى يشعر بالذعر والخوف الذى شعر به البيزنطيون عندما هدم هو مدنهم وخربها(٣) •

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 492-93.
Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 732.

(٢) Theophanis, PP. 494-95., Cedrenus, I., P. 732.

(٣) Theophanis P. 492.

وانظر أيضا : Lebeau, Histoire, T.XI ; PP. 138-39.

آرثر كريستنسن ، ايران ، ص ٤٥١ •

وعلم الامبراطور من أعون كسرى أنه غادر داستاجرد منذ تسعة أيام وأنه عندما علم بقدوم البيزنطيين فتح ثغرة فى سور المدينة بالقرب من القصر وهرب هو وزوجاته المفضلات وأولاده ، بدون أن يشعر به لا جيشه ، الذى كان قريبا منه ، ولا وجوه شعبه وأشرافه ، وعندما أصبح على مقربة من داستاجرد أمرهم بأن يحملوا الفيلة والجمال والبغال بكل ما تستطيع حمله من ثروته ، كما أمر الجيش بدخول القصر وبيوت النبلاء ، وأن يجمعوا ما يستطيعون جمعه ، ويلحقون به الى طيسيفون Ctesiphon (١) ، على أن كسرى لم يشأ أن يمكث فى طيسيفون وذلك لأن أحد العرافين سبق أن تنبأ له منذ أربع وعشرين سنة أنه اذا عاد الى طيسيفون فسوف يموت ، ولذلك لم يشأ كسرى قط أن يبتعد عن داستاجرد ، ولكنه اضطر الى ذلك اضطرارا • وعبر كسرى نهر دجلة ، ولم يرض أن يمكث فى طيسيفون وأقام فى مدينة يسميها البيزنطيون سلوقية Seleucia (٢) ويسميها الفرس Guedeser ووضع فيها أمواله وزوجته شيرين وثلاثا من بناته ، أما زوجاته الاخريات وأبناؤه الكثيرون فقد أرسلهم الى مكان حصين على بعد أربعين ميلا الى الشرق من سلوقية Seleucia (٣) •

ومع أن هرقل كان فى مركز القوة اذ كان هو المنتصر الا أنه عرض على كسرى الصلح وعقد اتفاقية سلام وكتب اليه يقول : « لندع السلاح ، ونسعى الى الصلح ، ونطفأ النيران قبل أن يحترق كل شىء » • غير أن

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 495-96.

(٢) مدينة سلوقية Seleucia تقع على الجانب الايمن لنهر دجلة ، بناها سلوقس واعاد بناءها ازدشير الاول ولذلك سميت باسم Veh Ardasher وتشكل هذه المدينة مع مدينة طيسيفون ، التى تقع على الجانب الايسر من نهر دجلة عاصمة الفرس أو المملكة الفارسية . وقد أطلق عليها المسلمون اسم (المدائن) . انظر :

Lebeau Histoire, T. XI. P. 140 ;, Stratos, Byzantium, P. 408.

(٣) Theophanis, P. 496, Cedrenus, Historiarum, I., in C.S.H.B., PP. PP. 732-33.

كسرى رفض بنـــود الصلح التى تمثلت فى العودة الى حدود عام ٦٠٢م واطلاق سراح الاسرى(١) •

ويبدو أن ما دفع هرقل الى طلب الصلح هو أن الامبراطور قضى خمس سنوات فى معسكرات وساحات قتال ، عبر آسيا الصغرى ، واقليم القوقاز ، وهو الآن يغزو فارس ، وكانت حياته فى خطر دائم ، وجرح عدة مرات،هذا فضلا عن أن أحواله المالية كانت سيئة بسبب تكاليف الحرب المستمرة ، على الرغم من مســاعدة الكنيســة له • ويرى استراتوس Stratos أن الامبراطور طلب الصلح من كسرى عقب معركة نينوى ، وأنه أرسل بذلك لكسرى من يسدم Yesdem ، ولم يرسله من داستاجرد لأنه كان ينتظر فى ذلك الوقت رد كسرى على عرض الصلح ، وأنه أحرق مدينة داستاجرد كعمل انتقامى عقب رفض كسرى الصلح والسلام(٢) •

كان رفض كسرى عروض الصلح مدعاة لاحتقار أتباعه له ، ولنقمة شعبه عليه اذ أن كسرى حاول حشد جيش آخر ، فسلح جميع من وجد من رجــاله ، وأمرهم بالانضمام الى ما تبقى من جيش رازتوس Rhazatus وأمرهم كذلك بعبــور النهــروان Narba, Arba على جسر من الخشب والحجارة ثم يدمرون الجسر ويهاجمون هرقل عند عبوره النهر(٣) •

غادر الامبراطور داستاجرد Dastagerd فى السابع من يناير ، ثم عسكر على بعد اثنى عشر ميلا من قناة النهروان Nahr-wan حيث تجمهر جيش الفرس • وأرسل هرقل قائد لوائه ويدعى جورج Georgios بفرقة عســكرية للاستطلاع ، وكتبت فرقة الاستطلاع تقــريرا جاء فيه : أن الفرس احتلوا الضفة الغربية لقناة النهروان ، وقطعوا الجسور ، وأن مستوى المياه فى القناة كان مرتفعا ، وبالتالى فليس هناك مخاضة فى القناة

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 498.

(٢) Stratos, Byzantium, PP. 216-17.

(٣) Theophanis, P. 498, Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., PP. 733-34.

يمكن العبور منها(١) .

وكان على هرقل أن يقرر ما اذا كان يستمر فى حملته ، ويحـاول عبور قناة النهروان بالقوة ، أم أنه سينسحب ويتراجع . وكان القـرار صعبا ، فعلى بعد عدة أميال وراء هذه القناة تقع عاصمة الفرس طيسيفون Ctesiphon التى على الرغم من أن نهر دجلة قد شطرها ، الا أنها ظلت مدينة واحدة ، وقرر مجلس الحرب الهجوم على طيسيفون ، ولكن يبدو أن هناك عدة أسباب ، حالت بينهم وبين الهجوم عليهـا ، ومن بينهـا أولا : أن الفرس قطعوا الجسور مع عدم وجود مخاضة أو مكان يمكن منه عبور قناة النهروان ، وثانيا : الخطر الذى يشكله جيش شهرباراز الموجود فى خلقدونية ، والذى استدعاه كسرى لمساعدته . وثالثا : يبدو أن البيزنطيين كانوا ينتظـرون التطورات السياسية فى فارس ورأى البيزنطيون انتصارهم فى تتبع الانقسامات والنزاعات داخل الامبراطورية الفارسية أكثر من المخاطرة بالهجوم على عاصمتها الآهلة بالسكان(٢) .

وبالنسبة للسبب الاول فان قطع الجسور ، والفشل فى ايجاد مخاضة لعبور قناة النهروان كان سببا هاما وخطيرا جدا ، ولكن كان فى وسـع الجيش أن يعبر القناة سباحة أو أن يقيم عليهـا جسرا سريعا هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان على هرقل ألا يخشى من جيش الفـرس الذى كان يتكون من بقايا جيش رازاتوس Rhazatus مع بعض الامدادات التى أرسلها كسرى والتى تتكون من العبيد والخدم والاجانب ، كان جيش الفرس جيشا بلا ضباط يفتقر الى الخبرة وروح التنظيم . أما بالنسبة للخطر الذى كان من المحتمل أن يتهدد البيزنطيين من جانب شهرباراز ، فان مسير جيش شهرباراز من خلقدونية الى طيسيفون ، كان يحتاج منه الى شهرين أو ثلاثة أشهر حتى يحشد جيشه ويتحرك من مكانه ليقطـع

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 499., Chronique de Seert, Second partie, in P.O., T. XIII, P. 541.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 83, Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 499.,
Finlay, History of Greece, Vol., I, P. 345.

عدة أميال عبر الاراضى البيزنطية المعادية له ، ثم أنه سوف يصل بجيشه مجهدا متعبا من طول الرحلة ، ومن ثم يبدو أن جيش شهرباراز لم يكن يشكل خطرا كبيرا على البيزنطيين مما يحول بينهم وبين الهجــوم على العاصمة الفارسية[١] •

أما بالنسبة لمسألة انتظار ما تسفر عنه التطورات السياسية ، فيبدو أن هذا هو السبب الارجح ، فمما لاشك فيه أن البيزنطيين كانوا على علم بمدى كراهية الفرس لكسرى ، وعلى علم بالثورات والمؤامرات التى كانت تحاك ضده ، ولهذا فان انتظار ما تسفر عنه الاحداث السياسية كان واحدا من الاسباب الهامة بل والرئيسية،التى جعلت البيزنطيين يتلكأون فى الهجوم على طيسيفون وينتظرون وقتا طويلا لمراقبة التطورات السياسية •

وفى ربيع عام ٦٢٨م ، وقع ما جعل المضى فى الحرب والقتال أمرا لاداعى له ، ولهذا أراح هرقل قواته وانتظر ما يحدث • فقد قامت ثورة ضد كسرى انتهت بعزله ، والحقيقة أن هناك أسبابا كثيرة لهذه الثورة من بينها استمرر الحرب مع البيزنطيين لفترا تطويلة ، وما ترتب على ذلك من ضياع خيرة قواد فارس ، وما وصل اليه اقتصادها من حالة ســيئة تدعو الى اليأس ولم يكن كسرى يرغب فى استنزاف خزائنه التى ملأها ، من أجل أن يغطى نفقات الحرب المتزايدة ، ولهذا لجأ الى فرض الضرائب ، والاكثر من ذلك أنه جمعها بقسوة مما تسبب فى ثورة شعبية ، الى جانب ذلك غضب عليه المسيحيون فى فارس فبعد ان كان يحسن معاملتهم أقسم على أنه : « اذا انتصر لن يدع فى بلاده لا كنيسة قائمة ولا ناقوسا »[٢] • ولذلك انقلب عليه المسيحيون ووقفوا الى جانب الفرس أنفسهم • ومن ناحية ثالثة فان هروب كسرى من داستاجرد ، ورفضه لمقترحات الســلام التى عرضها هرقل واصراره على مواصلة حرب لا أمل فيها ، ومعاملته

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر :
Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 83.
Stratos Byzantium, PP. 218-19.

(٢) Chronicon Anonymum (ed.) Guidi in C.S.C.O. P. 24.

السيئة للضباط الذين فروا أثناء الحرب مع البيزنطيين ، لكل هذه الاشياء عزم الفرس على اتخاذ موقف ضده[١] .

كان لكسرى أبناء كثيرون فتجاوز أكبرهم وهو شيرويه — وهو ابنه من ماريا ابنة الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) — وعزم على تنصيب مردانشاه Merdanshah وهو ابنه الاصغر من شيرين وقد أغرته الاخيرة على ذلك . ولما علم شـيرويه بنيـة أبيـه فى تتويج أخيه مردانشـاه عـزم على الدفاع عن حقـوقه ، واسـتوثق من مسـاعدة القـائد العـام للقوات الفارسـية ويدعى Gundabunus أو كشنسب اسباد Gushnasp Aspadh [٢] ووعـد شـيرويه كشنسب اسـباد بأن يحترمه وكذلك سائر قواد الجيش ، وأن يرفع روتب الجند ، وأنه سوف يعقـد معاهدة سلام مع البيزنطيين ، وسوف يصبح كل شىء على ما يرام اذا ما قام الجيش وأعلنه ملكا[٣] .

وفى الوقت نفسه أخبر كشنسب البيزنطيين بالاعداد للثـورة بأن أرسل الى هرقل قائدا يدعى راس Ras ، فأرسل هرقل الى شيرويه يطلب منه فتح السجون ، واخراج الاسرى البيزنطيين الذين لديه وتسليحهم ليساعدوه فى مهاجمة كسرى ، وكان أن أطاع شيرويه أوامر الامبراطور وفتح « قلعة النسيان » وأخرج منها عددا كبيرا من الاسرى[٤] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Sir Persy, History of Persia, P. 486.

آرثر كريستنسن ، ايران ، ص ٤٧٤ .

Stratos, Byzantium, PP. 223-25.

حسن بيرنيا ، تاريخ ايران ، ص ٢٧٥ .

(٢) يذكر ثيوفانيس انه اخوه فى الرضاعة انظر :

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 499.

(٣) Theophanis, PP. 499-500., Zanoras, Epitomae, T., 3 in C.S.H.B., P. 211.

Lebeau, Histoire, XI, PP. 140-47.

آرثر كريستنسن ، ايران ، ص ٤٧٤ — ٤٧٥ ، حسن بيرنيا ، تاريخ ايران ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٤) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 500-502.

ارثر كريستنسن ، ايران ، ص ٤٧٥ .

Stratos, Byzantium, PP. 225-26.

وما لبث شيرويه أن دخل طيسيفون ومعه القادة والضباط ، وكذلك من أطلـق سراحهم ، حـاول كسرى الهـروب ولكنـه لم ينجـح فى ذلك ، اذ ألقى القبض عليه ، وقيد بالسلاسل ، وألقى فى بيت مظلم عرف باسـم كذك هندوك (أى بيت الهندى) وكان كسرى قد بنى هذا البيت ليخفى فيه أمواله وكنوزه • وفى اليوم الخامس للقبض على كسرى أمـر شيرويه بقتله[1] •

وتوج شيرويه ملكا على الفرس فى ٢٥ فبراير ٦٢٨م فى حضور كبار رجال المملكة ، وبعد أن تخلص من كسرى ، انشغل بعقد اتفاقية سلام وصلح مع البيزنطيين ، فاستدعى المرازبة فى مملكته ليدعوهم الى ضرورة عقد السلام مع الامبراطور البيزنطى ، وقد وافقوا جميعـا على ذلك ، وبالفعل أرسل شيرويه خطابا الى هرقل ، حرره خوسدا Chosdae وهو كاتب فارسى والسكرتير الخاص لشيرويه ، وقد حمل هذه الرسـالة راس Ras مع هدايا كثيرة[2] • وشاهدت السفارة الفارسية خلال رحلتها جثث كثيرة من الفرس يبلغ عددها حوالى ثلاثة آلاف قتلهم البيزنطيون فى نواحى النهروان ، وعندما وصل السفراء Arman فى جنوب سفح جبال زاجروس فقدوا شجاعتهم ، وخشى رئيسهم ألا يستطيع انجاز مهمته نتيجة لظروف الشتاء والاحوال العامة ، ولهذا أصدر أوامره لشخص فارسى وآخـر أرمنى ليتصلا بالبيزنطيين ، وقبضت الدوريات البيزنطيـة على هذين الرسولين فى اذربيجان ، وأخذا فى ٢٤ مارس الى المعسـكر البيزنطى فى كانزاك Ganzaca ، وأمر الامبراطور هرقل القـائد اليـاس Elias وثيودوروس Theodorus مع عدد من الحرس وعشرين من الخيـل أن

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول مصير كسرى انظر :
Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 85.
اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ص ١٧١ — ١٧٢ .
Theophanis, Chronographia, P. 520, Nicephorus, Breviarium, P. 22.
Zanoras, Epitomae, 3, P. 211., Cedrenus, Historiarum, I, P. 734.
ارثر كريستنسن ، ايران ، ص ٤٧٥ .

(٢) Sébeos, Histoire, d'Heraclius, P. 86, Chronicon Paschale, P. 730.

يقابلوا السفارة الفارسية ، ويحضروها فى أمان اليه(١) .

لم يستطع البيزنطيون اجتياز جبال زاجروس لأن الثلوج كانت تسد الممرات ، ولكن أنقذهم من هذه الثلوج رجل جاء من احدى قلاع الفرس ومعه الخيول ، وأخرجهم من الثلوج . ومع ذلك فلم يتمكنوا من الاتصال بالسفراء الفرس الذين أرسلهم شيرويه بسبب كثـافة الثلوج . هذا فى الوقت الذى أرسل فيه هرقل الرسول الفارسى الذى بعث به راس Ras الى حاكم كانزاك Ganzaca ويدعى باريسمان Barisman وأمر الاخير بأن يجهز سبعة خيول للسفراء ليتمكنوا من العـودة فور وصـولهم الى شيرويه ، وردباريسمان بأنه لن يتونى فى اعداد الخيول التى أمر بهـا هرقل ، وأنه سوف يأتى فى الحال ومعه هذه الخيول ، كماأنه على استعداد أن يقدم له كل الخدمات(٢) .

وفى تلك الاثناء نفد صبر شيرويه وشعر بالقلق ، ولهذا أرسل رسولا آخر يدعى فايك Phaiac أو Phaiak الى الامبراطور هرقل ، ووصـل هذا الرسول الى مدينة كانزاك Ganzac فى مساء السبت عيد القيـامة ، واستقبله هرقل فى اليوم التالى الأحد الموافق الثالث من ابريل عام ٦٢٨م ، وقام الرسول الفارسى بتسليم هرقل مذكرة من ملكه شيرويه أعلن فيها ارتقاءه العرش ورغبته الاكيدة فى عقد معـاهدة الصلح والسـلام مع الامبراطور هرقل والبيزنطيين(٣) . وعامل هرقل السـفارة الفارسية وخاصة فايك Phaiac برفق ، وأعطاه ردا مكتوبا لشيرويه ، اعترف فيـه

---

(١) Chronicon Paschale, PP. 730-31.

(٢) Ibid., PP. 732-33.

(٣) وفى هذا الخطاب خاطب شيرويه هرقل على انه اخيه مستخدما الاصطلاح الرسمى ومشيرا الى المساواه الفعلية المعترف بها نظـريا بين الحاكمين .

انظر نص هذا الخطاب فى :

Chronicon Paschale, PP. 735-36.

Oikonomides, «**Correspondance between Heraclius and Kavad-Siroe**» dans Byzantion (1971) P. 277.

والترجمة العربية فى الملاحق .

هرقل بشيرويه ملكا للفرس ، وأشار اليه على أنه ابنه ، ليشير بذلك الى سمو مكانته اذ أصبح هرقل الاب الروحى لملك الفـــرس • وأكد هرقل لشيرويه أنه لم يفكر قط فى الاستيلاء على الاراضى الفارسية لا من كسرى ولا منه ، وذكر له أنه على الرغم من الجرائم التى اقترفها كسرى فى حق الفرس والبيزنطيين فان كسرى لو كان وقع فى يده لعامله كضيف،وأنه لم يكن ليعتدى عليه ولا على كرسيه ، غير أن الله أنزل به العقاب الذى يستحقه ، ومنحنا نحن السلام والوفاق(١) •

وفى الثامن من ابريل وجه الامبراطور هرقل الى السناتو وشعب القسطنطينية تقرير النصر من معسكره فى كانزاك Ganzac فى خطـــاب أوردت الحوليـــات الفصحية Chronicon Paschale النص الكامل له ، وقد أطلعهم هرقل فى هذا الخطاب على التطورات التى حدثت فى الجبهة الشرقية ممثلة فى موت كسرى واعلان شيرويه ملكا ، وسفارة شيرويه اليه عارضا السلام • وقرأ هذا الخطاب من فوق منبر القديسة صوفيـــا يوم الاحد الموافق عيد العنصرة (١٥ مايو ٦٢٨م) وسط حماسة عامة(٢) •

ثم أرسل هرقل ممثله Eustathius محملا بهدايا كثيرة مع فايك Phaiak الى شيرويه وعهد اليه بحمل شروط الصلح الممثلة فى اعادة الحدود الى ما كانت عليه فى عام (٥٩١م) والمتفق عليها بين كسرى وموريس ، وبالتالى الجلاء عن جميع الاراضى التى احتلها الفرس ، واطلاق سراح الاسرى مع الضمانات الكافية لعودتهم آمنين سالمين الى أوطانهم ، فضلا عن اعادة عود الصليب ، الذى سبق أن أخذه شهرباراز من بيت المقدس ،

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 23., Oikonomides, **Correspondance**, P. 276.

(٢) انظر النص الكامل لهذا الخطاب فى :
Chronicon Paschale, in C.S.H.B., PP. 727-34.
وانظر أيضا :
Oikonomides, **Correspondance**, P. 269.

فى عام ٦١٤م(١) •

تركت هذه السفارة كانزاك Ganzac فى الثـامن من ابريل ، وقدم Eustathius الهدايا لشيرويه ، واستقبله قباد بفرح وسرور ، وأكد له من جديد ضرورة السلام ، وأكد الحدود المتنازل عنها بختم وقسم معه ، كما أعطى أمرا فى حضوره بأن يكتب الى شهرباراز بأن يجلو عن الاراضى البيزنطية ويعود الى فارس ، ثم صرف شيرويه Eustathius محمـلا بالهدايا وبذلك قبل شروط هرقل جميعهـا • وأكثر من ذلك ، وعد باعادة الصليب المقدس ، وأمده بمعلومات تتعلق بمصير السفراء ، الذين سبق أن أرسلهم هرقل الى كسرى بصحبة شاهين(٢) •

وبهذا الصلح انتهى ذلك الفصـل الطويل من الحـروب الفارسية البيزنطية وانتهت به أيضا صفحة من صفحات النزاع بين الشرق والغرب ، وبدأت الامبراطورية البيزنطية فى عام ٦٢٨م،وقد تم انتصارها على فارس عدوها القديم ، وكأنما أصبحت ذات نفوذ مطلق اذ أمسى عدوها سـاجدا عند قدميها • غير أنه مما تجدر الاشارة اليه أن قبـول هرقل لمقترحات السلام ورغبته الاكيدة فيه انما ينم عن أمله فى العودة الى بلاده ليمحو آثار الحروب ، وليلتفت الى ما كانت الامبراطورية فى حاجة اليه من اصلاح فى كافة المجالات فضلا عن حرصـه على استعادة حدود الامبراطورية فى عـام ٥٩١م ، وذلك أكثر من رغبتـه فى كسر كبرياء فارس ومحـاولة اضعافها (٣) •

---

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 86,
Chronicon Paschale, P. 734., Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 23., Oikonomidés, Correspondance, P 280.

(٢) Sébeos, P. 87, Chronicon paschale, P. 734,
Oikonomides, Correspondance, P. 280.

(٣) عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٩ •
Finlay, History of Greece, Vol., I, P. 345.

عودة الامبراطور هرقل الى العاصمة :

بدأ الامبراطور هرقل وجيشه رحلة العودة الى الوطن فى الثامن من ابريل ٦٢٨م مفاخرا بانتصاره سعيدا بالسلام ، الذى تحقق وفقا للشروط التى وضعها على أنه قبل أن يغادر مدينة كانزاك Ganzac قام باطلاق سراح جميع الاسرى ، كما أمر باطلاق سراح جميع الفــرس ، الذين تم أسرهم فى الاراضى البيزنطية . ثم أرسل أخاه ثيودور على رأس الاسرى الذين كانوا فى حوزته ، ليوصلهم الى حدود فارس ، ليعودوا الى وطنهم فى سلام ، وأمر هرقل ثيودور كذلك بأن يأذن للفرس المقيمين فى فلسطين وسوريا وما بين النهرين والمدن الاخرى بالعودة ســالمين الى فارس ، وبتصريح رسمى عبر الأراضى الامبراطورية (١) .

عاد هرقل الى القسطنطينية فى السنة السابعة بعد أن قضى ست سنوات فى حروبه مع الفرس ، ويذكر المؤرخون البيزنطيون أن هرقل بعد أن أرهق بلاد فارس بالحروب لمدة ست ســنوات ، ســالما فى الســنة السابعة ، وعاد الى القسطنطينية ، وكما أن الله خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع ، فان هرقل كذلك بعد أن قضى ست سنوت فى حروب ومتــاعب ، عاد الى عاصمته فى الســنة الســابعة ليستريح ، هذا مع الفارق (٢) .

استقبل الامبراطور خــلال رحلة العــودة الى العاصمة بالحماس والهتاف والعواطف الجياشة ، وحياه أهالى المدن والقــرى ، على طول

---

(١) Sébeos, Histoire, P. 86., Theophanis Chronographia, in C.S.H.B., P. 503.
Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 735.
Zanoras, Epitomae, 3, in C.S.H.B., P. 211.
محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ص ٣٣٩ ، ٤٦٥ .

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 503,
Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B., P. 735.,
Zanoras, Epitomae, 3, in C.S.H.B., P. 212.

الطـــريق بدموع الفرح ، بينما كانت الكنائس تدق أجراسها ، ووصـــل الامبراطور الى قصر هيريا Hierea على مقربة من خلقدونية فى سبتمبر عام ٦٢٨م ، وعندما علم سكان القسطنطينية وأهلها بأن الامبراطور على وشك الوصول ، خرج الجميع لاستقباله على الشاطىء المقابل للبوسفور ، وفى أيديهم أغصان الزيتون والشموع والمشاعل واستقبلوه بدموع الفرح وصياحه فى آن واحد • وكان فى شرف استقبال الامبراطور رجال البلاط والسناتو ، ورجال الدين وعلى رأسهم البطريرك سرجيوس Sergius وكذلك ابنه قسطنطين الذى بلغ من العمر حينئذ ستة عشر عاما • وما لبث الحـــرس الامبراطورى أن ظهـــر وبرفقته الامبراطور هرقل ، وأسرع قسطنطين نحو والده ، وسجد بين قدميه ، ثم ألقى بنفسه فى أحضـــانه وعانقه بشوق زائد • هذا فى الوقت الذى كان فيه شـــعب المدينة يهلل ويصرخ فرحا وابتهاجا ، بينما كان الرهبان ينشدون التراتيل الدينية شكرا لله (١) •

ظهر الامبراطور وآثار السنوات الست بادية عليه وكأنهـــا غيرته وكان هرقل فى ذلك الحين يناهز الثالثة والخمسين أو الرابعة والخمسين من عمره وكان طبيعيا أن تلقى هذه السنوات الست وما تحمله خلالهـــا من أعباء ومسئوليات ، بظلالها عليه وتترك آثارها وبصماتها على جسده وعمـــره (٢) •

وبعد أن أمضى الامبراطور أياما مع أسرته فى قصر هيريا Hierea للراحة ، دخل القسطنطينية معتليا ظهر عربة تجرها أربعة أفيلة ، ودخل الهبدروم (الملعب) وسط هتافات الجماهير ، يحمل فى يده عود الصليب تذكار انتصاره العظيم ، ويذكر نيقفوروس Nicephorus أنه تخليـــدا لذكرى هذا اليو م، فقد خصص الامبراطور مبلغا ماليا ، لرجال الدين يمنح لهم كل عام (٣) •

---

(١) Theophanis, P. 504,
Cedrenus, P. 735., Zanoras, 3, P. 212.

(٢) Stratos, Byzantium, P. 241.

(٣) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 26.

ويبدو أن تنفيذ الاتفاق الذى عقد بين هرقل وشيرويه — قباد قد واجه صعوبات غير متوقعة من جانب الفرس ، حقيقة أنهم أخلوا أرمينية فى الحال ، ولكن استغرق اخلاء سوريا وفلسطين وما بين النهرين (العراق) ومصر وقتا طويلا • فمن ناحية مات شيرويه بعد ثمانية أشهر من توليه عرش فارس (أكتوبر ٦٢٨م) ، وكان قد تضرع الى هرقل وهو على فراش الموت أن يحمى ابنه الصغير ازدشير Ardeschi: الذى يبلغ من العمر سبعة أعوام ، وأن يصبح هرقل وصيا وقيما عليه ، وكان هذا اعترافا ضمنيا بالسيادة البيزنطية (١) •

ومن ناحيــة أخرى ظلت كل من مصر وســوريا محتلة من جانب شهرباراز ، الذى تمرد على السلطة الملكية ، ورفض اطاعة أوامر شيرويه بترك تلك المناطق واخلائها • واختلف المؤرخون حول موقف شهرباراز فيذكر سيبيوس Sébeos أن الامبراطور هرقل اتصل بشهرباراز لينفذ الاتفاق ، الذى سبق أن عقده هرقل مع شيرويه ، وقال له ما معناه أن شيرويه تنازل عن ملك فارس له وأنه سوف يمنحه لشهرباراز ولابنائه من بعده ، وأنه سوف يرسل له ما يحتاجه من قوات لمساعدته ونجدته ، وسوف يوقع معه معاهدة سلام بعقــد مكتوب وختم (٢) • أما نيقفوروس Nicephorus فيذكر أن شهرباراز ما ان علم بوفاة كسرى وشــيرويه حتى غادر تخوم الروم ، وأرسل كتابا الى الامبراطور هرقل ، يدعى فيه أن ما صنعه بالروم لم يصنعه بارادته ولكن بارادة من أرسله ، وطلب من الامبراطور الامان ، عندما يأتى اليه للدخول فى طاعته ، والعمل على خدمته (٣) •

عزم هرقل على النظر فى أمر التفاوض مع شهرباراز ، وعلى النظــر فى اعداد القوات البيزنطية وتجهيزها اذا ما اقتضى الامر ذلك ، وفى الربيع ومن المحتمل فى ابريل عام ٦٢٩م ، رحل هرقل بعد الاحتفال بعيد الفصح

---

(١) Sébeos, Histoire, d'Heraclius, P. 87., Nicephorus, Breviarium, PP. 23-24.

(٢) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 88.

(٣) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 24.

فى ١٦ ابريل ، وسار الى قيصرية حيث أقام معسكراته الشتوية هنــاك . وتقابل الخصــمان هرقل وشهرباراز فى يوليو ٦٢٩م فى ارابيســوس Arabyssos فى قبادوقيا Cappadocia ، وقد ظهرت من خلال هذا اللقاء خطط شهرباراز الطموحة لاعتلاء عرش فارس ، فقد تم الاتفاق فيه على أن ينسحب الفرس من جميع الاقاليم التى احتلوها ، وأن يعيد شهرباراز الصليب المقدس وكل ما سلبه الفرس ، وأن يصبح الفرات هو الحــد الفاصل بين الدولتين الفارسية والبيزنطية . ولقاء ذلك يساعد البيزنطيون شهرباراز فى خلع ملك الفــرس واعتلاء عرش فارس (١) . وأن يتعهد الامبراطور بأن يطلق يد شهرباراز حرة طليقة فى شئون فارس ، بل وكما ذكر سيبيوس Sébeos أن هرقل أقسم لشهرباراز أن يعطيه عرش فارس له ولابنائه من بعده (٢) .

يبدو أن شهرباراز فهم جيدا ، أنه لم يعد فى مركز يسمح له بمقاومة البيزنطيين طويلا ، وربما يكون العون الذى يقدمه البيزنطيون له ليتولى مقاليد الحكم فى فارس ، هو أحد الاسبا بالتى حثته على أن يتعامل مع هرقل ، وربما داخله التفكير فى أنه طالما أن اردشير لايزال طفلا ، وأن شيئا قد يحدث له فمن الافضل أن يكون هناك بنفسه (٣) .

استعاد البيزنطيون ، طبقا لشروط الاتفاق السابق ، المبرم بين هرقل وشهرباراز ، كل من الرها وآمد ، وبدأ الفرس وعلى رأسهم شهرباراز ينسحبون من الاسكندرية ، واستمر انسحابهم من الاراضى البيزنطية حتى شهر سبتمبر ٦٢٩م ، وبمجرد أن رحل الفرس ، بدأ البيزنطيون تحت زعامة ثيــودور Theodorus شــقيق الامبراطور هرقل فى دخول تلك

---

(١) Nicephorus, P. 24, Alexander, «Heraclius, Byzantine imperal ideology» in Speculum (1977), P. 220.,
Bréhier, transfomation de l'Empire Byzantin, P. 447.
Stratos, Byzantium, P. 246.

(٢) Sébeos, P. 88.

(٣) Stratos, Byzantium, P. 247.

الاقاليم التى تم جلاء الفرس عنها (١) .

واختتم هرقل انتصاراته باعادة الصليب المقدس الى بيت المقــدس وكان قد أرسل رجاله الى شهرباراز ليتسلموا صليب السيد المسيح ، وقد بادر شهرباراز بتسلمه لرجال هرقل ، وعند رحيلهم به منحهم شهرباراز العطــايا (٢) .

وتتضارب المصادر فيما بينها حول من الذى أعاد الصليب للبيزنطيين؟ ومتى ذهب هرقل الى بيت المقدس لاعادة الصليب اليها ؟ وبالنسبة للمسألة الاولى يذكر الانبا اسطراط ، وهو معاصر للحوادث أن شيرويه هو الذى أعاد الصليب الى هرقل ، ولكنه يعود مرة ثانية ويذكر أن شهرباراز هو الذى تم الصلح بينه وبين هرقل ، وأرسل اليه الصليب المعظم او الصليب الكريم المبارك (٣) .

أما سيبيوس Sébeos فيذكر أن شهرباراز هو الذى أعاد الصليب الى هرقل ، اذ كان ذلك شرطا من شروط الاتفاق بينهما ، وقد قبل وجهة النظــر هذه كل من البطــريرك نيقفــوروس Nicephorus ومحبوب المنبجى (٤) . هذا فى حين زعم كل من ثيوفانيس Theophanis وقيدرنيوس Cedrenus أن الفضل فى اعادة الصليب يرجع الى شيرويه — قبــــاد Kavad (٥) . أما الطبرى فيذكر أن بوران بنت كسرى ابرويز هى التى ردت خشبة الصليب الى ملك الروم مع جاثليق يقال له ايشوعهب (٦) .

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 88.
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 24.

(٢) Sébeos, P. 89.

(٣) Expugnationis Hierosolymae, A.D. 614 in C.S.C.O., P. 148.

(٤) Sébeos, Histoire d'Heraclius, P. 89., Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 24.
محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ص ٣٤٠ .

(٥) Theophanis, P. 503.,
Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 734.

(٦) الطبرى ، الرسل والملوك ، جـ٢ ، ص ٢٣٢ .

والراجح أن شهرباراز هو الذى أعاد الصليب الى هرقل بالفعل ، فور ارتقائه عرش فارس ، اذ كان هذا شرطا أساسيا ركز عليه هرقل عند عقد الاتفاق مع شهرباراز ، وقد ذكرت المصادر المعاصرة ممثلة فى روايتى الأنبا اسطراط وسيبيوس ذلك .

أما بالنسبة لمسألة أن شيرويه (قبـاد) هو الذى أعاد الصليب الى هرقل فمن المحتمل أن كلا من ثيـوفانيس Theophanis وقيـدرينوس Gedrenus قد استندا فى قولهما هذا ، على ما جاء فى اتفاقية السلام ، التى عقدت بين هرقل وقباد ، والتى كان من بين شروطهـا كذلك اعادة الصليب المقدس ، غير أن الظروف لم تمهل شيرويه لكى ينفذ هذا البنـد من بنود الاتفاق مع هرقل ، اذ ما لبث أن مات بمرض الطاعون الذى انتشر فى فارس فى أكتوبر ٦٢٨م .

حمل هرقل عود الصليب وذهب به الى مدينة بيت المقدس ، ودخل المدينة فى موكب مهيب ، وسط التهليل والتراتيل ، التى تغنى بهـا أهل المدينة ، واستقبله الرهبان والبطريرك مودسـتوس Modestus وأعاد هرقل الصليب الى مكانه وكل ما سلبه الفرس من الكنيسة ، وتبرع بالاموال اللازمة لشراء البخور ، وقد وجد رجال الدين الصليب سليما فشـكروا الله على ذلك(١) .

ويذكر الانبا اسطراط أن دخول الصليب بيت المقدس كان فى الواحد والعشرين من آذار (مارس) ٦٣٠م(٢) . واعتبر هذا اليوم يوم عيد لأهل

---

(١) Sébeos, Histoire d'Heraclius, PP. 90-91.,
Expugnationis Hierosolymae, P. 104. Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B., P. 735.
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 25. Zanoras, Epitomae, 3, PP. 211-12.

(٢) Expugnationis Hierosolymae, P. 148, 104.
ومن المحدثين من قال ان اعادة الصليب كانت فى عام ٦٢٩م ومن بينهم Sir persy, History of Persia, P. 488.
هسى ، العالم البيزنطى ، ص ١٢٢ ، حسن بيرنيا ، تاريخ ايران ، ص ٢٧٨ .

المدينة ، ولاتزال تخلده حتى اليوم تقاويم الشرق والغرب ، على أنه عيد تمجيد الصليب أو اعلاء الصليب وارتفاعه ، وتحتفل الكنيسة بتلك الذكرى فى ١٤ سبتمبر من كل عام (١) .

وبعد أن أعاد الامبراطور هرقل الصليب الى مكانه ، ترك مدينة بيت المقدس ، واتجه نحو ميسوبوتاميا (ما بين النهرين) من أجل أن يستوني على مدن الحدود ، تلك الحدود التى أعيد اقامتها الى ما كانت عليه تحت حكم كل من كسرى (٥٩٠ — ٦٢٨م) وموريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) (٢) .

على أن علاقة الامبراطور بالفرس لم تنقطع عند الاتفاق الاخير ، الذى عقده شهرباراز فى يوليو ٦٢٩م ، والذي تم بمقتضاه استرداد مصر والشام وما بين النهرين واستعادة الصليب ، وذلك لأنه خلف شهرباراز على عرش فارس بور أو بوران ابنـــه كسرى ابرويز من ماريا ابنـــة الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) ويذكر اليعقوبى « أنها وادعت ملك الروم » أى أنها عقدت الصلح النهائى مع الامبراطور هرقل (٣) ومن بعدها أخذت الامبراطورية الفارسية فى الضعف .

ومن الجدير بالذكر هنا أن حروب هرقل مع الفرس تعد أول حرب مقدسة قام بها العالم المسيحى فى العصور الوسطى ، ذلك لأن هرقل خرج أساسا فى عام ٦٢٢م ، يدفعه الحماس الدينى ، من أجل انقاذ المسيحية ، واعادة الصليب المقدس ، الذى انتزعه الفرس فى عام ٦١٤م (٤) ، وفى نفس

---

(١) Frolow, **«La Croisade et les guerres, Persans d'Heraclius»** dans Revue Histoire Religion (1955), P. 56, Lebeau Histoire, T. XI, P. 169.

(٢) Sébeos, P. 91.

(٣) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جا ، ص ١٧٣ ، محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ص ٣٣١ .

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 505.,

حسن بيرنيا ، تاريخ ايران ، ص ٢٧٩ .

(٤) Frolow, **La Croisade et les guerres**, P. 51.

الوقت قامت الكنيسة بدور فعال فى الاعداد لهذه الحرب المقدسة ، اذ وقفت الى جانب الامبراطور ، ووضعت ثروتها بين يديه لتكون عونا له فى الاعداد لهذه الحرب ، مما أضفى على مشروع هرقل هذا صبغة دينية ، فضلا عن أن شعار هرقل كان هو ايقونة السيد المسيح ، التى أثارت الحماسة الدينية فى نفوس جنوده .

وربطت هذه الحرب المقدسة الشعوب المختلفة داخل الدولة البيزنطية برباط قوى ، وجعلتهم يتناسون ما بينهم من خلافات مذهبية ، ويجعلون كل همهم هو استعادة شعار المسيحية ورمزها وهو الصليب المقدس ، وبدأوا يحسون أن هناك شيئا آخر يمكن أن يثير مشاعرهم ويحركهم ، وأن الامبراطور لم يكن يحارب من أجل الامبراطورية فحسب بل من أجل المسيحية جمعاء ، ومن ثم فقد أكد هذا الحدث ثقة البيزنطيين فى سياسة الامبراطور وفى سلطته ، ورفع من قدره ومنزلته ليس لدى البيزنطيين فحسب بل لدى المسيحيين جميعا (١) .

وتجدر الاشارة الى أن حرص الامبراطور هرقل على اعادة الصليب كان له دوافع أخرى من بينها ، أن هرقل كان يرى فى اعادة الصليب سبيلا لحل مشكلة الاتحاد الدينى (٢) . ومن المعروف كذلك أن الامبراطور هرقل واجه نقدا متواصلا من جراء زيجته الثانية اذ اتخذ من ابنة أخته ماريا زوجة له ولم يكن هذا الزواج شرعيا ، ورفضته الكنيسة رفضا تاما ، غير أنها عادت وباركته مكرهة على ذلك ، ومما لاشك فيه أن اعادة الصليب المقدس على يد هرقل سوف يجعل الكنيسة تغمض عينيها عن هذا الخطأ الذى ارتكبه هرقل (٣) ، وليس ادل على الصلة بين زواج هرقل من مارتينا وبين الصليب من أن هرقل اصطحبها معه فى طريقه الى المدينة المقدسة لاعادة

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 250.

(٢) Alexander, **Heraclius** P. 225.

(٣) Frolow, **La croisade**, P. 54.

الصليب اليها ، اذ كان هرقل خائفا من تأنيب كبار القساوسة له لفعلته الفاضحة هذه [١] .

أما بالنسبة لنتـائج هذه الحـروب الفارسية البيزنطيـة ، فان الامبراطورية البيزنطية بلغت ، بما أحرزته من انتصار ، ذروة مجـدها وقوتها ، فذاع صيتها فيما وراء الحدود ، فأرسل لها ملك الهنود العطايا تعبيرا عن امتنانه وتهانيه لانتصار هرقل على الفرس ، كما أرسل هرقل هدية قيمة من الاحجار الكريمة [٢] .

كذلك أرسل ملك الفرنجة داجوبرت Dagobert مبعوثه سرفانوس Servanus وباتريوس Paterius في زيارة للامبراطور هرقل ، وطلبـا منه تجديد التحالف الذى دام منذ وقت طويل بين الفرنجة والامبراطورية، وكان أن استقبلهما هرقل استقبالا مشرفا ، وعقدا معهما معاهدة صلح وسلام دائم [٣] .

ويرى فنلاى أن شهرة هرقل فاقت كلا من الاسكندر وهانيبـال وقيصر بعد أن حرر القدس ، وبعد تلك النهاية الناجحة للحرب الفارسية ، لقد أقام السلام عبر الامبراطورية ، كما أحيا قوة المسيحية في الشرق ، وأعاد غرس الصليب المقدس فوق جبل الزيتون ،ولهذا يعترف بعظمته[٤]. هذا واحتل هرقل مكانة رائعة فيالشعر الملحمى الفرنسى ، واعتبر رمزا للفروسية الفائقة فكان اسمه مثلا : « الامبراطور المسيحى القوى القادر المسمى هرقل » [٥] .

حقيقة كانت النتيجة هزيمة الفرس التامة ، وانقـاذ الامبراطورية البيزنطية من الخطر الدائم ، الذى كان يتهددها من الدولة الوحيـدة

---

(١) Alexander, **Heraclius**, P. 225.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 514.

(٣) Lebeau, Histoire de Bas-Empire, T. XI., P. 17. Stratos, Byzantium, P. 309.

(٤) Finlay, History of Greece, Vol. I, P. 346.

(٥) Stratos, Byzantium, P. 309.

المتحضرة ، التى أجبرتها على أن تحسب لها ألف حساب ، غير أن سـقوط فارس حطم توازن القوى الشرقية ، اذ كان بين الامبراطوريتين معاهدات للدفاع المشترك عن ممرات القوقاز ضـد اغارات البرابرة ، وأصبحت الامبراطورية وحيدة فى مواجهة اغاراتهم المستمرة(١) .

ان استعادة الامبراطورية البيزنطية لأرمينية الفارسـية وما بين النهرين وسوريا وفلسطين ومصر — أعطاها بدون شك مركزا استراتيجيا فريدا بل وممتازا ولكن يجب عليها ضمان الدفاع عن تلك الاقاليم ، هذا فضلا عن أن السيادة الامبراطورية على تلك الاقاليم المستردة كانت مزعزعة ليس فقط بسبب بعدها عن مركز الامبراطورية ، ولكن لأسباب أخرى سواء كانت دينية أم سـياسية تتعلـق بأهالى تلك الاقاليـم فى تعاملهم مع الامبراطورية البيزنطية(٢) .

وأظهـرت خاتمة الصراع بين الفرس والبيزنطيين ، مدى الضعف الاقتصادي الواضح فى الامبراطورية البيزنطية ، فقد استمرت الحرب ٢٤ عاما كاملة ، بينما استمر الهجوم البيزنطى المضاد ست سنوات ، وتسبب ذلك فى تخريب الاقاليم وقل عدد سكانها ، وأصبحت مقفرة مهجـورة ، وأنهكت الحرب الطويلة الخزانة العامة ، فقد أنفقت مبالغ ضخمة حتى يظل الجيش فى الميدان ، ومن أجل شراء الحلفاء من لازيقا وايبريا ومن الخزر وغيرهم ، ولا ننسى الخسـارة التى عانتهـا الدولة البيزنطية فى الرجال والعتاد من جراء الحرب مع الفرس ، فقد فقدت الدولة البيزنطية عـددا كبيرا من زهرة شبابها فى الميدان ، هذا فضلا عن أنه قتل عدد كبـير من مواطنيها أثناء اغارات الفرس عليهم (٣) .

---

(١) Bréhier, Histoire, PP. 103-105.

(٢) Ibid, P. 106.

(٣) Finlay, History of Greece, Vol. I, PP. 345-46., Stratos, Byzantium, P. 259.

الفصل الخامس

سياسة الدولة البيزنطية فى البلقان
فى عصر الامبراطور هرقل

أولا : الدولة البيزنطية والسلاف والآفار فى عهد هرقل

- توغل السلاف فى شبه جزيرة البلقان واستقرارهم فيها .
- اغارات السلاف والآفار على سالونيك (٦١٦ — ٦٢٠م) .
- محاولات هرقل عقد الصلح مع الآفار (٦٢٣ — ٦٢٤م) .
- حصار الآفار للقسطنطينية (٦٢٦م) .

ثانيا : الدولة البيزنطية والكروات والصرب

- أصل الكروات والصرب واستقرارهم فى البلقان .
- اتصال الكروات والصرب بالامبراطور هرقل وتعميدهم .
- خضوع الكروات والصرب للسيادة البيزنطية .

أولا — الدولة البيزنطية والسلاف والآفار :

لم يكن الخطـر الفارسى ، الذى هدد الامبراطورية من ناحيـة الشرق ، هو الخطر الوحيد ، الذى تعرضت له الامبراطورية البيزنطية ، خلال عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١م) ، فقد تعرضت القسطنطينية لخطر آخـر قادم من الغرب ، وهو خطر زحف السلاف والآفار على الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان ، اذ أصبحت البلقان مسرحا لغزوات واغارات مسـتمرة من جانب الآفار وحلفـائهم من شـعوب السلاف(١) • ومن ثم شكل السلاف والآفار عاملا من العوامل الرئيسية الهامة فى السياسة الخارجية للدولة البيزنطية خلال عهد الامبـراطور هرقل ، اذ أن شبه جزيرة البلقان كانت تمثل بالنسبة للبيزنطيين الغـرب الاوربى ، الذى كان يهم البيزنطيين بدرجة كبـيرة(٢) • ومع ذلك فان المعلومات التى تقدمهـا المصـادر البيزنطية ممثلة فى تاريخ ثيوفانيس **Theophanis** وتاريخ البطـريرك نيقفـوروس Nicephorus قليلة فى معظمهـا ، فقـد ركز المؤرخون البيزنطيـون أنظـارهم حول العاصمة القسطنطينية ، وسـجلوا فقط الحمـلات القليلة الهامة التى نظمت من القسطنطينية ضـد السـلاف ، هذا فضـلا عن الغموض الذى خيم على المعلومات التى جاءت فى معجزات القديس ديمتريوس Miracula St. Demetrii وهو المصدر الوحيد عن استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان (٣) •

(١) الكلمة العربية للسلاف هى صقلب ، ونادرا ما تكتب صقلاب ، والجمع صقالبة . ويبدو أن اسم السـلاف مشـتق من كلمة Slovene ومفـردها Slovenin ومن المحتمل أنها اسم مكان يعنى بالتقريب سكان سلوفى Slovy وهم ينتمون الى أحد القبائل الآهلية بالسكان ، ويتمتع جميع السلاف (الصقالبة) بطول فارع ، وبشرة بيضاء ، وعيون رمادية أو زرقاء ، وشـعر أصفر .

لمزيد من التفاصيل عن السلاف وانشطتهم انظـر : دائرة المعـارف الاسلامية م ١٤ ، ص ٢٥٠ — ٢٥٦ مادة صقالبة .

Peisker **«The Expansion of the slaves»** in Cam. Med. Hist. Vol. 2, PP. 420-40.

(٢) Ostrogorsky, **«The Byzantine Empire in the world of the seventh century»** in Dumbarton Oaks Papers (1959) P. 15.

(٣) Charanis, **«Ethnic Changes in the Byzantine Empire in seventh century»** in Dumbarton Oaks Papers (1959) P. 36.

عندما اعتلى الامبراطور هرقل العرش سنة ٦١٠م اخترق السلاف أقاليم دالماشيا Dalmatia وموئيزيا العليا وموئيزيا السفلى Moesia وداكيا Dacia فى جنوب الدانوب ، ودار دانيا Dardania وجزء من من مقدونيا وتراقيا(١) وحتى عام ٦١٤م ، لم تكن دالماشيا ، قد عانت الكثير من السلب والنهب ، ولكن نجح الآفار والسلاف فى ذلك العام (٦١٤م) — وبعد حصار — فى الاستيلاء على سالونا Salona عاصمة دالماشيا ومركز تموينها ، وقتلوا عددا كبيرا من سكانها ، ويروى قسطنطين بورفيروجينيتوس Constantine Porphyrogenitus قصة الاستيلاء عليها فى شكل أسطورى • فالذين نجحوا فى الهرب من سكانها لجأوا الى قصر دقلديانوس القديم الضخم ، فلما اكتمل تحصينهم تمكنوا من صد الغزاة(٢) • ويعتبر سقوط سالونا Salona نهاية السيطرة البيزنطية على المناطق الرئيسية من شبه جزيرة البلقان (٣) •

وفى عام ٦١٥م دمر السلاف مدينة ايبيداوروس Epidaurus فى دالماشيا أيضا ، وأسس من نجوا من أهلها مدينة راجوزة Ragusa ، أما زارا Zara التى أصبحت بعد سقوط سالونا ، المدينة الرئيسية فى دالماشيا ، بالنسبة للدولة البيزنطية فقط دافعت عن نفسها ، شأنها شأن مدن دالماشيا الأخرى ، وردت الغزاة على أعقابهم(٤) •

---

(١) Miracula St. Demetrii, liber II, Caput II, in P.G., T. 161, P. 1362., Dvornik, Les slaves, P. 6,
Diehl, Le Monde Byzantin, P. 151.
Stratos, Byzantium in the seventh century, P. 119.

(٢) عن تفاصيل هذه الرواية انظر :
Constantine Porphyrogentius, De Administrando Imperio, trans by : Jenkins, Ch., 30, PP. 139-143.
وانظر الترجمة العربية لمحمود سعيد عمران ، ص ١٠٦ ، ١١٨ — ١١٩

(٣) Ostrogrosky, History of the Byzantine State, P. 84,
Diehl, Le Monde, P. 152.

(٤) Constantine Porphyrogentius, Ch. 29.
الترجمة العربية ، ص ١١٤ وما يليها .

وبالاضافة الى سالونا ، سقطت معظم المدن الهامة التابعة لدالماشيا والتي تقع في الداخل وهي على سبيل المثال مدينة سنجدنيوم Singidunum (بلجـــراد Belgrade) وفيمينـــاكيوم Viminacium (كوســـتالاك Kostalac) ونايسوس Naissus (نيش Nis) وسارديـــكا Sardica (صوفيا Sophia) (١) .

ثم بدأ السلاف يتحركون جنوبا محاولين البحث عن أماكن يستقرون فيها ، ولا تمدنا المصـــادر سوى بالقليـــل من المعلومات عن هــذه التحركات(٢) . هدد السلاف سواحل وجزر بحر ايجة بسفنهم ونجحوا في السيطرة على هذا البحر وعلى جزره ففي أثناء مطرانية يوحنا Joannis طيب الذكر ، هاجم الســـلاف بأعداد كبـــيرة — بعد أن صنعوا المراكب المصنوعة من قطعة واحدة من الخشب أي القوارب ذات الشكل المجوف والتي تعرف باسم Monoxyla — سالونيك وجميع الجزر المجاورة لها ، كمـــا أغاروا على جميـــع جزر الكيكلاديس Cyclades وآخـــايا Achaie وابـــيروس Eprius ، والجزء الأكبر من اليركوم Illyricum وذلك من أجـــل السلب والنهب(٣) . ويختلف المؤرخون في تحـــديد تاريخ هذا الحدث ، فيجعله كارانيس Charanis في حوالى نهاية عام ٦١٤م(٤) ، هذا في حين يجعله ديل Diehl في عام ٦١٧م(٥) .

وتفصل معجزات القديس ديمتريوس في أحداث حصار سالونيك ، التى تعرضت لحصارين من قبل السلاف والآفار في الفترة من (٦١٦ — ٦٢٠م) ، فتـــذكر أن أغارات الســـلاف على ســـالونيك كانت تستهدف

---

(١) Ostrogorosky, History of the Byzantine State, PP. 84-85.

(٢) توجد في الحقيقة معلومات في المصادر الدينية بصفة خاصة ، ولكنها لا تكفي للدراسة ، فمعظمها يذكر التاريخ في شكل معجزات تمجد حيـــاة بعض القديسين ، ولعل افضل تلك المصادر كتاب معجزات القديس ديمتريوس . انظر تحليل المصادر .

(٣) Miracula St. Demetrii, Liber, II, Caput, II in P.G., T. 161, P. 1326.

(٤) Charanis, **Ecthnic changes**, P. 38.

(٥) Diehl, Le monde, PP., 145, 215.

الاستيلاء على المدينة ، مع الرغبة فى سلبها ونهبها ، والاستقرار فيها ، ويستدل على ذلك ، من أنهم أتوا الى سالونيك ومعهم حاجياتهم وأثاثهم(١) •

حاصر السلاف سالونيك برا وبحرا ، تحت قيادة هادزون Hadzon ، ولما كان زلزال قد دمر أسوار البحر ، فقد قام البيزنطيون بغلق مدخل الميناء بسلسلة كبيرة ، وأغرقوا عدة سفن ، واستمر الحصار أربعة أيام ، ولم تكن حاميات سالونيك بالقوة ، التى توقف الهجوم ، مما جعل الناس يتمنون بل ويدعون من أجل تدخل القديس ديمتريوس ، خاصة أن الرعب والفزع عم المدينة عندما جاء اليها بعض المسيحيين ، الذين وقعوا فى الاسر ، جاءوا لينشروا الرعب والفزع بين أهل المدينة الذين حاولوا الفرار ، ولكنهم لم يجدو ثغرة يفرون منها ، اذ أحاط السلاف بالمدينة احاطة تامة(٢) • وفى أحرج لحظات هذا الهجوم على غرب المدينة ، هبت ريح عاصفة ، أغرقت عددا من قوارب السلاف وانتهزت الحامية الفرصة ، ونجحت فى القضاء على السلاف • أما هادزون Hadson القائد السلافى الذى كان يفضل السلام ، فقد طلب زيارة المدينة فلما رأته النسوة ، اللاتى كن يرتدين السواد على موتاهن ، قذفته بالحجارة حتى مات ، على الرغم من تدخل سلطات الحاكم والكنيسة(٣) •

أغار السلاف على سالونيك مرة أخرى ، غير أنهم حاصروها هذه المرة بمساعدة الآفار ، فقرر أهل سالونيك فى ساعة الشدة ، أن يجمعوا ما لديهم من غنائم ويرسلوها الى خاقان الآفار ، ووعدوه بأن يضيفوا اليها مبالغ كبيرة من المال حتى لا يكون عونا للسلاف فى حصار مدينتهم ، ولعل ما دفعهم الى ذلك أنهم اعتقدوا أن مدينتهم سوف تسقط عاجلا أم آجلا ، بعد أن سقطت جميع المناطق المجاورة فى يد السلاف والافار(٤) •

---

(١) Miracula, Ch. 158, Liber II, P. 1326.

(٢) Miracula, Ch. 159, Liber II, P. 1327.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر :
Miracula, Ch. 159, Liber II, P. 1328., stq., Charanis, **Ecthnic changes**, P. 38.

(٤) Miracula, Ch. 169, Liber II, P. 1335.

غير أن الخاقان أسرع باستدعاء جميع أعوانه من السلاف والبلغار من المناطق النائية ، وجعلهم بجوار المدينة ، وسلح بعض الفرسان وجهزهم ليهاجموا المدينة ، وقد جعلهم فى المقدمة ليسهلوا له دخولها والتخلص من أهلها ، وبالفعل هاجم المعتدون المدينة فى الساعة الخامسة بينما الاهالى يحصدون زراعاتهم خارج الاسوار ، وكانت هذه ساعة لا يتوقعها أهل المدينة للهجوم ، ونجح السلاف فى قتل بعض الاهالى وفى أسر البعض الآخر ، واستولوا على المواشى وآلات الحصاد . وعندما علم من بداخل المدينة ما حدث لذويهم خارجها من سوء المصير ، استبد بهم الرعب والفزع ، غير أن المطران يوحنا أخذ يشجعهم وينصحهم بألا ييأسوا ، وأن يتوجهوا بالدعاء الى الله وشهيده(١) .

وحالما وصل الآفار ، أقاموا أدوات الحصار ، التى كانت عبارة عن أبراج خشبية ، أعلى من أسوار المدينة ، وعلى الرغم من ذلك صدت حامية المدينة الهجوم وقام يوحنا رئيس الاساقفة برفع معنويات أهل سالونيك ، وقاد حركة المقاومة وساعده فى ذلك الحاكم الامبراطورى ، ولذلك اضطر المهاجمون فى هذه المرة — وبعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوما — الى رفع الحصار عن سالونيك والانسحاب(٢) .

ويرى كارانيس Charanis أن هذه الحوادث المسلسلة تؤكد أن السلاف الذين اشتبكوا مع البيزنطيين فى اليونان ، لم يأتوا من بعيد ، وأنهم دائما كانوا من المستقرين فى شبه جزيرة البلقان ضمن منطقة سالونيك ، وأن السلاف الذين قاموا بهجمات متنوعة وبحصار سالونيك مرتين ، كانوا من المستقرين فى مقدونيا من قبل ، وقد أقاموا واستقروا فى الفترة بين بداية حكم موريس (٥٨٢ — ٦٠٢م) والسنوات الأولى من حكم الامبراطور هرقل(٣) .

---

(١) Miracula, Ch. 170-71 Liber II, P. 1338.

(٢) Lemerle, **«la composition et la chronologie des deux premiers, des Miracula St. Demetrii»** dans Byzantinishe Zeitschrift (1953), P. 355.

(٣) Charanis, **Ecthnic changes**, P. 38.

واذا كانت هجمات السلاف والآفار على سالونيك قد فشلت ، الا أن النتائج التى ترتبت عليهـا كانت خطـيرة ، فقد تركت تلك الهجمـات والاغارات وراءها قبائل استقرت فى البلاد حتما(١) •

تابع السلاف هجماتهم على الاراضى البيزنطية ، فغزوا جزيرة كريت (اقريطش) ، ونزلوا بها فى عام ٦٢٣م • فقتلوا وسبوا ، وانتشر الذعر بين الاهالى ، وايقن الجميع أنه ليس أمامهم الا الموت أو عذاب الأسر ، كذلك كان وجود السلاف ثابتا فى جزيرة ايوبيا Eubée وفى ساموس تراقيا Samothrace ومن المحتمل انهم أقاموا فى جزر أخرى أيضـا ، وأخيرا يبدو أنهم لم يرفقوا بآسيا الصغرى نفسها(٢) • وهكذا غمـرت موجة السلاف والآفار الاراضى البيزنطية بأسرها ، ولم يبق أمامهم سوى العاصمة البيزنطية القسطنطينية •

كان الامبراطور هرقل فى ذلك الوقت يستعد لحرب الفرس ، ولم يكن باستطاعته ، أن يعمل فى جبهتين فى وقت واحد ، ولهـذا حاول أن يضمن على الأقل حياد الآفار ومهادنة خاقانهم قبـل أن يتجه لحـرب الفرس ، ولذلك أرسل الامبراطور سـفارة للتفاوض مع الآفار يرأسها البطريق اثناسيوس Athanasius والبطريق كوسماس Cosmas لتوقيع معـاهدة صلح مع خاقان الآفار ، وتظـاهر الافار بالصداقة ، وأخذوا يعبرون عن محبتهم للروم ، والرغبـة فى محالفتهم ، وعاد السفراء الى الامبراطور ، يحدثونه عن مدى محبة خاقان الآفار للروم ، وعن استعداده للتفاوض معهم ، وأنه لتأكيـد ذلك سوف يذهب بنفسه للتفـاوض مع الامبراطور بل ، وحدد ميعاد تقابلهما فى هرقله Heraclea على البحـر الاسود ، وسر الامبراطور هرقل بذلك(٣) •

(١) Diehl, Le Monde, P. 152.

(٢) Diehl, Le Monde, P. 216, Stratos, Byzantium, P. 120.
اسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٧٦ •

(٣) Nicephorus, Breviarium Rerum Post Mauricium Gestarum, in C.S.H.B., PP. 14-15.
Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 464, وانظر ايضا :
Zanoras, Epitomae Historiarum Libri, T. 3, in C.S.H.B., PP. 205-206.

ولكن ليس من المعروف متى بدأت المفاوضـــات مع الآفار من أجل السلام غير أن الامبراطور هرقل امتلك وسيلة انجاحها وهى المال ، واتخذ الامبراطور هرقل استعدادات كبيرة لاستقبال خاقان الآفار ، فغـــادر قصره ، وخرج مع رجاله من المدينة ، لاستقبال الخاقان فى موكب فخم ، ولما كان الامبراطور يرغب فى اقامة حفل لأمير الآفار ، فقد حمل معه عدة المسرح كاملة ، وأعد ســـباق العربات والخيول ، والكثـــير من الملابس النفيسة ، التى كان سوف يهديها للأمراء المصاحبين للخاقان ، وأرســـل فى وقت مبكر ، التعليمات الضرورية للاحتفال وعمل على ضرورة أن يكون الخيالة والفرسان فى شرف استقبال الخاقان ، كما خرج مع الامبراطور عـــدد من الســـناتو ، وكبـــار الموظفين ورجال البـــلاط ، وممثلون عن الاحـــزاب السياسية والديمات Demes (١) ، وكان أن وقف الامبراطور نفسه مع حرسه على بعد عدة كيلو مترات من مكان المقابلة ، وعســـكر بالقرب من مدينة سيلمبريا Selymbrie (٢) ، وظل هنـــاك فى انتظـــار وصول الخاقان الى المكان المحدد للقاء الا وهو هرقله(٣) .

وبعد ثلاثة أيام ظهر الخاقان ، على رأس جيش ضخم من الآفار أمام هرقله وعسكر بها ، حيث أعد كمينا لالقاء القبض على الامبراطور ، واختار فرقة من رجاله الاقوياء وأمرهم بالتحرك ليـــلا ، والاختبـــاء فى الغابات والتلال المنتشرة والروابى ، التى ترتفع بالقـــرب من بيزنطة ، ليهاجموا الامبراطور من الخلف ، ويحيطون به وبرجاله ، من كل ناحيـــة هـــذا فى حين يشن الخاقان هجـــوما عليهم من الامام ، وهـــكذا يصبح

---

(١) عن الديمات انظر الفصل الاول . ص ٥٢ — ٥٣ حاشية ٤ .

(٢) تقع سيلمبريا شرقى هرقله وعلى بعد ٦٠ ك . م الى الغـــرب من القسطنطينية .

(٣) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 712,
Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T., XI, P. 23.
Darko, «**Influences Touraniennes Sur l'evolution de l'art militaire**», dans Byzantion (1937), P. 123.

الامبراطور بين نارين (١) • وهكذا حنث الخاقان فى يمينه بعد أن تعهد بالصلح(٢) •

وبطبيعة الحال لم يكن يخطر ببال أحد أن خاقان الافار سـوف يخطط لخيانة الرجل، الذى جاء لعقد السلام معه، أو يعد كمينا لاصطياده، ويبدو أن الهجمة ، التى قام بها الآفار ، نفذت ضـد فرقة الفرسـان الخيالة ، التى كان قد عهد اليها بتنظيم البرجاس(٣) وشرف اسـتقبال الامبراطور والخاقان ، وأكثر من ذلك فان خاقان الآفار شـاهد خلال يوم أو يومين العروض التى قدمها الفرسـان البيزنطيون ، وبكل هدوء حتى يؤكد لهم بأنه لا يكن لهم أى عداوة ، وبعد ذلك ينقض كالنسر على فريسته أى على الخيالة والفرسـان المنهكين والمتعبين من العـروض والالعاب(٤) •

تحرك الامبراطور هرقل يوم الاحد ، الموافق الخامس من يونيو عام ٦٢٣م ، الى هرقله مصحوبا بعدد كبير من ضباطه وحرسه ، مرتديا ثوبه الارجوانى وتاجه الامبراطورى على رأسـه • ويبـدو أن الآفار لم يستطيعوا السير فى سرية تامة ، اذ شاهد الفلاحون فرقة فرسـان الآفار ، التى اختبأت فى التلال والروابى وأخبروا الامبراطور هرقل ، بما شاهدوه فاعترته الدهشة ، ولكن سرعان ما أدرك أنه كمين ، وعلى الفور خلع العباءة الارجوانية ، وارتدى ملابس عادية ، ووضع تاجه تحت ابطه ،

(١) Chronicon Paschale, P. 713,
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., PP. 14-15,
Darko, **Influences Touraniennes**, P. 123.

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 464,
وانظر ايضا :
Cedrenus, Historiarum compendium, I, in C.S.H.B., P. 716.,
Zanoras, Epitomae Historiarum, 3, in C.S.H.B., P. 206.

(٣) البرجاس : هدف خشى بارتفاع الفرس ، يتـكون من سـبعة قسام ، وعلى قمة البرجاس حلقة معدنية ملصقة فى قطعة من الخشب • انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٧ ، ص ٣٢٤ •
Hassanein **Rabie**, **«The Training of the Mamluk** Faris» in War, Technology and Society in The Middle East, P. 156.

(٤) Darko, **Influences Touraniennes**, P. 123.

وولى هاربا ، ولم يصل القسطنطينية الا بصعوبة(١) .

وعندما علم الخاقان بخبر فرار الامبراطور ، أمر فرسانه بملاحقته في الحال ، فلاحقه الفرسان حتى المعسكر ، الذى كان يدعى سبتيموس Septimus فى ظاهر المدينة ، وعسكروا هناك فى افدومون Avdomon ؛ وبدأ هؤلاء الفرسان الآفار فى تخريب الضواحى المجاورة وفى سلبها ، وأحرقوا المتاريس ، وسرقوا القطعان ، ونهبوا الكنائس ، وحطموا التماثيل والمحاريب ومن بين الكنائس التى سلبوها ثم حطموها كنيسة كوسماس Cosmas وكنيسة دميان Damian فى البلاشيران ، وحطموا كذلك كنيسة القديس Archangeli أما بقية فرسان الآفار الذين ظلوا مع الخاقان ، فقد انشغلوا بالقبض على فرقة الموسيقى ، التى كانت تصاحب الامبراطور هرقل ، وانشغلوا كذلك بجمع الامتعة الملكية ، وعدة العرض والعربات والخيول وغيرها ، واستولوا على معسكر الامبراطور بما فيه(٢) .

وانسحب الخاقان بعد عدة أيام ، وفى طريق عودته الى بلاده ، غزا جميع المدن التى مر بها وسلبها ، وعاد الى بلاده باعداد لا حصر لها من الاسرى ويذكر أحد الاسرى الذين استطاعوا الفرار ، أن عدد الاسرى من النساء والرجال بلغ نحو ٢٧٠ ألفا(٣) . ولكن يبدو أن هذا العدد مبالغ فيه الى حد كبير ، اذ لم تسقط أى مدينة فى أيدى الآفار ، وأن عدد الاسرى الذين أخذوا من الحقول والقرى لا يمكن أن يصل الى هذه الدرجة(٤) .

---

(١) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 713., Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 15., Theophanis, P. 465.

(٢) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 713., Nicephorus Breviarium, in C.S.H.B., P. 18., Theophanis, Chronographia, P. 465.

(٣) Nicephorus, Breviarium, P. 16.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر :

Stratos, Byzantium, P. 149.

وربما قال قائل أن الخاقان كان ينــوى الاســتيلاء على العاصــمة القسطنطينية والقيام بشن هجوم مفاجىء عليها ، ولكنه أمر مستبعد ، لأن القسطنطينية كانت واحدة من أقوى المدن تحصينا فى ذلك الوقت ، وكان الخاقان يدرك ذلك ، بدليل أنه عندما أراد أن يغزوها بعد ذلك فى عام ٦٢٦م — على نحو ما ســنرى — كان عليه أن يجهــز عددا ضخما من القوات ، هذا الى جانب كمية ضخمة من آلات الحصار ومعداته[1] •

ولا تخبرنا المصادر لماذا حنث خاقان الآفار فى يمينه بعد أن تعهد بالصلح مع البيزنطيين هل ليجبرهم على زيادة الجزية السنوية المعطــاة لهم ؟ أم ليستفيد من الممتلكات البيزنطية الموجودة فى آســيا الصغرى لدخول أراضيهم ؟ حقيقة كان الآفار يشيرون من وقت الى آخر الى أنهم لا يحترمون المعاهدات التى يوقعونها ، وان أهدافهم هى الحكم فى ذلك ، ولكن فى هذه الحــالة كان يمكنهم أن ينتظــروا ، حتى يمكن للبيزنطيين التغلغل فى آسيا الصغرى ، ثم يهاجمونهم بعد ذلك بلا عائق ، ولكنهم لم يفعلوا هذا • ويبدو أن سبب نقض الآفار للاتفاق على الصلح أن جهود البيزنطيين اتجهت نحو الفرنجة Franks الذين يشتركون مع الآفار فى الحدود ، والذين هزموا منهم عدة مرات ، ومن ثم كانت مصلحة البيزنطيين والفرنجة مشتركة ، وكانت هناك سفارات متبادلة بين هرقل وداجوبرت Dagobert هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان البيزنطيون يميلون الى قبائل السلاف ، التى كانت تنوى القيــام بالثورة ضد الآفار ، ويرجع الســبب فى ذلك الى أن الآفــار ، كانوا يعــاملون الســلاف بقســوة ويتصرفون حيــالهم بخشــونة واستخدموهم كعبيــد لهم ، وكثيرا ما اجتاحوا الاحياء السكنية السلافية لاغتصاب السلافيات ، وسعيا وراء التخلص من التعسف وسوء معاملة الآفار لهم فقد بدأ السلاف فى القيام بثورات ضدهم ، وشجعهم البيزنطيون على ذلك سواء بالطرق المباشرة أو عن طريق الفرنجة • وحدث فى عام (٦٢٢ — ٦٢٣م) أن ثار السلاف فى بوهيميا Bohemia ومورافيا Moravia ضد الآفار ، وكان

(1) Stratos, Byzantium, P. 148.

التدخل الفرنجى واضحا فى هذه الثورة اذ قادها أحد النبلاء الفرنجة واسمه سامو Samo (١) وقد نجح سامو فى قيادة هذه الثورة ، ونجح فى اقامة دولة مستقلة عن الآفار ، وأصبح سائر السلاف الذين يعيشون فى تلك المنطقة خاضعين لهذه الدولة الجديدة . واعتبر الآفار البيزنطيين مسئولين عن هذه الاوضاع ، التى أمست خطرا عليهم ، اذ أن كل القبائل الخاضعة لهم سوف تثور عليهم ، لذلك كان عليهم أن يوقفوا كل هذه الجهود المخربة ، وبالتالى كان عليهم أن يأخذوا بالثأر من البيزنطيين ، ولذلك انقلبوا ضدهم ، وأعد الخاقان كمينا لامبراطورهم هرقل ليأخذه على حين غرة(٢) .

ورغبة من الامبراطور هرقل فى مواصلة حربه مع الفرس ، ورغبة منه فى ألا يفقد ما كسبه فى حملته الأولى ضدهم ، وكذلك رغبة فى ألا يتزايد خطر الآفار قرر الامبراطور القيام بمحاولة أخرى للسلام مع الآفار ومهادنتهم معتمدا فى ذلك على طمعهم . ولذلك سارع بارسال رسله الى الخاقان ، يعاتبه على نكوصه الوعد ، ويدعوه مرة أخرى للصلح والسلام ، وكان أن قبل خاقان الآفار عرض الامبراطور راضيا ، ووعد بأنه سوف يعوض ما فات ، وأنه سوف يحترم شروط الصلح هذه المرة . ويبدو أن ما دفع الخاقان الى ذلك رغبته فى ألا يفقد الجزية السنوية التى كان يدفعها له البيزنطيون ، والتى يعتمد عليها أساسا فى مواجهة الاخطار ، التى كانت تهدده من ناحية الغرب ، من جانب كل من اللمبارديين والفرنجة(٣) .

---

(١) اتحد سامو مع كثير من التجار ، وذهبوا الى هؤلاء السلاف للتجارة ، وصاحبوا جيشهم فى حربه ضد الآفار ، واظهر سامو شجاعة نادرة اذ اسقط كثيرا من الافار ، ولهذا اختاره السلاف ملكا ، وحكم البلاد بنجاح لمدة ٣٥ عاما . ويجعل بعض المؤرخين هذه الحادثة فى عام ٦٢٣ ، فى حين يجعلها Peisker فى عام ٦٠٥ م انظر :

Peisker, **The expansion of the slaves.**, P. 451.

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine, PP. 93-94., Stratos, Byzantium, PP. 145-46., P. 318.

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 465., Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B., P. 716.

وتوصل الوفد الامبراطورى الى اتفاق مع الخاقان على شرط أن تزيد الامبراطورية البيزنطية الجزية الى ٢٠٠٫٠٠٠ قطعة ذهب سنويا ، فى مقابل رد جميع الأسرى البيزنطيين ، ولاقناع الآفار بأنهم سوف يلتزمون بالمعاهدة فقد سلم الامبراطور هرقل للآفار كل من يوحنا Ioannus المدعو Atalaricus وهــو ابنـــه غير الشرعى من جــــارية ، وستيفن Stephanus ابن أخته ماريا Maria من زوجهـــا الثانى Eutropius ويوحنا ابن البطريق بونوس Bonus سلمهم للآفار كرهائن • وبعـــد أن أقر الوفد الامبراطورى الصلح عاد الى العاصمة(١) •

وعلى هذا النحو ، وقعت معاهدة سلام جديدة مع الافار فى شتاء عام ٦٢٣ — ٦٢٤م ولم يكن الامبراطور هرقل يتوقع أن الآفار ســـوف يحترمونها لفترة طويلة ، ولكنه كان يأمل ألا ينقض الآفار هذه المعـــاهدة فيشنون عليه حربا جديدة ، قبل أن ينتهى من حربه مع الفرس • غير أنه صدق حدس الامبراطور هرقل ، وحدث ما كان يخشاه فى عام ٦٢٦م • اذ نقض خاقان الآفار الاتفاق ، الذى عقده مع الامبراطور هرقل ، وشرع فى اتخاذ اجراءات أكثر جدية ، للقيام بحصار كبير للعاصمة البيزنطية القسطنطينية ، وسعى فى هذه المرة الى التحالف مع خصوم الامبراطور وهم الفرس ، وعقد اتفاقية معهم ضد البيزنطيين العدو المشترك ، واتفق الجانبان أى الآفار والفرس على شن الهجـــوم على القسطنطينية برا وبحــــرا فهم يهاجمون الامبراطورية من ناحيـــة تراقيـــا ، أما الفــــرس فيهاجمونها من ناحية آسيا(٢) •

وعلى الرغم من أن الجشـــع كان من الصفات الرئيسية لشخصية الآفار الا أنه يبدو أن هجوم الآفار على العاصمة البيزنطية ، لم يكن بدافع السلب والنهب أو ارغام البيزنطيين على دفع أموال أكثر ، ويبدو

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 20., Theophanis, P. 465.

(٢) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 20., Stratos, Byzantium, P. 150.

أن البيزنطيين عرضوا على الآفار كثير من الاموال ، ولكن عرضهم قوبل بالرفض من جانب الآفار ولعل الدافع الذى دعا الآفار الى الهجوم على القسطنطينية ذاتها هذه المرة هو أن العديد من القبائل الواقعة تحت سيطرة الآفـــار ، قد أصبحت أكثر عنـــــادا من ذى قبل ، وطالبت الآفار أما بالاســـتقلال ، واما بتحقيق رغبتهـــا فى الاقامة فى مناطق ليست تابعة لسيطرة الآفار ، فقـــد أثار الفرنجة Franks القبائل الخاضعة للآفار بتحريض من البيزنطيين ، ورغبة منهم فى اضعاف الآفار الذين يشكلون جارا خطـــيرا بالنسبة لهم ، هذا من ناحيـــة ، ومن ناحية أخرى عملت الدبلوماسية البيزنطية ، على استمرار تبنى رغبة القبائل التابعة للآفار ، فى وسط وشمال أوربا فى الحصول على استقلالها وحريتها ، ومن الواضح أن البيزنطيين ساندوا هذ هالقبائل بالأموال التى وزعوها عليهم وبالوعود التى قطعوها على أنفسهم لهذه القبائل الراغبة فى الثورة ضد الآفار ، وكان الكروات والصرب[1] من بين هذه القبائل ، التى أثارها البيزنطيون. ومما لاشك فيه أن الآفار لاحظوا هذه التحركات ، ووضعوا مسئوليتها على عاتق البيزنطيين ، ولذلك سعوا الى الهجوم على العاصمة البيزنطية بالتعاون مع خصومهم الفرس ، آملين بذلك أن يوقفوا تيار التحـــركات الثورية من قبل القبائل التابعة لهم ذلك التيار الذى يشجعه البيزنطيون. ومن المحتمل أنهم تلقوا تأكيدات من البيزنطيين فى معاهداتهم السابقة ، التى عقدوها معهم ، ولكن هذه التـــأكيدات لم تكن قادرة على ايقـــاف تلك الحركات الثورية ، التى أثارها البيزنطيون أنفسهم بين القبائل الخاضعة لنفوذ الآفار وسلطانهم . وهكذا كان تضايق الافار من نقض البيزنطيين لهـــذه الاتفاقيـــات أمرا طبيعيـــا ، ولذلك ســـعوا الى غزو الاراضى البيزنطية[2] .

اتخذ خاقان الآفار استعدادات ضخمة لحصـــار القسطنطينية ، فتولى قيادة الجيش بنفسه طول فترة الحصار ، وبصفته القائد العـــام فقد كان السيد المطلق لجميع عمليات الهجوم على العاصمة البيزنطية ،

(١) عن الكروات والصرب انظر ما يلى .

(٢) Stratos Byzantium, P. 179.

وجند الخاقان كثيرا من الرجال من القبائل الواقعة تحت سيطرته[1] • ومن بين تلك القبائل السلاف والهون والبلغـــار ، والاسكيثين Scythes والميديين والجبيد Gépides وقبائل أخرى[2] •

ويبدو أن الســـلاف كانوا يشـــكلون الغالبية العظمى ، من قوات الخاقان البرية والبحرية ، فكان هؤلاء من المشـــاة الخفيفة ، وكانوا من المجـــدفين على القوارب المعـــروفة باســـم Monoxyla اد أمر الخاقان السلاف ، بأن يعدوا أسطولا كبيرا من قواربهم الخشبية هـــذه ، حتى يتمكنوا من مهاجمة المدينة من ناحية البحر ، ويتمكنوا أيضا من نقل الفرس من الشاطىء الاسيوى الى الشاطىء الاوربى ، أما الخيالة المدرعة فى جيش الخاقان ، فمن المحتمل أنهم كانوا من الآفار أنفسهم ، وكان البحـــــارة المسلحون على الـــ Monoxyla من البلغار والجبيد Gépides والى جانب ذلك جمع الخاقان عددا كبـــيرا من حيـــوانات النقل — ويبـــدو أن تلك الاستعدادات الضخمة ، التى اتخذها خاقان الآفار ، كانت معـــروفة فى القسطنطينية[3] •

استعد الفرس بدورهم لعبور البوسفور ، وفقا للاتفاق المعقـــود مع الآفار وغادر شهرباراز Sahrabaraz مرعش (جرمانيكا Germaniceia فى حوالى ٢٠ ابريل عام ٦٢٦م — على رأس جيش ضخم من الفرس ، واجتاز آسيا الصغرى عابرا كل من قيليقية Cilicia ليكونيا Lycoonia وفرجيا Phrygia وبيثينيا Bithynia فى شمال غرب آسيا الصغرى ، وتقدر هذه المسافة بنحو ١٢٠٠كم ، وتقطع فى أربعين يوما أو خمسين يوما ، ولهذا فقد كان مقدرا له أن يصـــل الى خلقدونية Chalcedon فى

---

(١) عدد جورج البسيدى Georgius Pisida فى قصيدته عن حرب الآفار Bellum Avaricum الامم والشعوب التى قدمت مـــع الآفار لحصار القسطنطينية وكيف عملوا جميعا عـــلى الرغم من اختـــلاف لغاتهم وتباعد أوطانهم •

انظـــر : Georgius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 55.

(٢) Loc. cit.

(٣) Barisic, **«Le Siègé de Constantinople par les Avares et les Slaves en 626»** dans Byzantion (1954) P. 394.

مدخل البوسفور فى نهاية مايو أو بداية يونيو ٦٢٦م(١) • وعلى هذا يكون شهرباراز قد وصل فى الحال بعد تهدئة التمرد الذى نتج عن ارتفاع سعر الخبز فى العاصمة(٢) •

وكان شهرباراز يقود صفوة القوات الفارسية بالخيول والعربات الحربية وبعد أن أشعل النيران فى المعابد والقصور والمدن التى مر بها ، أقام فى خلقدونية قبالة القسطنطينية وعلى تلال خريسبوليس Chrysoupolis (سكوتارى Scutari) • وهناك انتظر وصول خاقان الآفار والآفار ليرتب معهم تفاصيل الهجوم على القسطنطينية(٣) •

وفى يوم الاحد الموافق ٢٩ من يونيه عام ٦٢٦م ، وهو يوافق عيد القديسين بولس وبطرس ، وصلت طليعة جيش الآفار ، البالغ عددها ثلاثين ألف رجل الى ادريانوبل فى تراقيا — وعلى بعد ٢٠٠ ك•م من القسطنطينية ، وفى نفس اليوم تقهقر الفرسان والخيالة وبقية الجيش من الضواحى الى داخل الحصن الرئيسى ، وتوقف قائد مقدمة جيش الآفار لمدة عشرة أيام ، وحتى ٨ يوليه — بالقرب من مدينة ملانتياس Melantias الصغيرة على ساحل الدردنيل ، وكان يرسل من هناك دوريات استطلاع نحو المدينة الامبراطورية من حين لآخر(٤) •

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 176.

(٢) حدث فى يوم الاربعاء ١٤ مايو ٦٢٦ م ان ارتفعت أصوات اعتراضات فى كنيسة القديسة صوفيا ضد يوحنا الملقب بسيسموس Sismos الذى كان مسئولا عن الشئون الاقتصادية وذلك بسبب ارتفاع أسعار الخبز من ثلاثة Pholles (عملة فضية) الى ثمانية ، وتسبب هذا الارتفاع المفاجىء فى سعر الخبز فى تذمر الناس ، بالاضافة الى أن يوحنا اتهم برغبته فى الغاء خبز المدارس وتدخل البطريرك سرجيوس ، ووعد بحل المشكلة ، وبخفض سعر الخبز فى الحال ولكن على الرغم من هذا الوعد وبالرغم من فصل يوحنا ، اظهر الناس استيائهم بتدمير التماثيل التى كانت مقامة لتشريفه . انظر ماسبق فى الفصل الثانى .

(٣) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., PP. 716-17., Barisic, **Le Siègé**, P. 378.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر :
Chronicon Paschale, PP. 717-20., Barisic, **Le Siègé** P. 378.., Lebeau, Histoire de Bas-Empire, T. XI, P. 120.

وفى الوقت الذى وصلت فيه طليعة جيش الافار ، كان الامبراطور هرقل غائبا عن عاصمته منذ ثلاثة أعوام ، يتابع الحرب ضد الفـــرس ، وكانت المدينة تقريبا بلا دفاع ، وكان الامبراطور هرقل قد عهد الى كل من البطريرك سرجيوس Sergius والسيد بونوس Bonus ، بأن يتوليــا الوصاية على ابنه الصغير قسطنطين نائبه وشريكه فى الحكم ، وبأن يحلا محله أثناء غيابه وقد نجح كل من سرجيوس وبونوس فى آداء المهمـــة ، التى عهــد بها الامبراطور اليهما ، فقد كان البطريرك سرجيوس روح المقاومة ، وساهمت خطبه المتتالية المتتابعة فى رفع معنويات أهل المدينة ، وفى اثارة الحماسة الدينية فى نفوسهم ، وكان يشجعهم بالمرور بنفســه حول التحصينات ، فى موكب رسمى مهيب أما البطريق بونوس Bonus فقد تولى قيادة القوات البيزنطية ، واتخذ الاستعدادات السريعة للدفاع عن المدينة(١) •

أما الامبراطور هرقل ، فعلى الرغم من اشتغاله بالحرب مع الفرس ، فانه لم يهمل شئون الدولة ، وما لم يستطع اتمامه بنفسه ، كان يدبره عن طريق الرسائل ، فقد أرسل التعليمات الخاصة بالدفاع عن المدينـــة ، ومن بينها أن تشعل الاخشاب فى الحال ، وأن توضع السلالم القوية على الاسوار حسب الضرورة ، وأن تقوم الابراج المتنقلة ، وترص الحواجز على الاوتاد ، وأن يحصن السور الجديد وتوضع عليه آلات مرنة تقـــذف السهام والحجارة ، كما أمر الامبراطور بأن يستعد الاسطول للعمل وأن تعد السفن المسلحة ، التى سبق أن استحضرها منذ فترة وكانت المهمـــة التى عهد بها الى الاسطول هى منع الجيش الفارسى من العبور من آسيا الى أوربا ، وأمر الامبراطور كذلك بالاصلاح الفورى للاسوار ، التى بدت فى حالة غير طيبة (٢) • وليس من المعروف ، ما اذا كانت أسوار المدينة

(١) Schlumberger, «**Le Siège de Constantinople par le Souverain ou Khagen des Avares sous le régne de l'empereur Heraclius au Septieme Siécle** » dans Recits de Byzance., T. I, PP. 2-3., Barisic, **Le Siègé** P. 378, Diehl, le monde, P. 147.

(٢) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., PP. 57-58.

المطلة على البحر قد أصلحت أم لا ؟ فقد دمر زلزال عام ٤٤٧م كل أسوار المدينة وبصفة خاصة الاسوار القريبة من بحر مرمرة ، ومع ذلك لم يأت ذكر فى أى مصدر عن اصلاحات هامة ، فى الاسوار المطلة على البحر ، منذ قرنين ونصف • ويبدو أن جميع سكان المدينة ساهموا فى اصلاح الاسوار ، وفى اتمام استعدادات الدفاع(١) •

ولم يكتف الامبراطور بارسال التعليمات الخاصة بالدفاع عن المدينة ، بل أرسل عددا وافرا من القوات لتدعيم حامية المدينة ، وذلك لأنه اعتبر أن السلامة الحقيقية انما هى ألا يلحق أى ضرر بالمجموع(٢) •

وهكذا أخذ الامبراطور يأمر ويخطط لكل صغيرة وكبيرة وهو غائب ، فيرسم الخطط ، ويأمر باعداد الآلات وتجهيزها بذهن صاف ومهارة فائقة ، فكان بذلك قريبا من المدينة مع بعده عنها ، وكان حاضرا بتدبيره فى كل مكان(٣) •

ولكن لماذا لم يأت الامبراطور هرقل الى مدينته ، ليقود المعركة بنفسه ويتولى الدفاع عنها ، ربما كان لا يستطيع المجىء ، ولكن هذا الأمر غير معقول ، لأن القوات التى أرسلها كامدادات قد استطاعت الوصول ، وبالتالى كان هو أجدر بالوصول الى المدينة ، والمجىء اليها بنفس الطريقة • وربما كان هرقل لا يرغب فى أن يترك ما كسبه خلال السنوات الاربع السابقة فى حربه مع الفرس ويجلو عن الاقاليم التى احتلها ؟ ولكن ما هى تلك الاقاليم التى كسبها والتى تم غزوها وتحريرها ؟ معظمها أقاليم تقع فى أرمينية البيزنطية ، أما الاقاليم الغنية مثل سوريا ومصر فقد كانت لاتزال فى أيدى الفرس ، ومن المحتمل أن هرقل لم يذهب ليقود المعركة بنفسه ، لأنه تصور أن الخطر كان ضئيلا وعلى ذلك لم يأت الى المدينة الامبراطورية(٤) •

---

(١) Stratos, Byzantium, PP. 174-75.
(٢) Geogrius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 58.
(٣) Ibid., PP. 58-59.
(٤) Ibid., P. 57.

استمر الآفار فى ارسال دورياتهم وكتائبهم — أثنـــاء اقامتهم فى مدينة ملانتياس Melantias على الدردنيل — على فترات متقـــاربة ، ليمنعوا السكان من الخروج للحصول على العلف للخيـــول وللاستطلاع كذلك ، وبعد عشرة أيام من اقامتهم ، قلت دورياتهم ، وأصبحت عـــلى فترات متباعدة ، ولهذا انتهز أهل المدينة والجيش البيزنطى الفرصـــة ، وخرجوا من المدينة على مسافة تبعد عشرة أميال ليجمعوا المحاصيل ، وعندما اكتشفت كتائب الآفار تحركات البيزنطيين هاجمتهم ، وحمل الآفار معهم بعض الاسرى البيزنطيين • وعندما رأى المدافعون عن السور ما حل برجالهم من هزيمة ، خرجوا من أماكنهم محاولين انقاذهم واطلاق سراحهم ، فنتج عن هذا الاشتباك بعض القتلى من كلا الجانبين (١)•

وأشعل الآفار النار فى بعض الضواحى الى الغرب من المدينـــة ، ودمروا قناة المياه بها ، وأرسلوا بعد ذلك كتيبة من الفرسان تعدادها ألف فارس بالقرب من جالاتا Galata ، وقد أعلنت تلك الكتيبة عن وصولها باطلاق المشاعل للفرس ، الذين كانوا على الشاطىء الاسيوى المقـــابل للبوسفور ، وأطلق الفرس بدورهم النيران ردا عليهم • ومع ذلك كله لم يحدث رد فعل من جانب حامية المدينة خلال هذه الفترة(٢) •

أرسل البطريق بونوس وسادة المدينة الآخرين ، أحد رجال السناتو وهو البطريق اثناسيوس Athanasius الى الخاقان كمبعوث ، يحمل له عرضا جديدا ، بشرط أن يرجع عن مخططاته ، ويتخلى عن فكرة الهجوم على المدينة ، ولقاء ذلك يلبون له طلباته ، وكان أن وصل اثناسيوس الى أرض الآفار ولكن لم يستقبله الخاقان بنفسه ، وأعلن أنه سوف يغلق باب المفاوضات(٣) ويقال أن الخاقان احتجز اثناسيوس فى حاشيته ، ولم يسمح

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 182.

(٢) Chronicon Paschale, I, In, C.S.H.B., PP. 717-18., Stratos, Byzantium, P. 182. Lebeau, Histoire T. XI, PP. 120-21.

(٣) Chronicon Paschale, PP. 718-19., Barisic, **Le Siège**, PP. 378-79., Schlumberger, **Le Siègé**, P. 3.

له بالعودة وعنـــدما وصل الخـــاقان بالقرب من ادريانوبل — على بعد ٢٠ ك٠م من القسطنطينية — مع بقية جيشه الذى قاده بنفسه أرســـل اثناســـيوس الى القسطنطينية ، وقص الاخـــير لأهلهـــا بوضـــوح مـــا رآه فى معســـكر الآفـــار ، ووصـــف قوتهـــم ، فأثـــار موقـــف اثناسيوس الدوائر الرسمية فى المدينة ، فاتهموه بأنه خاف من الخاقان ولهذا فقد خضع لسلطانه ونفوذه ، ولاموه لكونه أصبح رسولا لبربرى خائن وسفيه ، وحاول اثناسيوس تبرير موقفه ، وذكر بأن السناتو نفسه وسادة المدينة هم الذين أرسلوه الى الخاقان ، وأنهم عهدوا اليـــه بأن يحمل رد خاقان الآفار ،وليكشف القناع عن خططه • وكانت دهشـــة اثناسيوس من انتقاد مواطنيه له طبيعية ، فقد كان على علم تام بمدى قوة جيش الآفار والعدد الضخم الذى كان لديه من آلات الحصـــار ، هذا فضلا عن أنه بسبب غيابه عن العاصمة لم يعلم باصلاح الاسوار ، ولا بوصول قوات نظامية لتعزيز حامية المدينة ، وفوق كل ذلك فهو يعلم بالروح المعنوية المنخفضة لاهله ولسكان مدينته ، وكذلك بالعزم عـــلى ارسال سفارة الى هرقل تطلب منه العودة الى وطنه فى الحال(١) •

وما أن علم اثناسيوس باصلاح الاسوار وبأن المدينـــة حصنت ، وزودت بالطعام الكافى ، وبالقوات العسكرية البرية والبحرية ، وأنهـــا أصبحت قادرة على رد أى هجوم — حتى أعلن قـــراره بأنه مستعد لأن يعود الى الخـــاقان حاملا رد البيزنطيين ، وأعرب عن اســـتعداده لأن يتحمـــل غضب الخاقان ، ولكنـــه طلب أن يستعرض قوات الجيش فى القسطنطينية قبل رحيله الى الخاقان ، ليكون لديه انطباع شخصى ، وكان أن استعرض اثناسيوس الجيش ، فوجد أن سلاح الفرسان يقدر بحوالى ١٢٫٠٠٠ بالاضافة الى أن هناك كتيبة مشاة ، وفرقة من الحرس مدربة ومسلحة(٢) •

(١) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 718., Lebeau, Histoire. T. XI ; P. 121. Stratos, Byzantium, PP. 182-183.

(٢) Chronicon Paschale, PP. 718-19.

أرسل سادة المدينة وأصحاب المقام الرفيع فيها الرد الى الخاقان ولكن من المؤسف له ، أنه ليس هناك أى مصدر يعطى نص هذا الرد ، أى نص رد أهل المدينة على الخاقان ، ومن المحتمل أنهم عرضوا عليه جزية • على أية حال أخذ اثناسيوس الرد البيزنطى ، وذهب الى الخاقان ثانية ، وذكر له أن المدينة فى حالة دفاع ، وأنه يوجد بها ١٢٫٠٠٠ من الفرسان ومشاة آخرون كثيرون فغضب الخاقان ، وطرد اثناسيوس من حضرته(١) • وبهذا رفض الخاقان عروض البيزنطيين ، واشترط لقاء انسحابه أن تسلم له المدينة وأهلها وبذلك فشلت المفاوضات مع الخاقان •

لم يخش سكان المدينة من تهديدات خاقان الآفار ، ويرجع الفضل فى ذلك الى الدور الذى قام به كل من بونوس Bonus والبطريرك سرجيوس Sergius ففى الوقت الذى قام فيه الأول باعداد الجميع للدفاع عن المدينة ، هب الثانى يثير الهمم بفصاحته وشجاعته ، ويشد العزائم ويطوف بالمواكب الدينية ، ويعلو بنفسه الأسوار ومعه أيقونة المخلص وأيقونة العذراء ، فكان بذلك روح الدفاع وخوذة العاصمة ودرعها (٢) •

وفى يوم ٢٩ يوليو كان قد مضى شهر كامل على ظهور مقدمة جيش الآفار ، وأكثر من ستة أسابيع على وصول الفرس ، وكان الخاقان قد وصل على رأس جيشه فى هذا اليوم أمام أسوار القسطنطينية ، وقد أسرع بدراسة الاسوار ووسائل الدفاع عن المدينة بنظرة دقيقة وشاملة ، وذلك ليقرر موعد هجومه عليها • ولم يكن بونوس Bonus يعلم مبكرا بوصول الخاقان ، وعندما علم بذلك أسرع بفحص الاسوار ومراقبتها ، والمرور على قوات الجيش وحرس المنازل ، وكان سرجيوس Sergius على رأس رجال الدين بالمدينة ، يتبعه السناتو وجماعة من المواطنين ، يحملون ايقونة العذراء وهى تحمل المسيح بين يديها فى موكب دينى عبر

(١) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 719., Schlumberger, **Le Siègé** P. 3., Lebeau, Histoire, T., XI, PP. 121-22.

(٢) Lebeau, Histoire T., XI, P. 122, Schlumberger, **Le Siègé**, P. 7.

المدينة وحول الاسوار(١) .

لم يحدث أى قتال أو اشتباك فى اليوم ، الذى وصـل فيه خاقان الآفار (٢٩ يوليو ٦٢٦م) وفى صباح اليوم التالى (٣٠ يوليو) اتخـذ الخاقان استعداداته للمعركة ، فرتب كتـائبه ، وزودها بمختلف أنواع الاسلحة من سهام وحراب وسيوف وغيرها وأخذ الجيش مواقعـه فى ضاحية البلاشيران حتى بحـر مرمرة أمام سـور ثيودوسيوس الثانى Theodosus واصطف الافار والسلاف والبلغار والجيبـد Gépides مجهزين بأسلحتهم على طول هذا السور الذى كان يحمى المدينة، وكان مشهد تلك القوات المتكدسة أسفل الاسوار مرعبا اذ كانت هناك أعداد لا تحصى من المشاة والفرسان والجياد هذا فى الوقت الذى رست فيه مئات من المراكب التى صنعها السلاف أيضا والمنحوتة من جذوع الاشـجار — رست فى القرن الذهبى ، وعلى مقربة من ضاحية القديس ماماس Mamas ووقفت تنتظر من أجل نقل المحاصرين الى نقاط مختلفة على هذا السور العظيم ، ومن ناحية أخرى عسكر الفرس — كما سبق أن ذكرنا — بأعداد لا تحصى فى خلقدونية فى انتظار سفن حلفائهم الآفار من أجل أن يعبروا مضيق البوسفور ، وبذلك اكتملت أضلاع المثلث ، الذى أصبح يطابق ذلك المثلث الذى ترسمه القسطنطينية . أما بالنسبة لمسألة المؤن فقد ادعى الخاقان أن الطعام سوف يرسل اليهم من المدينة ، وأنه من المنتظر أن يرسـله لهم قسـطنطين ابن الامبراطور هـرقل تعبـيرا عن سرعة هزيمـة البيزنطيين(٢) .

وفى اليوم الثالث لوصول الخاقان (٣١ يوليو) هاجم الخاقان المدينة على طول الاسوار ، واستمر القتال من الحادية عشرة صباحا حتى الخامسة مسـاء ، وكان مركز الهجـوم هو الفضـاء أو السـاحة التى بين بوابة

(١) انظـر : Chronicon Paschale, P. 717.,
وانظر أيضا : Schlumberger, **Le Siègé** P. 7 ;

(٢) Schlumbdrgar, **Le Siègé** PP. 4-5., Barisic, **Le Siègé** P. 380.; Stratos, Byzantium, P. 184.

Polyandrii وبوابة Quinti Pempton • وفى هـذه النقطة اصطف جيش الافار ، وقام السلاف المسلحون بأسلحة خفيفة بالهجوم الاول ، ثم أقبلت قوات الأفار بأسلحتها الحديدية ، هذا فى حين هاجم أتبـاع الآفار من السلاف والجبيد Gepides والبلغار الاسوار الاخرى • وحاولت فرقة سلافية الاستيلاء على كنيسة ودير فى منطقة بيجى Pigae على نهر جرانيكو Granique فيما وراء البوسفور ، ولكن رد البيزنطيون هـذا الهجوم مكبدين القوات المهاجمة خسائر فادحة • وقد رفع هذا الانتصار من روحهم المعنوية • وفى مساء نفس هذا اليوم (٣١ يوليو) أمر الخاقان بنصب بعض المجانيق على امتداد السور أى سور تيودوسيوس [١] •

وفى اليوم التالى الموافق أول أغسطس ، أقام الآفار العـديد من الآلات وبصفة خاصة الابراج الخشبية ، فى نفس المكان من الاسوار ، الذى تم مهاجمته فى اليوم السابق ، وقد ردت حامية المدينـة على ذلك بالقاء كميات كبيرة من الاحجار • واستمر القتال ، ونجح البيزنطيون فى صد الغزاة ، ولكن بدأ الموقف يتأزم ويشتد عندما أقام الآفار اثنى عشرة برجا خشبيا مرتفعا ، بين بوابتى Polyandrii وبوابة القديس رومانوس St. Romanus فى اقليم مرتفع بعض الشىء عن السور العظيم ، الـذى كان يحمى المدينة بين بحر مرمرة وطرف القرن الذهبى • ويبدو أن عملية تركيب هذه الابراج واقامتها تمت بسرعة فائقة لأن الكثير من الايدى عملت فيها ، ولأن الخاقان كانت تحت تصرفه المواد اللازمة والضرورية لذلك • وكان ارتفـاع تلك الابراج الخشبية يعلو الاسوار والمتاريس والاستحكامات ، وكانت هذه الابراج مغطاة بجلود الحيوانات المذبوحة حديثا ، تلك التى تغطى بها أيضا رماة أحجارهم ، لأن المدافعين عن الاسوار كانوا يلقون بقدور مملوءة بمواد قابلة للاشتعال • على أية حال فقد تم وضع جميع آلات الحصار بسرعة الى جوار بعضها فى انجاز كامل وتحت اشراف الخاقان نفسه[٢] •

---

(١) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 719., Stratos, Byzantium, P. 185.

(٢) Chronicon Paschale, PP. 719-20. Barisic, le siège, P. 382., Schlumberger, le Siège P. 6.

وكانت هذه الابراج الخشبية خطرا بالغا ، خاصة عندما خلت الاسوار من المدافعين ، ولعل هذا ما دفع بونوس الى أن يطلب من البحارة أن يتسلقوا الاسوار ليدعموا حرس المنازل ، على أن أحد هؤلاء البحارة الذين استخدموا كقوات مساعدة ، نجح فى التصدى لهذه الابراج الضخمة المزودة بآلات للقذف بأن ابتكر آلة جديدة ، عبارة عن صارى محمول على تروس أو عجل ، وعلق هذا الصارى على زورق ، وهذا الزورق مجهز بكرات ترتفع وتنخفض بحسب الحاجة ودفع بالزورق بعد أن ملأه بالبحارة نحو السور العظيم ، وأخذ يتابع حركة الابراج ، ثم أشعل البحارة النيران فى الابراج بواسطة مشاعل كانوا يلقونها عليها ويذكر البطريرك نيقفوروس أن هذه الابراج ما كادت تقترب من أسوار المدينة حتى أسقطتها العناية الالهية فى الحال ، وأبادت جنود الآفار الذين كانوا موجودين فيها بكثرة (١) .

عرض بونوس عندئذ على الخاقان وللمرة الرابعة أن يترك الحصار ، وأن يقبل الجزية ومبلغا آخر كبيرا من المال ، ولكن رفض الخاقان ، وطلب تسليم المدينة ، وذكر أن الشىء الوحيد الذى سوف يوافق عليه هو أن يترك الحرية لأهل المدينة فى أن يرحلوا عنها ويخرجوا منهـا ، بدون أن يحملوا معهم أيا من ممتلكاتهم(٢) .

وحاول الخاقان انزال تلك القوارب السريعة الصغيرة ، والتى تعرف باسم الـ Monoxyla الى المـاء ، والتى كان قد حضرها على العربات ، وبعد بحث دقيق ومراقبة وفحص للمنطقة ظهرت هذه القوارب متجمعة على سطح نهر باربيسوس Barbysos بجوار كوبرى القديس كالرنيكون Callrnicon داخل خليج القرن الذهبى . وكانت هذه المحاولة صعبة على الاسطول البيزنطى اذ كانت هذه النقطة صخرية ، والسفن كبيرة ولا تستطيع الاقتراب منها . ووقف الاسطول البيزنطى حائرا أمام كنيسة

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 20.
وانظر ايضا : Schlumberger, **Le Siège** PP. 6-7.,
Lebeau, Histoire, T. XI., P. 123.

(٢) **Chronicon Paschale, P. 20, Schlumberger, Le Siège** P. 5., **Barisic, Le Siège** P. 383., Stratos, Byzantium, P. 185.

القديس نيقولاس Nicolas وحتى كنيسة القديس كانون St. Canon في بيجى Pigae على نهر جرانيكو فيما وراء البوسفور(١) •

وفى الثانى من أغسطس احتدمت المعـــركة بصورة مخيفة ، وعلى الرغم من استمرار المعارك الا أن الموقف لم يتغير ، وفى مساء هذا اليوم طلب الخاقان من قسطنطين ابن الامبراطور هرقل أن يرسل له سفارة ، ويبدو أنه طلب ذلك حتى يحصل على المهلة اللازمة التى يستكمل فيها خطته الثانية ، ولهـــذا بدا وكأنه غير من مطالبه ، فتوسل الى بونوس أن يرسل اليه المفوضين ، وفى جلسة عقدت بسرعة فى القصر الامبراطورى حضرها قسطنطين نائب الامبراطور وابنه وشريكه فى الحكم والبالغ من العمر أربعة عشر عاما ، وحضرها كذلك البطريرك سرجيوس Sergius والسيد بونوس Bonus ، والبارزون من أعضاء السناتو ورجاله ، رأى الجميع أن يرسلوا الى الآفار رجالا يتميزون بحسن القول والفعل لوضع حد لمحنة الطرفين(٢) •

وتقرر فى النهاية أن يذهب للقاء الخاقان والتفاوض معه ، خمسة من النبلاء ورجال السناتو من ذوى المقدرة على تحقيق المصالحة ، وهؤلاء السفراء الخمسة ، الذين وقع الاختيار عليهم هم : البطريق الشـــهير جورج Georgius والبطريق ثيودور جلاستى Theodorus Glasti • والبطريق ثيودوسيوس Theodosios مدير الشئون الماليـــة ، والكاتب ثيودور سينكلوس Theodorus Syncellus والبطـــريق اثناســـيوس Athanasius وهو سفير بيزنطة للآفار(٣) •

هذا فى الوقت الذى أرسل فيه الفرس رسلا من قبلهم عن طريق البحر خلسة وخدعة ، وكانت مهمتهم حمل الآفار على توجيه سلاحهم ضد

---

(١) Barisic, Le Siège PP. 282-83., Stratos, Byzantium, PP. 185-86.

(٢) Geogrius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 60., Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 721.

(٣) Idem. P. 721.

البيزنطيين[١] • ووصلت السفارة البيزنطية الى معسكر الخاقان ، ودخلت الى حضرته ، وقدم السفراء البيزنطيون الهـدايا للخاقان ، نيابه عن قسطنطين ، ووجدوا بصحبته ثلاثة من الفرس، يرتدون الملابس الحريرية، وكان هؤلاء هم رسل شهرباراز Sahrabaraz قائد جيش الفرس المعسكر فى خلقدونية على الشاطىء الآسيوى ، واندهش السفراء البيزنطيون من وجود الفرس فى حضرة الخاقان ، فوجودهم يشير الى أن هناك ثمة اتفاق أو اتصال بينهم وبين الآفار • على أية حال فقد ظل السفراء البيزنطيون واقفين ، ولم يسمح لهم بالجلوس ، هذا فى حين أجلس الخاقان رسـل الفرس ، ثم توجه الى السفراء البيزنطيين ، ذاكرا لهم أن الفرس أرسلوا له السفراء ، وأنهم مستعدون لأن يقدموا له يد العون والمساعدة ، وأنهم سوف يرسلون له ثلاثة آلاف رجل ، وذكر لهم أيضا أنه لم يعد أمام أهل المدينة أى مدينة القسطنطينية أمل فى النجاة سوى أن يغادروا المدينـة بملابسهم[٢] •

قاوم السفراء البيزنطيون جميع هذه التهديدات بلا خوف ، اذ رد جورجيوس Georgius قائد البعثة ورئيسها على الخاقان ذاكرا له أن المدينة ليست فى خطر ، وأن الجيش البيزنطى أوشـك على نجدتهـا وانقاذها ، فرد عليه الخاقان ، بأن الفرس ذكروا له بأن الجيش البيزنطى ليس فى طريقه الى نجدتهم ، وأنه تحت أى ظرف من الظروف سـوف يستولى على المدينة بمساعدة حلفائه الفرس ، وأنه أرسل لهم السـفن لكى تحضرهم اليه من الشاطىء الآخر ، ولذلك فسوف تعانى القسطنطينية ما تعانيه أى مدينة يتم الاستيلاء عليها عنوة ، ورد جورجيوس Georgius على الخاقان ، بأن الفرس عبثوا به كما تعبث النار بالحطب مدعين أنهم سوف يقدمون له مساعدات من الرجال[٣] •

---

(١) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 60.

(٢) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., PP. 721-22.

وانظر ايضا :

Schlumberger, **Le Siège** P. 8.

(٣) Chronicon Paschale., P. 722.,

Georgius Pisida, Bellum Avaricum, P. 60.

وعندئذ ثارت ثورة سفراء الفرس ، ووجهوا الى السفراء البيزنطيين أقبح الالفاظ ، وراحت ألسنتهم تقذف البيزنطيين بالشتائم اللاذعة والسباب والتهديد • اذ قام أحد السفراء الفرس وسب جورج وأهانه باسم الخاقان ، ومع ذلك احتفظ السيد جورج بهدوئه ، ورد عليه بأنه ليس له الحق فى أن يسبه فهذا من حق الخاقان وحده ، وطلب المفوضون من الخاقان فى نهاية لقائهم به أن يسمح لهم بالعودة الى مدينتهم • وكان أن تركهم يرحلون آمنين(١) •

وهكذا فشلت المفاوضات مع الخاقان ، ورفض ممثلو المدينة الامبراطورية شروطه ، وعادو الى مدينتهم ، وفى مساء نفس اليوم الذى عاد فيه السفراء البيزنطيون الى القسطنطينية أعدوا تقريرا للقصر الامبراطورى بكل ما حدث فى معسكر الخاقان اكدوا فيه على وجود الفرس ، والمعلومات —التى اعطاها لهم الخاقان —الخاصة بأسطول الآفار الذى أرسله الخاقان ، ليأتى بالفرس من الشاطىء الاسيوى • ولم يكن هذا بالأمر السهل على البيزنطيين اذ أدركوا أن المعركة ستكون عنيفة وقاسية عليهم ، ومع ذلك فقد تقرر اتخاذ اجراءات سرية لتقوية دفاعهم على البوسفور ليمنعوا وصول الفرس من الشاطىء الآخر ، وليحولوا بينهم وبين عبور البوسفور ، كما اهتم البيزنطيون بحراسة مدخل القرن الذهبى واغلاق جميع الممرات • وهكذا انكشفت خديعة الفرس (٢) •

حاول سفراء الفرس الثلاثة عبور البوسفور فى الليلة التالية لرحيل المفوضين البيزنطيين ولكن كانت تغمره البحرية البيزنطية ،ولذلك وقع سفراء الفرس أسرى فى أيدى البيزنطيين بالقرب من Chalae على البوسفور اذ حدث أن التقت بهم سفينة بيزنطية كانت قادمة من أورفانتروفيو Orphantrophi (فى المجر) متجهة نحو القسطنطينية ، وهم فى طريقهم الى خريسبوليس Chrysopolis فلمحهم البحارة

---

(١) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 60.
Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 722.

(٢) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, P. 61.
Schlumberger, **Le Siège** PP. 8-9., Barisic, **Le Siège** P. 384., Stratos, Byzantium, P. 187.

البيزنطيون على ظهر السفينة ، التى كانت تنتظرهم على شاطىء آسيا ، وتمكنوا من القاء القبض عليهم وأطاحوا برأس أحدهم ، وقطعوا ذراعى الآخر وأرسلوهما هكذا الى الخاقان ، وذلك لاثارة الرعب فى نفوس الآفار • أما السفير الفارسى الثالث فقـادوه حيا على ظهر مركب الى خلقدونية ، وبعد أن عرضوه على الفرس ، أطاحوا برأسه ، ثم ألقوه على الشاطىء ، ومعه كتاب عليه هذه الكلمات ، لقد عقد الخاقان معنا معاهدة صلح ، وأرسل الينا رسلكم ، وأمرنا بقطع رأس اثنين منهم فى المدينة ، واليكم رأس الثالث(١) •

استمر وقف القتال على طول الاسوار يوم الاحد الموافق الثالث من أغسطس وشـاع فى القسطنطينية أن مراكب السلاف لـ Monoxyla والتى عهد اليها بنقل الفرس الحلفاء قد أبحرت الى خالاس Chalas على البوسفور بناء على الأوامر التى صدرت لها من الخاقان ، بل أن الخاقان نفسه أبحر معها الى خالاس ، ونزل فى تلك النقطة الضيقة على البوسفور ليشرف بنفسه على تنفيذ أوامره ، ويباشر تنفيذ خططه التى أعدها(٢) •

وعندما علم البيزنطيون بذلك ، ركب بعضهم البحـر ، وصـدرت الأوامر للاسطول البيزنطى بالابحار الى خالاس Chalas ليمنع مراكب الخاقان من القدوم الى الشاطىء المقابل والاتصال بالفرس ، وعلى الرغم من أن اتجاه الرياح كان معاكسا الا أن سبعين سفينة بيزنطية أبحـرت فى هذا المسـاء • على أن الخـاقان ما لبث أن عاد الى القسطنطينية فى المساء ، ودنا من أسوار المدينة ، وأرسل له البيزنطيون المأكولات والخمور أو الميرة والنبيذ • ومن المحتمل أنهم فعلوا ذلك لتهدئته وتسكينه (٣) • ويقال أن القائد الذى تسلم تلك الهدية من النبيذ ومن حيوانات تم صيدها ويدعى Ermitzis لام أهل المدينة على تلك القسوة وذلك العنف ، الذى

(١) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., PP 722-23., Barisic, **Le Siège** P. 384., Schlumberger, **Le Siège** P. 9., Stratos, Byzantium, P. 187.

(٢) Chronicon Paschale, P. 723.

(٣) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 724., Barisic, **Le Siège** P. 385., Bréhier, Les Institutions de l'empire Byzantin, P. 409.

عاملوا به رسل الفرس ، وعلى سبهم للخاقان واهانتهم له ، وذكر لهم أن الخاقان يستعد لانتقام رهيب ، فأجابوه أنهم فى انتظاره(١) •

وفى فجر يوم الاثنين الموافق الرابع من أغسطس ، خرج أسطول القوارب المعروفة باسم Monoxyla من الثغــرة الضيقة أى من خالاس Chalas على البوسفور ، وتقدم لتجنب دوريات البحــرية البيزنطية ، مستغلا فى ذلك المصاعب التى واجهت الاسطول البيزنطى ، الذى تعرض لرياح معاكسة ، واستعدت قوارب الـ Monoxyla لعبور الشاطىء المقابل والوصول الى خريسوبولس Chrysoupolis وخلقدونية حيث ينتظـــر الفرس ، ومما لاشك فيه أن حذر البيزنطيين تزايد ، غير أن الاســطول البيزنطى كان فى موقف صعب للغاية ، ولكن كان عليه أن يعرقل تحركات الـ Monoxyla فى القرن الذهبى ، وكذلك فى الشاطىء المقابل ، وقد نجح الاسطول البيزنطى فى أداء مهمته • ودار قتال غير متكافىء ، تشتت فيه قوارب الـ Monoxyla الصغيرة ، وتحطمت وأبيدت عن آخرها ، وقتل بحارتها أو غرقوا(٢) •

ومع ذلك قرر الخاقان الاستيلاء على القسطنطينية عنوة وبهجوم عام وشامل أى برا وبحرا وفى آن واحد • وفى يوم الثلاثاء الموافق الخامس من أغسطس اتخذ الخــاقان الاســتعدادات النهائية من أجل شن هذا الهجوم ، وبينما كان بعض من جنوده يحــدثون بعض المناوشات حول الحصون ، أعد بقية الجيش بسرعة الابراج المصنوعة وآلات الحصــار الأخرى ، وأمر الخاقان بأن تطلق جميع أسلحة الرمى الموجودة أســفل الاسوار ، وأن تدخل جميع الاسلحة الأخرى ميدان القتال ، واتفق على أنه عندما يبدأ الهجوم ، يتم اعطاء اشارة بواسطة المشاعل للسلاف الذين كانوا على زوارقهم فى نهر باربيسوس Barbyssus ، فقد اتفق الافار مع السلاف على مهاجمة المدينة بالقوارب عند اعطاء الاشــارة بدخولهم

(١) Chronicon Paschale, P. 724., Lebeau, Histoire T.XI,P. 126.

(٢) Chronicon Paschale, P. 724., Barisic, **Le Siège** P. 385., Schlumberger, **Le Siège** P. 10.

المدينـــة من مكان لا حمـــاية فيه ولا تحصـــين وذلك ليشـــيعوا الذعر في المدينة(١) .

وتصور الخاقان في الواقع أنه يستطيع أن يثقب أسوار المدينـــة بجيشه البرى ، بينما يسهل له البحارة السلاف المتجمعون في خليج Keras مهمة دخول المدينة ، وذلك بأن ينزلوا المدينة من هذا الجانب ، ويشغلوا أهلها وبذلك يمهدون الطريق لجنود الخاقان للقيـــام بمهمتهم . وعلم بونوس Bonus بكل استعدادات الخاقان وبخطته التى اتخذها ، وحتى لا يجعل تلك الخطة مجدية ، جمع عند حلول الليل جميع السفن المتفرقة في مختلف موانىء القسطنطينية ورتبها وجهزها ، وأرسلها نحو المنطقـــة المحددة للجهوم ، وفي نفس الوقت رابضت سفن أخـــرى في المنطقـــة المقابلة(٢) .

وفي يوم الاربعاء السادس من أغسطس ، الموافق اليوم التاســـع للحصار حدث هجوم عام على الاسوار البرية ، واستولى الآفار عـــلى كنيسة العذراء في البلاشيران Blacherne عنـــوة وحصـــنوها ، واستمر القتال نهارا وليلا وتكبد الآفار خسائر فادحة(٣) .

وفي يوم الخميس السابع من أغسطس الموافق اليوم العاشر للحصار استمر الهجوم الوحشى على الاسوار البرية ، واستخدم الآفار جميع آلات الحرب ضد الاسوار وضد حامية المدينة ، وفي اللحظة المعلومة وربما في الفجر أشعل بونوس Bonus والبيزنطيون المشاعل ، وأعطوا الاشـــارة وعندما رأى السلاف هذه الاشارة أو النيران ، ظنوا أن تلك هى اشـــارة

---

(١) Geogrius, Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., PP. 62-63.,
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 20.
وانظر ايضا :
Barisic, **Le Siège**, P. 386, Lebeau, Histoire, T. XI., PP. 126-27.

(٢) Nicephorus, Breviarium, P. 21., Lebeau, Histoire, T.XI,

(٣) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, P. 63.,
Barisic, **Le Siège**, P. 386.

الخاقان وعندئذ خرجت زوارقهم وقواربهم المعروفة باسم Monoxyla من مصب نهر باربيسوس Barbyssus ، واتجهت نحو المدينة ، وعندما وصلت الى السور البحرى بالقرب من البلاشيران ، ربط السلاف مقـــدمة قواربهم الصغيرة الخفيفة معا بحيث كونوا حلقة مغلقة ، وعندئذ دخـــل الاســطول البيزنطى المعــركة ، وهبت عاصفة أعاقت حركة القوارب الصغيرة ، فهاجمتها السفن البيزنطية ، وأحاطت بها يمنة ويسرة ، وقطعت عليها طريق الهرب ، فتصــادمت قوارب الـــ Monoxyla مع بعضها ، وبدأت كل واحدة منها تضرب الأخرى وكأنهم دخلوا شــبكة صيد(١) • وهنا أمطر البيزنطيون بحــارة أســطول الخــاقان بوابل من السهام والحجارة فكان أحدهم يقع من المركب فيقبض عليه وهو يتظاهر بالعوم ، وآخر يتطلع الى النجاة فيطفو على سطح المياه متظاهرا بأنه غريق ، وثالث يصعد خلســة الى أعلى المركب وكأنه فى برج ، واحترق رابع ، ثم تحول فى لحظة الى رماد(٢) •

وعلى هذا النحو مات عدد كبير من السلاف ، وحاول بعضهم النجاة من البيزنطيين فاختبأوا أسفل القوارب المقلوبة رأسا على عقب ، وعندئذ اكتملت كارثة السلاف بخروج الأرمن(٣) • من سور البلاشيران Blacherne وأشعل هؤلاء الارمن النيران فى الباب المجاور لكنيسة القديس نيقولاس St. Nicolas وعندئذ ظن السلاف المختبئون أسفل القوارب أن الذين على الشاطىء هم من حلفائهم الآفار ، فاتجهوا نحوهم سباحة آملا فى

---

(١) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 64.

(٢) Ibid., PP. 65-66.

(٣) كانت هناك جالية من الارمن فى القسطنطينية فى أثناء الحصـــار عام ٦٢٦ م ، وقد لعب الارمن دورا بارزا فى الدفاع عنها . ولمـــزيد من التفاصيل عن دور الارمن فى الامبراطورية البيزنطية ابان القرن السابع أنظـــر :

Grousset, Histoire de l'Armenie, PP. 283-84.,

Charanis, «The Ecthnic Changes in the Byzantine Empire in the seventh Century» in Dumbarton Oaks papers (1959), PP. 28-34.

النجاة والخلاص ، وعندئذ انقض عليهم الارمن وقتلوهم ، وعاونهم فى ذلك الحرس البيزنطى[١] .

أما من نجح من السلاف فى النجاة من الغرق أو من القتل على يد البيزنطيين والارمن ، وذهب الى معسكر الخاقان ، فما كان منه الا أن صب جام غضبه عليهم وأمر حراسه بقتلهم بلا شفقة أو رحمة . وفى نهاية الأمر أبحر عدد قليل ممن بقى من السلاف على ظهور ما تبقى من قواربهم الـ Monoxyla ، بعد أن تمكنوا من النجاة من الموت سواء بيد البيزنطيين أم بيد الخاقان ، ولجأ هؤلاء الى الجبال ليعتصموا بها خوفا من غضب الخاقان[٢] .

وهكذا أنهى فشل أسطول القوارب الـ Monoxyla المعركة البحرية وكان المشهد الاخير فى خليج القرن الذهبى مريعا ومفزعا ، اذ كانت المياه مغطاة بأجساد وجثث لا حصر لها ، تطفو هنا وهناك ، ومن بينها جثث نساء سلافيات ، واتخذ البحر لون الدم وأحمرت مياهه بدماء الغرباء . وكانت قوارب الـ Monoxyla المحطمة تتناثر هنا وهناك فى كل أنحاء الخليج تبحر بلا هدف أو غاية . هذا وقد استغرق البيزنطيون أياما ليجمعوا خلالها تلك الجثث ويدفنوها ، ويحرقون بقايا الـ Monoxyla التى جمعوها[٣] .

وفى تلك الاثناء كان جيش الخاقان يضرب أسوار المدينة البرية ، ولكن فشل هذا الهجوم البرى كما فشل الهجوم البحرى ، وتكبد الآفار خسائر فادحة وكان من الطبيعى أن يفشل هذا الهجوم البرى اذ كان هجوما متسرعا وغير منظم أو مخطط له ، ونجح البيزنطيون فى اشاعة الرعب والفزع بين المهاجمين اذ أطاحوا ببعض رؤوس السلاف الذين اعتلوا

---

(١) Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 724.

(٢) **Idem.**

(٣) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., P. 66.,
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 12.,
Barisic, **Le Siège**, P. 387.

ظهور الـ Monoxyla وربطوها على الرماح وعلقوها فوق استحكاماتهم ، وفى نفس الوقت أشاعوا بين المهاجمين أن من نجا من البحارة السلاف قتلهم حرس الخاقان ، وعندئذ بدأ السلاف والبلغار يتركون مواقعهم وينسحبوا ، وعندما شاهد البيزنطيون ذلك ، وأدركوا أن خطتهم نجحت ، فتحوا البوابات ، واندفعوا الى آلات الحصار ليحرقوا العديد منها ، وخيم سكون الموت فى الليل على الاسوار ، وأخفق هجوم الآفار البرى(١) .

أما الخاقان الذى كان يعتلى جواده ، ويراقب سير المعركة من فوق رابية على مقربة من الاسوار فعندما رأى ما وصل اليه الامر ، وشاهد المجزرة ، فانه نزل من فوق جواده ، وسار على قدميه الى خيمته ، وهو يضرب صدره ورأسه بيديه ، وما أن عاد الخاقان الى معسكره حتى اضطر الى رفع الحصار عن المدينة ، وأمر بسحب جميع آلات الحصار التى سبق أن وضعها أسفل الاسوار ، وأمر كذلك بردم الخندق الذى كان قد تم حفره ، وهدم الابراج والتحصينات التى نصبها وبعد أن نزع الجلود التى تغطى معداته وأبراجه أحرقها وانسحب(٢) .

وعند مغادرة الخاقان المدينة ، أرسل الى البيزنطيين يقول لهم أنه لم ينسحب خوفا منهم ، ولكن لما يعانيه من نقص فى المؤن ، ثم طلب منهم مقابلة البطريق والقائد بونوس ، فرفض بونوس مقابلته ، والتحدث معه فى أمر الصلح ، وأخبره بأن ثيودور — شقيق الامبراطور هرقل — قادم على رأس جيشه ، وأنه اذا أراد التحدث فى أمر الصلح فليتحدث معه(٣) .

ويبدو أن هذه الاكذوبة ، قد بعثت رعبا جديدا فى قلب الخاقان ،

---

(١) Georgius Pisida, Bellum Avaricum, PP. 63-64., Chronicon Paschale, PP. 724-25., Nicephorus, Breviarium, P. 18.

(٢) Chronicon Paschale, P. 725., Barisic, Le siége p. 388., Schhumberger, Le Siége, p. 10.

(٣) Chronicon Paschale, PP. 725-26.

فخاف من الوقوع فى أيدى جيش ثيودور Theodorus شقيق الامبراطور ؛ قاهر شاهين ، أشهر قادة الفرس ، ولهذا رحل فى الحـــال ، ولكى يغطى انسحابه ترك خيالته فى سهل القسطنطينية ، وقضت خيالة الآفار بقيـــة اليوم فى احراق الكنائس والقرى من حولها ، وتسببوا فى خسائر فادحة فى ضواحى البلاشيران حيث أشعلوا النيران فى كنائس القديس كوسماس Cosmas ودميان Damian ، وكنيسة القديس نيقولاس Nicolas وفى الاقاليم المجاورة . وفى الساعة السابعة تركت آخر فرقة من خيالة الآفار ضواحى المدينة وتقهقرت فرق المشاة فى فجر اليوم التالى الموافق الجمعة الثامن من أغسطس ، وعندما أشرقت شمس هذ اليوم لم يوجد أمام أسوار القسطنطينية جندى واحد من الآفار أو من السلاف . وقد أخفى الدخان الكثيف واللهب الجزء الغربى من المدينة ، فظن الفرس بأن المدينة سقطت فى أيدى الآفار(١) .

ويعلق باريزيك Barisic على هزيمة الآفار وانسحاب الخاقان ، فيذكر أنه على الرغم من جيش الخاقان الجرار الذى بلغ حوالى ثمانية ألف جندى وعلى الرغم من الكميات الكبيرة من آلات الحصار التى أحضرها معه ، والقوارب السلافية المعروفة باسم Monoxyla ، واختياره اللحظة المناسبة للهجوم على المدينة البيزنطية وحصارها فى الوقت الذى كان فيه الامبراطور هرقل غائبا عنها ومنشغلا بحربه مع الفرس ، الا أن الخاقان لم يحمل سوى كمية محدودة من المؤن ، وقد أجبره نقصها على أن يعجل فى سير العمليات العسكرية ليشن هجومه الرئيسى ، هذا الى جانب أنه بعد فشـــل قوارب الـــMonoxyla السلافية ، قام الخاقان بقتل من نجوا من الغرق وقد أثار هذا السلوك حفيظة الجيش البرى(٢) .

واذا كان باريزيك Barisic قد قبل ما جاء فى الحوليات الفصحية Chronicon Paschale من أن الخـــاقان انسحب لقلة المؤن ونقص

---

(١) Chronicon paschale, p. 725.

(٢) Barisic, Le Siège, P. 398., Lebeau, Histoire, T. XI, P. 128., Barisic, Le siege, p. 392.

الطعـــام ، فان استراتوس Stratos لا يقبـــل ذلك ، ويعتبر أن نقص الطعام كان مجرد عذر فحسب ، ويذكر أنه كان تحت تصرف الآفار كل شرق تراقيا وغربها وبلغاريا (اليوم) وكانت تلك بلادا غنية ، وبالتالى كان من السهل عليهم أن يحصـــلوا على المؤن اللازمة ، ومن ثم كان من السهل على الخاقان احضار الطعـــام للجيش بدلا من ارســـال الجيش لاحضاره ! علاوة على ذلك فقد كان لديه عدد كبير من الحيوانات ، التى كانت تحمل آلات الحصار ، وتحمل القوارب كذلك ، ونظـــرا لأن آلات الحصار قد أحرقت ، وأن القوارب تحطمت ودمرت ، فانهم اذا كانوا فى حاجة الى الطعام فكان عليهم أن يذبحوا كمية من تلك الحيوانات . وكانت هذه أسرع وأسهل وسيلة لحل مشكلة نقص الطعام أو المؤن(١) .

ويتابع استراتوس Stratos فيذكر أن مما لاشك فيه أن نشـــاط الهجوم كان قد اشتد فى النهاية فقط ، فهو لم يكن سريعا فى البداية ، فقد وصلت مقدمة جيش الآفار فى ٢٩ يونية ، ووصل الخاقان بعدها بشهر ، (٢٩ يوليو) ، وأقيمت المعدات وآلات الحصار فى اليوم الرابع ، وأخيرا كان الآفار مشغولين بالمفاوضات مع الفرس وبالتفكير فى نقلهم ، وعلاوة على هذا ، فان الآفار لم يظهروا عجلة ، فلو كان عندهم نقص فى الطعام فلماذا لم يدركوا ذلك منذ اليوم الاول ؟ وقد انتهى الهجوم بسرعة فى اليوم التاسع له وبدون أن يظهر أى تشقق أو تصدع فى أسوار المدينة أو علامة على سقوطها مما ضاعف من قوة مقاومة الحامية ، وجعلها تشن هجوما عنيفا . وبالتالى فان نقص الطعـــام لا يمكن أن يبرر لا البداية البطيئة ولا الانسحاب السريع(٢) .

واذا كان الآفار يعانون من نقص فى الطعام والمؤن فلماذا أضاعوا وقتـــا فى احراق آلات حصـــارهم ؟ واذا كان نقص الطعام قد أجبرهم وأرغمهم على الفرار بسرعة ألم يكونوا يستطيعون أن يتركوها خلفهم أو يأخذوها معهم ، على أنه يمكن أن يبرر فقط ذلك الوقت الضـــائع فى

---

(١) Stratos, Byzantium, P. 193.

(٢) Idem.

تخريب وتدمير آلات الحصار ، بأنهم كانوا خائفين من أن تستخدم تلك الآلات ضدهم مباشرة[١] •

أما عن وجهة النظر البيزنطية فى انسحاب جيش الآفار ، فتتمثـــل فى أن الآفار انسحبوا أولا بسبب نقص المؤن ، وثانيـــا بسبب الجيش البيزنطى ، وجاء السبب الاول على لسان الخاقان ، أما السبب الثانى فقد جاء على لسان بونوس قائد القوات البيزنطية ، وكذلك على لسان السفير البيزنطى جورجيوس Georgius عندما بدأت المفاوضات فى خيمة الخاقان اذ ذكر له أن المدينة ليست فى خطر ، وأن الجيش البيزنطى قادم لينقذها وعلى الرغم من أن السفراء الفرس كذبوا جورجيوس الا أنه أصر على ما ذكره (٢) • ويبدو أن كلا السببين معقول فبالنسبة لمسألة المؤن رأينا أن الخاقان كان يحصل عليها من المدينة أى من القسطنطينية ، وهذا يعنى بالفعل أنه كان يعانى من نقص شديد فيها ، وقد قال ذلك على لســـانه صراحة ، أما بالنسبة لمسألة الجيش البيزنطى ، فيبدو أن الآفار علموا باقترابه من القسطنطينية ، وعندئذ بدأوا الهجوم على العاصمة البيزنطية ، ولكنه كان هجوما غير منظم ، ولهذا كان من الطبيعى أن يفشل ، وبدأ الموقف يشتد على الآفار اذ أصبح الجيش البيزنطى وحامية المدينـــة يشكلان خطرا مباشرا عليهم ، ولهـــذا كان عليهم أن يرحلوا على الفور ، واذا كان الخاقان قد أقر أن سبب رحيله هو نقص المؤن ، فانه تورع أن يذكر أن انسحابه كان بسبب الخوف من حامية المدينة والجيش البيزنطى القادم لمساعدتها كذلك •

نسب البيزنطيون صد الهجوم الآفارى — السلافى على القسطنطينية الى تدخل العناية الالهية ، ويصمت المؤرخون المعاصرون والمحدثون عن الدور الذى قامت به حامية المدينة ، ويغفلون جهـــود قادتهـــا باستثناء

(١) Stratos, Byzantium, PP. 193-194.

(٢) انظر ما سبق ص ٣١٥ — ٣١٦ .

بونوس Bonus (١) .

قام البطريرك سرجيوس مع الامبراطور قسطنطين ابن الامبراطور هرقل وشريكه فى الحكم وذهبا سويا الى كنيسة العذراء فى البلاشيران Blachernae وأدوا صلاة الشكر لانتصارهم على الآفار ، وشـــيدوا جدارا لحماية هذه الكنيسة(٢) وجعل البيزنطيون يوم انتصـــارهم على الآفار وانقاذ القسطنطينية من خطرهم ، وهو الموافق السابع من أغسطس عيدا قوميا ودينيا ، وفى ذكرى هذا الحدث العظيم ، يقام احتفـــــال سنوى ، وفيه كان يقضى الليل فى انشاء التراتيل فى شرف العذراء(٣) .

كما نظم البطريرك سرجيوس تسبيحته الشهيرة والتى تعرف باسم

---

(١) يـــروى مؤلف الحـــوليات الفصـــحية Chronicon Paschale كيف انقذت العذراء المدينة ، وانتهى بقصة جاء فيها أن الخاقان ذكر انـــه رأى سيدة فى ملابس فخمة تتمشى بوقار حول الاسوار بمفردها وبلا حماية اثنـــاء احتـــدام المعـــركة . وكتب جـــورج البسيـــدى Georgius Pisida أن العذراء المقدسة راحت وحدها تصد الاقواس ، وتتصدى بالخـــوذ ، وتخوض المعمعة بدون أن يراها احد فترمى السهام ، وتطعن بالسيوف ، وتقلب القوارب ، وتسكن بحارتها الاعماق .. لقد صالت وجالت وهى تطعن من لم يسبق لهم أن طعنوا من الناس ، وبذلك صدت الاعداء وحمت البيزنطيين .

انظـــر :

Chronicon Paschale, in C.S.H.B., P. 725.
Georgius pisida, Bellum Avaricum, in C.S.H.B., p. 65.

وانظر ايضا :

Theophanis Chronographia in C.S.H.B., p. 487.,
Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 20.,
Cedrenus, Historiarum, in C.S.H.B., PP. 728-29.

(٢) Nicephorus, Breviarium, P. 21.

(٣) Barisic, **Le Siège**, P. 372., Schlumberger, **Le Siège**, P. 11.,
Lebeau, Histoire, T. XI, P. 129.

الاكاثيسطون Acathistos (١) •

أما عن شهرباراز ومدى مساهمة الفرس فى الحصار ، فقد ظل شهرباراز Sahrbaraz يحاصر خلقدونية ، ويرسل قراصنته من البحر وجنوده من البر لينهبوا المدن ، وقضى هناك شتاء عام ٦٢٦م يغزو البلاد ويحرق المدن ويهدمها(٢) •

ولكن ما هو الدور الذى قام به شهرباراز فى حصار القسطنطينية فى عام ٦٢٦م ، يرى باريزيك Barisic أن حصار القسطنطينية فى عام ٦٢٦م كحدث مشترك بين الآفار والفرس ، لم يكن سببه مبادرة من الدبلوماسية الفارسية وليست الاخيرة هى المحرك له ، لأنه منذ خريف عام ٦٢٢م قام الفرس بهجمات دفاعية خطيرة ضد هرقل ، ولم يكن وصول شهرباراز أمام خلقدونية سوى مشاغله والهاء لايقاف هجوم هرقل فى أرمينية ، وليظهر لأهل العاصمة القسطنطينية ، أن نشاطات هرقل ومجهوداته لا أهمية لها ولا طائل من ورائها ، وليس أدل على ذلك من أن شهرباراز لم يعد أسطولا ولا آلات حصار ولم يتخذ أى اجراء للاشتراك مع الآفار فى حصار عاصمة هرقل ، ويتابع باريزيك Barisic فيذكر أن جيش شهر باراز ظل مجرد متفرج لسير المعركة وعمليات القتال ، وبالتالى فحصار القسطنطينية عام ٦٢٦م كان من عمل الخاقان وحده ، وليس نتيجة لتحالف الفرس مع الآفار (٣) • ويذكر باريزيك Barisic كذلك أن المفاوضات مع الآفار حدثت فى ربيع عام ٦٢٦م ، أما الاتفاق مع الفرس

---

(١) الاكاثيسطون لفظ يونانى معناه « الذى لا يجلس فيه » أى انه لا يجوز الجلوس عند تلاوته . وقد اختلف العلماء ورجال الاختصاص اختلافا كبيرا فى الناظم وتاريخ النظم . فقال بعضهم أن الناظم هو سرجيوس أو جورج البسيدى ، وقال آخرون غير ذلك وارجاوا النظم حتى أيام الامبراطور ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) ولم يعينوا الناظم . انظر :

أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 487., Cedrenus, Historiarum, I, in C.S.H.B., P. 729.

(٣) Barisic, **Le Siège**, PP. 390-91.

للاشتراك فى الحصار فتم فى الثانى من أغسطس فقط وهو اليوم الخامس للحصـــار ، أى أن المفاوضـــات مع الفـــرس حدثت بعد وصولهم الى خلقدونية (١) .

على أن رأى باريزيك Barisic هذا يتعارض كلية مع المصـــادر اذ ليس من المعروف متى أتى الفرس للاتفاق مع الآفار ، ولكن بالاستنتاج يظهر أن المفاوضات بين الفرس والآفار حدثت عندما كان الجيشان أمام المدينة ، فتاريخ الفصح يذكر بوضوح أن شهرباراز وصل الى خلقدونية مع جيشه فى بداية يونية ، وانتظر وصول الخاقان ، وهذا يعنى أنه كان يعرف أنهم قادمون (٢) . أما بالنسبة لما ذكره باريزيك Barisic من أن الاتفاق بين الفرس والآفار تم فى الثانى من أغسطس ، فمن المعروف أن السفراء الفرس للخاقان لم يتمكنوا من العودة الى معسكرهم ، اذ أسرهم البيزنطيون ثم قتلوهم ، ومع أن الآفار كانوا يعلمون بالقبض على السفراء الفرس واعدامهم الا أنهم أرسلوا أسطولهم ، لينقل الجيش الفارسى وهذا وحده يظهر أن هناك ثمة خطة مشتركة للعمل كان قد اتفق عليها ، وعلى هذا الاساس ، فان أسر سفراء الفـــرس لم يكن له أى تأثير على التطور الاخير للاحداث .

أما بالنسبة لنظرية باريزيك Barisic التى تقول أن وصـــول شهرباراز Sahrbaraz الى خلقدونية لم يكن سوى مشاغلة والهاء لشل هجوم هرقل وايقافه . فقد حدث ذلك فى عام ٦٢٤م ، وكلف الفـــرس غاليـــا ، ولم يكن هذا فقط ، ولكن فى عام ٦٢٦م فان الجيش الذى قابل هرقل كان جيش شاهين وليس جيش شهرباراز Sahrbaraz .

هذا فضلا عن أن مؤلف الحوليات الفصيحة Chronicon Paschale يذكر أن كتيبة من الآفار ذهبت الى Syke (جالاتا Galata) واشعـــلت النيران لكى تدع الفرس يعلمون بوصولهم ، ورد الفرس بدورهم على

(١) Barisic, Le Siège, P. 391.

(٢) انظر ما سبق ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

هذه النيران بالمثل (١) واذا لم يكن هناك تفاهم واضح ، فكيف كان الآفار يعلمون بأن الفرس كانو هناك ، وكيف كان يمكن للفرس أن يعلموا من هو الذى أشعل النيران ؟ .

وعلى هذا يبدو أن حصار القسطنطينية فى عام ٦٢٦م كان حصارا متفقا عليه بين الفرس والآفار فقد أعد الفرس جيشا ، وأرسلوه ليشارك فى الحصار ، غير أن مساهمتهم فى الحصار لم تكن ذات فاعلية ، وذلك لأن الظروف لم تكن مواتية لتحقيق تلك المشـاركة من جانب الفرس ، فهم بلا أسطول ، وعندما حاول الآفار نقلهم من الشاطىء الآسيوى الى الشاطىء الاوربى ، تعرض لهم البيزنطيون وبالتالى لم تكن مساهمتهم فى الحصار مساهمة فعلية بل كانت هامشية ، وبالتالى فمن الصعب ذكر أن حصار القسطنطينية ٦٢٦م ، كان من جانب الآفار فحسب مع تجاهل دور الفرس لكونه سطحيا .

هذا وترتب على هزيمة خاقان الآفار أمام أسوار القسطنطينية فى عام ٦٢٦م نتائج هامة بالنسبة للآفار أنفسهم وبالنسبة لجنوب وشرق أوربا وشبه جزيرة البلقان بصـفة خاصة ، فقد اتسم حصـار الآفار للقسطنطينية فى عام ٦٢٦م بأنه بداية لتحول تاريخى هام (٢) . اذ كان انتصار البيزنطيين على الآفار فى عام ٦٢٦م واحدا من الاسباب الرئيسية، التى أدت الى اضعاف امبراطورية الآفار ، وأودت بكبريائهم وعجرفتهم الى الحضيض ، اذ تم بالفعل على أثر هذا الانتصار طردهم من البلقان فى عام ٦٢٦م بواسطة الجيش البيزنطى ، وبعد ذلك اختفوا تماما من الافق السياسى للدولة البيزنطية ومن تاريخها نفسه (٣) .

على أن هزيمة الآفار على أيدى البيزنطيين فى عام ٦٢٦م ، لم تكن هى السبب الوحيـد فى اضعاف دولة الآفار ، اذ أن قوة الآفار بدأت فى

---

(١) انظر ما سبق ص ٣١١ — ٣١٢ .

(٢) Barisic, Le Siège, P. 371.

(٣) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 240.

التدهور اعتبارا من أواخر القرن السادس فى الحقيقة • وقد أنقذ الآفار فى تلك الفترة ، ضعف بيزنطة فى أوائل القرن السابع بسبب فوقاس وحروبه المروعة مع الفرس ، ولذا نجح الآفار فى استرجاع سطوتهم على الشعوب الخاضعة لهم من السلاف والبلغار فى البحر الاسود ، غير أن ذلك لم يعن اختفاء الفوضى الشاملة فى امبراطورية الآفار الواسعة (١) •

وكان للانتصار البيزنطى على الآفار آثاره ، التى امتدت فيما وراء حدود الامبراطورية البيزنطية ، فقد كان هذا الانتصار اشارة خضراء للقبائل ، التى كانت تعيش فى كنف الآفار وتحت سيطرة خاقانهم ، وبخاصة السلاف الذين لا يحصى لهم عدد ، اشارة لأن يستيقظوا وينفضوا عن أنفسهم نير عبودية الآفار(٢) وثار السلاف من سكان بوهيميا Bohemia ومورافيا Moravia ضد الآفار ، وكانت تلك الثورة هى الحركة الانفصالية الاولى داخل امبراطورية الآفار ، وأسفرت عن قيام الدولة السلافية المستقلة عن الآفار ، وكانت هذه الثورة مثالا احتذاه بقية الخاضعين لامبراطورية الآفار • وشكل نجاح هذ التمرد كذلك فخرا للدبلوماسية البيزنطية التى نجحت فى أن تزعزع هذا العدو الخطير للدولة البيزنطية بهذه الوسيلة ، فقد شجع البيزنطيون السلاف على القيام بهذا التمرد ، هذا وقد أخذت القبائل السلافية الأخرى الخاضعة للآفار بعد ذلك فى التمرد والثورة مثل ثورة الكرواتيين Croats والصربيين Serbs على نحو ما سنرى •

والحقيقة أن الدولة البيزنطية أوقفت نشاطها السياسى والدبلوماسى ضد الآفار ، وبدأت القبائل الخاضعة لهم ، فى القيام بالثورة والتمرد تلقائيا وبطريقة لم يكن من المستطاع اخمادها ، وقد كان تدخل الامبراطور هرقل المتزايد رغم هذا عنصرا هاما فى تشجيع هذه القبائل ، التى كانت تتوق الى تحرير نفسها من نير الآفار (٣) •

وهكذا يلوح لنا أن هرقل قد تخلص من خطر الآفار فى شبه جزيرة

(١) Stratos, Byzantium, PP. 315-16.
(٢) Ostrogorsky, History of The Byzantine State, PP. 93-94.
(٣) Dvornik, Les Slaves, P. 6, Stratos, Byzantium, P. 317.

البلقان وبحلول عام ٦٣٤م يكون الامبراطور هرقل قد نجح سواء بالسلاح والقوة أم بالسياسة والدبلوماسية فى تحطيم الامبراطوريتين اللتين كانتا تهددان حياة الدولة البيزنطية بل ووجودها نفسه وهما الفرس والآفار .

ثانيا — الدولة البيزنطية والكرواتيون والصربيون :

كان من النتـائج التى ترتبت على هزيمـة الآفار أمام أسـوار القسطنطينية فى عام ٦٢٦م أن ثارت القبائل السلافية ضدهم — كمـا سبق أن ذكرنا — وكان من بين تلك القبائل الكرواتيون Croats والصربيون Serbs . فمن هم هؤلاء الكرواتيون والصربيون ، وما أصل تسميتهم بهذا الاسم ، ومن أين جاءوا ليسكنوا الاقاليم التى وطنهم فيها الامبراطور هرقل فى شمال — غرب شبه جزيرة البلقان ؟ .

دار نقاش طويل حول أصل الكرواتيين Croats والصربيين Serbs وأصل تسميتهم بهذا الاسم ، فيرى البعض انهم كانوا من السلاف ، وأنهم اتوا مع سائر القبائل السلافية الى البلقان فى نهاية القرن السادس [١] . ويرى البعض الآخر ان أصل الكرواتيين والصربيين قوقازى ، وأنهم لم يصبحوا سلافا سوى لاقامتهم الطويلة على ضفة نهر فستولا Vistule الذى سوف يتركونه فى عام ٦٣٠م ، لغزو البلقان [٢] . وهناك رأى ثالث بأن الكرواتيين والصربيين من المحتمل أنهم لم يكونوا من السلاف لكنهم أما من السارمتين Sarmatic أو من أصل ايرانى [٣] . ومع اختلاف آراء المؤرخين حول أصل الكرواتيين والصربيين الا انهم ينتمون الى القبائل السلافية .

أما عن أصل اسم الكرواتيين فانه يعنى بلغة السلاف هؤلاء الذين يشغلون اقليما واسعا [٤] . ويرى جريجور Grégoire أن حاكم الكرواتيين

(١) Gregoire, «l'Origine et le nom des Croats et des Serbs» dans Byzantion (1944-45) P. 88.

(٢) Ibid, P. 90.

(٣) Stratos, Byzantium, P. 328.

(٤) Constantine porphyrogenitus, De Administrando Imperio, trans. by Jenkins, P. 147.

كان يدعى كروباتوس Chrobatos ومنه أخذت القبيلة اسمها • وربما يستند فى ذلك الى ما ذكره قسطنطين بورفيرجينتوس Constantine Porphyrogenitus فى الفصل الثلاثين من أن كروباتوس Chrobatos كان أحد خمسة أخوة انفصلوا عن الكرواتيين (١) • اما ليبو Lebeau فيرى أن اسم الكرواتيين Croats أو Chrobates مشتق من كلمة سلافية تعنى سلسلة الجبال ، وأنه بدون شك مشتق من اسم جبال الكربات Carpathes (٢) •

أما عن أصل تسمية الصربيين فانه يعنى فى لغة الرومان العبيد Slaves (Servus) بينما فى اللغة الدارجة Serbula وتقال للحذاء الحقير ، ولمن يرتدون حذاء رخيصا قديما ، واكتسب الصربيون هذه التسمية من كونهم عبيدا Slaves لامبراطور الرومان (أى البيزنطيين) (٣) •

عاش الكراوتيون فيما وراء بافاريا Bavaria ، وعرف هؤلاء باسم الكرواتيين البيض Bêlo-Croats وانفصلت عن هؤلاء أسرة تكونت من خمسة من الاخوة وهم كلوكاس Kloukas ولوبيلوس Lobelos وكوزنتزيز Kosentzis ومولكو Mouchlo وكروباتوس Chrobates واختين وهما توجا Touga وبوجا Bouga واتت هذه الاسرة مع عشيرتها الى دالماشيا Dalmatie حيث وجدوا بها الآفار ، فتقاتلوا معهم وبعد عدة سنوات من الصراع معهم ، نجحوا بمساعدة الامبراطور هرقل فى

= وانظر ايضا الترجمة العربية التى قام بهـا محمود سعيد عمران ، ص ١٢٣ .

(١) Constantine Porphyrogenitus De Administrado, Ch., 30, P. 149.

والترجمة العربية ، ص ١١٩ .

(٢) Lebeau, Histoire, T. XI. Note 6., P. 26.

(٣) Constantine Porphyrogenitus P. 153.

والترجمة العربية ص ١٢٦ .

التغلب عليهم ، واستولوا على دالماشيا(١) •

على أنه لا يعرف متى بدأت المفاوضات بين البلاط البيزنطى وبين الكرواتين Croates ولكن نظرا لأن البيزنطيين لم يستطيعوا أن يخوضوا حربا على جبهتين (أى ضد الفرس والآفار) فى آن واحد ، وكان عليهم أن يستغلوا العوامل القادرة على سحق امبراطورية الآفار من الداخل ، خاصة أن البيزنطيين كانوا على علم بالضعف الاساسى لدولة الافار من خلال حلقة تجسسهم ، وأنهم علموا بحركات التمرد التى جاءت فى ذلك الوقت من البلاد الخاضعة لهم • ولذلك سعى البيزنطيون الى التفاوض مع القبائل السلافية وأثارتها ضد الآفار ومساعدتها فى قتالهم ، ومن هذه القبائل الكرواتيين والصربيين (٢) •

قامت الاتفاقيات بين البيزنطيين والكرواتيين على أساس أن يتم طرد الافار خارج شمال شبه جزيرة البلقان • وأن يقيم الكرواتيون هنـــاك • ومن ثم كان التمرد والثورة مطلوبة لطرد الآفار واقامة مستوطنات جديدة ، وربما حدث القيام بالثورة فى عام ٦٢٦م أو بعد ذلك • وصل الكرواتيون الى تراقيا ومن هناك قادهم البيزنطيون نحو دالماشيا ، حيث بدأوا فى قتال الآفار ، وبعد سقوط دالماشيا فى أيديهم هاجموا بانونيـــا Pannonia وعندما دخل الكرواتيون أراضى شبه جزيرة البلقان ، تلقوا مســاعدة عاجلة من الجيش البيزنطى ، وبالتـــالى فان دخولهم هذا شـــبه جزيرة البلقان لابد أنه حدث بين سبتمبر من عام ٦٢٦م ويوليو ٦٢٧م ، ثم طهروا ساحل دالماشيا بمساعدة الاسطول البيزنطى والحاميات وحرس المدن ، التى رتبت أن تدافع عن نفسها وأن تظل بيزنطية •وفى أثناء قتالهم للآفار وطردهم من دالماشيا ، أخضعوا قبائل السلاف التى استقرت مع الآفار هنـــاك (٣) •

---

(١) Constantine Porphyrogenitus, P. 143.
والترجمة العربية ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) انظر ما سبق وانظر ايضا :
Lebeau, Histoire T. XI, P. 25.

(٣) Constantine Porphyrogenitus, Ch 30, P. 143., Ch. 31, PP. 147, 149.
وانظر ايضا الترجمة العربية ، ص ١١٩— ١٢٠ .

وبعد أن تمكن الكرواتيون من قهر الآفار ، واخضاع القبائل السلافية المختلفة ، استقروا بناء على اتفاقيتهم مع البيزنطيين فى الجزء الشمالى من جزيرة البلقان ، واحتلوا مكان الآفار كطبقة حاكمة ، ويؤكد قسطنطين بورفيروجينتوس Constantine Porphyrogntius على أن هجرة الكرواتيين الى شبه جزيرة البلقان ، تمت باتفاق مع الامبراطور هرقل ، وذلك على أساس الاعتراف بحقوق السيادة البيزنطية (١) • على انه ليس ثمة أهمية كبيرة ، لما كانت تدعيه بيزنطة من السيادة على القبائل السلافية ، التى وطدت مراكزها فى البلقان ، اذ ليس هناك ما يدعو الامبراطورية البيزنطية لاستعادة سلطاتها فى تلك الجهات ، غير أنه من المؤكد أن اختفاء الآفار نهائيا أزاح عن عاتق الدولة البيزنطية عبئا جسيما لا يستهان به ، اذ أمست الامبراطورية تشعر بالهدوء والراحة نتيجة لانقطاع اغارتهم عنها (٢) •

اعتبر البعض أن خضوع الكرواتيين للسيادة البيزنطية ، ليس أمرا طبيعيا فقبل أن يدخل الكرواتيون البلقان لم يكونوا أمة واحدة حرة مستقلة ، بل كانوا قبائل سلافية ، ولم يخضعوا ببساطة ، ولكن الم يكن الآفار سادة على هذه القبائل فلماذا يكون خضوعهم للآفار مقبولا ولا يقبل خضوعهم للبيزنطيين ؟ وفى أثناء هذه الفترة كان من الطبيعى لهذه القبائل المختلفة ، أن تكون خاضعة لقوة كبرى ، وطالما دخلت هذه القبائل الاراضى البيزنطية أو دائرة النفوذ البيزنطى ، وأقامت مستوطنات لها هناك ، وبمساعدة من البيزنطيين أنفسهم وبرضاهم ، فمن المنطقى أن تعترف هذه

(١) Constantine Porphyrogenitus, Ch. 31, PP. 149-151.
وانظر الترجمة العربية ، ص ١٢٤ .
وانظر ايضا :
Ostrogorsky, History of The Byzantine State, P. 94.

(٢) Ostrogorsky, **The Byzantine Empire in the world**, P. 5.
Diehl, Le Monde Byzantine, P. 213.

القبائل بالسيادة البيزنطية ولو من حيث المبدأ • بل وتعهدت المستوطنات الجديدة للبيزنطين بحمـــاية المنطقة ضـــد الآفار ومن أغاراتهم ، وكان قسطنطين واضحا فى هذه النقطة فى الفصل ٣١ ، والفصل ٣٢ ، اذ كتب أن الكروايتين لم يجبروا على القتال خارج بلدهم ، ولكنهم أجبروا على أن يبقوا قوات لحماية الاراضى التى سلمت لهم • ومن الواضـــح ان هرقل استخدامهم كسد يحميه من تهديدالآفار واغاراتهمعلى الامبراطورية(١)•

على أن الخضوع هنا لم يكن يعنى انهم يدفعون اتاوة أو جزية ، اذ كانت الالتزامات التى عليهم تتمثل فى حماية الحدود البيزنطية ، وكان من الطبيعى ألا يدفعوا الاتاوة ، ولكن على العكس ، ووفقا للتقليد السائد فى ذلك الوقت ، كان يجب أن يقدم البيزنطيون لهم المساعدات المالية •

وعلى هذا لايجب أن ينظر لمسألة السيادة البيزنطية على الكرواتيين من زاوية معاصرة ، ولكن من واقع المبادىءالسائدة وقتئذ فى القرن السابع والمنظمة للعلاقة بين القبائل والدول ، فقد كان من الخزى والعار عـــلى القبيلة ــ فى ذلك الوقت ــ أن تقبل أن تكون هناك دولة صاحبة ســـيادة عليها ، حتى ولو كانت الدولة المذكورة هى الوحيـــدة المتحضرة فى ذلك الحين(٢) •

وبعد أن أقام الكرواتيون فى اقليم كرواتيا ، بأمر من الامبراطور هرقل وبعد أن دانوا بالتبعية والسيادة للدولة البيزنطيـــة ، اســـتدعى الامبراطور هرقل لهم القساوسة من روما ، واختـــار من بينهم رئيس أساقفة وأساقفة وشمامسة ، وبدأ تعميد الكرواتيين على أيديهم(٣)• وعرف

---

(١) Constantine Porphyrogenitus, Ch. 31, PP. 147-153., Ch. 33., PP. 161-63.
والترجمة العربية ، ص ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٣٢ — ١٣٣
وانظر ايضـــا : Stratos, Byzantium, P. 333., Lebeau, Histoire, T.XI ; P. 29.

(٢) Stratos, Byzantium, PP. 333-34.

(٣) Constantine Porphyrogenitus, P.P. 147-149.
والترجمة العربية ص ١٢٣ .

الكرواتيون الذين اعتنقوا المسيحية بالكرواتيين المعمدين ، تمييزا لهم عن الكرواتيين الوثنيين الذين عاشوا فى كرواتيا البيضاء أو كرواتيا الكبرى والذين سكنوا الاقاليم التى تحمل الآن اسم المجر(١) • وأخذ الكرواتيون المسيحيون على أنفسهم عهدا بعدم شن الحرب على الاقطار التى تقع خارج حدودهم ، وتلقوا بذلك وصية وأمرا من بابا روما وهو البابا الذى أرسل لهم القساوسة لتعميدهم فى عهد الامبراطور هرقل • كما أقسموا باسم القديس بطرس الرسول ألا يحاربوا أى قطر أجنبى وأن يعيشوا فى سلام مع كل من لديه رغبة فى ذلك (٢) •

أما عن الصربيين فينحدرون من الصربيين الوثنيين ، والذين يسمون أيضا الصربيين البيض ، ويسكنون فيما وراء Turkey فى مكان يسمونه بويكى Boiki (أى بوهيميا Bohemia) ويبدو أن هؤلاء الصربيين قد ظلوا فى موطنهم الاصلى شأنهم فى ذلك شأن الكرواتيين • ويبدو أن النجـاح الذى حالف الكرواتيين فى الاراضى البيزنطيـة قد دفع هؤلاء الصربيون وهم من الفـرع السلافى أيضـا ، الى الاتجاه نحو الاراضى البيزنطية ، وقد قدم هؤلاء الصربيون من بلاد بعيدة جدا عن تلك التى قدم منها الكرواتيون اذ كان وطنهم يقع فى أقصى الشمال (٣) •

ويبدو أن الصربيين كانوا أقل عددا ، وأن الامة الصربية الكبيرة لم تتكون الا فيما بعد • ولعل هذا ما يفسر أيضا لماذا لم يبدأ الصربيون سوى

---

(١) يقدم لنا قسطنطين السابع تفاصيل عن كرواتيا البيضاء (الكبرى او كرواتيا الوثنية وعن كرواتيا المنصرة المعمدة انظر :

Constantine Porphyrogenitus, P.P. 151, 153.

(٢) Constantine Porphyrogenitus, P. 153.

الترجمة العربية ، ص ١٢٤ •

(٣) Constantine Porphyrogenitus, P. 153.

الترجمة العربية ص ١٢٦ •

انظر ايضا :

Lebeau, Histoire, T.XI., PP. 38-39.

بعد الكرواتيين فى لعب دور هام(١) • وتزايدت الامة الصربية فى عهـد الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١م) ، وشجعهم حسن استقبال الامبراطور للكرواتيين على ترك موطنهم الاصلى ، والبحث عن أماكن جديدة ، فاتجهوا نحو الجنوب ، ومنحهم الامبراطور هرقل أرضا واسعة للسكنى ، وكانت تلك الارض جزءا من ثغر سالونيك وكانت تسمى Servie أو صربيا Serbia والتى اكتسبت منهم هذه التسمية منذ ذلك الحين (٢) •

ومن المحتمل أن هرقل كان فرحا لايجاد قوات مساعدة من الامم والقوميات السلافية ، خاصة وأن الآفار كانوا يهددون وجود الامبراطورية البيزنطية ، وأمان عاصمتها القسطنطينية فى جميع الاوقات ، ولهـذا فقد وضعهم فى البلاد التى خربها اعداؤه ، والتى لا يستطيع اعادة فتحها أو الدفاع عنها • وأراد هرقل بهذا التنازل ، أن يجعل الصربيين كما جعل الكرواتيين من قبلهم ، سدا منيعا للامبراطورية ، وحصنا ضد غزوات الآفار واغاراتهم (٣) •

قرر الصربيون بعد فترة من الوقت العودة الى بلادهم ، ولكن عندما عبروا نهر الدانوب غيروا رأيهم ، وأرسلوا الى الامبراطور هرقل يطلبون منه — عن طريق الحاكم العسكرى على بلجراد Belgrade — أن يمنحهم أرضا أخرى ليستقروا بها ، وبالفعل منحهم هرقل الاراضى المعروفة الآن باسم صربيا Serbia ومنحهم أقاليم أخرى ليستوطنوا فيها ومن بينهـا زاكلومى Zachlumi وتربونيا Terbounia واقليم كاناليتز Kanalites وكانت تلك الاقاليم تحت سيطرة الامبراطور البيزنطى ، وكان الآفار قد خربوا تلك الاقاليم ، فمنحها هرقل للصربيين(٤) •

---

(١) Dvornik, Les Slaves, P. 8.

(٢) Constantine Porphyrogenitus, P. 153.
الترجمة العربية ، ص ١٢٦ .

(٣) Lebeau, Histoire T. XI., 29, 39-40.

(٤) Constantine Porphyrogenitus, PP. 153, 155.
والترجمة العربية ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

ومن المحتمل أن الذى دفع الصربيون الى اتخاذ قرار العودة الى بلادهم هو أن الارض ، التى كانوا يعيشـــون فيها لم تكن خصبة ، وان الصربيين لم يفلحـــوا فى أن يعيشوا طويلا بجـــانب سكان بلاد اليونان الاصليين ، اذ أنه كانت عليهم بعض الالتزامات ، ولهذا طلبوا مغادرة هذا المكان ، واتجهوا نحو الدانوب ، وربما أن ما دفع الصربيون الى أن يغيروا رأيهم عند وصولهم الى الدانوب ، ويقررون الاستقرار فى شبه جزيرة البلقان ، هو أنهم علموا وهم فى الدانوب أن هناك أرضا مناسبة لهم ، وعلموا كذلك أن أتباعهم وذويهم من القبائل الأخرى قد استقروا هناك(١) •

وحذا الصربيون حذو الكرواتيين وتلقوا التعميد مثلهم ، اذ أحضر لهم هرقل القساوسة من روما فعمدوهم ، وعلموهم كيف يؤدون العبادات ، وشرحوا لهم العقيـــدة المســـيحية ، وظل الصربيون مرتبطين بالدولـــة البيزنطيـــة تحت حكم أمرائهم(٢) • أما عن تاريخ تحول الصربيين الى المسيحية ، فيميز قسطنطين بورفيروجينتوس بين مرحلتين لتحول الصربيين الى المسيحية ، المرحلة الاولى وهى التى تهم الدراسة اذ أنها تمت تحت حكم الامبراطور هرقل عندما عمدهم أساقفة وقساوسة اتوا من روما، أما المرحلة الثانية فيبـــدو أنها كانت تحت حكم الامبراطور باســـل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦م) • ومما تجدر الاشارة اليه أن غالبية الصربيين حافظوا على عقيدتهم القديمة بعد التحول الاول الى المسيحية (٣) • وهذا يعنى أن محاولة الامبراطور هرقل تحويل الصربيين الى المسيحية ، تمت ، ولكن دون نجاح كامل لان جزءا من الصربيين ظل وثنيا ، وقد أشار قسطنطين الى هؤلاء بالوثنيين Pagans ، ويبدو أن من ظلوا على وثنيتهم فى عهد هرقل ،

---

(١) Stratos, Byzantium, PP. 334-35.

(٢) Constantine Porphyrogenitus, P. 155.

والترجمة العربية ص ١٢٧ .

(٣)عن تعميد الصربيين انظر :

Geogres Radojicic, **«La date de la Conversion des Serbes»** dans Byzantion (1952), PP. 253-56.

قد اعتنقوا المسيحية فى عهد الامبراطور باسل الأول Basil I (٨٦٧ - ٨٨٦م)(١) •

ويعترض البعض على ما جاء فى رواية قسطنطين بشـأن تعميـد الكرواتيين والصربيين وبنى هؤلاء اعتراضهم على أساس أنه لم يكن هنا وفاق مع روما ، اذ كيف يطلب هرقل من روما المبعـوثين والقسـاوسة والاساقفة ، وعلاقاته حينئذ بالبابوات لم تكن علاقات ودية ! هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يؤكد هؤلاء على أن سلاف دالماشيا وايستريا Istrie ظلوا وثنيين حتى عام ٦٤٢م أى بعد وفاة هرقل ، وليس أدل على ذلك فى رأيهم من أن البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ - ٦٤٢م) أرسل لهم القس مارتن Martin مع سفارة ليفتدى الاسرى المسيحيين ، وليعيد الى روما آثار الكنائس المهدمة •ولكن هل هذه الاسباب التى يقدمها هؤلاء كافية لدحض رواية قسطنطين السابع ورفضها رفضا تاما وانكار فضله ولو فى كشف جزء من الحقيقة(٢) •

الحقيقة أن هرقل كان على وفاق مع روما ، فقـد سـاعده البـابا هونريوس Honorius فى ايجاد الصيغة المناسبة لحل المشكلة الدينية ، وحتى حكم البابا يوحنا الرابع John IV فان العلاقات بين القسطنطينية وروما كانت علاقات ممتازة(٣) • ويضاف الى ذلك أن اقليم اليريا Illyricum الذى شمل المناطق التى استقرت فيها المستوطنات الجديدة كان تحت سيطرة القضاء الكنسى فى روما ، هذا وقد مارس البابا السلطة القضائية والتشريعيـة فى اليريا ، فى حين اعتمـد على الامبراطور فى النـواحى السياسية ، ومن ثم فاذا أراد هرقل أن يحول هذه الشعوب الى المسيحية

---

(١) Constantine Porphyrogenitus, P. 165.

وانظر ايضـا :

Stratos Byzantium, P. 335.

(٢) Dvornik, Les Slaves, P. 7., Grégoire, L'Origine, P. 89., Stratos, Byzantium, PP. 327-28.

(٣) انظر ما سبق فى الفصل الثالث .

فانه مجبر — بناء على التقسيم الدينى القائم — على أن يلجأ الى كنيسة روما • ولهذا يبدو أن طلب الامبراطور هرقل من البابا بالتبشير بالانجيل بين الكرواتيين والصربيين ، أمر طبيعى هذا وقد أرسلت له روما الرسل بالفعل ، ثم نظمت البعثات الدينية للمنطقة بعد ذلك • واذا كانت العلاقات بين هرقل وروما سيئة فلماذا ترسل له روما القساوسة والبعثات • حقيقة أن العلاقات بين روما والقسطنطينية بدأت فى التدهور فى عام ٦٤١م وفى عهد البابا يوحنا الرابع John IV - الذى لم ينتخب دون علم الامبراطور — الا أن هرقل مات فى ١١ فبراير ٦٤١م • ومن ناحية أخرى فان البعثة التى أرسلها يوحنا الرابع لجميع الكنائس المهدمة تشهد على امكانية اختراق السفراء وعبورهم أراضى السلاف • وعلى هذا يبدو أن رواية قسطنطين تتفق مع الحقيقة ولو فى بعض منها(١) •

هذا ويذكر قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس أنه كان هناك وثنيون فى دالماشيا فى عام ٦٤٢م وكتب أيضا فى الفصل ٣٦ أن الارنتانى Arentani وكان يطلق عليهم اسم « الوثنيين Pagani » لأنهم لم يقبلوا المسيحية فى نفس الوقت مثل السلاف الآخرين • ويتضح من هذا أن جزءا من دالماشيا لم يصبح مسيحيا لفترة طويلة(٢) •

والى جانب حركات التمرد والثورة التى قام بها الكرواتيون والصربيون ضد الآفار ، ثار البلغار كذلك ضدهم فى محاولة منهم للتخلص من عبودية الآفار لهم ومن سيادتهم عليهم ، مستغلين فى ذلك انهيار قوة الآفار بعد هزيمتهم وخاقانهم أمام القسطنطينية فى عام ٦٢٦م وكان على رأس ثورة البلغار كوبراتوس Cubratus ابن أخو أورجانا Organa ملك الهون Hunnogunduror (٣) وكان كوبراتوس قد عمد فى شبابه ، وتربى فى

---

(١) Dvornik, Slaves, PP. 73-74, Stratos, Byzantium, P. 328.

(٢) Constantine Porphyrogenitus, Ch. 36, P. 165.
والترجمة العربية ، ص ١٣٥ .

(٣) من الجدير بالذكر هنا أن الهون يقصد بهم البلغار ، وذلك على اعتبار أن البلغار كانوا يشكلون فرعا من فروع الهون وانهم خرجوا عن احدى القبائل الهونية ، وليس ادل على ذلك من أن كوبراتوس مؤسس

—

القسطنطينية حصن المسيحية ، ونما فى البـلاط الامبراطورى ، وكانت تربطه بالامبراطور هرقل صداقة قوية ومحبة ، واستمرت هذه الصلة حتى بعد موت الامبراطور هرقل ، لأنه أخلص لابنائه وأرملته مارتينا Martina ويقـال أنه ساند حقـوق أبنـاء هرقل من مارتينـا ، وكان معارضـا لقسطنطين(١) •

واذا كان كوبراتوس Koubratos قـد ظل حيا حتى نهاية الفترة التى تولت فيها مارتينا الوصاية ، وحتى الوقت الذى قامت فيـه ثورة أطاحت بابنائها من السلطة أى حتى عام ٦٤١م ، فهذا يعنى أن كوبراتوس أتى الى القسطنطينية بالفعل فى شبابه ، ويبدو انه زار القسطنطينية مع عمه أورجانا Organa فى عام ٦١٩م ، ففى هذا العام أتى أورجانا ورجاله الى العاصمة القسطنطينية ، وطلب من الامبراطور هرقل اعتناق الدين المسيحى ، فاستقبله هرقل راضيا ، وبعد تنصيره هو ورجاله أجزل لهم الامبراطور العطاء ، ومنحهم الرتب العالية والمناصب الشرفية ، وأنعم على أورجانا بلقب بطريق Patrician ثم عاد بعـد ذلك الى بلاده فى حفاوة • وربما ترك أورجانا ابن أخيه كوبراتوس الذى كان بصحبته فى هذه الزيارة فى القسطنطينية كرهينة ، ولذا فقد أمضى شبابه فى البلاط البيزنطى وتربى فى القسطنطينية(٢) •

الامبراطورية البلغارية الاولى ، كان يدعى بأمير الهون ويرجع السبب فى ذلك الى ان امبراطورية البلغار الاولى لم تكن قد قامت بعد .

انظـر :

Runciman, History of the First Bulgarian Empire, PP. 5, 7, 15.

Bésevliev, «Deux Corrections au Breviarium du patriache Nicephore» dans Revue des Études Byzantines (1970), PP. 153-59.

(١) Chronique de Jean, Évêque de Nikiou (éd) Zotenberg, P. 460.

انظر أيضا :

Gérgoire, L'Origine, P. 102.

(٢) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 14.

وفى حوالى عام ٦٣٥م (١) أو ٦٣٨م (٢) قام كوبراتوس Cubratus بجمع أتباعه بأسلحتهم وحاجياتهم ، وثار ضد خاقان الآفار ، الذى ما ان علم بانشقاقهم ومحاولتهم الانفصال حتى حاول قتالهم ، وبعد أن خاض معهم عدة معارك هزم خلالها ، اضطر الى الفرار • وبعد أن استولى كوبراتوس على معظم الاقاليم التابعة لخاقان الآفار اتجه نحو الشمال، وعبر الدانوب مع كل أمته ، وأتى الى الاقاليم المجاورة لسالونيك حيث احتل سهل Ceramesum (٣) •

وبعــد أن تغلب كوبراتوس على الآفار — الذين كانوا قد احتلوا اقليم ما وراء الدانوب — بعث بسفارة الى هرقل ، وعقد معه معــاهدة سلام ، واستقبل هرقل سفراء كوبراتوس بحفاوة وعاملهم معاملة حسنة، وأنعم هرقل على كوبراتوس برتبة بطريق Patrician وأرسل له المنح والهدايا(٤) •

منذ ذلك الحين كانت المنفعة المتبادلة بين الدولة البيزنطية ودولة أورجانا Organa البلغارية فى شمال القوقاز ، والصلات الودية الوطيدة بين هاتين القوتين من السمات المميزة لهذه الفترة • وبالمثــل كانت الروابط والصلات الشخصية القوية من السمات التى ربطت البلاط الامبراطورى ، بحكام هذه الدولة البربرية ، الذين اشتركوا معهم فى ثقافة الامبراطورية وفى ديانتها ، وكانوا قد انجذبوا تماما الى السياسات البيزنطية(٥) •

---

(١) Nicephorus, Breviarium, P. 27.

(٢) Mircula St. Demetrii, liber II, caput V, P. 1360.

انظر أيضا :

Grégoire, **l'Origine**, PP. 110-11.

(٣) Mircula St. Demetrii, Liber II, Caput V, PP. 1360-66., Nicephorus, Breviarium, P. 14.

(٤) Ibid., P. 27.

(٥) Ostrogorsky, The Byzantine Empire, P. 17.

الفصل السادس

البيزنطيون والمسلمون فى عصر الامبراطور هرقل

— علاقة الدولة البيزنطية بالقبائل العربية قبل الاسلام .

— سفراء النبى (ص) الى هرقل والمقوقس .

— الاحتكاكات الأولى بين البيزنطيين والمسلمين فى عهد الرسول .
(مؤته — تبوك — بعث جيش أسامة) .

— تطلع المسلمين لفتح بلاد الشام .

— التطلع الى فتح مصر .

— العوامل التى يسرت على المسلمين فتح الولايات البيزنطية .

ارتبطت الدولة البيزنطية قبل ظهور الاسلام بعلاقات وثيقة مع القبائل العربية الضاربة فى الاقاليم الواقعة شمال الحجاز وعلى تخوم الشام ، والقاطنة على الحـــدود بينها وبين دولة الفرس ، واعتنق هؤلاء العرب الديانة المسيحية — وان كان على المذهب المونوفيزيتى المخالف للدولة البيزنطية ، ولذلك أطلق عليهم اسم العرب المتنصرة ، ونظرا للصلة الوثيقة التى كانت تربطهم بالدولة البيزنطية ، ولتأثرهم بدينها وأدبها وثقافتهـــا فقد سموا كذلك « عرب الروم »(١) • وقدم هؤلاء العـــرب خدماتهم للدولة البيزنطية التى استخدمهم فى حماية حدودها وطرقهـــا وممراتها ، بل استخدمتهم كسد منيع ضد هجمات الفرس على حدودها ، وجعلت منهم وكلاء وحواجز تنفذ سياســـتها فى تقليم أظافر الخطـــر الفارسى ، الذى دائما ما كان يتهددها • وظهر دور العرب بارزا فى الحروب بين البيزنطيين والفرس ، وعمل هؤلاء العرب فى مجال الاستطلاع ، كما كانوا فى طليعة الجيوش البيزنطية يكشفون لها ميادين القتال(٢) •

ولقاء الخدمات التى قدمها هؤلاء العرب للدولة البيزنطية ، كانت تقدم لهم بدورها الاعانات المالية ، وتغدق على رؤسائهم أرفع الالقـــاب فضلا عما تمتعوا به فى ظلها من الحصانة والامن والاعفاء من الضرائب • على أن دور هؤلاء العرب بدأ يخبو ويتضاءل خاصة عندما اضطرت الدولة البيزنطية الى سياسة الاقتصاد والتوفير والتقليل من الانفاق العسكرى ، ودخل بعض هؤلاء العرب الاسلام عند ظهوره فى حين ظل البعض الآخر على المسيحية (٣) •

---

(١) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، جا ، ص ٧١ ، ٢٩٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر :

Stratos, Byzantium in the seventh century, PP. 312-13.

العدوى ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٣ — ٧ .

Vasiliev History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 244.

فتحى عثمان ، الحدود ، جا ، ص٦٧ ، ٨٠ ، ٢٩٦ — ٢٩٩

(٣) Stratos, Byzantium, P. 313.

واكب ظهور الاسلام السنوات الاولى لحكم الامبراطور هرقل . وفى الوقت الذى شرع فيه هرقل لقتال الفرس ، هاجر الرسول (ص) من مكة الى المدينة فى عام ٦٢٢م ، حيث وضع أسس وقواعد الدولة العربية الجديدة ، وما أن فرغ من ذلك حتى شرع فى توسيع نطاق الدعوة الاسلامية ، فولى وجهه شطر بلاد العرب وخارجها ، وبعث صلى الله عليه وسلم فى ٧ هـ/٦٢٨م رسلا من أصحابه بكتب الى ملوك وأمراء البلاد المجاورة[١] ، يدعوهم فيها الى الاسلام والايمان برسالته ، ويقال أن الرسول (ص) صنع لنفسه خاتما من الفضة ، ونقش عليه عبارة « محمد رسول الله » وختم به رسائله اليهم[٢] .

وكان من بين هؤلاء الملوك والامراء قيصر الروم أو الامبراطور البيزنطى هرقل ، وقيرس أو كيروس (المقوقس) حاكم مصر من قبله ، والحارث بن أبى شمر الغسانى عامل هرقل على الشام .

وكان سفير الرسول (ص) الى الامبراطور هرقل هو دحية بن خليفة الكلبى (٣) وكتب له الرسول الكريم كتابا ، وأمره أن يسلمه الى حاكم بصرى (٤) ومنه الى هرقل ، وكان أن تلقى حاكم بصرى الكتاب من دحية

---

(١) عن هؤلاء الملوك والامراء انظر : ابن هشام ، السيرة ، جـ٢ ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٦٥ ، ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ٣ ــ ٤ .

(٢) ابن هشام ، السيرة ، جـ٢ ، ص ١٨٨ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٦٤ .

(٣) دحية بن خليفة الكلبى من صحابة رسول الله (ص) ، شهد معه جميع غزواته بعد بدر ، وظل حتى خلافة معاوية بن أبى سفيان كما انه شهد اليرموك ونزل دمشق .

انظر : ابن الاثير ، أسد الغابة ، جـ٢ ، ص ١٣٠ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ٢٥٠ ، المقريزى : امتاع الاسماع ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨ ، ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ١٨٠ .

(٤) بصرى ، من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران ، وكانت مدينة عامرة بالسكان غنية ، وكان العرب يقصدون اليها ببضاعتهم وتجارهم من أقصى الحجاز واليمن ، اذ انها قريبة من أطراف الصحراء التى بين الشام والحجاز .

انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م ٢ ، ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ ، الواقدى ، فتوح الشام ، جـ١ ، ص٤٥ .

وسلمه بدوره لهرقل الذى قرأه ، وكان قد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك أجـرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الاريسيين[1] « يا أهل الكتاب تعـالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضـا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقـولوا أشـهدوا بأنا مسلمون »[2] .

وهناك نص آخـر من كتاب الرسول (ص) الى هرقل يختلف عن نص الكتاب السابق ، ويخير فيه النبى هرقل بين أحد أمرين اما الدخول فى الاسلام أو الجزية ، وقد أورد القلقشندى هذا النص وهو : « من محمد رسول الله الى صاحب الروم ، انى أدعوك الى الاسلام : فان أسلمت

---

(١) الاريسيون ومفردها اريس ولها معانى عدة منها الاريس هـو الاكار اى الفلاح أو المزارع ، وقيل الاريس الامير على الكراع اى الخيل ، وقيل الاريسيون هم الملوك ، وقيل اريس القوم كبيرهم الذى يسمعون له ويطيعوه ، وقيل الاريس هو القادر على هداية قومه ، فهو الذى يدعوهم ويجيبون دعوته ويمتثلون لامره ، وقال البعض أن فى رهط هرقل فرقة تعرف بالاريوسية فجاء النسب عليهم . ويرجح أن المقصود بالاريسيين الرعايا او الاتباع . انظر ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١ ص ٦٠ ، العينى ، عمدة القارى ، جا ، ص ١٠٠ — ١٠١ ، حسـنين ربيع ، دراسـات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٦٤ — ٦٥ ، حاشية ١ .

(٢) سورة آل عمران وهى مدنية آية ٦٤ ، اما عن تاريخ نـزول هذه الآية ، انظر : الطبرى ، تفسير القرآن ، جـ ٣ ، ص ٢١٣ — ٢١٤ ، ابن كثير ، تفسير القرآن ، جـ ١ ، ص ٣٧١ ، عن نص الكتاب انظر :

الطبرى ، الرسـل ، جـ٢ ، ص٦٤٨ — ٦٤٩ ، اليعقـوبى ، تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ، ص ٧٧ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٦ ، ص ٣٧٦ — ٧٧ ، العينى ، عمدة القارى ، جـ ١ ، ص ٩١ ، ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ، م ١ ، ص ٤٧٢ — ٤٧٣ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٨ ، ص ١٥٨ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٢٩ .

فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، وان لم تدخل في الاسلام فاعط الجزية ، فان الله تعالى يقول : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون(١) ، والا فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام أن يدخلوا فيه أو ليعطوا الجزية(٢) .

وتروى المصادر العربية أن هرقل تلقى كتاب الرسول الكريم بقبول حسن واستقبل سفيره بأدب وحفاوة ، وأنه حاول استطلاع أمر هذا الدين الجديد ، وأنه تصادف فى ذلك الوقت وجود أبى سفيان مع نفر من قريش فى تجارة لهم بالشام ، فاستدعى هرقل أبا سفيان ، وأجرى معه حديثا طويلا عن الرسول وفى نهاية الحديث أدرك هرقل أن محمدا نبى لا محالة بل وقال لأبى سفيان : « ان كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه ، فتعجب أبو سفيان من أمر هرقل وقال : لقد أصبح ملوك بنى الاصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام »(٣) .

وتحكى بعض الروايات العربية كذلك بأن هرقل كاد يسلم ، ولكنه ما لبث أن تراجع خشية أن يقتله رعاياه أو أن يفقد تاجه(٤) . وأنه قال لدحية بالحرف الواحد : والله أنى أعلم أن صاحبك نبى مرسل ، وأنه الذى

---

(١) سورة التوبة ، آية ٩ ، مدينة ، ونزلت هذه الاية سنة ٩ هـ اثناء معركة تبوك .

(٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٦ ، ص ٣٧٧ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٣٠ .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول الحديث الذى دار بين هرقل وابى سفيان انظر :

الطبرى ، الرسل ، جـ ١ ، ص ٦٤٧ — ٦٤٨ ، الواقدى ، المغازى ، ص ٤٠٢ — ٤٠٤ العينى ، عمدة القارى ، جـ ١ ، ص ١١٤ ، ابراهيم هلال ، حديث هرقل ص ٩ — ١٦ .

(٤) عن تفاصيل هذه الروايات انظر : الطبرى ، الرسل ، جـ٢ ، ص ٦٤٩ — ٦٥٠ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١ ، ص ٤٧٤ .

كنا ننتظره ونجــده فى كتبنا ، ولكنى أخاف الروم على نفسى ولولا ذلك لاتبعته (١) .

ويذكــر اليعقوبى أن الامبراطور هرقل بعث للنبى الكــريم الرد على كتابه اليه وقد جاء فيه : « الى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى من قيصر ملك الروم :

أنه جاءنى كتابك مع رسولك ، وانى أشهد أنك رسول الله نجــدك عندنا فى الانجيل بشرنا بك عيسى بن مريم ، وأنى دعوت الروم الى أن يؤمنــوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ، ولوددت أنى عنــدك فأخدمك ، وأغسل قدميك » (٢) وهكذا يعلن اليعقوبى صراحة اســلام هرقل ، ولكنه مبالغ فى ذلك أيما مبالغة شأنه فى ذلك شأن سائر الروايات العربية .

لم تهتم المصادر البيزنطية بالاسلام فى هذا الوقت المبكر ، فلم يرد بها أى شىء عن كتاب الرسول الكريم الى هرقل ، ويذهب بعضها الى أن الرسول (ص) هو الذى ذهب بنفسه الى هرقل للتفاوض معه ، وهو فى طريقه الى حمص فى الرحلة التى قام بها الى بيت المقدس عنــد عودته منتصرا من فارس وأن محمدا عقد مع البيزنطيين اتفاقا يكفل لهم حرية الانتقال والتجارة بين الجزيرة العربية والاقاليم البيزنطية ، وأنه بمقتضى هذا الاتفاق أصبح محمد سيدا على دومة لجندل (٣) . هذا فى حين أن الاتفاق مع صاحب دومة الجندل كان — على نحــو ما تذكره الروايات العربية — بعد معركة تبوك على نحو ما سنرى (٤) .

---

(١) الطبرى ، الرسل ، ج٢ ، ص٦٥٠ ، العينى ، عمدة القــارى ، ج١ ، ص ١١٥ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقــــوبى ج٢ ، ص ٧٧ — ٧٨ ، محمــــد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١ .

(٣) انظــر :

Zanoras, Epitomae Historiarum libri, T. 3, in C.S.H.B., P. 214., Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T.XI., P. 76.

(٤) انظر ما يلى ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

بعث الرسول (ص) كتابا آخر الى المنذر بن الحارث الغسانى ملك غسان ، وعامل هرقل على الشام ، مع سفيره شجاع بن وهب الاسدى ، ودعاه الرسول الكريم فى كتابه الى الاسلام ، وحذره عواقب المخالفة ، فما كان من المنذر بن الحارث الا أن بعث بكتاب الرسول (ص) الى هرقل على الفور ، وطلب منه أن يسير لمحاربة الرسول فنهاه هرقل عن ذلك(١) •

وبعث الرسول (ص) سفارة أخرى الى كيروس Cyrus المعـروف باسـم « المقوقس »(٢) نائب هرقل على مصر • وكان على رأس هـذه السفارة حاطب بن أبى بلتعة (٣) • ويبدو أن حاطبا غادر المدينة المنورة فى ذى الحجة عام ٧هـ/ابريل ٦٢٨م ، وفى نفس الوقت الذى غادرها فيه دحية بن خليفة الكلبى سفير الرسول الكريم الى هرقل • ووصل حاطب

---

(١) عبد الله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٢٠٤ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٤١ ، عبد الجبار السامرائى ، « الرسائل التى بعث بها النبى الى ملوك الدول المجاورة » ، مجلة الفيصل العدد ٥٥ ، نوفمبر ١٩٨١ م ، ص ٧٢ •

(٢) المقوقس ، قيل أنها ليست لاسم علم ولكنها رتبـة أو لقب • ومعناها الافخم ، وقيل كذلك انه اسم مشتق من اسم قطعة صغيرة من العملة البرونزية التى كانت متداولة ايام جوستين وجوستنيان العظيم ، واطلق عليه هذا الاسم على سبيل السخرية من عمله وهو مراقبة الاموال ، وقيل ان المقوقس طائر مطوق طوقا سواده فى بياض الحمام أى أشبه بالحمامة المطوقة . وعن الاراء العديدة التى قيلت حول اسم المقـوقس ووطنـه وشخصه انظر :

Amelineau, «Fragments coptes pour servir a l'histoire de la conquête de l'Egypt par les Arabes», dans Journal Asiatique (1888) PP. 389-410.

بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٧٥ — ٣٩٢ ، ص ٤١٩ — ٤٣٧ ، بتشر تاريخ الامة القبطية ، جـ٢ ، ص١٢٣ — ١٢٤ •

(٣) حاطب بن أبى بلتعة ، كان أحد فرسان قريش وشعرائها فى الجاهلية ، واعتنق الاسلام ، وشهد المعارك كلها مع رسول الله (ص) وكان من الرماة البارزين من أصحاب رسول الله ، وكانت له تجارة واسعة ، ومات بالمدينة سنة ثلاثين وهو فى الخامسة والستين من عمره •

انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٣ ، ص ١١٤ ، ابن الاثير ، أسد الغابة ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ — ٣٦٢ ، ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ١٨٠ ، مختار الوكيل ، سفراء النبى ، ص ٥٢ •

مصر ، والتقى بالمقوقس فى الاسكندرية (١) ، وأحسن المقوقس استقبال حاطب بن أبى بلتعة وأكرمه ، وأخذ منه كتاب الرسول (ص) اليه ، الذى استهله الرسول الكريم بعبارة :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط .... » (٢) ونص هذا الكتاب هو نص كتاب النبى الى هرقل ، وفى نفس عباراته ، وفيه يدعو النبى الكريم المقوقس الى الاسلام مثلما دعا هرقل من قبل . ويقال أن المقوقس بعد أن قرأ الكتاب ، جعله فى حق من عاج وختم عليه ، ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية ، فكتب الى الرسول (ص) :

لمحمد بن عبد الله من مقوقس عظيم القبط سلام

أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين (٣) لهما مكان من القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام (٤) وجاء فى رواية أخرى أن المقوقس

---

(١) عن رحلة حاطب بن أبى بلتعة ، انظر الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية ص ١١ — ١٣ ، وعن حديثه مع المقوقس انظر ص ١٤ — ١٦ .

(٢) انظر نص كتاب الرسول الى المقوقس :
ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٦٥ — ٦٦ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٦ ص ٣٧٨ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٥٨ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٤٩ — ٥٠ ، مختار الوكيل ، سفراء النبى ، ص ٣٧ . سهيلة الجبورى ، « الكتابات المشكوك فيها فى عصر الرسالة المحمدية » مجلة كلية الاثار جامعة القاهرة ١٩٧٨ ، جـ ٢ ، ص ٤٧ — ٦٥ .

ومن الجدير بالذكر أن الواقدى أورد نصا آخر لهذا الكتاب .
انظر الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية ص ١٠ .

(٣) ذكر كل من الطبرى والمقريزى ان المقوقس اهدى الرسول أربع جوارى — منهن مارية — وليس اثنتين : انظر : الطبرى ، الرسل جـ ٢ ، ص ٦٤٥ ، المقريزى ، امتاع الاسماع ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

(٤) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٦٧ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٨ ، ص ١٦٤ ، مختار الوكيل ، سفراء النبى ، ص ٣٨ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٥١ ، محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٢٠٥ ، نبيه عاقل ، تاريخ العرب ، ص ٥٣٩ — ٥٤٠ .

أهدى الرسول (ص) بغلة شهباء وحمارا أشهب وثيابا من قبــــاطى مصر (١) وعسلا من عسل بنها ، وبعث اليه بمال صدقة (٢) .

وهكذا كانت النتائج التى انتهت اليها الكتب والسفارات النبـــوية الى الامبراطور هرقل والى عامليه على الشام ومصر ، نتائج سلبية ، ولم تكن حاسمة فى شىء ، بيد أنها كانت بلا ريب ذات أثر معنوى عميق فى البلاط البيزنطى وفى الكنيسة (٣) . هذا وان كان البعض يحاول اثارة الشك فى هذه الكتب وأنه ليس لها أى أساس تاريخى ، ويستند هؤلاء على أن ابن اسحق أقدم من كتب فى السيرة لا يذكرها ، وأنه وردت فى بعض الكتب النبوية آيات قرآنية لم تكن قد نزلت وقت ارسالها ، مما يدل على أنهـــا وضعت فيما بعد (٤) ، وكذلك يذكر هؤلاء أن سفراء النبى كان ينبغى أن يتميزوا بمعرفتهم العميقة للاسلام أو اخلاصهم للرسول ، ولكن دحية المبعوث الى هرقل لم يروِ سوى ستة أحاديث وليس فى أحدهما اشارة الى المهمة التى عهد بها اليه (٥) .

على أن الصمت من جانب بعض المصادر لايكفى لأن يكون دليلا على عدم صحة هذه الرسائل ، ومن المعروف أن رسالة محمد(ص) كانت رسالة عالمية اذ أنه بعث للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولم تكن رسالته قاصرة

---

(١) القباطى : نسيج من الكتان به زخارف اشتهرت به مصر القديمة ، وهو النسيج الذى يطلق عليه الاوربيون اسم Tapestry

انظر ، ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، ص ٦٩ ، حاشية ٢ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٦٩ ، ٧٤ ، انظر أيضا : الواقدى ، فتوح مصر ، ص ١٦ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٢٠٥ .

(٤) انظر ما سبق ص٣٣٩ ، هامش ٢ . ص ٣٤٠ ، حاشية ١ .

(٥) Lebeau, Histoire, T. XI., PP. 76-77.,
Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I., P. 258.

فتحى عثمان ، الحدود الاسلاميـــة ، جا ، ص ٣٩٩ ، محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٢٠٨ .

وانظر ايضا : أسد رستم ، الروم ، جا ، ص٢٣٦ — ٢٣٧ ، عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٧٠ .

على العرب فحسب ، كما أنه بمقارنة نصوص الكتب التى بعثها الرسول (ص) الى هرقل والى المقوقس ، يلاحظ أن هناك تشابها كبيرا بل ان الآيات القرآنية التى جاءت فى كلاهما واحدة • واذا كانت هذه الآيات قد نزلت فيما بعد فيحتمل أنها نزلت موافقة للرسول (ص) ومؤكدة لما كان يهدف اليه من ارسال تلك الكتب •

ويبدو أن البيزنطيين ، لم يدركوا أهمية الدين الاسلامى ولا التطور الذى بدأ يحدث فى بلاد العرب فى المرحلة الاولى من العهد الاسلامى ، وكذلك لم يقدر البيزنطيون تلك الدعوة التى وصلتهم ، ولم يدركوا ما انطوت عليه من عقيدة جديدة ، سوف تزلزل اركانهم وتنتزع أرضهم وذلك أن الدولة البيزنطية نظرت الى الاسلام والعقيدة الاسلامية على أنها ضرب من ضروب الاريوسية ، أى اعتبروا الاسلام مذهبا مشابها لمذهب الطبيعة الواحدة أو المونوفيزتية[1] • ونهج المؤرخون البيزنطيون نهجا مماثلا ، فلم يكترثوا لظهور النبى العربى ، وكان ثيوفانيس Theophanis الذى كتب فى بداية القرن التاسع ، هو المؤرخ البيزنطى الاول الذى سجل بعض الحقائق عن حياة الرسول وعن العرب [2] • أما المصادر البيزنطية التى كتبت بعد ثيوفانيس وعلى رأسها زانوراس Zanoras فهو يتحامل على المسلمين ، ويقدم معلومات مشوشة وغامضة عن محمد ودعوته بل ويصل به الامر الى حد السباب[3] •

الاحتكاكات الاولى بين البيزنطيين والمسلمين فى عهد الرسول(ص) :

تتفق المصادر العربية والبيزنطية على ان الرسول الكريم أرسل فى عام ٨هـ/٦٢٩م جيش الامراء الى بلاد الشام لمحاربة العرب المسيحيين،

---

(١) أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص ٢٣٩ .
Vasiliev, History, Vol. I, PP. 253, 249.
عمر كمال ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧١ ، العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٥ .

(٢) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 514-523.

(٣) Zanoras, Epitomae, T. 3., in C.S.H.B. PP. 214-15.

الذين كانوا فى خدمة الامبراطورية البيزنطية ، فهم اتباعها ووكلاؤهـا ، وذلك للثأر منهم ، اذ قتلوا اتباعه ورسله على الحدود العربية الشامية[١]. فقد حدث أن بعث الرسول(ص) الحارث بن عمير الازدى الى ملك بصرى بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام،فلما نزل مؤتة[٢]،اعتدى عليه شرحبيل بن عمرو الغسانى — وهو من العرب المسيحيين الذين يخضعون للسيادة البيزنطية — وقتله ، وكذلك حينما أرسل الرسول الكريم وفدا الى ذات الطلح — على مقربة من الشام — ليدعوهم الى الاسلام وكان عدتهم خمسة عشر رجلا، قتلوهم جميعا الا رئيسهم وقد أبقوا عليه عمدا ليخبر الرسول الكريم بما رآه عند عودته اليه ، ومن ثم كان على الرسـول (ص) أن يقتص لاصحابه حتى لاتضعف هيبة الاسلام[٣] .

أشفق النبى (ص) على عاقبة السكوت على كلتا الفعلتين ، فأعـد جيشا عدته ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمر عليهم زيدا بن حارثة الكلبى ، واوصى فى حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبى طالب ، فان اصيب جعفر يحل محله عبد الله بن رواحة ، وان قتل فليتفق المسلمون على اسناد القيادة الى رجل منهم[٤] .

وتهيأ جيش المسلمين أو جيش الامراء للخروج ، وودعهم الرسول (ص)

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 514.,
Lebeau, Histoire, T. XI, P. 78.

(٢) مؤتة ، قرية من قرى البلقاء بالشام دون دمشق الى الطرف الجنوبى للبحر الميت ، وتقع على الحدود الفاصلة بين الشام والحجاز .
انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م ٨ ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣) المقريزى ، امتاع الاسماع ، جا ص ٣٤٤ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٢ ص ١٢٨ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ص ٣٨٧ — ٣٨٩ ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جا ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ، النويرى، نهارية الارب ، ج١٧ ، ص ٢٧٧ ، ابراهيم هلال ، حديث هرقل ، ص ٦٩ — ٧٠ .

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ، ص ٧ — ٨ ، الواقدى ، المغازى ، ص ٤٠١ — ٤٠٢ ، المقريزى ، امتاع ، جا ، ص ٣٤٥ .
ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٣٨٨ ، ابن سعد ، الطبقات م٢ ، ص ١٢٨ ، ابن الوردى جا ، ص ١٢٨ .

وأوصاهم (١) ومضى الجيش حتى نزل معان (٢) ، فاستسلم لهم حاكمها ، وأعطاهم المدينة دون أية مقاومة من جانبه ، وقد دفع ذلك هرقل الى أن يصدر أوامره باعدامه عندما تم استعادة هذه المدينة (٣) .

وفى معان علم المسلمون ان هرقل يعسكر فى مآب — موضع بالشام من أرض البلقاء — فى مائة الف من الروم وانضم اليهم من لخم وجذام وبكر ووائل وبهراء وبلى مائة الف منهم ، يتولى قيادتهم رجل مـن قبيلة بلى يقال له مالك بن رافلة ، وهم على أهبة الاستعداد للقاء جيش المسلمين وعندئذ فكر المسلمون فى أن يكتبوا للرسول (ص) يسألونه العون والمـدد (٤) .

التقى الجمعان عند مؤتة ، حيث أخذ المسلمون استعداداتهم لقتال البيزنطيين ، الذين جاءوا كما تصف الروايات العربية بما لاقبل للمسلمين به من العدد والسلاح والكراع (الخيل الخاصة) والديباج والحرير

---

(١) كان من بين وصايا الرسول (ص) للمسلمين الا يغدروا ، ولا يقتلوا وليدا ، والا يتعرضوا لرجال الصوامع (الرهبان) ، ولايقتلوا امراة ولا صغيرا ولا كبيرا ، ولايقطعوا شجرا ولايهدموا بناء .

انظر المقريزى ، امتاع ، جا ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ ، ابن عساكر ، م١ ، ص ٣٩١ .

(٢) معان : مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء ، وقيل حصن كبير فى أرض فلسطين على بعد عدة اميال من دمشق فى طريق مكـة .

انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج٨ ، ص٩٢ — ٩٣ ، وانظر ايضا : النويرى نهاية الارب ، ج١٧ ، ص ٢٧٩ ، حاشية ١ .

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 514.,
Stratos, Byzantium, P. 313.

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ، ص٩ ، الطبرى ، الرسـل ، ج٣ ، ص ٣٧ ، ابن سعد ، الطبقات ، م٢ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ . المقريزى ، امتاع الاسماع ، جا ، ص ٢٤٧ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٣٨٩ . النويرى ، نهاية الارب ، ج١٧ ، ص ٢٧٩ .
Lebeau, Histoire, T. XI, P. 78.

والذهب ، ومما يبرق له البصر (١) . واقتتل المسلمون والبيزنطيون قتالا شديدا ، وقتل زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبى طالب ، وتلاهما عبد الله بن رواحة (٢) . ولما قتل هؤلاء اتفق المسلمون على أن يتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش فما كان منه الا أن بذل ماوسعه الجهد فى سبيل انقاذ بقية جند المسلمين وكان دور خالد بارعا فى مناوشة الجيش البيزنطى اذ جعل الميمنة ميسرة وغير نظام القلب والجناحين ، واوهم البيزنطيين بذلك أن ثمة مدد قد أتاه أثناء الليل ، ثم بدأ يتراجع فظن البيزنطيون أنه انما يتراجع ليلتحم بالجيش الذى قدم اليه عونا ومساعدة وعندئذ تقهقر البيزنطيون ، وحانت الفرصة لخالد وجنوده ، فانحاز بهم جانبا ، وعاد واياهم الى المدينة سالما (٣) .

عرفت هذه الغزوة بغزوة مؤتة ، وكانت آثارها ونتائجها بعيدة المدى فبينما رأى فيها البيزنطيون مجرد غارة من اغارات البدو المتكررة التى طالما كانوا يشنونها على الحدود البيزنطية للسلب والنهب ، كانت حملة زيد بن حارثة اغارة من نوع جديد لم يقدر البيزنطيون أهميتها اذ انها

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص ١١ ، الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ ، المقريزى ، امتاع الاسماع ، جـ١ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٣٩٥ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ١٧ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٢) عن بلاء هؤلاء القادة فى القتال انظر :

Theophanis, Chronographia, P. 514.

ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص ١٢ — ١٣ ، الواقدى ، المغازى ، ص ٤٠٢ ، الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٩ — ٤٠ ، ابن سعد ، الطبقات، م٢ ، ص ١٢٩ المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٣٤٨ ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جـ١ ، ص ١٢٨ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٣٩٦ — ٤٠٠ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ١٧ ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص١٤ ، ابن الوردى،تاريخ ابن الوردى، جـ١ ، ص ١٢٨ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ١٧ ، ص ٢٨١ — ٢٨٢ . ابراهيم هلال ، حديث هرقل ، ص٧٠ — ٧١ .

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 514.,
Lebeau, Histoire, T. XI ; PP. 79-80.

كانت حملة منظمة قامت لتؤدى مهمة خاصة ، اذ كانت بعثة استطلاع من أجل القصاص من قاتلى رسل النبى وسفرائه ، ولاظهار هيبة المسلمين وبيان أنهم لن يقفوا مكتوفى الايدى امام أى اعتــداءات من جانب البيزنطيين وحلفائهم من العرب المسيحيين • وغدت هزيمة تلك الحملة ومقتل ثلاثة من قوادها الباعث الذى دفع المسلمين الى التطلع الى بلاد الشام والانطلاق السريع نحو الاراضى البيزنطية [1] •

لم يكتف البيزنطيون (الروم) وحلفاؤهم من العرب المسيحيين بما حققوه من انتصار على المسلمين عند مؤته ، بل جمعوا حشودا كثيرة بالشام لقتال المسلمين ثانية ، واصطحبوا معهم لخم وجذام وعامــلة وغسان ، ووصلت طلائعهم الى البلقاء [2] ، التى عسكروا بها ، هذا فى حين تخلف هرقل بحمص [3] • وعلم الرسول (ص) بذلك من الانباط ، الذين كانوا يأتون الى المينة بالدرمك [4] والزيت من دمشق ، ولذلك رأى صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الاثار التى خلفتها غزوة مؤتة ، وأن يقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أى تهديد من قبل الروم (البيزنطيين)• ولما تم له فتح مكة ٨هـ ، وعاد الى المدينة أمر أصحابه بالاستعداد لقتال الروم • وكانت أولى الخطوات التى اتخذها الرسول الكريم لقتال الروم، أنه بعث الى قبائل مكة يستنفرهم ويحثهم على قتال البيزنطيين ويرغبهم

---

(١) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٣٧ ، أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص ٢٣٧ ، ابراهيم هــلال ، حديث هرقل ، ص ٧١ .

(٢) البلقاء كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، وعاصمتها عمــان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة .

انظر الازدى ، فتوح الشام ، ص ٨٥ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٢ ، ص ١٦٥ ، المقريزى ، امتاع الاسماع ، جـ١ ، ص ٤٤٥ — ٤٤٦ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤١٣ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ١٧ ، ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٤) الدرمك هو الدقيق الحوارى اى الذى حور وبيض ، وهو دقيق ابيض لباب الدقيق واجوده واخلصه .

انظر : المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٤٤٥ ، حاشية ٦ .

فى الجهاد ، وبعث كذلك الى سائر القبائل العربية ، ثم شرع بعد ذلك فى جمع الاموال اللازمة للنفقة على الجيش ، فحث أهل الغنى على الانفاق فى سبيل الله ، كما أمر بالصدقة [١] . وقامت النساء بدور بارز فى الانفاق على الجيش اذ أتت النساء — كما يذكر المقريزى — بكل ماقدرت عليه ، فكن يلقين فى ثوب مبسوط بين يدى النبى (ص) المسك والمعاضد والخلاخل، والاقراط والخواتيم والخدمات [٢] .

مما تجدر الاشارة اليه أن الرسول الكريم صادف بعض العقبات فى سبيل اعداده لهذا الجيش وتأهبه لقتال البيزنطيين اذ كان الناس فى ذلك الوقت فى عسرة أو شدة من الحر ، وجدب من البلاد . [٣] ولعل ذلك ما دعا الى تسمية هذا الجيش الذى أعده الرسول لقتال البيزنطيين باسـم « جيش العسرة » لما لقيه الرسول (ص) فى اعداده من شدة ولما تكبده فى سبيل تمويله من عسر ومشقة [٤] .

وبعد أن اتخذ الرسول (ص) استعداداته وتغلب على الصعاب التى واجهته فى سبيل اعداد الجيش خرج بنفسه على رأس هذا الجيش فى

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، ابن سعد ، الطبقات ، م٢ ، ص ١٦٥ ، الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ١٠٢ — ١٠٣ ، المقريزى ، امتاع الاسماع ، جـ١ ، ص ٤٤٦ — ٤٤٩ . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤١٤ .

(٢) المسك ، مفردها مسكة وهى السوار الذى تجعله المراة فى يدها ، المعاضد مفردها معضد ويكون ، كالسوار تجعله المراة فى عضدها بين الكتف والمرفق أما الخدمات ومفردها خدمة فهى الخلخال وتجعلها فى رجلها .

انظر : المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٤٤٧ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص ١١٨ ، الطبرى ، الرسل، ص ١٠٠ — ١٠١ ، المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٤٤٦ .

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٠٨ — ٤١٠ .

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص ١١٩ ، ١٤٣ .

رجب ٩هـ/٦٣٠م ، ومضى فى طريقه حتى وصل تبوك (١) دون أن يجد أى تجمعات للبيزنطيين وحلفائهم من العرب المسيحيين ، ويبدو أنهم عادوا ادراجهم الى بلادهم ، اذ مرت أيام والنبى(ص) فى تبوك دون اشارة الى أنهم يفكرون فى محاربته أو التعرض له ، وانهم لن يواجهوه وجها لوجه . وعندئذ صالح النبى أهل تبوك على الجزية ، ثم شاور أصحابه فى التقدم نحو الشمال والمسير الى حدود الشام لمحاربة البيزنطيين أثناء اقامته فى تبوك فأشاروا عليه بالعودة الى المدينة (٢) .

ولم يكتف الرسول(ص) بمصالحة أهل تبوك وحسب ، بل رأى أن يعمل على تأمين حدود بلاد الشام بمعاهدات ومحالفات بينه وبين من من يجاورها من الامارات والممالك . فبعث أثناء اقامته فى تبوك — خالد ابن الوليد على رأس فرقة من الجيش الى دومة الجندل ، ولعل موقعها فى شمال المدينة ، وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى الى الشام جعلها موضع اهتمام من جانب الرسول الكريم ، هذا فضلا عن أن حاكمها وهو اكيدر بن عبد الملك الكندى من قبل الامبراطور هرقل ، كان نصرانيا وكان كما يذكر المسعودى « فى طاعة هرقل ملك الروم ، وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم » (٣) ونجح خالد فى أسر اكيدر وجاء به الى الرسول (ص) فحقن الرسول دمه ، وصالحه على الجزيه ، وكتب له ولاهل دومة الجندل كتابا (٤) ، ثم اعاده الرسول (ص) الى دومة الجندل (٥) .

---

(١) تبوك من ارض الشام ، وتقع على بعد ١٢ فرسخا من المدينة ، وفى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق .

انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م٢ ، ص ٣٦٥ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤١٦ ، المقريزى ، امتاع الاسماع ، جـ١ ، ص ٤٦٣ .

(٣) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ .

(٤) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص٧٣ ، ابن سعد ، الطبقات جـ٢ ، ص ١٦٥ ، ابن عساكر ، م١ ، ص ٤٢١ .

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص ٧٣ ، ابن سعد ، الطبقات، م٢ ، ص١٦٦ .

وقدمت على الرسول أيضا وهو فى تبوك وفود من ايله (١) واذرح وجرباء ومقنا وغيرهم من القبائل القاطنة على حدود الشام ، فصالحهم الرسول (ص) على الجزية ، وكتب لهم كتب عهد وامان (٢) وعلى هذا النحو لم يحدث ثمة اشتباك بين المسلمين والبيزنطيين وحلفائهم من العرب المسيحيين ، كما كان متوقعا ولم يتابع الرسول سيره الى الشام، واكتفى بتوطيد سلطانه السياسى على شمال الحجاز ، وبتأمين الحدود ما بين الشام وشبه الجزيرة وقد تم له ذلك عندما أتته وفود تلك القبائل المسيحية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز ، وصالحوه على جزية معينة يؤدونها له •

يتضح مما سبق أن غزوة تبوك ٩هـ/٦٣٠م كانت أشبه بمناورات حربية قادها النبى (ص) فى منطقة الحدود بين الاراضى البيزنطية وشبه جزيرة العرب ولم يحدث بها أى اشتباك مع البيزنطيين أو اتباعهم من العرب المسيحيين • واسفرت تبوك عن نتائج حسنة وطيبة لصالح المسلمين ، اذ ان خضوع صاحب ايله ، واكيدر حاكم دومة الجندل ، وصلح أهل جرباء واذرح وغيرهم ساهم فى علو نفوذ المسلمين ونظرا لان هذه الامارات المسيحية ، وتلك القبائل كانت تعيش فى كنف الروم ، وفى ظل حمايتهم فان خضوعها للمسلمين أمدهم بالمعلومات عن أطراف الدولة البيزنطية واحلافها ، واطلعهم على الدور الذى تؤديه هذه الاحلاف فى حياتها ، كما أن لغزوة تبوك دلالة عظيمة اذ أنها كانت فتحا لمنافذ الطرق الى الشام ، كما كانت تمثل آخر خطوات التوسع الاسلامى فى

---

(١) ايلة ، مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام • انظر ياقوت الحموى معجم البلدان ، م١ ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ •

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص ٧١ — ٧٢ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق م١ ، ص ٤٢١ •
وانظر ايضا : Lebeau, Histoire, T. XI, P. 82.

حياة الرسول (ص) ، وكانت كالضوء الاخضر الذى يسير على هديه خلفاؤه من بعده[1] .

وبعد أن عاد الرسول (ص) من حجة الوداع ١٠هـ/٦٣١م ، أمر بتجهيز جيش لغزو اطراف الشام الجنوبية ، والاستعداد لغزو البيزنطيين ، وذلك لانه كان يرى أن دولته لاتزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث كان البيزنطيون يرابطون على حدود الشام الجنوبية ، ولذلك وجه كل اهتمامه الى تأمين تلك المنطقة حتى لايتسرب البيزنطيون منها ، هم وعملاوءهم الى تخوم بلاد العرب الشمالية ويهددون دولته ، واسند الرسول (ص) قيادة هذا الجيش اسامة بن زيد بن حارثة . ودعا الرسول المسلمين للانضمام الى جيش أسامة فلقيت دعوته قبولا من كثير من وجوه المهاجرين والانصار[2] .

ورسم الرسول الكريم لاسامة خطة واضحة المعالم اذ قال له : « سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى الى مقتل ابيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش ، أغر صباحا على أهل ابنى[3] ، وحرق عليهم ، واسرع السير تسبق الخبر ، فان اظفرك الله ، فأقلل اللبث فيهم ، وخذ الادلاء ، وقدم العيون أمامك والطلائع »[4] .

وعلى الرغم من أن المرض بدأ يشتد بالرسول (ص) ، الا أنه كان حريصا كل الحرص على ارسال جيش اسامة ، فكان يقول للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبل خروجهم للقتال مع اسامة : « انفذوا بعث

---

(١) ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٧ ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، جا ، ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ، ص ١٩ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص ١٥ ، المقريزى ، امتاع ، جا ، ص ٥٣٥ — ٥٣٧ .

(٣) ابنى ، موضع بالشام من جهة البلقاء ، ويقال انها قرية بمؤتة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جا ، ص ٩٢ .

(٤) المقريزى ، امتاع الاسماع ، جا ، ص ٥٣٦ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٢ ، ص ١٩٠ .

أسامة » (١) على أنه لم يتح لحملة اسامة أن تحقق رغبة الرسول (ص) اذ ما كاد اسامة يستكمل استعداداته ويتهيأ للمسير من معسكره بالجرف خارج المدينة ، حتى أتاه خبر اشتداد وطأة المرض على رسول الله ، وعندئذ أجل اسامة خروجه وعاد الى المدينة وبعد فترة قصيرة من وصوله اليها توفى الرسول (ص) فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الاول ١١هـ/٦٣٢م (٢).

تطلع المسلمين لفتح بلاد الشام :

وعلى الرغم من وفاة النبى الكريم الا أنه كان قد رسم خطة لخلفائه لكى يسيروا على هديها ، واوضح لهم أن الخطر يكمن فى بلاد الشام حيث البيزنطيين واتباعهم من العرب المسيحيين ولعل ذلك مايفسر حرص أبى بكر على انفاذ جيش اسامة فور توليه الخلافة — الى أطراف الشام الجنوبية تنفيذا لتلك الخطة التى رسمها الرسول (ص) تحقيقا لما أمر به ، ووجه نداءه الى جيش اسامة بأن « أنفذ وجهك الذى وجهك فيه رسول الله (ص) » (٣) .

وخرج أسامة فى أول ربيع الثانى ١١هـ / ٦٣٢م على رأس الجيش الذى أعده فى حياة الرسول (ص) ، وبلغ من اهتمام أبى بكر بأمر هذا الجيش أن خرج بنفسه لوداعه ، وليوصيه بما أمر به رسول الله (ص) متحديا بذلك ماطلبه منه بعض المهاجرين والانصار من أن لايبعث جيش اسامة حتى لا تتألب عليه العرب ، وخاصة أنهم سمعوا بوفاة الرسول (٤).

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، جـ٤ ، ص ٢١٩ . ، المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٥٣٧ — ٥٣٨ . ابن سعد ، الطبقات ، م٢ ، ص ١٩٠ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ٣ ، ص ١٤ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٢١ .

(٢) المقريزى ، امتاع الاسماع ، جـ١ ، ص ٥٣٩ .

(٣) المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٥٣٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٣٨ .

(٤) المقريزى ، امتاع ، جـ١ ، ص ٥٣٩ — ٥٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٣٩ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ٣ ، ص ١٤ — ١٥ . السيوطى، تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٢ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٢٧ ، ٤٣٣ .

سار اسامة من معسكره بالجرف ، حتى انتهى الى أبنى ، فشــن الغارة على أهلها كما أمره رسول الله ، وقضى على كل من تعرض له منهم كما أحرق منازلهم ، وحرثهم ونخلهم وغنم بعض الغنائم (١)•ولم يغر هذا النصر الذى حققه أسامة بمهاجمة البيزنطيين أو التوغل فى أراضيهم ، ولكنه اكتفى بأداء المهمة التى وكلت اليه ، والتى ندب من أجلها ، وعــاد ظافرا الى المدينة ، وبعد أن قضى فى غزوته ما يقرب من شهرين (٢) •

ويبدو أن نجاح جيش اسامة فى مهمته ، ومسيره دون عقبات انما يرجع الى سخط عرب الحدود ، الذين ظلوا حتى ذلك الحين يعملون فى خدمة الامبراطورية البيزنطية ، فقد حدث أن جاء هؤلاء العـــــرب يطلبون أجورهم التى كانت تدفعها لهم الدولة البيزنطية لقاء حمايتهم لحدودها ، فاستقبلهم أحد اتباعها بألفاظ نابية مهينة قائلا لهم : « سيدنا لم يكد يعطى جنوده أجورهم ، وانه بالاحرى الا يوزعها على هــؤلاء الكلاب ؟ » (٣) •

كما أن العرب المحليين كانوا يتقاضون فى كل عام ثلاثين أوقية من الذهب ، ثم مالبثت الدولة البيزنطية أن قطعت عنهم تلك الاعانة ، ولهذا سعوا الى الانضمام الى ذويهم وبنى جلدتهم فى الحجاز ، وامسوا أدلاء لجيش أسامة وسمحوا له بالعبور (٤) •

وكان ارسال أبى بكر لجيش أسامة من أعظم الامور نفعا للمسلمين ، لانه رأى فى ذلك مناورة حربية وسياسية تشعر أعداءهم فى الداخــل وفى الخارج بقوة الحكومة الاسلامية وثبات مركزها رغم وفاة الرسول (ص) ، ففى الداخل شعر العرب أن المسلمين قوة والا لما أرسلوا جيش

---

(١) المقريزى ، امتاع ، جا ، ص ٥٤٠ •

(٢) المقريزى ، امتاع ، جا ، ص ٥٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٢ ، ص ١٣٩ •

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 514-15.

(٤) Nicephorus, Breviarium Rerum Post Mauricium Gestarum in C.S.H.B., P. 27., Lebeau, Histoire, T. XI., P. 195.

اسامة ولذلك كفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه (١) • كما أوقفت حملة أسامة القبائل العربية التى تقيم فى أطراف الشام الجنوبية على قوة المسلمين ، وكانت تلك الحملة اختبارا لنوايا البيزنطيين ولاثارة الرعب فى قلوبهم ، وان كانت لم تتوغل فى أراضيهم ، وعلى الرغم من أن اسامة لم يصطدم بجيشهم الا أنهم اضطروا الى ارسال حامية قوية لترابط فى البلقان هذا فضلا عن أن حملة اسامة مهدت السبيل فيما بعد للقضاء على السيطرة البيزنطية فى الشام(٢) •

فتح جيش أسامة آفاقا جديدة أمام أبى بكر للتطلع الى القضاء على البيزنطيين فى الشام ، ومن الجدير بالذكر هنا أن المؤرخين البيزنطيين لم يحفظوا لنا تفاصيل طرد البيزنطيين من الشام ولعلهم — وهذا أمر لاشك فيه — كانوا يكرهون فكرة سرد هذه الحوادث ، أما المؤرخون العرب فلم يكونوا قد بدأوا الكتابة بعد ولهذا احيطت سنوات الفتح وحوادثه وترتيبه الزمنى بسياج من الروايات المتباينة •

عندما استتبت الامور فى الجزيرة العربية للخليفة أبى بكر الصديق وجه كل اهتمامه الى تأمين الحدود الخارجية سواء فى جهة الشمال حيث البيزنطيون أم من جهة الشمال الشرقى حيث الفرس • شاور جماعة من اصحاب رسول الله (ص) من وجوه المهاجرين والانصار فى الامر ، فلم يجد منهم سوى كل قبول وترحيب بل لقد أحس أبو بكر بمدى وعيهم لخطورة الروم من قولهم له : « بنو الاصفر حد حديد وركن شديد »(٣)•

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٣٩ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٢١ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، م ٢ ، ص ١٩٢ ، جمال الدين سرور ، الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(٣) الازدى ، فتوح الشام ، ص ١ — ٣ ، وانظر ايضا : الواقدى ، فتوح الشام جـ١ ، ص ٢ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص ١٢٨ ، اليعقوبى جـ١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٤٣.

من أجل ذلك أرسل الخليفة قوة الى العراق على رأسها خالد ابن الوليد لمحاربة الفرس ثم أرسل حملة أخرى الى مشارف الشام بقيادة خالد بن سعيد (١) فى أواخر عام ١٢ هـ / ٦٣٣م وأمره الخليفة بأن ينزل تيماء (٢) والا يبرحها ، وأمره كذلك بمراقبة البيزنطيين ، وتجنب الاصطدام بهم ، وبأن يعمل على اجتذاب القبائل العربية المسيحية فى الشام ، واثارة النخوة القومية فى نفوسهم ، وتحريضهم على البيزنطيين (٣) • وهذا يعنى أن الخليفة كان يهدف من وراء ارسال خالد ابن سعيد الى مراقبة حركات البيزنطيين العسكرية هم والعرب المتنصرة ، اذ قد ينتهز البيزنطيون فرصة الحرب الداخلية فى بلاد العرب ويحرضونهم على الهجوم على أرض المسلمين ، والحقيقة أن أبا بكر لم يشأ أن تكون حملة خالد بن سعيد اصطداما مباشرا مع البيزنطيين ، وليس أدل على ذلك من أنه حث خالد بن سعيد على ألا يتخطى تيماء وألا يندفع فى الهجوم (٤) •

وجعلت انتصارات خالد بن الوليد فى العراق البيزنطيين يشعرون بالخطر الذى سوف يتعرضون له بعد انهيار امبراطورية الفرس بالعراق ، وازداد هذا الشعور لديهم عندما وفق خالد بن سعيد فى المهمة التى عهد

---

(١) كان خالد بن سعيد من عمال رسول الله (ص) باليمن ، وقدم الى المدينة عندما توفى الرسول ، وامتنع عن البيعة لابى بكر ومال الى بنى هاشم ومع ذلك عهد اليه أبو بكر بالقيادة ، فاعترض عمر بن الخطاب على ذلك وقال لابى بكر ، « أتولى خالدا وقد حبس عنك بيعته ، أتؤمره وقد صنع ما صنع » . لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : الطبرى ، الرسل جـ٣ ، ص ٣٨٧ — ٣٨٨ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ١ ، ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٦٨ — ١٦٩ ، النويرى ، نهاية الارب جـ ١٩ ، ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) تيماء تقع فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى . انظر ياقوت الحموى معجم البلدان م٢ ، ص ٤٤٢ .

(٣) الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٨٨ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٤٥ ، ٤٥١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٦٨ ، فتحى عثمان ، الحدود ، جـ١ ، ص ٣٠١ ، عمر اليافعى ، الفتوح العربية فى سوريا ، ص ٣٤ — ٣٥ . طه الهاشمى « اجنادين » مجلة المجمع العلمى العراقى م٢ (١٩٥٢م) ، ص ٨٠.

بها الخليفة اليه اذ اجتمعت اليه جموع كثيرة من القبائل العربية ،وعندئذ قرر البيزنطيون شن الهجوم على المسلمين أو على خالد بن سعيد مستغلين فى ذلك فرصة انشغال القوات العربية الرئيسية فى حرب الفرس ، وأخذ الامبراطور هرقل يحشد الجيوش للانقضاض على المسلمين،وانضمت اليه جموع من العرب المسيحيين من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان وغيرهم . وعندئذ أحس خالد بن سعيد أنه لن يستطيع الصمود أمام هجوم كبير تشنه عليه القوات البيزنطية ، كما أن الواقع كان يتطلب منه أن يشن هجوما سريعا على القوات البيزنطية المتفرقة ، قبل أن تتجمع وتحتشد ، ولذلك كتب خالد بن سعيد الى أبى بكر يطلعه على الموقف فى التقدم نحو الشمال ، فكتب اليه الخليفة « أن اقدم ولا تحجم واستنصر الله »[1] .

وبمقتضى هذا الامر الذى حصل عليه خالد بن سعيد بدأ يتقــدم فى أرض الشام ويبدو أنه اجتاز معان ثم واصل تقدمه نحو عمان قاعدة البيزنطيين العسكرية فى البلقاء لمهاجمة البيزنطيين فى عقر دارهم ، والتقى البيزنطيون بجيش خالد بن سعيد ، ودارت معركة انتصر فيها المسلمون ، وشجع ذلك الانتصار خالد بن سعيد على المضى فى تقدمه ، وكتب الى أبى بكر بذلك ، فكتب اليه أبو بكر أن « أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك »[2] وبعث اليه أبو بكر كلا من عكرمة بن أبى جهل والوليــد ابن عتبة كمدد له . ولكن خالد بن سعيد تقدم مباشرة بعد انتصـاره الاول ، وقبل أن تصل اليه الامدادات ، وأدى اندفاعه هذا الى معــركة هزم فيها المسلمون ، اذ تظاهر البيزنطيون أمام تقدم خالد بن ســعيد بالهزيمة حتى يستدرجونه الى المكان المناسب للمعركة ، وعندما تحقق لهم ما أرادوا أطبقــوا عليه ، ولم ينقــذه سوى قــدوم عكرمة والوليــد بالامدادات [3] .

وبهزيمة البيزنطيين لجيش خالد بن سعيد ، أصبحوا خطرا يهدد

(١) الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .
(٢) الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٨٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينـة دمشق ، م١ ، ص ٤٥٢ ، عمر اليافعى ، الفتوح ، ص ٣٦ .
(٣) الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩١ .

المسلمين اذ سرعان ما زحفوا جنوبا مستغلين انتصارهم ، ولهذا عقد أبو بكر — فور وصول أنباء هزيمة خالد بن سعيد — مجلسا حربيا من قادته ومستشاريه لمناقشة الامر ، فأشاروا عليه بحشد أكبر عدد ممكن من الجيوش لمواجهة البيزنطيين بالشام خوفا من استغلالهم انتصارهم ، والتقدم نحو الجنوب للقضاء على الدولة العربية • ولذلك كانت الخطوة التالية التى اتخذها الخليفة هى دعوة المقاتلين من كافة أرجاء الجزيرة العربية من اليمن ومن الطائف ونجد والحجاز ، وبعث لهؤلاء جميعا كتبا يدعوهم فيها الى الجهاد ، ويرغبهم فيه وفى غنائم البيزنطيين ، وكانت هذه الكتب كلها نسخة واحدة (١) •

وسرعان ما لبى هؤلاء جميعا دعوة الخليفة ، وجاءوا اليه بين محتسب وطامع ، وتوافدوا على المدينة من كل صوب وحدب ليشاركوا فى قتال البيزنطيين (٢) • وبذلك تيسر لأبى بكر أن يجهز فى أواخر عام ١٢هـ/٦٣٣م عدة جيوش لغزو بلاد الشام ، وأسند قيادتها الى كل من يزيد بن أبى سفيان وكانت وجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته الاردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص • ووضع أبو بكر الخطط لمسير هؤلاء القادة ، فأمر عمرو بن العاص بأن يسلك طريق آيلة الى فلسطين ، وأن يتخذ كل من يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة طريق تبوك البلقاء (٣) •

---

(١) عن نصوص هذه الكتب انظر : الازدى ، فتوح الشام ، ص ٨ ، الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ١ ، ص ٢ — ٣ •

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه القبائل التى وفدت على المدينة انظر ، الواقدى فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٣ — ٥ ، الازدى ، فتوح الشام ص ٩ — ١١ ، ١٦ — ٢١ ، الطبرى الرسل جـ٣ ، ص ٣٨٩ ، البلاذرى فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٢٨ ، النويرى نهاية الارب ، جـ١٩ ، ص ١١٧ •

(٣) التبس الأمر على كل من ميخائيل السريانى وابن العبرى — ولهما العذر فى ذلك اذ كتبا بعد خمسة قرون من الحوادث — اذ يذكرا أن ابا بكر ارسل اربعة قواد ، وبعث احدهم الى أرض فلسطين ، وآخر الى مصر ، وثالث الى فارس ورابع الى العرب المسيحيين •

انظر زاكية رشدى ، ميخائيل السريانى ، رسالة دكتوراه غير منشورة القاهرة ١٩٦٧م •

Michel Le Syrien, T. II, P. 413, Bar Hebraeus, The Chronography, First part, P. 93.

والواقع أن الباحث اذا ما حاول أن يتتبع أنباء هذه الجيوش ، فانه سوف يجد نفسه أمام العديد من الروايات ، ولعل ذلك يرجع الى كثرة عدد الجيوش التى أرسلها أبو بكر وتعدد قياداتها ، والخلط بين الجيش والامداد فضلا عن اهمال الروايات للتحديد الزمنى للحوادث مما أحدث نوعا من التداخل والخلط أحيانا • على أنه يبدو أن أبا بكر كان يهـدف من ارسال هؤلاء القادة ، وتلك الفرق المختلفة والى جهات متعددة — الى اشغال البيزنطيين فى غير مكان واحد ، وبالتالى لا يتيح لهم فرصة التكتل والتجمع ليصبحوا قوة واحدة يصعب عليه مواجهتها • ومما لاشك فيـه أن البيزنطيين كانوا يتمتعون داخل بلاد الشام بحصون منيعة وبالطرق العسكرية التى تربط خطوط مواصلاتهم بعضها ببعض ، ويبدو أن ذلك دفع البيزنطيين الى وضع خطة تقوم على أساس ترك الجيوش العربيـة تتقدم وتتوغل داخل بلاد الشام ، وبالتالى تبعد بعض الشىء عن خطوط مواصلاتها ومراكز تمويلها فى الجزيرة العربية وبالتالى يسهل مهاجمتها منفردة ، والقضاء عليها بعد تطويقها ، وهذه هى نفس الخطة التى اتبعها البيزنطيون مع خالد بن سعيد (١) •

بدأت الجيوش العربية تتحرك نحو الشام الواحد تلو الآخـر ، وكان جيش يزيد بن أبى سفيان (٢) أسبقها جميعا ، ثم سار بعده جيش عمرو بن العاص فجيش شرحبيل فجيش أبى عبيدة • وكان اللقاء الاول

---

(١) عمر اليافعى ، الفتوح العربية فى سورية ، ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) وكان ابو بكر قد أوصى يزيد بن ابى سفيان بأن يشاور اصحابه وقومه وان يستعمل العدول ، وبأن لايقتل وليدا ، ولا شيخا ، ولا امرأة ولا طفلا ، ولا يقرب نخلا ولايحرق زرعا أو يقطع شجرا مثمرا ولايتعرض للرهبان بسوء .

لمزيد من التفاصيل انظر : الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٦٩ ، الواقدى، فتوح الشام ، جا ، ص ٧ — ٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٢ ، ص ١٢،ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٥٤ — ٤٥٧ ، سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ج٢ ، ص ٩ — ١٠ .

بين جيش يزيد بن أبى سـفيان والفرق البيزنطيـة فى وادى عربة ذلك المنخفض العظيم فى جنوب البحر الميت ، وكان سرجيوس Sergius حاكم فلسطين — ومركز قيادته قيسارية Caesarea — على رأس تلك الفـرق وكان فى طليعتها العرب المسيحيون ، الذين استخدمهم البيزنطيون كادلاء لهم على الطرق والممرات (١) .

أسفر الاشتباك بين سرجيوس ويزيد عن هزيمة الاول وانتصـار المسلمين واضطر سرجيوس الى التقهقر الى داثن أو الداثنة — على مقربة من غزة — تحت ضغط المسلمين ، على أنه قبل أن يصل الى تلك القرية كان يزيد قد أرسل له كتيبة على رأسها أبى امامة الباهلى فطوقهم (١٣هـ/ ٦٣٤م) وانتصر عليهم انتصارا ساحقا ، وغنم المسلمون غنائم طائلة ، اذ استولوا على أموالهم وخيامهم وخزائنهم ، وأسر المسلمون الكثـيرين منهم ، ولقى سرجيوس مصرعه وتمت هزيمة البيزنطيين مرة أخرى (٢).

وفيما يتعلق بمصـير سرجيوس Sergius يذكر المؤرخ البيزنطى البطريرك نيقفوروس Nicephorus أن العرب سلخوا جلد جمل وحبسوا فيه سرجيوس ، وجف الجلد عليه الى أن مات ، وأرجع سبب هذه القسوة الى كراهية العرب الشديدة لسرجيوس اذ اتهمـوه بأنه كان السبب فى منعهم من الخروج من المملكة بثلاثين أوقية من الذهب ليتاجروا بهـا ، وكانوا قد اعتادوا على ذلك كل عام (٣) . ويروى ميخائيل السريانى Michel le Syrien أن العرب حينما انتصروا على سرجيوس ورجاله قرب غزة ، ولى سرجيوس الادبار ، فجد العرب فى أثره هو ومن معه ، وفجأة سقط سرجيوس من فوق جواده ، فتجمع من كانوا معه وأركبوه ، ثم جد

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، جا ، ص ٨ — ٩ ، البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ق١ ، ص١٣٠ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، جا ، ص ٩ — ١٥ ، الازدى ، فتـوح الشام ، ص ٥٢ .

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 516., Michel le Syrien, T. II, P. 413., Cam. Med. Hist. Vol .II, P .340.

البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص ١٣٠ .

(٣) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., PP. 26-27.

فى الهرب فسقط مرة ثانية وثالثة ، وتركه أتباعه . فتعقبه المطـاردون ولما وجدوه طريحا قتلوه بضربة سيف (١) . ومهما يكن من أمر فقد لقى سرجيوس مصرعه ، وحقق المسلمون أول انتصار لهم فى بلاد الشام فى وادى عربة وفى داثن على مقربة من غزة .

وليس هناك شك فى أن الامبراطور هرقل كان على علم بسير الحوادث فى جنوب الشام ، اذ كانت له عيون من العرب المسيحيين فى الجنـوب ، تخبر قادته فى الشام بتقدم العرب ، وتغلغلهم فى البلقاء وجنوبى فلسطين ، وكان الامبراطور هرقل فى ذلك الوقت فى بلاد الشام ، وسمع بهـزيمة قوات سرجيوس ومصرعه ، وعندئذ بدأ يفيق من سباته ، وأحس بأن الامر أخطر مما كان يظنه ، وأدرك أنه يجب على البيزنطيين أن يتحـركوا ، ويدعون حلفاءهم من العرب المسيحيين المقيمين فى بادية الشام الى أن يقفوا سدا منيعا فى وجه المسلمين ، ويحولون دون توغلهم أكثر الى بلاد الشام ، وبدأ هرقل يدعو أهل دمشق وحمص وانطاكية الى قتـال المسلمين والدفاع عن بلادهم ونسائهم وأطفالهم . ونجح هرقل بذلك فى جمـع الجيوش وتجهيزها للدفاع عن بلاد الشام ، وجعل أخاه ثيودور Theodorus على رأس هذه الجيوش ، وأرسلها الى جنوب فلسطين (٢) .

وفى ذلك الوقت تقدم عمرو بن العاص بجيشه نحو فلسطين سالكا طريق الساحل الى العقبة ومنها الى وادى عربة جنوب البحر الميت ، ثم بدأ يدخل أرض فلسطين ، على أنه لم يواجه أية مقاومة فى أول الامر ،

---

(١) زاكية رشدى ، ميخائيل السريانى ، ص ١١٣ .

Michel Le Syrien, T. II, P, 413.,

Bar Hebraeus, Chronography, First Part, P. 93., Lebeau, Histoire, T. XI, P. 197.

(٢) وتذكر المصادر العربية ثيودور باسم تذارق ، هذا فى حين يذكر الواقدى ان قائد جيش هرقل كان يسمى روبيس .

انظر : الطبرى الرسل ، ج٣ ، ص ٣٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٢ ، ص ١٧٠ ، الواقدى ، فتوح الشام ، ج١ ، ص ٢٦ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص٣٠

خاصة بعد أن قضى يزيد على القوة البيزنطية فى داثن أو الداثنة على مقربة من غزة •

أما جيش ثيودور فترك حمص ونزل بثنية جلق — فى جنوبى الجابية على طريق دمشق اذرعات (١) ، وكلف أحد رجاله بمراقبة قوات يزيد ابن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة فى شرقى الاردن ، بينما بدأ هو يدخل أرض فلسطين • وتذكر الروايات أن عمرو بن العاص ماكاد يسمع بذلك حتى كتب الى أبى بكر يستمده ويخبره بوصول جيش البيزنطيين الى فلسطين ، فشاور أبو بكر من عنده من المسلمين ، فأشار عليه عمر بن الخطاب أن يكتب الى خالد بن الوليد فى العراق ليسير بمن معه الى عمرو بن العاص فيكون مددا له ، وقال أبو بكر : والله لانسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، وكتب أبو بكر الى خالد بذلك (٢) • كما كتب الى عمرو ابن العاص يقول له : « انى قد كتبت الى خالد بن الوليد يسير اليك مددا لك فاذا قدم عليك فاحسن مصاحبته ••• ولا تقطع الامور بدونه ••• » (٣) •

وترك خالد العراق بالفعل ، واتجه نحو الشام تنفيذا لامر الخليفة أبى بكر (٤) ، وتقدم خالد حتى وصل الى بصرى (٥) وتوقف عندها لمعاونة شرحبيل بن حسنة فى حصارها ، وكان شرحبيل قد عجز عن فتحها ويرجع سبب ذلك الى قلة جيش شرحبيل بالنسبة لكثرة جيش رومانوس حاكم

---

(١) جلق اسم كورة الغوطة كلها ، وقيل بل هى دمشق نفسها ، وقيل جلق موضع بقرية من قرى دمشق ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان م٣ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ •

(٢) عن كتاب الخليفة الى خالد بن الوليد انظر : الازدى ، فتوح الشام ، ص ٦٨ ، الطبرى ، الرسل ، ج٣ ، ص ٣٩٣ — ٣٩٤ ، ٤٠٨ ، سعيد بن بطريق التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ج٢ ، ص ١٠ •

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٤٤٨ •

(٤) عن الطريق الذى سلكه خالد من العراق الى الشام • انظر : الازدى ، فتوح الشام ، ص ٦٩ ، ٧٣ — ٨٠ •

(٥) عن موقع بصرى أنظر ما سبق ص ٣٣٨ ، حاشية ، ٤ •

بصرى من قبل هرقل فيذكر الواقدى أن جيش شرحبيل كان « كالشامة البيضاء فى جنب البعير الاسود » (١) • وبوصول خالد الى بصرى انقلبت كفة الميزان لصالح المسلمين ونجحوا فى فتح بصرى (١٣هـ/٦٣٤م) ، وأرسل خالد بن الوليد كتابا الى أبى بكر يخبره فيه بفتحها (٢) •

ومما لاشك فيه أن فتح بصرى (١٣هـ/٦٣٤م) قد تم فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق وليس فى عهد الخليفة عمر بن الخطـاب كمـا يتصور ثيوفانيس Theophanis الذى يذكر أنه بعد وفاة أبى بكر آلت الخلافة الى عمر بن الخطاب الذى اجتاح بصرى ، وقد سـايره فى ذلك كل من ميخائيل السريانى وابن العبرى (٣) •

وبعد أن تم لخالد بن الوليد فتـح بصرى ، اجتمـع بقوات قادة المسلمين فى شرق الاردن ، وأخذ يبحث الموقف العسكرى ، وخاصـة موقف عمرو بن العاص فى فلسطين ، وكان عمرو يتهدده فى ذلك الوقت ذلك الجيش الكبـير ، الذى أرسله الامبراطور هرقل على رأس أخيـه ثيودور Theodorus، هذا فضلا عن أنه كان للبيزنطيين حاميات مرابطة بفلسطين • لذلك رأى خالد من الحكمة أن يسرع نحو الجنوب لمسـاندة عمرو بن العاص ، وخاصة بعد أن تأكد من أن جيش ثيودور ترك جلق ، وتقدم الى نهر الاردن وعبره ، ودخل أرض فلسطين بهـدف حمـاية القدس وبيت لحم ، وأن هذا الجيش نزل فى اجنادين (٤) ، حتى يمكنه أن

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٤٧ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٤٥ — ٥٥ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ٨١ — ٨٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ،ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٣) Lebeau, Histoire, T. XI, PP. 199-201.
Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 516.
Bar Hebraeus, The Chronogrphy, First part ; P. 93.,
Michel Le Syrien, T. II, P. 417.

زاكية رشدى ، ميخائيل السريانى ، ص ١١٥ .

(٤) اجنادين ، موقعها موضع خلاف بين المؤرخين ، فيذكر البعض أن اجنادين موضع بالشام من نواحى فلسطين ، وانها بلد بين الرملة وبيت =

يسد الطرق أمام المسلمين اذا ما أرادوا التقدم نحو القدس أو قيسارية قاعدة فلسطين العسكرية (١) •

وتشاور خالد وأمراء المسلمين ، واتفقوا على المسير الى أجنادين(٢)• وفى نفس الوقت الذى تجمع فيه قادة المسلمين فى أجنادين تقدم ثيودور — شقيق الامبراطور — فى صلف وكبرياء واثقا فى قوته ، ويبدو أن الارطبون أو الحاكم العام لفلسطين قد انضم اليه عند مقدمه • واشتبك البيزنطيون والمسلمون فى قتال ، ومنى البيزنطيون بهزيمة فادحة ، ولوا بعدها الادبار ، وكان الارطبون على رأس الفارين ، الذين لجأوا الى بيت المقدس والى قيسارية ، وتحصنوا بها (٣) •

=

جبرين من أرض فلسطين ، ويذكر البعض الاخر أنها بين اليرموك وبيت جبرين ، ويرى فريق ثالث أن اجنادين تقع بين القدس وغزة ، ويرى فريق رابع أن أجنادين مكان غير معروف اليوم ، ولكنه على بعد فرسخ من دمشق . ويقال كذلك أن اجنادين ليست اسم مكان ويبدو أنها تثنية جند ويوم اجنادين قد يعنى المعركة التى جرت بين الجيشين المجتمعين : جيش الشام وجيش العراق ، وهذا لايمنع من أن احتفظ ميدان المعركة بالاسم نفسه فيقال اجنادين فى فلسطين . بالاضافة الى ماسبق يرى البعض أن تسمية اجنادين راجعة الى ان العرب اشتركت باجنادها اجناد خالد وعمرو ويزيد وشرحبيل ، والروم اشتركت بأجنادها جند قيسارية وجند غزة والجند الذى جهزه هرقل بقيادة ثيودور .

انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص ١٢٦ ، الطبرى ، الرسل، ج٣ ، ص ٤١٧ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص ٥٤ — ٥٥ ، النويرى، نهاية الارب ، ج١٩ ، ص ١٢٠ ، طه الهاشمى ، اجنادين ، ص ٨٦ — ٩٨ . اسد رستم ، الروم ج١ ، ص ٢٤١ ، فتحى عثمان ، الحدود ، ج١ ، ص ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

Lebeau, Histoire, T. XI. P. 210, Cam. Med. Hist. Vol. II., P. 341.

(١) الطبرى ، الرسل ، ج٣ ، ص ٤١٧ — ٤١٨ ، طه الهاشمى ، اجنادين ، ص ١٠٠ ، عمر اليافعى ، الفتوح العربية ، ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، ج١ ، ص ٨٨ — ٨٩ الازدى ، فتوح الشام ، ص ٨٤ — ٨٩ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر : الواقدى . فتوح الشام ، ج١ ، ص ٧٧ — ١٢٧ ، الازدى فتوح ، ص ٩٠ — ٩٢ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٥ — ١٣٦ ، الطبرى الرسل ، ج٣ ، ص ٤١٧ — ٤١٩ ، سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ج٢ ، ص ١١ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ١٣٤ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٥٤ ٥٥ .

=

وعاد ثيــودور على رأس الجيش البيزنطى المنهــزم الى شقيقه الأمبراطور هرقل ، يجر آذيال الخيبة والعــار فما كان من هرقل الا أن أرسله الى القسطنطينية ، ويرجع البطريرك نيقفوروس Nicephorus ذلك الى أنه بلغ هرقل عن طريق الوشاية أن أخاه ثيودور يسبه ويشتمه بسبب زوجته مارتينا ، لذلك أرسله هرقل الى القسطنطينية ومعه رسالة الى ابنه قسطنطين يأمره فيها بادانة ثيودور علنا ، وبالتحفظ عليه ، وأمر هرقل قسطنطين كذلك بأن يعين ثيودور أمين الخــــزانة والذى يدعى بتريثوريوس Trithurius قائد للشرق بدلا من سرجيوس الذى توفى (١) .

ويختلف المؤرخون حول تاريخ وقوع معركة أجنـــادين ، اذ يذكر بعضهم أنها وقعت فى عام ١٣هـ/٦٣٤م ومن هؤلاء الواقدى ، والازدى ، واليعقوبى ، وابن عساكر ، والذهبى ، وسعيد بن بطريق (٢) ويذكر البعض الآخر أنها وقعت فى عام ١٥هـ/٦٣٦م ، وعلى رأس هؤلاء الطبرى ، ومن الغريب أنه أورد معركة أجنادين كذلك ضمن حوادث عام ١٣هـ/٦٣٤م(٣). غير أن السياق التاريخى يقتضى — كما يذكر النويرى (٤)— أن تكون معركة أجنادين التى نشبت فى جنوبى فلسطين سنة ١٣ هـ/٦٣٤م ، مقدمة على معركة اليرموك التى حدثت فى ١٥هـ/٦٣٦م ، فالمبادىء الحربية تتطلب من الجيوش الاسلامية أن تتقدم من الجنوب نحو الشمال ، وأن تسعى فى زحفها على خطوط مواصلاتها بجزيرة العرب ، لأن المدد يأتى اليها منها ،

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 517., Michel, le Syrien, T. II, P. 418., Lebeau Histoire, T. XI, PP. 205-206.
زاكية رشدى ، ميخائيل السريانى ، ص ١١٥ — ١١٦ .
Nicephorus, Brevairium, in C.S.H.B., P., 26.

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ١ ، ص ١٢٧ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ٩٣ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٦ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى جـ٢ ، ص ١٣٤ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م ١ ، ص ٤٧٨ — ٤٨٤ ، الذهبى تاريخ الاسلام ، جـ٣ ، ص ٥٥ ، سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ١١ وانظر أيضا :
Lebeau, Histoire, T. XI., P. 211., Cam. Med. Hist, Vol. II, P. 341.

(٣) الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٦٠٥ — ٦٠٦ ، ٤١٧ — ٤١٨ .

(٤) النويرى ، نهاية الارب ، جـ١٩ ، ص ١٢٠ .

ولأنها سوف تلجأ اليها حين الشدة ، واذا كانت الجيوش العربية قد تقدمت على ثلاث طرق متوازية الى حد ما ، فكان ينبغى لها أن تتقــدم فى حذر وحيطة كلما اتجهت نحو الشمال ، كما ينبغى عليها أن تسعى الى أن تبقى خطوط مواصلاتها بجزيرة العرب آمنة لضمان وصــول النجدات اليهــا والالتجاء اليها عند الضرورة ، كما أن نشوب معركة أجنادين قبل نشوب معركــة اليرمــوك يجعــل ســير التحــركات العــربية فى بــــلاد الشـــام أنسب من الناحية العسكرية • ولمــا كانت فلسطين هى الهدف الاقصى لم يكن بد من أن تقع أول المعارك فيها وبها بيت المقدس وبيت لحم اللتان يقدسهما البيزنطيون ، كما كان للبيزنطيين بها مقر للقيــادة العسكرية بقيسارية[١] • وليس أدل على وقوع أجنادين قبل اليرموك مما ذكره البلاذرى بعد أن انتهى من روايته عن أجنادين بقوله : « ثم جمعت الروم جمعا بالياقوصة • فلقيهم المسلمون هناك فكشفوهم وهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، ولحق فلهم بمدن الشام »[٢] •

وكان لمعــركة أجنـــادين وهزيمة البيزنطيين أثر سىء للغاية على الامبراطور هرقل اذ يذكر البلاذرى أن هرقل لما أتاه خبر هذه الواقعة « نخب قلبه وسقط فى يده وملىء رعبا »[٣] • ولعــل ذلك يرجع الى أن فلسطين أصبحت بعد أجنادين مفتوحة أمام المسلمين ، وأمست ميــدانا حرا لاعمالهم العسكرية ، وعمتها الفوضى وغشيها المسلمون ، وأصبح من السهل عليهم أن يفتحوا مدنها الحصينة والتى تفتقر الى التحصين • ويستدل على ذلك من تلك الموعظة التى ألقاها صفرونيوس بطريرك بيت المقدس فى عيد الميلاد فى ذى القعدة ١٣ هـ ديسمبر ٦٣٤م اذ قال : « ان المسيحيين أصبحوا لا يستطيعون الحج الى بيت لحم لأن بلاد فلسطين

---

(١) طه الهاشمى ، اجنادين ، ص ٨١ — ٨٤ ، فتحى عثمان ، الحدود ، جا ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧ •

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٦ .

(٣) البلاذرى فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٦ .

أصبحت فى قبضة العرب » (١) • وعلى هذا تعتبر أجنادين البداية الحقيقية لانتصار المسلمين ، اذ أن الانتصار فيها قوى عزيمتهم ، وأزال رهبة البيزنطيين من نفوسهم •

اتخذ البيزنطيون بعد هزيمتهم فى أجنادين ما وراء مستنقعات بيسان بالاردن مركزا لهم ، وعندما نزلوا بيسان قطعوا سدود المياه بها ليعرقلوا تحركات المسلمين ، فلما نزلها المسلمون لم يعلموا ما صنع البيزنطيون فوحلت خيولهم ، ولقوا فيها عناء ، ثم التقوا بالبيزنطيين عند فحل (٢) فى ذى القعدة ١٣هـ/يناير ٦٣٥م وقاتلوهم حتى انتصروا عليهم ، ويبدو أن المسلمين طاردوهم حتى الاوحال ، التى كانوا قد أعدوها ككمين أو مكيدة للمسلمين ، وبذلك كان الوحل عونا لهم على عدوهم (٣) وسمى المسلمون هذه الغزوة بذات الردغة (٤) وفحل وبيسان (٥) •

تابع المسلمون سيرهم نحو دمشق ، وفى أول المحرم ١٤هـ/٢٥ فبراير ٦٣٥م سجلوا نصرا آخر على البيزنطيين فى مرج الصفر — على بعد ثلاثين ك•م جنوب دمشق ، وولى الروم منهزمين لا يلوون على شىء (٦) •

---

(١) عن تلك الموعظة وما جاء فيها انظر :
طه الهاشمى ، اجنادين ، ص ٧٧ — ٧٨ ، اسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص ٢٤١ ، عصام عبد الرؤف ، الخواضر الاسلامية ص ١٧ .
Cam. Med. Hist. Vol. II, P. 341.

(٢) فحل ، موضع بالشام ، وهو مكان حصل له أهمية جغرافية وهو يقع الى الجنوب الشرقى من بحيرة طبرية ، ويهيمن على معبر الاردن ، كما يقع فى الطريق الى دمشق . انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٦ ، ص ٣٤٠ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ١١١ ، حاشية ١ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٥٩ ، أسد رستم ، الروم ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ ، فتحى عثمان الحدود ، جـ١ ، ص ٣١١ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٣٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٨٠ — ١٨١ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ٩ ، ص ١٥٩ — ١٦٠

(٤) ذات الردغة ، الردغة الوحل الشديد ، انظر الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٤٣٥ حاشية ١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٧٩ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٥٩ .

(٦) البلاذرى ، فتوح البدان ، ق ١ ص ١٤١ .
وانظر ايضا : جمال سرور ، الحياة السياسية ، ص ٤٣ ، أسد رستم ، الروم جـ١ ، ص ٢٤٣ .
Cam. Med. Hist. Vol. II, P. 341.

ومهدت الانتصارات التى أحرزها المسلمون فى الاردن الطريق الى دمشق فتحركت الجيوش الاسلامية وحاصرتها من جميع أبوابها ، اذ نزل عليها خالد بن الوليد من الباب الشرقى ، وأبو عبيدة بن الجراح من باب الجابية ويزيد بن أبى سفيان من الباب الصغير ، وعمرو بن العاص من باب توما وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس[1] وبذلك أحاط المسلمون مدينة دمشق من كل جانب ، وكثروا حولها وحاصروها حصارا شديدا[2].

غير أن المسلمين عندما اقتربوا من المدينة رماهم أهلها بالحجارة ورشقوهم من فوق البيوت بالنشاب ، وقام حاكم المدينة بتوزيع رجاله على أبواب المدينة ، فجعل فرقة منهم على باب الجابية وأخرى على الباب الشرقى وثالثة على باب الفراديس ، وصارت كل فرقة الى الجهة التى عهد بها اليها ، وقاتلهم الأمراء المسلمون كل من الباب الذى ينزل عليه ، وعجز حاكم دمشق ورجاله أمام المسلمين ، وقرر أن يكتب لهرقل ليبعث له بالمدد والمساعدة[3] .

شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق وضيقوا عليهم[4] وفى نفس

---

(١) سمى الباب الشرقى بذلك لوقوعه فى شرق المدينة ، وشيد هذا الباب أيام الرومان فى مستهل القرن ٣ م ، أما باب الجابية فيقع غرب دمشق ، وسمى بذلك نسبة الى قرية الجابية ، أما الباب الصغير فسمى بذلك لأنه أصغر أبواب دمشق ويقع جنوبها ، وينسب باب توما الى توما حاكم دمشق ويقع هذا الباب شمال دمشق ، أما باب الفراديس ، فيقع فى شمال دمشق وينسب الى قرية تسمى الفراديس . انظر عصام عبد الرؤف ، الحواضر الاسلامية الكبرى ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، جا ، ص ١٣٢ — ١٣٥ ، الازدى ، فتوح الشام، ص ٩٤ ، ٩٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٤٤ . سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ج٢ ، ص ١٥ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م ١ ، ص ٥٠١ — ٥٠٢ .

(٣) عن نص كتاب حاكم دمشق الى هرقل انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، جا ، ص ١٥٦ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٠٦ .

(٤) اختلف المؤرخون حول مدة حصار المسلمين لدمشق ، فذكر الطبرى انها نحوا من سبعين ليلة ، وذكر سعيد بن بطريق انها كانت ستة أشهر الا يوما وذكر كل من الذهبى وابن عساكر أن مدة الحصار كانت أربعة أشهر . انظر الطبرى الرسل ، ج٣ ، ص ٤٣٨ ، سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ج٢ ، ص ٢١٥ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج٣ ، ص ٧٧ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق م ١ ، ص ٤٤٩ — ٥٠١ .

الوقت أبطأ هرقل عليهم فى ارسال الامدادات ، وحاول حاكم دمشق أن يكسب وقتا بمماطلة المسلمين ومراوغتهم ، خاصة وأنه قد بلغه أن هرقل يجمع الجيوش لقتال المسلمين ، ولما طال انتظاره ، واشتد الحصار بأهل المدينة ، قرر فى النهاية مصالحة المسلمين (١) • وخرج وفد من أهل دمشق الى أبى عبيدة ، وتحدثوا معه فى أمر الصلح ، فصالحهم أبو عبيدة وفتحوا له باب الجابية ، ودخل المدينة منه ، وكتب لهم كتاب عهد وأمان(٢) • وفى نفس الوقت شدد خالد بن الوليد الحصار على أهل دمشق من البـــاب الشرقى ، وفتحه عنوة وبحيلة(٣) ، وطلب من أبى عبيدة أن يقتل أهلهـــا ويسبيهم ، لأنه فتحها عنوة ، غير أن أبا عبيدة أبى ذلك لانه قد أمنهم • واضطر أهل دمشق الى الخروج من المدينة نجاة بأموالهم وبأنفسهم غير أن خالد تعقبهم ، والتقى بهم فى مرج الديبا ج، وقتل حاكم المدينة ، وأسر زوجته وقفل راجعا(٤) • هذا ويقال أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق ، وكتب لهم كتابا باسمه أورد نصه كل من البلاذرى وسعيد بن بطريق(٥)•

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام جا ، ص ١٥٦ — ١٥٧ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ٩٨ ، ١٠٦ •

(٢) عن كتاب ابى عبيدة بالصلح مع أهل دمشق انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، ص ١٥٨ — ١٥٩ ، ابن عساكر ، مدينة دمشق ، م ١ ، ص ٥٠٤ — ٥٠٦ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٢٦٥ •

(٣) عن هذه الحيلة انظر : الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٤٣٨ — ٤٤٠ وانظر أيضا : ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٨٠ ، الذهبى ، تاريـــخ الاسلام ، جـ٣ ، ص ٧٨ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٥٥ •

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ١ ، ص ١٥٨ — ١٦٠ ، ١٧٥ — ١٩٠ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٠٤ — ١٠٥ •

(٥) عن كتاب خالد الى أهل دمشق انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٤٤ ، سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ص ١٥ •
وانظر أيضا : الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٤٣٥ •
ابن عساكر ، مدينة دمشق ، م ١ ، ص ٥٠٧ — ٥١١ ، محمد حميـــد الله ، الوثائق السياسية ص ٢٦٤ •

تم فتح مدينة دمشق فى عام ١٤هـ/٦٣٥م ، هذا وان كان الواقدى قد انفرد بذكر أن الفتح تم فى عام ١٣هـ(١) • ووصل فى ذلك الوقت بعـد اتمام الفتح الجيش الذى أعده الامبراطور هرقل فى انطاكية مددا لاهل دمشق ، فلما قدم هذا الجيش الى بعلبك ، علم أفراده بأن دمشق فتحت وصالح أهلها المسلمين ، فاعظموا ذلك ، وكتبوا الى هرقل يخبرونه بمكانهم وبخبر فتح دمشق • وما أن طارت أنباء هذا الجيش الى المسلمين حتى أمر أبو عبيدة خالد بن الوليد بمواجهة هذا الجيش النازل فى بعلبك ، وفى نفس الوقت أرسل أبو عبيدة عمرو بن العاص الى الاردن وفلسـطين ، وأمره بألا يقترب من المدن والحصون ، وأن يغير على الاطراف أى القرى ، وأن يصالح من يصالحوه(٢) •

وعندما وصل خالد بن الوليد الى بعلبك ، علم بأن الجيش البيزنطى غادر المدينة ، فأغار خالد على نواحى بعلبك ، وقتل من أدركه من رجال هذا الجيش وسبى ، وساق معه الاغنام والمتاع ، ثم عاد الى ابى عبيـدة وأخبره بما علم ، فترك أبو عبيدة خالد بن الوليد على دمشق ، وسـار هو الى حمص وشدد الحصار عليها فصالحه أهلها وكتب لهم كتاب أمان ، وعندئذ فتحوا له أبواب المدينة(٣) •

بدأ هرقل يحس بالقلق وخاصة بعد أن أذعنت دمشق وفتحت أبوابها للمسلمين ١٤هـ/٦٣٥م وهالته انتصارات المسلمين المتوالية ، وعندئذ هرع الى اعداد جيش جرار ، واستجاش الجند من كل شعوب الامبراطورية من

---

(١) عن هذه الحيلة انظر :
الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٤٣٥ ، الازدى ، فتـوح الشـام ، ص ١٠٦ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠ .
(٢) الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٣) الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٠٨ — ١١٤ ، ص ١٤٤ — ١٤٦ .

روم وصقالبة وأرمن وعرب مسيحيين وغيرهم (١) • وبذلك أتيح لهرقل أن يجمع جموعا كثيرة من الشام ومن الجزيرة وأرمينية ومن كافة أرجاء الامبراطورية البيزنطية وأعد جيشا جرارا لقتال المسلمين • وكان على رأس هذا الجيش اثنان من القادة هما ثيودور تريثوريوس Theodorus Trithurius (٢) الــذى جعله هرقل قائدا للشرق بدلا من سرجيــوس Sergius الذى توفى ، وتألف جيش ثيوذور من أخلاط من الجنــود ، أما القائد الثانى فهو باهان أوفاهان Baanes, Vahan (٣) وكان جيشــه يتألف من عساكر أرمينية ، وفى طليعة جيشه كان جبلة بن الايهم الغسانى فى مستعربة الشام من لخم وجذام وعاملة وغيرهم • اجتمع القــائدان ثيودور وباهان فى حمص ، ثم شرعا فى الاتجاه نحو دمشق (٤) •

وما أن علم أبو عبيدة باقتراب الجيش البيزنطى ، حتى استشار أصحابه وذوى الرأى من رجاله ، فانتهى الرأى بينهم الى أن يتركوا حمص ويلحقوا بخالد فى دمشق ، بل أنهم أعادوا الى أهل حمص ما أخذوه من

---

(١) الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٥٢ ، وانظر ايضا البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠ •

(٢) اختلط الأمر على بعض المؤرخين ، فاعتبروا أن ثيودور هذا هو ثيودور شقيق الامبراطور هرقل ، هذا فى حين ان الاخير كان قد غادر بلاد الشام الى القسطنطينية بعد هزيمته فى اجنادين ، انظر ما سبق ص ٣٦٦ •

(٣) باهان او فاهان ارمنى الجنسية ، وقيل فارسى ، وذكر البعض انه رومى ، اذ يذكر ابن عساكر باهان الرومى ابن الرومية ، وكان من أهل الراى والتدبير والشجاعة والاقدام ، ورحل الى الأراضى الامبراطورية اثناء الاضطرابات التى اجتاحت بلاده •

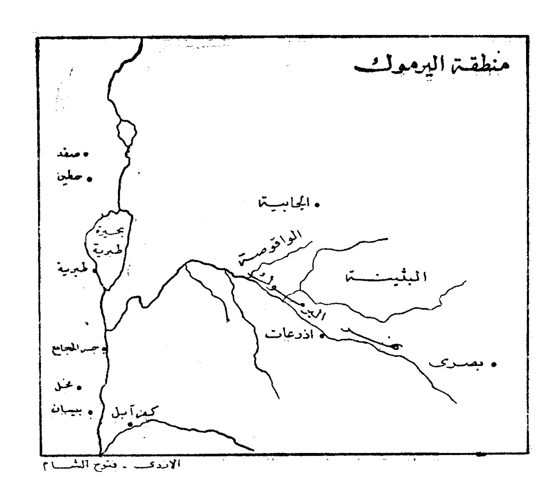
انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ١١٣ — ١١٥ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٣ ، ص ٨٦ ، ابن عســاكر ، مدينــة دمشق ، م ١ ، ص ٤٦١ •

Lebeau, Histoire, T. XI, PP. 207-208.

(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ — ١٧١ ،

Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 26., Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 516-71.

البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠ •



الاردى - فتوح الشام

مال الخراج بحجة أنه ليس فى مقدورهم الذود والدفاع عنهم[١] • ووصل أبو عبيدة الى دمشق ، وانضم الى جيش خالد بن الوليد ، ورد كذلك الى أهل دمشق ما أخذه المسلمون منهم[٢] •

وبينما خالد وأبو عبيدة فى دمشق ، جاءهما كتاب من عمرو بن العاص يخبرهما فيه بأن أهل الاردن ، الذين صالحهم المسلمون نقضوا العهد ، عندما علموا بأن الروم أقبلت الى الشام بقضها وقضيضها ، وجرأهم على ذلك أن المسلمين تركوا لهم الارض وانصرفوا عنها[٣] • وأمام اقتراب الجيش البيزنطى الجرار وأمام تمرد أهل الاردن ، قرر قادة المسلمين عقد مؤتمر تبادلوا فيه الرأى ، ودرسوا الموقف دراسة دقيقة ، واتفقوا على أن بقاءهم متفرقين متباعدين سوف يسهل على البيزنطيين تدميرهم ، ولذلك فلابد من تجمعهم فى نقطة واحدة وتحت قيـادة واحدة ، وليكون مكان التجمع فى اليرموك [٤] • لأنه من هناك يسهل عليهم الحصول على المدد من الخليفة ، وسواء كان خالد بن الوليد هو صاحب فكرة التجمع والتحشد فى اليرموك أم هو عمرو بن العاص [٥] ، فانهم اتفقوا على أن يرسـلوا

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٦٠

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر الازدى ، فتوح الشام ، ص ١٨٠ وما يليها .

(٤) اليرموك ، نهر اليرموك هو الفرع الشرقى لنهر الأردن ، وينبع من مرتفعات حوران ويصب فى نهر الاردن ويلتقى به على بعد خمسة الى ستة كيلو مترات جنوبى بحيرة طبرية . وقبل التقائه بالاردن بثلاثين ميلا يسير النهر على شكل قوس وعند مدخل القوس النهرى تقع الواقوصة .

وانظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م ٨ ، ص ٥٠٤ .

وانظر ايضا ، اومان ، الامبراطورية البيزنطية . ص ١٢٧ ، العدوى الامبراطورية ، ص ٤١ ، حاشية ١ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ عمرو بن العاص ، ص ٤٦ ، حاشية ١ .

(٥) ذكر الواقدى ان ابا عبيدة استشار خالد بن الوليد فأشار عليه بأن ينزل اليرموك حتى يسهل على أمير المؤمنين أن يرسل لهم المدد متلاحقا . هذا فى حين ذكر الطبرى أن المسلمين استشاروا عمرو بن العاص ، فأشار عليهم بالتجمع فى اليرموك قائلا : « ان الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا اذا اجتمع لا يغلب من قلة » . انظر الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ١١٩ ، وانظر ايضا ابن الأثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ٢١٧ ، الطبرى ، الرسل ، جـ٣ ، ص ٣٩٢ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١١٧ .

للخليفة يطلبون موافقته على قرار التجمع فى اليرموك وأن يطلبوا منه ارسال الامدادات اليهم لتساعدهم على مواجهة حشود البيزنطيين (١) .

رحب الخليفة بقرار القادة ، وطلب منهم التجمع ليصبحوا عسكرا واحدا قائلا لهم : « اجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » (٢) . وبوصول موافقة الخليفة سارع القادة المسلمون الى اليرموك ، وعسكروا جنوبى اليرموك ، فعسكر أبو عبيدة بجوار عسكر عمرو ابن العاص ،وعسكر شرحبيل مجاور العسكر يزيد بن أبى سفيان ، وعسكر خالد بن الوليد الى جوارهم (٣). وعندما علم البيزنطيون بتجمع الجيوش العربية جنوبى اليرموك ، قرروا توجيه جيوشهم كافة نحو اليرموك على أن تتجمع فى شمال النهر ، وما ان وقعت اعين المسلمين على جيش الروم حتى اعتراهم القلق والاضطراب وتغيرات ألوانهم (٤) .

وبعد أن استقر الجيش البيزنطى فى معسكره فى المنطقة الواقعة بين نهر الاردن ووادى الرقاد قام باهان القائد العام للجيش بتقسيم الجيش الى قلب وميمنة وميسرة ، وجعل ميسرة الجيش قرب فتحة الواقوصة ، وأمر بحفر الخنادق أمام الموضع ، وربط الجنود المشاة — الذين عهد اليهم بالبقاء فى خنادقهم — أنفسهم بالسلاسل لمنع مرور المسلمين من بينهم ، ولمنع الجنود من الفرار ، وتذكر المصادر العربية أن الروم كانوا قد سلسلوا أنفسهم الخمسة أو الستة فى سلسلة حتى لا يطمعوا أنفسهم فى الهرب (٥) .

وأرسل المسلمون عيونهم لاستطلاع المنطقة التى استقر فيها الجيش البيزنطى ، فوجدوا أن البيزنطيين حصروا أنفسهم فى منطقة ليس

---

(١) الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(٢) الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(٣) الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ .
(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ٢ ، ص ١٢١ .
(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ٣٩٤ الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٣ ، ص ٨٦ .

لها سوى منفذ واحد ، وعندئذ قال عمرو : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير » (١) • وعندئذ فطن خالد بن الوليد الى ضعف موقف الجيش البيزنطى المعسكر الى الشمال من نهر اليرموك ، خاصة أن النهر كان يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة تقريبا ويحيط بسهل متسع يصلح لأن يعسكر به جيش كبير ، ولكن هذا السهل ليس له سوى باب واحد من الجنوب ، أما بقية مدخله فمغلق بخندق طبيعى وهو وادى الرقاد ، وهذه البقعة تسمى الواقوصة ، ولذلك ذكر الطبرى « أن مقتل الروم كان واسع المطرد ضيق المهرب » (٢) •

وعلى هذا الاساس قام خالد فعبأ الجيش ورتبه على أساس استغلال ضعف الموقف البيزنطى ، فقسم الجيش الى كراديس أو كتائب (٣) ، وذلك ليشعر البيزنطيين بكثرة عدده ، وبلغ عدد تلك الكراديس ما بين ستة وثلاثين وأربعين كردوسا ، ثم جعله قلبا وميمنة وميسرة ، وجعل أبو عبيدة فى القلب ، وعمرو بن العاص على الميمنة ومعه شرحبيل بن حسنة ، وجعل يزيد بن أبى سفيان على الميسرة ، ووضع خالد الطلائع فى الامام مشكلا منها حجابا لجيش المسلمين (٤) •

وكان اللقاء الاول مع طليعة جيش باهان المؤلفة من العرب المسيحيين وهم من سادة غسان ولخم وجذام ، وعلى رأسهم جبلة بن الايهم فهزمهم خالد بن الوليد وقتل الكثيرين منهم (٥) • وقتل المسلمون من كان بجانبهم

---

(١) الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٣ .

(٢) الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ .

(٣) الكراديس ، ومفردها كردوس ، وهو القطعة العظيمة من الخيل ، ويقال كردوس القائد خيله ، والمقصود أنه جعل الجيش على شكل كتائب .
انظر : الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٦ ، حاشية ٤ .
النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ١٩ ، ص ١٢١ ، حاشية ٣ .

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر : الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٦ — ٣٩٧ ، ابن الاثير الكامل جـ ٢ ، ص ١٧٢ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ — ١٤٠ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٤ .

من البيزنطيين ، وحاول باهان بعد ذلك التفاوض مع المسلمين فبعث الى أبى عبيدة يطلب منه أن يرسل له خالد بن الوليد للتفاوض معه ، غير أن المفاوضات باءت بالفشل ، واستعد البيزنطيون لقتال المسلمين (١) •

جمع باهان قادة الروم ليتشاور معهم في أمر القتال ، وكتب في نفس الوقت كتابا يخبره فيه بما حدث ، وخلال انتظاره لرد هرقل عبأ الجيش وجهزه للزحف على المسلمين • وشرع خالد بن الوليد في ذلك الوقت في تنفيذ خطته ، فأرسل ميمنة المسلمين وعلى رأسها عمرو بن العاص وكانت مهمتها سد المنفذ الوحيد الذى يمكن البيزنطيين من الانسحاب والخروج من حصن الواقوصة ، وأحكم بذلك حصار الروم ، وبدأت خيلهم تجنح للفرار ، وعندئذ أفسح لها المسلمون فتشتت في الصحراء (٢) • ويذكر الراهب الارمنى سيبيوس Sébeos أن الفرسان لاذوا بالفرار غير أن كثافة الرمال أعاقت حركتهم اذ كانت الرمال تصل حتى ركبة الفرس ، ولهذا تعقبهم المسلمون ، وأصبح من السهل عليهم أن يقتلوهم بالسيف ، وهكذا سقط الفرسان والضباط البيزنطيون (٣) •

وكانت الخطوة التالية أن يقتحم المسلمون على مشاة الروم خنادقهم وأرسل خالد قائدى الكردوسين الايمن والايسر للقلب ، وعهد اليهما بشن الهجوم على المشاة في الخنادق ليجبرونهم على الخروج منها ، ثم يتظاهران بالانسحاب لاغراء أكبر عدد منهم بالخروج من الخنادق واستدراجهم الى المكان الملائم للقتال والاجهاز عليهم • ونجح القائدان في أداء مهمتهما اذ أصدر القائد البيزنطى أوامره للجيش بالخروج من الخنادق والزحف على الجيش العربى المتقهقر وتدميره ، وترك الجيش البيزنطى خنادقه ،

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر : الإزدي ، فتوح الشام ، ص ١٩٥ — ٢١٢ ، ومن الجدير بالذكر أن المصادر البيزنطية لم تذكر شيئا عن هذا اللقاء .

(٢) عن كتاب باهان لهرقل انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ١٨٣ — ١٨٤ . وانظر ايضا : الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ .

(٣) Sebeos, Histoire d'Heraclius, PP. 97-98.

وبدأ فى الهجـــوم ، فكر عليهم المسلمون ، وطاردوهم فى كل مكان حتى عمدوا الى الواقوصة ، وأخذوا يتساقطون فيها ، وهبت فى ذلك اليوم ريح عاتية فى وجه البيزنطيين ، واندفع الغبار متعاليا فى الفضاء ، ولذلك صعبت عليهم الرؤية ، وأخذوا يتساقطون دون أن يعلم آخرهم ما يلقى أولهم ، وعندما انكشف الغبار ، اتجهوا وجهة أخرى ، وقتل المسلمون منهم فى المعركة الكثيرين (١) • وليس أدل على كثرة عدد القتلى فى اليرموك بمـــا ذكره محبوب المنبجى من أن هؤلاء القتلى أصبحوا جسرا يمكن العبور من عليه (٢) •

وعلى هذا النحو منى الجيش البيزنطى بهزيمـــة فادحة ، فتشتت فرسانه فى الصحراء ، وسقط معظم جنوده قتلى فى قاع النهر ، ومن هؤلاء أصحاب السلاسل فقد تحطمت سلاسلهم ووطئتهم الخيل ، وسقط كل منهم بمن معه فى سلسلة فى قاع النهر قتلى (٣) • وأحرز المسلمون انتصارا تاما فقد قتل ثيودور Sacellarus فى الميدان هو ورجاله كذلك (٤) •

وقامت النساء بدور هام فى المعركة ، فقامت باعداد الطعام للمقاتلين ومداواة الجرحى ، وصد الهاربين من المعـــركة واعادتهم الى ســـاحات القتال ، وكن يبعثن الحماسة فى نفوس المسلمين • وأكثر من ذلك اشتركت

(١) أنظر : الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 517-18.

Cam. Med. Hist. Vol. II, P. 344.

الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ .

النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٢٣ .

(٢) محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، منشور فى P.O.T., VIII, P. 453.

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر : الطبرى ، الرسل جـ ٣ ، ص ٤٠٠ ، الواقدى فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ — ٢٢١ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٢٣ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن مقتل باهان أنظر الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ . هذا ويذكر المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس ان جنود باهان أعلنوه امبراطورا ونبذوا هرقل ولم يذكر انه قتل .

أنظر : Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 548.

النساء فى القتال مع الرجال لصد هجمات العدو ، فقاتلت النساء يوم اليرموك قتالا شديدا ، وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان تقول : « عضدوا العلفان بسيوفكم » ، وخرجت جويرية ابنة أبى سفيان فى جولة ، وكانت مع زوجها وأصيبت بعد قتال شديد (١) .

وبعد هذا الانتصار الذى حققه المسلمون فى معركة اليرموك ١٥هـ/٦٣٦م(٢)،اتجهوا نحو دمشق حيث أقاموا على أبوابها للراحة من عناء الجهاد ومن دمشق كتب أبو عبيدة بن الجراح الى عمر بن الخطاب كتاب الفتح والبشارة ، وقص له ما جرى فى اليرموك ، وبعث بهذا الكتاب ، بعد أن ختمه بخاتمه مع حذيفة بن اليمان (٣) .

علم الامبراطور هرقل بهزيمة الجيش البيزنطى فى معركة اليرموك ، وذلك من أحد المنهزمين الفارين وحين سأله هرقل عن قائد الجيش باهان ذكر له أنه قتل ، وأخبره بأسماء عدد من الامراء والقادة والفرسان الذين قتلوا فى الميدان ، وعندئذ أمر هرقل بضرب عنق هذا الرسول الذى أعلن له نبأ هزيمة جيشه ومقتل صناديد الروم وفرسانهم (٤) . وكان هرقل فى حمص فرحل عنها ، وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميرا (٥) ، وقيل بل كان هرقل فى انطاكية حينما علم بالهزيمة التى حلت بقادته وبجيشه فى اليرموك ، واستبد به اليأس ، وبعد أن أدى قداس الرحمة فى كاتدرائية

---

(١) الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٢٩ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٠ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٤٠١ .
وانظر ايضا : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٢) هذا ويذكر الطبرى انها حدثت فى عام ١٣ هـ/٦٣٤م ، وانظر ايضا حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ٦٩ — ٧٠ ، وانظر ما سبق عند الحديث عن تاريخ وقوع معركة اجنادين .

(٣) انظر نص هذا الكتاب فى : الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٤) الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(٥) الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٤٠٣ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٢٣ .

انطاكية هرع الى البحر واستقل سفينته الى القسطنطينية (١) . وهناك رأى ثالث يذكر بأن هرقل انما كان فى الرها وسار منها الى سميساط ثم منها الى القسطنطينية (٢) . وعلى أية حال عندما خرج هرقل من أرض الشام ، وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه وقال عباراته المشهورة فى وداع سوريا « السلام عليك يا سورية ، سلام مودع ، لا يرى أنه يرجع اليك أبدا » (٣) .

ومما لاشك فيه أن هتاف هرقل هذا فى وداع سوريا وبلاد الشام كان ينبع من أعماق قلبه ، وكان يحمل بين طياته مرارة وأسى ، وكان هتافا لا جدوى من ورائه ، ولكنه كان ينعى به تلك السنوات الطوال التى قضاها من حياته فى شقاء وجهد وعناء من أجل استرداد تلك البلاد من يد الفرس (٤) .

وعلى هذا النحو تعتبر معركة اليرموك والانتصار الذى أحرزه المسلمون فيها نقطة تحول هامة فى حركة الفتوحات الاسلامية ، اذ قررت هذه المعركة مصير الشام وكان النبى صلى الله عليه وسلم أول من أدرك

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٢ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٠٢ .

Michel Le Syrien, T. II, P. 424.

(٢) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٦٤ .

(٣) ورد هذا الوداع بصيغ مختلفة منها ماجاء فى الطبرى ، جـ ٣ ، ص ٦٠٣ « عليك يا سورية . سلاما لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومى ابدا الا خائفا حتى يولد المولود المشئوم وياليته لا يولد : ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم ! وذكر البلاذرى ، ق ١ ، ص ١٦٢ : « عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو » . اما الازدى فقد أورد النص الذى جاء فى المتن ، ص ٢٣٦ .

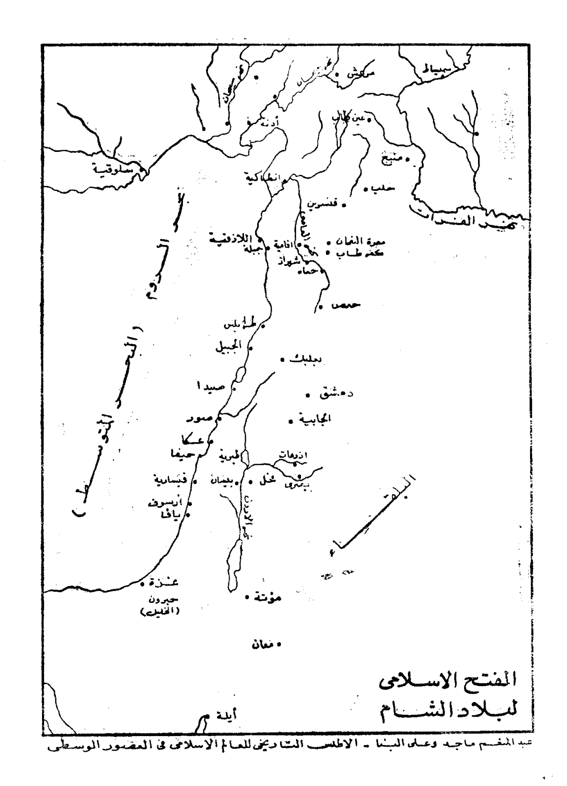
وذكر ميخائيل السريانى وابن العبرى ان هرقل قال فى وداع سورية : (سوزو سورية Sôzou Syria أى لتحيى فى سلام ياسوريا) .

زاكية رشدى ، ميخائيل السريانى ، ص ١٢٠ .

Michel Le Syrien, T. II, P. 424.,

(٤) Bar Hebreaus, The Chronography, first part, P. 95.

Finlay, History of Greece, I. P. 350.



عبد المنعم ماجد وعلى البنا - الاطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصور الوسطى

أهمية هذا الاقليم للمسلمين حينما وجه أنظاره نحوه منذ البداية ، وحرص على منع الاعداء من السيطرة عليه ، وشرع خليفتاه أبو بكر وعمر من بعده في اتمام ما شرع هو في القيام به ونجح كلاهما في بلوغ الهدف (١) .

وبعد معركة اليرموك عاد قادة المسلمين الى المنـــاطق التى كانوا يعسكرون فيها قبل المعركة ، فاتجه عمرو بن العاص نحو فلسطين ليتم فتحها ، واتجه شرحبيل به حسنة الى الاردن ، وفتح عكا وصور ، وأخذ يزيد بن أبى سفيان يغزو مدن الشام الغربية والساحلية ، فاســـتولى على صيدا وجبيل وبيروت وفتحها فتحا يسيرا (٢) . أما أبو عبيدة فتقدم شمالا وبصحبته خالد بن الوليد لاستعادة المدن التى سبق أن اســـتولى عليها المسلمون ، واضطروا الى الجلاء عنها لقتال البيزنطيين في اليرموك ، وعلى رأس هذه المدن مدينة دمشق التى آلت الى البيزنطيين ، ولكنهم لم يهنأوا بها طويلا ، اذ استعادها المسلمون ، ويذكر ثيوفانيس Theophanis أنهم هاجموا دمشق بجيش حســـن التنظيم ، واحتلوها وأقاموا بهـــا ١٥هـ/٦٣٦م(٣) .

ولما فرغ أبو عبيدة وخالد من أمر دمشق ، سار أبو عبيدة الى حمص ١٥هـ/٦٣٦م فوجدها قد تحصنت . فترك خالد بن الوليد على حصارها ، وتوجه الى بعلبك ، فطلب أهلها الصلح والامان فصالحهم ، وآمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك(٤)أما حمص فقد نزل بها خالد

---

(١) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤١ ، السيد عبد العزيز سالم ، البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص ١٣ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى ، ص ٢٥ .

Cam. Med. Hist., Vol. II. P. 344.

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٠ .

(٣) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 518.

وانظر ايضا : جمال سرور ، الحياة السياسية ، ص ٤٥ — ٤٦ .

Cam. Med. Hist. Vol. II, P. 344.

(٤) عن فتح بعلبك انظر الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٦٣ — ٩٣ واورد البلاذرى نص كتاب الامان ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

ابن الوليد كما ذكرنا ، وقاتل أهلها ، ويبدو أن المسلمين تعرضوا فى حصارها لبرد شديد ، ومع ذلك فقد شدد المسلمون الحصار عليها ، ونتيجة لذلك طلب أهل المدينة الصلح والامان ، فصالحهم المسلمون(١) •

ومضى أبو عبيدة الى حماة ، فاذعن له أهلها وصالحوه على الجزية على رؤوسهم والخراج على أرضهم ثم مضى الى شيزورضى اهلها بمارضى به أهل حماة ، وسار الى معرة النعمان (٢)فصالحه أهلها على مثل صلح أهل حمص (٣) • وفتح أبو عبيدة بعد ذلك حلب بلا مشقة وصالح أهلها ، وأعطائهم الامان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وحصنهم وكنائسهم(٤)• وسار أبو عبيدة من حلب الى انطاكية ،وصالحه أهلها بعد أنحاصرها(٥)• وجعل ثيوفانيس Theophanis فتح انطاكية فى سنة ٦١٢٩ = ٦٣٧م/١٦هـ ،وقد اتفق معه فى ذلك الذهبى • هذا فى حين ذكر الواقدى أن فتح أنطاكية تم فى سنة سبع عشرة من الهجرة (٦) • وعلى هذا النحو يتضح مدى السهولة التى تم بها للمسلمين فتح سائر مدن الشام اللهم الا

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٩٤ — ١١٠ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٥ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٥٩٩ — ٦٠١ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٩٨ .

(٢) كان تعرف بمعرة حمص ، ونسبت بعد ذلك الى النعمان بن بشير الانصارى .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٤٣ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٣ ، ص ٨٠ — ٨١ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ق ١ ص ١٧٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ :

(٥) لمزيد من التفاصيل عن فتح انطاكية انظر :

الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٣ ، ص ٩٥ — ١٣٣ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٦) الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٣ ، ص ١٠٠ .

Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 521.

الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ .

قنسرين التى فتحها المسلمون بعد جهد وعناء شديدين (١) •

ثم جاء دور بيت المقدس ، وأرسل أبو عبيدة اليها ستة من أمراء المسلمين وعلى رأسهم يزيد بن أبى سفيان • ونزل كل منهم على باب من أبواب المدينة وأقاموا عليها لمدة ثلاثة أيام ، وقام أهلها بتحصين أسوارهم بالمجانيق والعرادات وغيرها ، كما قاموا باصلاح استحكامات المدينة ، وعرض أمراء المسلمين على أهل المدينة شروطهم المعهودة الاسلام أو الجزية أو القتال ، فاختاروا الاخير ، وبعد عشرة أيام من القتال بين المسلمين وأهل المدينة ، وصل أبو عبيدة وخالد بن الوليد ومعهما بقية فرسان المسلمين ، وعندئذ وقع الرعب فى قلوب أهل المدينة ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا الوقوف فى وجه المسلمين ، وخاصة بعد أن اشتدت وطأة الحصار على المدينة ، وفر قائدها الارطبون ، وأيقنوا أنه لن يأتيهم المدد من قبل البيزنطيين ، خاصة بعد أن استولى المسلمون على أطراف الشام ومدنه الكبرى ، هذا فضلا عن نفاذ مؤنهم وقرب وقوع المجاعة ، مما يجعل المدينة لا تستطيع المقاومة بعد ذلك طويلا ، ولذلك رأى بطريركها صفرونيوس أنه ليس أمامه سوى الاستسلام فطلب من المسلمين الصلح والكف عن القتال • واشترط صفرونيوس أن يأتى الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه ليتسلم المدينة ، ويكتب لهم أمانا (٢) •

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن فتح قنسرين انظر :

الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٣٥ — ٦١ ، الطبرى ، الرسل، جـ ٣ ، ص ٦٠١ سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ ٢ ، ص ١٩ — ٢٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٢ ، ص ٢٠٩ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٩ الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

وانظر ايضا ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٢٤ حسن ابراهيم حسن عمرو بن العاص ، ص ٥٠ — ٥١ ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ١ ، ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

وكتب أبو عبيدة للخليفة عمر بن الخطاب بذلك [١] . وعندما وصله كتاب أبو عبيدة استشار أصحابه فى الامر ، وبعد مشورتهم ، قرر الذهاب الى ايلياء (بيت المقدس) وخرج معه أشراف الناس وبيوتات العــرب والمهاجرين والانصار[٢] ويصف لنا كل من الواقدى والازدى استقبال عمر ابن الخطاب فى مدينة بيت المقدس من قبل كل من المسلمين ، وبطريرك المدينة صفرونيوس وكيف خرج ذلك البطــريرك من كنيسته ومن حوله الرهبان والقساوسة والاساقفة ، حاملا بين يديه صليب عظيم ، وســـار معه والى المدينة لاستقبال الخليفة عمر وكيف فتح أهل المدينة الابواب ، وخرجوا منها الى الخليفة يسألونه العهد والذمة ويقرون بالجزية ، فطلب منهم الخليفة العودة الى مدينتهم ، ولهم الذمة والعهد وكتب لهم بذلك أمانا ، وأشهد عليه الشهود وهم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العـــاص ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان [٣] .

ولم يصادر الخليفة أى هيكل من الهياكل الكبرى بالمدينة ، ولكنه

---

(١) هناك روايات تذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب انما جاء الى بيت المقدس ، بناء على ماكتبه له عمرو بن العاص حينما المت به الشـــدائد فى فلسطين من قتال الروم ، اذ كتب يقول له : « انى أعالج عدوا شديدا ، وبلادا قد ادخرت لك فرايك » وما كان من عمر الا أن كتب بدوره الى الامراء أن يوافوه بالجابية فوافوه وعندما رأى الروم ذلك خافوا العاقبة ، وهرب الارطبون الى مصر ، وطلب أهل بيت المقدس الصلح وكتب لهم الخليفة أمانا .

أنظر : الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٦٠٧ ، النويرى ، نهاية الارب جـ ١٩ ، ص ١٧١ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ ، الازدى ، فتوح الشام ص ٢٤٨ — ٢٥٩ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٦٠٩ .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٧ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٥٢ — ٢٥٤ . وعن قـــدوم عمر بن الخطـــاب الى بيت المقدس . أنظر الطبـــرى ، الرســـل جـ ٣ ، ص ٦٠٨ ، الذهبى ، تـــاريخ الاسلام ، جـ ٣ ، ص ١٠٠ — ١٠١ ، النـــويرى نهـــاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ١٧١ — ١٧٢ . وعن كتاب الصلح والأمان الذى كتبه الخليفـــة عمـــر ابن الخطاب لأهل مدينة بيت المقدس .

أنظر : الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٦٠٨ — ٦٠٩ .

أقام على موضع معبد سليمان مسجدا عرف فيما بعد بمسجد عمر (١) . وبعد أن عقد الخليفة الصلح مع بطريرك بيت المقدس وأهلها وتسلم مفاتيح المدينة قفل راجعا الى المدينة .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر تختلف حول مدة حصار مدينة بيت المقدس وتاريخ فتح هذه المدينة، فبالنسبة لمدة الحصار ذكر كل من ثيوفانيس Theophanis وقنسطنطين السابع بورفيرجنيتوس(٢) أن مدة حصار بيت المقدس كانت عامين . هذا وقد ذكر البعض أن مدة الحصار طالت أكثر من اثنى عشر شهرا(٣) . أما عن تاريخ الفتح فذكر ثيوفانيس Theophanis أن عمر بن الخطاب فتحها فى عام ٦١٢٩ — ٦٣٧م — ١٦هـ واتفق معه الذهبى فى ذلك . أما البلاذرى فذكر أن فتح ايلياء (بيت المقدس) كان فى سنة سبع عشرة ، وذكر الطبرى أن الفتح كان فى سنة ١٥هـ/٦٣٦م وقيل فى سنة ١٦/٦٣٧م ، هذا فى حين لم يحدد مؤرخو الفتوحات أى الواقدى والازدى تاريخا للفتح ، هذا وان كان الازدى قد ذكر أن عمر دخل بيت المقدس يوم الاثنين دون تحديد للسنة(٤) .

ومما لاشك فيه أن فتح المسلمين لمدينة بيت المقدس كان ذا أهمية كبيرة من الناحية الدينية فالمسلمون يعظمون هذه المدينة ، فهى بالنسبة

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., PP. 519-20.
Constantinus Porphyrogenitus, De Administrado., P. 83.
الترجمة العربية ص ٧٧ .
Chronique de Seert, Seconde Partie, in P.O., T., XIII, PP. 623-24.
سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع جـ ٢ ص ١٧ — ١٨ . محبوب المنبجى ، كتاب العنوان ، ص ٤٧٤ .

(٢) Theophanis, P. 519., Constantinus Porphyrogenitus, P. 83.
والترجمة العربية ص ٧٧ .

(٣) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٤) الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ٣ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 519.
البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ١٦٤ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٣ ، ص ٦٠٧ ، الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٥٩ .

لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، كما أنها تعد أقدس بقعة من بقاع الارض بعد مكة والمدينة لكونها مركز الارض المقدسة . كما أنه بفتح بيت المقدس تمكن المسلمون من الاستيلاء على غالبية بلاد الشام وفلسطين ، وتبعا لذلك اضمحل سلطان البيزنطيين فى تلك البلاد مما مهد السبيل لضمها الى حوزة الدولة العربية الاسلامية .

والحقيقة أنه لم يستعص على المسلمين سوى قيسارية ، التى وقفت تتحدى المسلمين بأبراجها المنيعة وأسوارها الحصينة ، هذا فضلا عن موقعها كمدينة ساحلية مما أتاح لها أن تتلقى الامدادات من البيزنطيين عن طريق البحر ، ومن ثم أصبحت تلك المدينة محور ارتكاز القوات الحربية البيزنطية فى شرق البحر المتوسط . وكان يعسكر بتلك المدينة قسطنطين ابن هرقل ، ومعه جيش كثيف ، وعندما علم قسطنطين بسقوط طبرية فى قبضة المسلمين اعتراه الخوف ، خاصة بعد أن علم بهروب والده الى القسطنطينية . وعندئذ هرب من قصره تحت جنح الظلام ، ومعه أفراد حاشيته وجواريه ورحل على ظهر السفن الى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل ، وعندما علم أهل المدينة برحيل قسطنطين فى الصباح ، سلموا المدينة للمسلمين . هذا وقد اختلفت الروايات حول من هو فاتح قيسارية أهو يزيد بن أبى سفيان ؟ أم عمرو بن العاص ؟ أم هو عياض بن غنم ؟ كذلك اختلفت الروايات فى العام الذى تم فيه فتح المدينة ما بين عامى ١٥ — ٢٠هـ/٦٣٦ — ٦٤١م[1] .

استمر المسلمون فى فتوحاتهم فى بلاد الشام دون مشقة بعد أن خضعت لهم قيسارية ، حتى وصلت فتوحاتهم الى حدود الشام الطبيعية وهى جبال طوروس ، وكان المسلمون يلقون ترحيبا من أهالى البلاد ، وذلك

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية ، ص ٣ — ٤ ، فتوح الشام . ج ٣ ، ص ٢ — ٣ ، ص ١٦٤ — ٢٠٠ الازدى ، فتوح الشام ، ص ٢٧٦ — ٢٨٣ ، البلاذرى ، ق ١ ، ص ١٦٦ — ١٩٦ ، ابن الاثير ، الكامل ج ٢ ، ص ٢١٠ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٨ . وانظر ايضا : حسن ابراهيم ، تاريخ عمرو بن العاص ، ص ٥٢ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح ، ص ٢٥ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ١٤ .

رغبة منهم فى التخلص من الاضطهادات المذهبية ، ولضغط البيزنطيين عليهم ليعتنقوا مذهبهم ولعل هذا ما يفسر عدم تعرض المسلمين لمصاعب كثيرة فى فتح بلاد الشام ومما لاشك فيه أن فتح الشام كان له أهميـــة استراتيجية عظيمة ، اذ اتخذها المسلمون قاعدة لفتوحاتهم التالية ، وزحفوا عن طريقها الى مصر(١) .

على أن البيزنطيين لم يتركوا المسلمين ينعمون بالاستقرار فى بلاد الشام اذ حاول هرقل أن يشن هجوما على المسلمين بالشام ، لعله يستطيع بهذا الهجوم أن يجعلهم يجلون عن الشام ، ولعل ما شجعه على محاولة شن الهجوم هذه وجود القبائل العربية الضاربة فى أرض الجزيرة ، قرب شمال الشام ، والتى لاتزال على ديانتها المسيحية وتمردها ، وكانت تلك القبائل تأمل القضاء على سلطات الجيوش الاسلامية ، التى اســتقرت بالشام والعراق ، وذلك خشية أن يمتد بأسها ونفوذها ولهذا « استثاروا الروم على أهل حمص »(٢)، وكاتبوا هرقل وأرسلوا اليه يطلبون منه العون والمساعدة على مهاجمة المسلمين . ورأى هرقل فى ذلك فرصة مواتيـــة كفيلة بأن تزلزل وجود المسلمين بالشام ووضع خطة تهدف الى تأليب أهل الجـــزيرة لطعن جيش المسلمين فى الشام من الخلف هذا فى الوقت الذى تهاجمه القوات البيزنطية من البحر ، اذ كان البحر مازال طريقا مفتوحا أمامه آمنا يمكن أن ينقل قواته عبره ، وأرسل هرقل أهل الجزيرة وحثهم على التجمع والاستعداد لتلقى مدد يأتى اليهم من مصر عن طريق البحر ، وبالفعل أبحرت القوات البيزنطية من الاسكندرية ١٧هـ/٦٣٨م بقيــادة قسطنطين بن هرقل نفسه — مما يدل على الاهمية الكبرى التى علقهـا هرقل على تلك الحملة . وألقت هذه الحملة مرساها فى أنطاكية ونجحت فى

---

(١) العدوى ، الامبراطورية ، ص ٤١ — ٤٢ ، أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ، فتحى عثمان ، الحدود ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) الطبرى ، الرسل ، ج ٤ ، ص ٥٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

الاستيلاء عليها وانضمت الى القبائل العربية المتمردة من أهل الجزيرة(١).

جمع أبو عبيدة قواته وعسكر بهم فى فنـــاء حمص ، وأقبل خالد ابن الوليد من قنسرين وانضم اليهم ، واستقر رأى المسلمين على التحصن وطلب المدد من الخليفة عمر ، الذى ما ان علم بخروج القبائل العربيـــة بالجزيرة على المسلمين بحمص حتى سارع بارسال المدد اليهم ، وفى نفس الوقت سرح سهيل بن عدى الى الجزيرة لأن أهلها هم الذين حرضـــوا الروم (البيزنطيين) على المسلمين بحمص وكان لجدية تحركات المسلمين أثر كبير فى القاء الرعب فى نفوس تلك القبائل التى ما أن علمت بوصـــول المدد الى المسلمين حتى تخلت عن البيزنطيين وعادت الى بلادها — ثم شن المسلمون هجومهم على الجيش البيزنطى الذى انهارت مقاومته بعـــد انسحاب القبـــائل العربية — واضطر الى الانسحاب بدوره بحـــرا الى الاسكندرية ونتيجة لانتصار المسلمين هذا وتغلبهم على الحملة البيزنطية ثبتت أقدامهم فى بلاد الشام ، ولكن خرج المسلمون من حوادث حروبهم فى الشام بدرس هام ، وهو أن استقرارهم فى الشام رهن بالاستيلاء على مصر(٢) .

التطلع الى فتح مصر :

وجاءت على هذا النحو — حركة هرقل الاخيرة فى أنطاكية وشمال سوريا حافزا حمل قادة المسلمين على اعادة النظر فى الموقف الحـــربى ، وذلك لتأمين الفتوحات الاسلامية فى بلاد الشام وخاصة بعد أن عمـــد البيزنطيون الى جانب تعزيز قاعدتهم فى قيسارية (قيصرية) الى ارسال حملة قسطنطين بن هرقل من الموانى المصرية ، ولذلك عقد الخليفة عمر

---

(١) الطبرى ، الرسل ، ج ٤ ، ص ٥٠ — ٥١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .
وانظر أيضا : العدوى ، الامبراطورية ، ص ٤٢ — ٤٣ .
فتحى عثمان ، الحدود ، ج ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٢) الطبرى ، الرسل ، ج ٤ ص ٥١ —٥٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٢٢٤ ، ابراهيم العدوى ، الامبراطورية ، ص ٤٣ — ٤٤ .

ابن الخطاب — فى أثناء زيارته لبلاد الشـــام وذهابه الى بيت المقدس ليتسلمها من بطريركها صفرونيوس Sophronius — مؤتمرا فى الجابية (وهى مرتفعات الجولان الحالية) بالقرب من دمشق فى ١٨هـ/٦٣٩م ، وحضر هذا المؤتمر قادة المسلمين لدراسة الموقف الحربى للدولة العربية والاخطار المحدقة بها • وادار عمرو بن العاص قائد الميدان الجنوبى فى الشام دفة المناقشات فى هذا المؤتمر الحربى ، ويعزى اليه تصوير الموقف الحربى فى الشام تصويرا صادقا ، واظهار الدور الذى ساهمت به القوات البيزنطيـــة فى مصر فى خلق المتـــاعب الحربيـــة التى واجهت المسلمين بالشام[1] •

فقد غدت مصر محـــور الارتكاز للقـــوات الحربيـــة للامبراطورية البيزنطية فى شرق البحر المتوسط فمصر كانت القاعدة التى انسحب اليها الارطبون Areteon أدهى دهاة الروم (البيزنطيين) فى الشام ، ولعله رأى أن التجمع فى منطقة آمنة يشن منها هجوما جديدا على العرب المسلمين أجدى من البقاء فى الشام ، ولهذا ترك فلسطين وذهب الى مصر ، وأخـــذ يجمع الجنود ويحشد الحشود تمهيدا لاسترداد بلاد الشام ، ويبدو أن مفاوضة صفرونيوس بطريرك بيت المقدس للمسلمين ، واصراره عـــلى حضور الخليفة عمر بن الخطاب ليتسلم المدينة بنفسه انما كان رغبة منه فى كسب الوقت حتى يتمكن القائد البيزنطى الارطبون من سحب قواته من تلك المدينة ، والوصول الى مصر آمنا ، وربما كان هناك ثمة اتفـــاق مسبق بين صفرونيوس والارطبون من أجل الصالح العام ، فالأول يحافظ على مدينته والآخر يحافظ على جنوده ويحميهم[2] •

---

(١) الطبرى ، الرسل ، ج ٣ ، ص ٦٠٧ ، النويرى ، ج ١٩ ، ص ١٧١ أسد رستم ، الروم ، جا ، ص ٢٤٨ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ١٥ •

(٢) الطبرى ، الرسل ، ج ٣ ، ص ٦٠٧ ، وانظر ما سبق ، ص ٣٨٥ حاشية (١) وأنظر أيضا : أسد رستم ، الروم ، جا ، ٢٤٨ — ٢٤٩ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ، ١١ — ١٥ ، العدوى ، الامبراطورية ، ص ٤٤ — ٤٥ ، عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ١٩.

وكانت مصر أيضا — كما سبق أن ذكرنا — القاعدة التى انطلقت منها حملة قسطنطين بن هرقل الى أنطاكية ، وكادت تلك الحملة تزعزع الفتوحات الاسلامية فى الشام ، ومما لاشك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته فى قلوب المسلمين من فزع جعلهم لا يغضون الطرف عن ذلك الاقليم الذى انبعثت منه الحملة وأنهم اذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية فانهم لم يأمنوا أن تتكرر تلك المحاولة ، خاصة أن البحر لازال فى أيدى البيزنطيين ، وعن طريقه يمدون الموانىء التى لم تسقط بعد بالمؤن وبالرجال وخاصة قيسارية التى ظل المسلمون يحاصرونها بعد سقوط بيت المقدس ، والتى ظلت صامدة بفضل تلك الامدادات فى وجه المسلمين ، وكانت مصر هى أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانىء بحاجتها من المؤن ، ومن ثم غدت مصر محور ارتكاز القوات البيزنطية فى حوض البحر الشرقى(١) .

وكان فتح مصر بعد الشام ضرورة ، فقد أدرك قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فى الشام فحسب ، بل انها ذات مركز استراتيجى يهيىء موقعه الجغرافى للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على بلاد العرب نفسها أى على المدينة المنورة حينما يفيق البيزنطيون الى أنفسهم . وعلى هذا النحو رأى المسلمون فى الاستيلاء على مصر حرمانا للاسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء فى مياه البحر المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام ، أو فى مياه البحر الاحمر قرب الحجاز(٢) . كما أن المسلمين بفتحهم مصر يحققون أهم غرض لهم من الفتوحات العربية وهو تبليغ الدعوة الاسلامية الى بقاع جديدة من الامبراطورية البيزنطية ، وتأمين من يؤمن بالاسلام .

وعلى هذا النحو غدت الاسباب التى حملت مؤتمر الجابية ١٨هـ / ٦٣٩م على تقرير فتح مصر أسبابا جوهرية أجملها عمرو بن العاص فى

---

(١) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ص ٤٥ ، مصر الاسلامية ، ص ١٤ ، أسد رستم ، الروم جـ ١ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

(٢) العدوى ، الامبراطورية ، ص ٤٧ ، مصر الاسلامية ، ص ١٥ .

ختام تقريره الى الخليفة عمر قائلا : « انك أن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الارض اموالا وأعجزها عن القتال والحرب »(١) وعلى هذا النحو قضت الضرورة فتح مصر .

تختلف الروايات حول مسير عمرو بن العاص الى مصر لفتحها ، ومن هذه الروايات أن عمرو بن العاص قدم الى عمر بن الخطاب وهو بالجابية (١٨ هـ / ٦٣٩م) وخلا به وقال له : « يا أمير المؤمنين ائـذن لى أن أسير الى مصر وان عمرا أخذ يحسن له فكرة فتح مصر وما يعود على المسلمين من نتائج من وراء فتحها ، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب تخوف من ذلك على المسلمين وكرهه لمـا فى مصر من جموع الروم ، ومع ذلك أخذ عمرو يلح عليه ويحسن له الفكرة ويعظم له أمر مصر ويهـون عليه فتحها ، وأنه عليم بطرقها ومسالكها ، حتى وافق الخليفة ، وعقـد له أربعة آلاف رجل ، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وامره بالمسير الى مصر ، وقال له : سر وأنا مستخير الله فى سـيرك ، وسيأتيك كتـابى سريعا ان شاء الله تعالى ، فان أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، وان أنت دخلتهـا قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »(٢) .

وقيل ان عمر بن الخطاب هو الذى كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص الى مصر فوافاه كتابه وهو بقيسارية يحاصرها(٣) . ويقال كذلك ان عمر كتب الى عمرو بعد فتح الشام ان اندب الناس الى المسير معك فمن خف معك فسر به ، وبعث بالكتاب مع شريك بن عبدة فندبهم لعمرو ، وكتب اليه : « ان ادرك كتابى قبل أن تدخل مصر ، فأرجع الى الحجاز ، وعرض قراره بفتح مصر على أهل الحل والعقد قال عثمان

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨١ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧٦ ، ٨٠ — ٨١ ، الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٧ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جا ، ص ٥ — ٦ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٣ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٤٩ ، الطبـرى ، الرسل ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

ابن عفان : يأمير المؤمنين ، ان عمرا لمجرأ ، وفيه اقدام ، وحب للامارة ، وأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لايدرى تكون أم لا ، وعندئذ ندم عمر بن الخطاب على كتابه لعمرو ، وكتب اليه : « ان ادرك كتابى قبل أن تدخل مصر ، فأرجع الى موضعك ، وانكنت دخلت فامضى لوجهك »(1) .

يتضح من الروايات السابقة ان عمرو بن العاص لم يسر الى فتح مصر بدون اذن الخليفة عمر بن الخطاب أو من تلقاء نفسه ، بل ان الخليفة هو الذى أمره بالمسير الى مصر ، كما يظهر من خلال تلك الروايات تردد عمر بن الخطاب وتخوفه ، ولعل ذلك يرجع الى اشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل ، فقد كانت القوات الاسلامية متفرقة ، فى ذلك الوقت فى الشام والجزيرة وفارس لقتال البيزنطيين والفرس ولم يكن فى استطاعة عمر أن يجمع جيشا كبيرا لفتح هذه البلاد ، هذا فضلا عن أن عمر كان يخشى من التوسع فى الفتوح ولا سيما أن اقدام المسلمين لم ترسخ بعد فى البلاد التى فتحوها ، ومن ثم لم يكن فى وسعه مثلا أن يضعف جند الشام بأن يبعث منهم جيشا كافيا لفتح مصر ؟ كما أن توسع المسلمين السريع فى بلاد حوض البحر المتوسط كان يتطلب اسطولا كبير للدفاع عن شواطىء البلاد التى استقروا فيها ضد هجمات الروم ، فى الوقت الذى كان العرب مازالوا يهابون ركوب البحر ولعل هذه الامور جميعها جعلت الخليفة يتمهل فى أمر فتح مصر .

وهناك روايات أخرى تذكر أن عمرو بن العاص خرج سرا الى مصر مع جيش صغير بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب ، وانه مضى الى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فغضب عمر وكتب اليه يوبخه ويعنفه ، وأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر ، وجاء فى الكتاب : « من عمر بن الخطاب الى العاص بن العاص ،

---

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٣ ، أبو المحاسن ، النجوم ، جـ ١ ، ص ٦ — ٧ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ٢٨٧ .

أما بعد فانه بلغنى أنك سرت ومن معك الى مصر ... فان لم تكن بلغت مصر فارجع »[١] .

على أن هذه الروايات وأمثالها التى ينسجها مؤرخو العرب ، ربما يقصدون بها أن يضعوا هالة من العظمة فوق عظمة الفتوحات ، غير أنه من غير المعقول ان فتح مصر كان بهذه السهولة وبهذا الاستخفاف ولا يعقل أن يسير عمرو بن العاص الى مصر سرا وبدون استئذان الخليفة ، نعم لعل عمرو بن العاص كان يعمل على الحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه ، ولكن لم يكن فتح مصر مجرد فكرة طارئة عنت له ، اذ أن فتح مصر أصبح ضرورة عسكرية ملحة بعد فتح الشام لطرد البيزنطيين منها والقضاء على قواعدهم العسكرية بها[٢] .

مضى عمرو بن العاص فى طريقه لفتح مصر ، ففتح مدينة العريش بلا عناء فى ذى الحجة ١٨هـ / ديسمبر ٦٣٩م اذ لم يصادف مقاومة تذكر ، لأن حصون هذه المدينة لم تكن من المناعة بحيث تقف فى وجه العرب ، يضاف الى ذلك عدم وجود حاميات بيزنطية بها تقوم بالدفاع عنها وبمنع العرب المسلمين من دخولها[٣] .

غادر عمرو بن العاص العريش ، ومضى يخترق بلاد مصر جنوبا حتى وصل الى مدينة الفرما[٤] ، وهى تعتبر من الحصون الامامية فى خط

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٤٩ .

(٢) انظر ما سبق ص ٣٩٠ وانظر أيضا : سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ص ٨ — ٩ .

(٣) الفرما اسم عربى لمدينة بلوز Pelus وكان المصريون يسمونها برمون ولها ميناء على ساحل البحر المتوسط شرقى بور سعيد الحالية ، وكانت مفتاح مصر من ناحية الشرق ، فهى أول مدن مصر من الشمال .

انظر : ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ق ٢ ، ص ٥٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ، م ٦ ، ص ٣٦٧ ، المقريزى ، الخطط ، جا ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٤) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٥ ، جمال سرور ، الحياة السياسية ص ٤٧ ، حسن ابراهيم ، عمرو بن العاص ، ص ٦٨ — ٦٩ ، تاريخ الاسلام ، جا ، ص ٣٠٢ .

الدفاع عن مصر ، عـلى أن البيزنطيين أهملوا أمرها فلم يرمموا ما تخرب من حصونها على يد الجيش الفارسى الذى احتل مصر (٦١٦ — ٦١٩م) • وحاصر عمرو الفرما ، ومع أهمال البيزنطيين لحصونها الا أن منعة هذه المدينة جعلتها تصمد للحصار لمدة شهر اضطرت بعده للاستسـلام ، وانهارت روح حاميتها المعنوية أمـام استبسال المسلمين فى القتـال واعتمادهم على المفاجأة الحربية ، هذا فضلا عن ايمـانهم وصـدق عزيمتهم • وعلى هذا النحو تم لعمرو فتح مدينة الفرما فى المحـرم سنة ١٩هـ / يناير ٦٤٠م(١) •

لم يحرك البيزنطيون ساكنا طيلة حصار الفرما الذى استمر شهرا كاملا ، ولم يبعثوا أى نجدات أو مساعدات الى تلك المدينة ، لكى تقوى على مقاومة حصار المسلمين ، وكان هذا أول خطأ ارتكبه البيزنطيون فى تلك الحرب(٢) •

وصحب هذا النصر طلائع الترحيب والمسـاعدات التى قـدمها المصريون للمسلمين فى حروبهم ضد الروم فتذكر المصادر العربية أنه كان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص الى مصر كتب الى القبط يخبرهم بأن الروم لن تكن لهـم دولة ، وان ملكهم قد انقطع ، والاهم من ذلك يأمرهم بتلقى عمرو• ويقال « ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو اعوانا »(٣) •

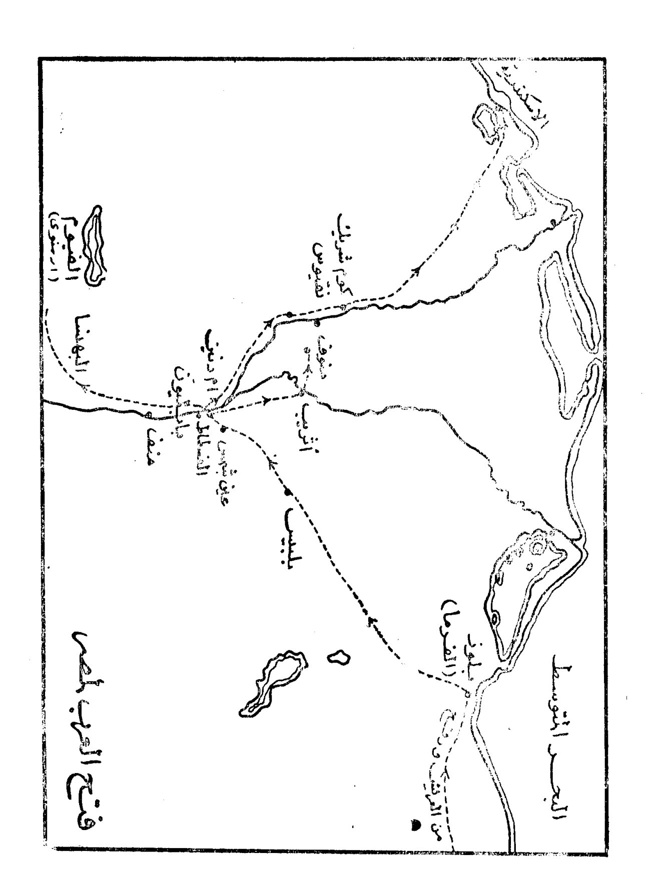
ويرى بتلر أن هذا القول لا أساس له من الصحة ، وبرهن عـلى ذلك بما ذكره يوحنا النقيوسى من أن القبط لم يمدوا يد المساعدة للمسلمين

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٥ ، السيوطى ، حسـن المحاضرة ، ص ٦٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٧ •

(٢) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٥٩ •

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٦ ، أبو المحاسن ، النجوم ، جـ١ ، ص ٧ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٤ ، النويرى ، نهـاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ٢٨٨ •


فتح العرب لمصر
البحر المتوسط
الإسكندرية
بلبيس
منف
البهنسا

الا بعد استيلائهم على الفيوم ، وان هذه المساعدة كانت جزئية ومحدودة ، ويتابع بتلر فيذكر ولسنا ندرى على وجه التحقيق فى أى وقت كان هذا ، ولكن من الجلى أنه لم يكن الا بعد فتح حصن بابليون[1] .

على أنه من الملاحظ أن يوحنا النقيوسى يصمت فى تاريخه عن ذكر حوادث الفتح الأولى لمصر ، وأول ما بدأ به تاريخه عن فتح العرب لمصر هو ذكر فتح اقليم الفيوم ، كما أنه لم يوضح بالضبط مساعدة الاقباط المصريين للمسلمين، كل ما ذكره هو أن قائد القوات البيزنطية فى اقليم الفيوم ويدعى يوحنا ، اختبأ بعد استيلاء المسلمين على البهنسا — هو ومن معه فى الحظائر والمزارع هربا من المسلمين ، وساروا فى الليل ، الى النهر العظيم ، وعندئذ اخبر رئيس العصبة قادة الاسلام ، بأمر جماعة الروم الذين اختبئوا فقبض هؤلاء عليهم وقتلوهم[2] .

حقيقة أن مساعدة المصريين للعرب والممثلة فى اصلاح الطرق ، واقامة الجسور والأسواق ومعاونتهم على قتل البيزنطيين كانت قبل زحف عمرو بن العاص الى الاسكندرية ، ولكن هذا لا يمنع من أن المصريين كانوا بالفرما أعوانا للمسلمين ، وذلك لان البطريرك بنيامين لم يطلب منهم سوى أن يحسنوا استقبال عمرو وأن يرحبوا به ، كذلك لم تذكر الروايات أن عمرا حارب المصريين أو أن الحصن كان لهم وانما كان للروم .

وباستيلاء المسلمين على الفرما فقد البيزنطيون قاعدة أساسية وهامة من قواعد وجودهم فى مصر ، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم ، وخاصة بعد أن صار المصريون أعوانا للقوات الاسلامية يساندوهم من

---

(١) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) Chronique de Jean, Évêque de Nikiou, P. 435.

وانظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١١٤ .

أجل تحرير بلادهم من نفوذ البيزنطيين ، وكذلك باستيلاء المسلمين على الفرما أصبح فى أيديهم معقلا يؤمن ظهورهم ، ويؤمن لهم الطرق المؤدية الى بلادهم ، وكذلك مع الجيوش الاسلامية المنتصرة فى الشام . وفطن عمرو الى أن الامدادات لايمكن أن تصل الا عن طريق هذه المدينة ونظرا لأنه لم يتوفر لديه من الجنود من يتركهم لحراسة تلك المدينة ، فقد اضطر عمرو لان يهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفع بها البيزنطيون اذا عادوا اليها(١) .

وبعد أن اطمأن عمرو الى تأمين خطوط مواصلاته مع بلاد العرب ، وطريق العودة اذا ماحلت به وبجنوده الهزيمة نتيجة لاستيلائه على الفرما (بلوزيوم Pelusium) سار نحو الجنوب الغربى فسلك الطريق الذى يحازى الحافة الشرقية للدلتا حتى وصل الى بلبيس(٢) ، ولما نزلها وجد بها الأرطبون ، وعول الأخير على الثبات والمقاومة ما استطاع الى ذلك سبيلا وأراد داهية الروم أى الارطبون أن يوقع بالعرب ويهزم داهيتهم عمرو بن العاص ، فداهم معسكر المسلمين ليلا على حين غرة ، ولكنه منى بهزيمة فادحة على أيدى المسلمين ، ولم تجد مقاومته نفعا ، اذا لم تلبث بلبيس أن سقطت فى أيدى المسلمين فى ١٨هـ / ٦٤٠م وبعد شهر كامل من حصارها ، لم ينقطع خلاله القتال(٣) .

وكانت ببلبيس حين فتحها المسلمون أرمانوسة ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل اذ كان أبوها قد جهزها وأرسلها الى بلبيس من أجل

---

(١) انظر العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ١٩ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٥٨ .

(٢) بلبيس ، قاعدة مركز بلبيس من أعمال محافظة الشرقية ، وكانت بلبيس تسمى قديما فلبيس أو فلابيس . اما بلبيس بكسر الياءء فهى مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ عن طريق الشام . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، م ٢ ، ص ٦٢ ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٧ ، الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٢٨، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٤ ، أبو المحاسن ، النجوم ، جـ١ ص ٨ ، وانظر أيضا : العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤١٠ ، حسن ابراهيم ، تاريخ عمرو ، ص ٧٢ ، تاريخ الاسلام ، جـ١ ص٣٠٤ ، ٣٠٦ .

أن تسير منها الى زوجها ، قسطنطين بن هرقل فى قيسارية ، ولكنها عندما وصلت الى فاقوس علمت بأن قسطنطين رحل الى القسطنطينية لذلك رجعت الى بلبيس ووقعت أرمانوسة أسيرة فى ايدى المسلمين هى وجميع أموالها وجواريها ورجالها ومع ذلك أعادها عمرو بن العاص الى أبيها معززة مكرمة ومعها جميع ما أخذه المسلمون من أموالها وجواريها ، واكتسب عمرو بذلك محبة المصريين ، وحفظ أبوها الجميل لعمرو [١] .

وسار عمرو بعد الاستيلاء على بلبيس الى أم دنين [٢] شمال حصن بابليون حيث تحصن البيزنطيون وحشدوا قواتهم ، ونشب قتال بين عمرو وقواته وبين البيزنطيين فى هذا الموقع الحصين ، واستمر هذا القتال عدة أسابيع بين الفريقين ، وكان البيزنطيون قد أعدوا عدتهم له . ولما أبطأ الفتح على عمرو بادر يطلب الامدادات من الخليفة على جناح السرعة ، خاصة وأن مركزه أصبح حرجا وبدأ اليأس يستولى على جنوده ، كما أنه أحس بقدر من المقاومة لم يعهده من البيزنطيين منذ دخوله أرض مصر ، اذ أنهم عولوا على الثبات فى هذا الموقع الحصين . وأدى ذلك الى أن ضاعف عمرو هجومه على المدينة حتى فتحها الله على يديه . حقيقة كانت خسائر المسلمين فيها كبيرة ولكن خسائر الروم كانت أكبر . وبالاستيلاء على أم دنين ضمن عمرو معقلا هاما فى شمال حصن بابليون ، كما ضمن موقعا استراتيجيا على النيل ، وأصبح تحت أمرته الكثير من السفن[٣] .

---

(١) الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية ، ص ٢٠ — ٢٣ ، وانظر أيضا بتشر ، تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ١٢٦ — ١٢٩ .

(٢) أم دنين ، تقع الى الشمال من حصن بابليون ، وكان اسمها قبل الفتح تندونياس Tendonias كما يسميها يوحنا النقيوسى وسماها العرب أم دنين ، ثم سميت بعد ذلك المقس نسبة الى قائد رومانى يدعى ماكسيموس Maximas وموقعها الان الجزء الواقع بين حديقة الازبكية وقسم الازبكية ، ويقال انها كانت فى مكان حديقة الازبكية الحالية .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٧ ، الكندى ، الولاة ، ص ٨ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٤ ، أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص ٨ . وانظر أيضا : حسن ابراهيم ، تاريخ عمرو ، ص ٧٣ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ١٩ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .

اختلف المؤرخون بعد فتح أم دنين فى ترتيب وقائع الفتح الاسلامى لمصر ، وجوهر الخلاف بينهم يأتى فى غزو اقليم الفيوم ، ووقعة عين شمس ، فالمصادر العربية ترتب وقائع الفتح على النحو التالى العريش ، الفرما ، بلبيس ، أم دنين ، بابليون ، ثم الفيوم (١) • أما المؤرخ المصرى يوحنا النقيوسى ، فهو لايذكر وقائع الفتح الأولى بل يبدأ مباشرة بغزو اقليم الفيوم ثم بوقعة عين شمس ويلى ذلك حصار بابليون(٢) •

فيذكر يوحنا النقيوسى أن عمرا خرج الى الفيوم على ظهر القوارب والسفن التى أصبحت تحت امرته بعد فتح أم دنين ، وفى الطريق اليها ، وعلى مقربة من مدينة اللاهون الواقعة على بحر يوسف وجد البيزنطيون يعسكرون بقواتهم هناك وعلى رأسهم قائد الحرس ويدعى يوحنا ، الذى عهد اليه بأمر الدفاع عن اقليم الفيوم • وعندئذ اتجه جيش عمرو الى جانب الصحراء حتى وصل الى البهنسا — على الضفة الغربية من بحر يوسف — واستولى عليها ، وعندئذ اقتفى القائد البيزنطى يوحنا اثر عمرو ورجاله محاولا استطلاع تحركات المسلمين ، فكر عليه عمرو وحاصره مباغتا اياه ، وسرعان ما أحس يوحنا بحرج مركزه فحاول التراجع ، ولكن عمرا التقى به عند أبويط — فى بنى سويف — وقتل الروم عن آخرهم • هذا ويبالغ يوحنا النقيوسى فيذكر أن المسلمين لم يرفقوا بأحد لاشيخا ولا طفلا ولا امرأة(٣) • أما يوحنا فغرق فى البحر ، واخرجت جثته من النهر بشبكة ، ووضعت فى نعش وأرسلت الى هرقل • ثم يتابع يوحنا النقيوسى روايته ويذكر أن عمرا انسحب من البهنسا —

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٦ — ٨٧ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٤ ، الكندى ، الولاة ، ص ٨ ، أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص ٧ — ٨ •

(٢) انظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٧٢ وما يليها •
Chronique de Jean., P. 433. stq.

(٣) تتنافى هذه العبارة مع ما جاء فى وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه أبو بكر وعمر لقادة المسلمين بألا يقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا •

مركز قيادته — بدون أن يتغلب على مدينة الفيوم عندما سمع بوصول الامدادات(١) .

أما الروايات العربية فلم تذكر فتح اقليم الفيوم الا بعد سنة من فتح مصر أى فتح الحصن فتروى تلك المصادر أن المسلمين ظلوا لمدة سنة يجهلون اقليم الفيوم ، وحين عرفوا بمكانه أرسل عمرو كتيبة من الفرسان استولت عليه سلميا (٢) . لذلك يجب على الباحث أن يضع فى الاعتبار أن غزو عمرو لاقليم الفيوم — قبل فتح حصن بابليون — كان أمرا غير ممكن لأن القوات المرابطة أمام بابليون كانت قليلة العدد ، بحيث لم تستطع أن تحسم المعركة مع البيزنطيين الا بعد وصول الامدادات من الخليفة فى الحجاز ، كما أن مسير عمرو الى الفيوم كان سيسمح للروم بأن يجدوا الفرصة لاسترداد ما استولى عليه عمرو من المدن ، فتضيع منه العريش والفرما وبلبيس وأم دنين وغيرها ، ويقطعون عليه بذلك خط الرجعة ، كما أن مسير عمرو الى الفيوم فى النيل الذى يشرف عليه حصن بابليون — سوف يجعل من السهل على البيزنطيين أن يلحقوا بالمسلمين خسارة فادحة أثناء مرورهم من النيل ، اذ هل كان أهل الحصن سوف يظلون وراء أسواره منتظرين عودة عمرو من الفيوم ، ثم مجىء المدد اليه ، ولا يفكرون فى التعرض له ومهاجمته أو مهاجمة المواقع التى تركها عمرو خلفه بلا حاميات ؟ يضاف الى ذلك أن العرب كانوا يجهلون جغرافية مصر ، ولا سيما اقليم الفيوم الذى يعتبر بمثابة واحة كبيرة فى الصحراء الغربية ، وربما يدعو ذلك الى القول بأنه قد لا يبدو منطقيا أن يبدد الجيش الاسلامى قوته ليفتح اقليما بعيدا مثل أقليم الفيوم خاصة وأنه ليست لهذا الاقليم قيمة عسكرية حقيقية لتأمين وجودهم فى مصر(٣) .

---

(١) انظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ص ١٧٤ — ١٧٥ .
Chronique de Jean, P. 436.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ص ٢٥٤ .

(٣) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ عمرو ، ص ٧٨ — ٨٩ .

كان عمرو بن العاص قد طلب الامـدادات من الخليفـة عمر بن الخطاب ، فبادر الخليفة بتلبية هـذا الطلب ، وأرسـل الى عمرو أربعة آلاف مقاتل ، وعلى رأسهم الزبير بن العوام وكتب اليه يقول : « انى قد امددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف وهم : الزبير بن العوام ، المقداد بن عمرو (الأسـود) ، وعبادة بن الصـامت ، ومسلمة بن مخلد ، وقيل خـارجة بن حـذافة الرابـع ولا يعدون مسلمة(١) .

وما ان علم ثيودور قائد الجيوش البيزنطية فى مصر بوصـول الامدادات الى عين شمس (هليوبوليس)(٢) حتى قام باستدعاء جميع الجنود البيزنطيين من كافة أرجاء مصر ، ليعزز حامية حصن بابليون ، فاستدعى حـاكم أقليم الفيوم تاودسيوس ، وحـاكم الاسـكندرية أنسطاسيوس ، فجاء كل منهما الى الحصن ، وفى نفس الوقت هـرع المقوقس (كيروس) وثيودور القائد العام للقوات البيزنطية الى الحصن وقام ثيودور بتعبئة الجيش واعداده لقتال المسلمين(٣) .

ورسم عمرو بن العاص خطته بعد أن وصلته الامدادات ، على أساس اغـراء الروم على الخروج من معقلهم المنيع فى حصن بابليون ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٧ ، ٩١ ، البلاذرى فتـوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٥١ ، الكندى ، الولاة ، ص ٨ .

أبو المحاسن ، النجوم ، جـ ١ ، ص ٨ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٤ .

(٢) عين شمس احدى مدن مصر الكبرى ، واسمها (اون) وتعنى مدينة الشمس ، واسمها عند اليونان هليوبوليس ، واحتفظ العرب بهذا الاسـم فجعلوا اسم المكان (عين شمس) ، وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها ، وهى تقع على هضبة مرتفعة من الارض يحيط بها سور ، وكان بها ماء كثير وتصلح لامداد الجيش بالمؤن ، واتخذها عمرو مقرا له . انظر : بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) Chronique de Jean, PP. 435-36.

وانظر نص الترجمة ، عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ص ١٧٥ .

ثم الاشتباك معهم فى السهل بعيدا عن ذلك الحصن ، وبالفعل عبأ ثيودور قواته ، وخرج من الحصن معتمدا على قوة مالديه من الخيالة والرجالة أيضا ، وبدأ يستعد لقتال المسلمين عند هليوبوليس (عين شمس) . ويبدو أن هرقل ساءه تردد قادته وتقاعسهم وتخاذلهم فأرسل يأمرهم بتبديل خطتهم الدفاعية ، التى تقضى بالبقاء وراء الحصون الى الهجوم ، أو ربما يكون القائد البيزنطى ثيودور يئس من طول الحصار ، فقرر الخروج وخوض المعركة مع العرب فأما النصر واما الموت .

واجتاز ثيودور البساتين والاديرة الواقعة الى الشمال الشرقى من الحصن ، وانتشر بقواته فى السهل ، وسرعان ماعلم عمرو بخروج القائد البيزنطى ثيودور من الحصن كما كان يأمل ، وعلم كذلك أنه فى الطريق لمهاجمة معسكر المسلمين فى عين شمس . عندئذ قام عمرو بن العاص بتقسيم جيشه الى ثلاث كتائب ثم قال لرجاله : « انظروا اذا جاء جيش الروم لقتالنا فقوموا أنتم من خلفهم ، ونحن نكون كذلك أمامهم وندخلهم بيننا ونقتلهم »(1) .

وتم اللقاء بين قوات ثيودور وواحدة من كتائب عمرو بن العاص فى المكان المعروف اليوم (بالعباسية) ونشب القتال بين الفريقين ، وتصور جيش ثيودور أن تلك الكتيبة التى هاجموها انما تمثل الجيش الاسلامى كله ، على أنه عندما بلغ القتال أشده ، انقضت كتيبة أخرى على ساقة الروم كالصاعقة ، فاختلت صفوفهم ، واضطروا الى الانسحاب نحو أم دنين ، فلقيتهم هناك كتيبة ثالثة لعمرو ، وبذلك انحصر الروم بين الكتائب الثلاث ، وظنوا أنهم وقعوا بين ثلاثة جيوش كبيرة تحاصرهم من ثلاث جهات ، وعندئذ انهارت مقاومتهم وتشتت شملهم ، وفروا !

---

(1) Chronique de Jean, P. 437.
وانظر نص الترجمة فى عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٧٧ .

وانظر أيضا : بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٧٠ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢١ .

لا يلوون على شيء ، وقتل منهم عدد كبير ، وفر بعضهم نحو النيل ، وركبوا السفن قاصدين الحصن ليحتموا به (١) .

وبعد هذه الضربة الساحقة ، ترك القسم الاكبر من جيش الروم بابليون وذهبوا الى مدينة نقيوس (ابشادى بمركز تلا منوفية) فى حزن وأسف شديدين ، وظلت حامية الحصن تدافع عنه مستفيدة من منـاعة أسواره ، أما ثيودور قائد الجيش فقد هرب الى الاسكندرية ، بينمـا أحتمي المقوقس بالحصن . وبانتصار عمرو بن العاص على القـوات البيزنطية فى وقعة عين شمس أصبح سيدا للمنطقة الاستراتيجية المحيطة بحصن بابليون (٢) .

ولم يبق أمام عمرو بن العاص بعد أن ثبتت أقدامه فى عين شمس — التى اتخذها من قبل مقرا لقيادته الحربية — سوى حصن بابليون (٣)

---

(١) Chronique de Jean, P. 438.

ونص الترجمة فى عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٧٧ .

وانظر ايضا : بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، حسن ابراهيم ، تاريخ عمرو ، ص ٧٧ — ٧٨ .

العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢١ ، العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤١١ — ٤١٢ .

(٢) Chronique de Jean, PP. 438-39.

ونص الترجمة فى مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى ص ١٧٧ .

وانظر ايضا بتشر ، تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ١٣١ .

(٣) حصن بابليون تختلف الروايات حول من أسسه وحول اسمه ايضا ، وتذكر بعض الروايات أنه بنى على يد بختنصر حين فتح مصر فى القرن السادس قبل الميـلاد ، وسماه باسم عاصمة مملكة (بابل) ، ثم جدد بناءه الامبراطور الرومانى تراجان فى مستهل القرن الثانى للميلاد ، وقيل بناه الفرس حـين فتحوا مصر ، واتم الروم بناءه بعد أن استردوا مصر من يد الفرس وقيل بنى من قبل الفرس ، وجدد الفرس بناءه بعد الاستيلاء على مصر ثم وسع الروم قلاعه وابراجه ، ورفعوا أسواره بعد ان اجلوا الفرس عن مصر . أما عن تسميته فقيل انها نسـبة الى الاسرى الذين أتى بهـم الفـرعون سيزوستريس من بابل ، وعهد اليهم بالقيام ببعض الاعمال العامة ، ثم انشأوا

فما كان منه الا أن نقل معسكره من عين شمس (هليوبوليس) وضربه فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس ، وفى الموضع الذى قامت عليه فيما بعد مدينة الفسطاط ، وكان هذا موقعا ممتازا أتاح لعمرو أحكام الحصار على الحصن . ومن هذا الموقع بدأ عمرو بن العاص يعد العدة ، ويعيد تعبئة قواته ، ويجهز نفسه لضرب الحصار على الحصن ثم الاستيلاء عليه ، وكان هذا الحصن من المناعة بمكان ، اذ كانت أسواره متينة ، وأبراجه عالية يحيط بها النيل ، وزاد فى منعته أن حفر حوله خندق ، يضاف الى ذلك أنه توافر داخله الكثير من المعدات والذخائر من كل نوع واجتمع به عدد كبير من خيرة الجند من أهل مصر ، وكان على رأس حامية الحصن القائد الذى يسميه العرب « الاعيرج » (١) والى جواره كيروس (المقوقس) واخيرا توافرت بالحصن المؤن اللازمة (٢) .

وعلى الرغم من افتقار المسلمين الى أدوات الحصار ، الا أن عمرو بن العاص صف جنوده حول الخندق وشدد الحصار على الحصن ،

=
مكانا حصينا فى تلك البقعة سمى بابليون نسبة الى المدينة التى جاؤا منها ، ويرى البعض الآخر أنه سمى بهذا الاسم نسبة الى مدينة بابليون التى خلفت مدينة منف عاصمة مصر الفرعونية وان لفظة بابليون هى الصيغة اليونانية للاسم المصرى القديم لتلك المدينة وهى بى — حابى — ن أون « أى مدينة أون النيلية وظل الحصن ينسب الى هذه المدينة باعتباره أهم معاقلها ، ثم أصبح يطلق عليه فى اللغة القبطية ، « بابليون — آن — خيمى » ومعناها بابليون مصر . وكان العرب يسمونه « قصر الشمع » وهو على مقربة من الكنيسة المعلقة بمصر القديمة . انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٥٢ ، ٨٤ ، حاشية ١ ، المقريزى ، الخطط ، م ١ ، ص ٢٨٧ — ٢٨٨ . بتلر ، فتح العرب ، ص ١٧٦ — ١٨٣ ، على ابراهيم حسن ، عمرو بن العاص ، ص ٣٨ ، ٤٠ حاشية ١ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢٢ ، حاشية ١ .

(١) الاعيرج تحريف لاسم القائد البيزنطى جورج قائد حرس الحصن ، ويقال له المندفور القبطى ، وكان يدير مصر من قبل المقوقس .

انظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٥ ، حاشية ٢ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٨٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٤ — ٨٥ ، بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٨٥ ، وانظر أيضا ، حسن ابراهيم ، عمرو بن العاص ، ص ٨٨ — ٩٠ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢٢ — ٢٣ .

ووضع عليه المنجنيق اعظم آلات الحصار ، ثم قام عمرو بتوزيع رجاله حول الحصن فى محاولة منه لارهاق الحامية المحاصرة ، كما قام برميها بالمنجنيق هذا وعندما بدأ الحصار كان الفيضان مرتفعا ، وكانت مياه النيل تملأ الخندق المحيط بالحصن ، فتزيد من منعته ، وفوق ذلك ، جعل الروم للخندق أبوابا ، ورموا فى كل باب منها حسك الحديد[1] ولذلك لم يستطع العرب الاقتراب من الاسوار ، واكتفوا بالحصار واستمات عمرو ورجاله فى الحصار ، وظلوا يحاصرون الروم شهرا كاملا[2] .

ولمـا أحس المقوقس بمدى جدية العرب وعزمهم على فتح الحصن ، كمـا رأى صبرهم وشدة بأسهم فى القتال وتصميمهم على اقتحـام الحصن ، خرج هو وجماعة من أكابر القبط مع من وثق بهم من الحرس ، من باب القصر القبلى الى جزيرة الروضة ، وذلك للتفاوض مع عمرو (٢٠هـ / ٦٤٠م)[3] .

وفى جزيرة الروضة أعد المقوقس رسلا من خيرة رجاله ، كان بينهم أسقف بابليون ، وبعث بهـم الى عمرو بن العاص ، ومعهم رسالة يطلب فيها من عمرو بن العاص أن يبعث له برسل من لدنه للتفاوض معهم واعدا اياه ان يعاملهم معاملة حسنة[4] .

---

(١) حسك الحديد : قيل أسلاك كالشوك تصنع من الحديد وتلقى حول المعسكر ، لتنشب فى رجل من يدوسها من الخيل والناس وهى المعروفة الان (بالاسلاك الشائكة) . وقيل الحسك نبات شائك كان يعلق ثمره بصوف الغنم ، وكثر فى بلاد العرب حتى ضربوا بشوكه المثل ، وكان لهذا الشـوك ثلاث شعب صارت مثالا يقلده المقاتلون فى أسلحتهم .

انظر : حسن ابراهيم ، عمرو بن العاص ص ٩٠ ابو المحاسن ، النجوم جـ١ ، ص٨ ، حاشية ٢ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢٣ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٥ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٦ ، ابو المحاسن ، النجوم ، جـ١ ، ص ١٠ النويرى ، نهاية الارب ، جـ١٩ ، ص ٢٩٠ .

(٤) عن نص هذه الرسالة انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٦ ، سعيد ابن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ٢ ، ص ٢٢ ، أبو المحاسن ، النجوم ، جـ ١ ، ص ١٠ — ١١ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ٢٩١ .

ولما أتت رسل المقوقس الى عمرو بن العاص احتجزهم عنده يومين ليروا حال المسلمين،فخاف عليهم المقوقس،على أن عمرا مالبث ان اعاد رسل المقوقس اليه برده على رسالته وجاء فى الرد « انه ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال ، فان دخلتم فى الاسلام كنتم اخواننا ، وكان لكم مالنا ، وان ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون ، واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »(١) .

وسر المقوقس لعودة رسله ، وسألهم عن حال المسلمين ، ولما أدرك من خلال حديثهم عنهم ما عليه المسلمين من ثبات فى دينهم ، وأصرار على القتال من أجله ، شاع الرعب فى قلبه لما سمعه عنهم ، وعمد الى الاستمرار فى مفاوضتهم لعقد الصلح ، لأنه أيقن أنهم سوف يقتحمون الحصن ، وينتصرون عليهم وأرسل المقوقس الى المسلمين أن يبعثوا رسلا منهم للتفاوض معهم ، والتشاور فى أمر الصلح ، لعلهما يصلان الى ما فيه صلاح الفريقين(٢) .

وأرسل عمرو الى المقوقس عشرة من رجاله ، على رأسهم عبادة ابن الصامت وأمره أن يكون متحدث القوم ، كما أمره بأن يجرى دفة المفاوضات مع المقوقس ، وأن لا يجيب البيزنطيين الا الى واحدة من الخصال الثلاث التى سبق أن عرضها عمرو على رسل المقوقس . ودارت المحادثات بين الطرفين ، وبدأ عبادة بن الصامت حديثه مع المقوقس عارضا عليه حرية الاختيار فى أحدى الخصال الثلاث الاسلام ، الجزية

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٧ ، الطبرى ، الرسل ، ج٤ ، ص ١٠٧ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٦٦ ، ابو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص ١١ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٧ ، ابو المحاسن ، النجوم ، ج١ ، ص ١٢ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٢٩٢ .

القتال ، وحاول المقوقس أن يلجأ الى أسلوب الارهاب المصوغ فى قالب النصيحة[1] .

على أن أسلوب الاغراء والارهاب الذى سلكه المقوقس لم يفت فى عضد عبادة ، وأصر على موقفه من أن يقبل المقوقس واحدة من ثلاث خصال ، فالح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه الى واحدة غير هذه الخصال الثلاث ، فرفع عبادة يديه وقال : « لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ، مالكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لانفسكم » [2] وطلب المقوقس ممن معه أن يطيعوه ويجيبوا الوفد الاسلامى الى خصلة من الثلاث وحذرهم أنهم اذا لم يجيبوا اليوم عن طاعة فسوف يجيبون فيما بعد كرها ، ولكنهم لم يسمعوا له ولم يطيعوه ، وأرادوا القتال[3] وعلى هذا النحو توقفت المفاوضات بين المقوقس ورسل المسلمين ، وغادر المقوقس جزيرة الروضة ، وعاد الى حصن بابليون ، حيث عقد اجتماعا مع قادة الروم ، وابلغهم نتيجة مفاوضاته مع المسلمين ، وعرض عليهم حالهم وحال المسلمين ازاءهم غير أنهم قبحوا رأى المقوقس ، وأبوا أن يذعنوا للمسلمين ولمطالبهم ، وعزموا على مواصلة القتال[4] .

ورجع عبادة بن الصامت بمن معه الى عمرو بن العاص ، وأخبره بما حدث وعندئذ هاجم المسلمون الحصن بالمنجنيقات ، وعجز البيزنطيون

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٩ — ١٠٠ ، السيوطى حسن المحاضرة ، ص ٦٦ — ٦٩ ، ابو المحاسن ، النجوم ج ١ ، ص ١٢ — ١٥ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٧ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠١ ، ابو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٢ ، ابو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص ١٦ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٢٩٧ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٢ ، العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢٧ ، العرينى مصر البيزنطية ، ص ٤١٥ ، على ابراهيم ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤١ — ٤٢ .

عن صدهم وقتل المسلمون منهم عددا كبيرا ، وأسروا عددا آخر ، وعندئذ تراجع البيزنطيون واذعنوا للمقوقس ، وقبلوا الجزية ورضوا بالصلح • واتخذ المقوقس من فشل البيزنطيين فى صد الهجوم الاسلامى وسيلة لاستئناف المفاوضات من جديد مع المسلمين ، خاصة بعد أن زادته تلك الهزيمة الجديدة يقينا ، انه لن يستطيع أخراج المسلمين من مصر ، كما أدرك عجز البيزنطيين عن الوقوف فى وجههم ، وبعد أن تبين له ، ما اصاب معارضيه من ضعف العزيمة ، وميلهم الى موافقته ، وبالفعل اتصل بعمرو ليبحث معه أمر الصلح[1] •

وتقرر عقد الصلح على أن يفرض للمسلمين على جميع من بالديار المصرية من المسيحيين ديناران عن كل نفس ، ويستثنى من ذلك الشيخ الفانى ، والصغير الذى لم يبلغ الحلم والنساء ، وللمسلمين حق الضيافة على الروم ، ومن نزل عليه ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليه ضيافته ثلاثة أيام ، وتبقى للروم أرضهم وأموالهم على ما هى عليه ، ولا يتعرض لهم العرب بشىء ، واشترط المقوقس شرطين احدهما : أن تترك للروم فى مصر حرية الاختيار بين قبول شروط الصلح أو الخروج من أرض مصر ، وثانيهما : أن تبقى الكلمة الاخيرة فى قبول الصلح للامبراطور هرقل ، فاذا رفضه كانوا جميعا على ماهم عليه أى عادوا للقتال ، لذلك اتفق الطرفان على أن تبقى جيوشهما فى مواضعها لحين ورود موافقة هرقل • ويتضح من ذلك أن أمر المصريين أصبح مفروغا منه بمقتضى شروط الصلح وأنه اذ كانت هناك ثمة مساومات بين الطرفين ، فسوف تدور حول مصير الروم أو الحامية البيزنطية الموجودة بمصر[2] •

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٢ — ١٠٣ ، ابو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص١٦ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ وانظر بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٩٣ ، العرينى ، مصر البيزنطية ص ٤١٥ — ٤١٦ •

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٣ — ١٠٤ ، سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٥٢ ،

وغادر المقوقس حصن بابليون ، وتوجه الى الاسكندرية عن طريق النيل ومنها أرسل الى القسطنطينية نص الاتفاق مع المسلمين مع تقرير عن الوضع فى مصر ، وعن الضرورة التى حتمت عليه عقد الصلح مع المسلمين ، وطلب من الحكومة الامبراطورية اقرار الصلح .

هذا وتروى المصادر العربية أن هرقل تلقى الرسالة لقاء بالـغ السوء ، وكتب الى المقوقس ، يأمـره بقتال المسلمين بالروم ان أبى المصريون القتال (١) .

وتمضى المصادر العربية فتذكر أن المقوقس لم يعبأ بهرقل ، وأخبر عمرو بن العاص أنه لن يتخلى عن الصلح الذى عقده معه ، وان القبط موفون له ما صالحهم عليه ، أما الروم فقد نبذوا الصلح(٢) .

وتذكر الروايات العربية كذلك أن المقوقس طلب من عمرو أن يعطيه ثلاث خصال هى ان لايبذل للروم ما بذل له ، ولا ينقض بالقبط ، وأن يأمر به اذا مات فيدفن فى كنيسة ابى يحنس بالاسكندرية ، فأجابه عمرو الى ما طلب ، وطلب منه عمرو بدوره أن يقيم له الجسور ما بين الفسطاط والاسكندرية ، وأن يقيم للمسلمين الانزال والضيافة والاسواق ، ففعل ذلك ، وصارت القبط أعوانا للمسلمين على الروم(٣) .

ابو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ، ص ١٧ — ١٩ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

وانظر ايضا : بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٩٣ ، العرينى ، مصر البيزنطية ص ٤١٥ — ٤١٦ ، الرافعى وعاشـور ، مصر فى العصـور الوسطى ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(١) عن نص كتاب هرقل الى المقوقس انظر :
ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٤ — ١٠٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٧١ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٣٠٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٧١ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

هذا فى حين تذكر المصادر البيزنطية أن الامبراطور هرقل علم عن طريق الوشاية بأن كيروس (المقوقس) سلم مصر وأموالها للعرب ، فاستاء الامبراطور ، وأرسل دعوة الى المقوقس للقدوم الى القسطنطينية ليشرح موقفه الذى بلغ حد الخيانة وليحاسبه على ما كان منه ، وأساء الامبراطور استقبال كيروس (المقوقس) ، ووجه اليه هذه التهمة علنا فى حديث أمام الشعب ، أى شعب القسطنطينية ، وحاول كيروس أن يشرح موقفه للامبراطور وأن يبرىء نفسه من تلك التهمة الا وهى تسليم أموال مصر للعرب قائلا : لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون ، فهم قوم الموت أحرص عندهم من الحياة ، أما فيما يتعلق بالمال الذى عرض أن يدفعه للمسلمين ، فانه يمكن تدبيره من متاجر الاسكندرية وبضائعها ، ويعوض بذلك ما خسرته خزانة الدولة . وذكر له أن السبيل الوحيد هو عقد الصلح مع المسلمين ، وان يتزوج عمرو من الامبراطورة اوداكيا أو من احدى بنات الامبراطور وبذلك يتنصر عمرو ويدخل المسيحية ، وعلى الرغم من أن كيروس حاول عبثا تبرير موقفه ، فان الامبراطور نعته بالكفر ، واتهمه بالتآمر على المسيحية والمسيحيين ، وأنه يحاول أن يزوج ابنة الامبراطور من أميرهم ، وغضب هرقل عليه ، وهدده بالقتل وسلمه لوالى المدينة أى مدينة القسطنطينية ليعذبه[١] .

---

(١) Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 518., Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., PP. 28-30.

وانظر ايضا :

Bar Hebraeus, The Chronography, First Part, P. 95.

محبوب المنبجى ، كتاب العنوان منشور فى P.O., T. VIII, P. 471.

بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

من الجدير بالذكر أن المصادر البيزنطية تتخبط فى معلوماتها ، كما لا تعرف ترتيبا للحوادث وما كان منها أولا وما كان منها بعد ذلك ونخص بالذكر هنا ثيوفانيس Theophanis الذى يروى أن مبعوث هرقل الى كيروس (المقوقس) يدعى ما نويل Manuel وهو أرمنى الاصل —

ويعلق بتلــر على مســألة زواج عمرو من احدى بنات الامبراطور وتنصير عمرو ، والتى ذكرها البطريرك نيقفوروس Nicephorus فيذكر بأن هذه دعوة ضالة اذ أن كيروس (المقوقس) لم يكن يجهل ما كان عليه المسلمون فى اسلامهم من ثبات لا زعزعة فيه ، وان قصة يقال فيها أن عمرو بن العاص يتنصر لهى قصة من قبيل الوهم (١) .

أصدر هرقل أوامره الى قادة مصر بأن يبذلوا محاولة أخـيرة لتخليص حصن بابليون غير أنهم فشلوا فى ذلك لانخفاض النيل ، وبالتالى انخفض المــاء الذى بالخندق ، فضعفت آمال المدافعين عن الحصـن ، هذا فضلا عن أن السكان رفضوا اطاعة أوامر القادة البيزنطيين ، وأكثر

وانه ارسله اليه كرسول ليستدعيه ليحاسبه ، وطلب هرقل من مانويل ان يحل محل كيروس فى تدبير أمور مصر . ويروى ثيوفانيس ان المسـلمين مالبثوا أن اشتبكوا مع مانويل حينما امتنع عن أداء الجزية لهم ، فقاتله عمرو فاضطر الى الفرار ، ولجأ الى الاسكندرية مع نفر قليل من الرفاق ، وعندئذ فرض المسلمون الجزية على مصر اذ استولوا عليها . ثم يذكر أن الامبراطور عندما علم بذلك أرسل كيروس ليقنع المسلمين بأن يتركوا مصر ، ويلتزموا بما سبق أن وعدوه به من شروط ، فذهب كيروس الى عمرو واعتذر عـلى مخالفته ، ووعدهم بتوقيع الاتفاق الاول معهم بالقسم اذا قبلوا ، غير أن المسلمين لم يقتنعوا بكلامه وقالوا له : اتستطيع ان تبلغ هذا العمود الضخم فأجاب : لا أنه لا يستطيع أن يبلغه بأى شكل من الاشكال فقالوا له : « ونحن لا يمكننا أن نغادر مصر بأى شكل من الاشكال ، لانهم استولوا عليها بحد السيف ، وعندئذ مضى كيروس (المقوقس) مخذولا .

انظر : Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 518.

والمتأمل لرواية ثيوفانيس هذه يلاحظ أولا أن مانويل هذا كان القائد الذى بعثه قسطنطين بن هرقل بعد اعتلائه العرش وليس هرقل هو الذى بعثه ، وبعثه قسطنطين بعد فتح الحصن ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان كيروس عاد من منفاه بعد وفاة هرقل ، وارسله قسطنطين الى مصر للتفاوض مع عمرو ، وكان أن عقد معه عمرو بالفعل اتفاق الاسكندرية ، ولم يرده مخذولا كما ذكر ثيوفانيس .

Chronique de Jean., PP. 452-55.

مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٩٦ — ١٩٩ ، البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٦٠ ، سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ ٢ ، ص ٢ ، ٣٢ .

(١) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٩٥ .

من ذلك ساعدوا المسلمين فى مهاجمة جانب الحصن المطل على النيل ، اذ دأب جماعة من المغامرين من حزبى الخضر والزرق معا على الاغارة ليلا على جزيرة الروضة ، وانقضوا على السفن البيزنطية التى تتوجه نحو الحصن ، وفى ذلك يذكر الاسقف المصرى يوحنا النقيوسى أن ميناس رئيس العمال (أى الخضر) وقسما به صمويل مبعوث الزرق حاصرا مدينة مصر وضايقا الرومان ... وصعد المحاربون بالسفن ناحية غرب النهر فى عظمة وفخامة وكانوا يتحركون ليلا(١) .

ومرت الايام دون أن يحدث ما يبشر أهل الحصن ، وما يبعث الامل فى نفوسهم ؛ اذ لم يبعث لهم الامبراطور أى امدادات ، ومما زاد الامر سوءا أنه وصلتهم أنباء بموت هرقل ٢٠هـ / ٦٤١م(٢) . فكسر الله بموته — كما تذكر الروايات العربية — شوكة الروم ، وزاد من ضعفهم

---

(١) انظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٩١ .

Chronique de Jean de Nikiou, ch. CXVIII, P. 448.

(٢) يذكر يوحنا النقيوسى أن هرقل مرض بالحمى ، ومات فى العام الحادى والثلاثين من حكمه فى شهر يكابيت عند المصريين الذى يوافق فبراير عند الروم (١١ فبراير ٦٤١م) وذكر أيضا أن الناس كانت تقول أن سبب موت هرقل هو ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك احداها صورته والاثنتان صورتا ابنيه واحد من الجهى اليمنى والاخر من الجهة اليسرى ، ولم يجدوا مكانا يكتبون فيه اسم مملكة الروم ، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاث . هذا فى حين يذكر كل من ثيوفانيس ونيقفورس أن هرقل أصيب بمرض الاستسقاء ويئس من شفائه ، وتوفى فى شهر مارس ٦٤١م بعد حكم استمر ثلاثين عاما وعشرة اشهر وستة أيام ، وتوفى وهو فى السادسة والستين من عمره . ودفن فى كنيسة الرسل الشهيرة ، وظل قبره مفتوحا لثلاثة أيام كما أمر قبل موته وخدمه يحيطون به .

انظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ، ص ١٨٦ .

Chronique de Jean, P. 443.

Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., P. 31., Theophanis, Chronographia, in C.S.H.B., P. 522.

Zanoras, Epitomae, in C.S.H.B., PP. 215-16.

وانظر أيضا :

Chronique de Denys de tell-Mahré, P. 8.

Michel le Syrien, T. II, P. 426., Chronique de Seert, in P.O. T., XIII, P. 629.

ووهنهم وخارت نفوسهم ، هذا فى حين زاد العرب نبأ وفاة هرقل شدة وجرأة ، وضعف من همتهم فى فتح الحصن وفى تلك الاثناء قام الزبير ابن العوام باقتحام الحصن وتبعه المسلمون [1] .

وقضت هجمة الزبير بن العوام على أسوار الحصن على كل أمل للمدافعين واجتمع كبارهم للتشاور فى أمر الصلح ، وعرض جورج قائد القوات المرابطة بالحصن — والذى يسميه المسلمون الاعيرج — عليهم أن يسلم ، على أن يأمن الجند على أنفسهم ، ورحب عمرو بذلك ، واحسن لقاءهم ، وتم الاتفاق على ان يخرج الجند من الحصن خلال ثلاثة أيام ، فينزلون بالنهر ويحملون ما يلزمهم من المؤن لبضعة أيام ، أما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب والاموال فيأخذها العرب ، ويؤدى السكان الجزية للمسلمين ، ويذكر يوحنا النقيوسى أن عمرو بن العاص ، بعث لهم برسالة يؤمنهم على أنفسهم ، وأنه لن يقتلهم ، على أن يتركوا ما بداخل الحصن من عدة للحرب ، وبعد أن خرجوا من الحصن تسلمه فى اليــوم الثانى من عيد القيامة ، ويوافق ذلك السادس من ابريل سنة ٦٤١م [2] .

وعلى هذا النحو حقق عمرو بن العاص باستيلائه على حصــن بابليون نصرا مؤزرا ، اذ يمكن القول أنه بفتح حصن بابليون ، انجــز عمرو الجزء الاكبر من فتح مصر ، وأصبح الطريق مفتوحا أمامه بعــد ذلك الى الوجه البحرى والاسكندرية ، ومن ثم لم يعد أمامه لاتمــام فتح مصر سوى الاسكندرية وبالفعل سار عمرو بن العاص لمحاصرتها ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٤ — ٩٥ سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، جـ ٢ ، ص ٢٣ ، أبو المحاسن ، النجوم ، جـ ١ ص ١٠ .
اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص١٥٤ . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٧٢ .

(٢) انظر مخطوطة يوحنا النقيوسى ص ١٨٩ .
Chronique de Jean, PP. 446-47.
انظر ايضا : ساويروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكنــدرية ، ص ٢٢٩ . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٩٩ ، حسن ابراهيم ، تاريخ عمر بن العاص ص ٩٧ — ٩٨ ، العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤١٨ .

ونجح فى فتحها ، وقد هيأت له ظروف القسطنطينية ذلك ، اذ عانت بعد وفاة هرقل من كثرة الاضطرابات والنزاع حول العـرش بين أبنـائه وبالتالى لم يتفرغ البيزنطيون لامر الاسكندرية مما سهل على عمرو فتحها(١) .

وجاء فى تاريخ ابن عبد الحكم رواية تذكر أن هرقل حاول أن ينقذ مدينة الاسكندرية واعد جيشا ، وقرر الخروج على رأسه بنفسه ، لأنه أيقن أن سقوط تلك المدينة فى يد العرب معناه زوال سلطان البيزنطيين عن مصر ، غير أنه ما ان انتهى من اعداد ذلك الجيش حتى وافته المنية . هذا فى حين أن من المعروف أن هرقل مات قبل أن يستولى المسلمون على حصن بابليون(٢) .

ويجب على الباحث فى ختام هذا الفصل أن يشير الى العوامل التى أدت الى اخفاق البيزنطيين وعجزهم عن مقاومة العرب المسلمين ، ونجاح هؤلاء فى فتح مصر وغيرها من الاقاليم البيزنطية . وفى بداية الامر يلاحظ أن توقيت الفتح الاسلامى لم يكن فى صالح الامبراطور هرقل ، ولا الامبراطورية البيزنطية ، اذ خرج هرقل والامبراطورية من الحرب الفارسية منهوكى القوى ، فقد استنفذت تلك الحرب قواهم ، وفى نفس الوقت كان على هرقل أن يقوم برد دين الكنيسة مما اضطره الى فرض ضرائب جديدة ، وأكثر من ذلك سرح عددا كبيرا من خيرة جنوده ، وممن

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن فتح الاسكندرية انظر :
مخطوطة يوحنا النقيوسى ص ١٩٦ — ١٩٩ .
Chronique de Jean, PP. 452-55.

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١١ — ١٢١ ، الطبرى ، الرسل ، جـ ٤ ، ص ١٠٤— ١٠٦ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق ١ ، ص ٢٥٩ — ٢٦٣ الكندى الولاة ، ص ٩ — ١١ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ، النويرى نهاية الارب ، جـ ١٩ ، ص ٣٠٢ — ٣٠٦ وانظر : بتلر ، فتح العرب لمصر ص ٢٠٨ —٢١٩ ، حسن ابراهيم ، تاريخ عمرو ، ص ٩٩ — ١٠٦ ، العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤١٩ — ٤٣٠ ، بتشر، تاريخ الامة القبطية ، جـ٢ ، ص ١٣٦ — ١٤٢ العدوى ، مصر الاسلامية ، ص ٢٨ — ٢٩ .
سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٢ — ١٤ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص . ١١١ — ١١٢ .

عرفوا بالحنكة والخبرة بشئون القتال ، وذلك رغبة منه فى الاقتصـاد مما ادى الى ضعف الجيش البيزنطى ، هذا فى الوقت الذى شرع فيـه المسلمون فى فتوحاتهم .

يضاف الى ذلك انشغال الامبراطور هرقل بالمنازعات الدينية ومحاولة حل المشكلة الدينية ، فضلا عن تقدم السن بهرقل ، واصابته بمـرض يئس من شفائه فسلبه قوته ونشاطه واقعده طريح الفراش ، هـذا الى جانب ما عانته الامبراطورية من تمرد وفوضى فى داخلها فى أيامه الاخيرة . بل ان هرقل قضى أيامه الأخيرة فى قصر هيريا Hieria خارج القسطنطينية ، ولـما ألح عليه وجوه الشعب بدخول المدينـة ، رفض طلبهم ، واكتفى بأنه كان يرسل أبناءه فى أيام الاعياد الى المدينة ، ليحضروا الصلاة وكذلك الالعاب ثم يعودون اليه ، ولعل ذلك أوجـد المناخ المناسب للتآمر على هرقل ، فقد بلغه أن ابنه Atalarichus والقائد ثيودور Theodorus ابن اخيه ثيودور يتأمـران عليـه لذلك أمر ببتـر انفيهما وايديهمـا ، ثـم نفى ابنـه اتالاريخوس Atalarichus الى جزيرة الامراء ، ونفـى ثيودور الى جـزيرة Gaudomeleten وامر أمير الجزيرة بقطع رجليه عند وصوله ، ونفـذ الحكم على باقى المتآمرين معهما (١) .

هذا فضلا عن أن الامبراطورية قطعت الجرايات والاعانات التى كانت توزعها على القبائل العربية المقيمة على حدودها ، مما جعل تلك القبائل تقلب لها ظهر المجن ، وتعمل عليها لا لها ، كما كانت تعمل من قبل ، وسعت تلك القبائل العربية الى الانضمام الى المسلمين ، خاصـة أنها ترتبط معهم بروابط الجنس والعرق واللغة وصلات التجارة ، وعندئذ امست حدود الامبراطورية البيزنطية بلا دفاع بعد أن تخلى العـرب المسيحيون عن الامبراطورية البيزنطية ، وعن المهمة التى عهدت بها اليهم الا وهى حماية حدودها .

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., PP. 28-29.

كما يجب على الباحث أن يضع فى الاعتبار أن شعوب الولايات الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية ، لم تكن تدين بالولاء لهـا ، نتيجة لسياستها الدينية ، ومحـاولة فرض مذهبهـا عليهم بالقـوة والاضطهاد ، هذا فضلا عما كانت تفرضه عليها من ضرائب باهظة فى الوقت الذى يعرض فيه المسلمون التسامح الدينى ويقرون حرية العقيدة للجميع . هذا وقد أجمل يوحنا النقيوسى ذلك الاسقف المصرى أسباب انتصار المسلمين فى عبارته وهى : « ان ظلم هرقل الملك واضطهـاد الارثوذكس على يد كيروس (المقوقس) كان سبب انتصار المسلمين » (١) كما ان حالة تلك الولايات بلغت أقصى درجات السوء فى ظل الحـكم البيزنطى لهـا ، فعانت من ضعف الجيش ، وفسـاد الادارة وخلل الاقتصاد ، ولذلك صدق من قال ان الفتح العربى « لم يكن معجـزة ولا مثالا للانتقام الالهى لاخطاء المسيحيين ، ولكنه كان مجرد سقـوط لبناء تعفن داخله (٢) » .

والى جانب سوء أحـوال تلك الولايات السياسـية والدينيـة والاقتصادية وسخطها على الحكومة المركزية ، وتفضيلهم للعرب فهم من بنى جنسهم ويتكلمون لغتهم ، ما تمتع به العرب من حماس دينى وحب للقتال فى سبيل اعلاء كلمة الدين مما دفعهم الى الاستشهاد فى سبيله .

* * *

---

(١) انظر نص ترجمة يوحنا النقيوسى فى عمر صابر ، مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى . ص ٢٠٧ .

(٢) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 256.

بل ، مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ، ص ١٩٥ .

الخــاتمــة

يتضح من فصول الدراسة أن أحوال الدولة البيزنطية الداخليــة السيئة ، والاخطار الخارجية المحيطة بها سواء من جانب الفرس أم من جانب السلاف فى ظل حكم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠م) هى التى وضعت هرقل على عرش القسطنطينية اذ استنجد سادة هذه المدينة وأهلها — بعد أن ضاقوا ذرعا بفوقاس وحكمه — بأبيه وسميه هرقل — أرخون افريقية ، وتضرعوا له وتوسلوا من أجل أن يأتى ليخلصهم من حكم فوقاس الجائر • وأرسل هرقل ارخون افريقية ابنه هرقل الى القسطنطينية ، التى فتحت له أبوابها ، فدخلها وما لبث أن اعتلى عرشها أوضحت الدراسه أنه على الرغم من اعتلاء هرقل عرش الدولة البيزنطية عن طيب خاطر من شعب العاصمة وعن رضى من سلطاته المحلية ، الا أن هذا لم يكن يعنى أن هرقل لم يواجه أية عقبات أو مشاكل فى بداية حكمه ، وانها كانت بداية سهلة كما تصــور البعض ، ولكن برهنت الدراسة على أن هناك ثمة حركات للتمرد والاستقلال قام بها أقارب الامبراطور السابق فوقاس ، والذين تصور بعض المصادر أن هرقل قضى عليهم جميعا • حقيقة أن هرقل نجح فى القضاء على تلك المحاولات ســواء أكانت بهدف التمرد أم بهدف الاستقلال عن الامبراطــورية ، ولكن مما لاشك فيه أن حركات التمرد هذه كانت لها خطورتها ، اذ أنها حدثت فى أحرج اللحظات بالنسبة لهرقل وفى الوقت ، الذى كان على هرقل أن يحاول فيه أن يوطد سلطته ويدعم حكمه الجديد •

تبين من الدراسة ايضا أن هرقل اتخذ خطوات جادة فى سبيل اصلاح أحوال الامبراطورية المتدهورة وللقضاء على ما كانت تعانيه من فوضى داخلية • فبعد أن عمل على تثبيت حكمه باحياء نظام الوراثة ليضمن بقاء الحكم فى الاسرة الامبراطورية ، وبعد أن تمكن من انهاء النزاعات بين الاحزاب السياسية سعى بخطوات واسعة لحل المشكلة الاقتصادية واتخذ فى سبيل ذلك اجراءات لم تعهدها الدولة من قبل ، من ذلك أنـــه

الغى الخبز المجانى ، وفرض ضريبة على كل من كان له الحق فى الحصول على الخبز المحلى • والى جانب ذلك سعت الحكومة الامبراطورية فى عهده الى الاهتمام بزراعة محصول القمح والتوسع فى زراعته ، خاصـــة بعد أن ضاعت مصر من الامبراطورية وكانت مزرعة غلالها • وبالفعــل ازدهرت زراعة القمــح فى آسيا الصغرى وفى تراقيا وعلى ســاحل البحر **الاسود** •

وتبين من الدراسة كذلك أن هرقل استحــدث تغييرات هامــه فى الاقتصاد البيزنطى الداخلى بما أدخله من تغيير جذرى فى نظام الطوائف المهنية ، اذ انه وضع قانونا لم تعد بمقتضاه عضوية الطائفة وراثية بل أصبحت اختيارية ووضع شروطا خاصة للالتحاق بالطــائفة • كــذلك استحدث هرقل تحولا مماثلا فى مجال التجارة الخارجية ، فأحل محل The count of commerces عددا كبيرا من المكاتب التجارية المحلية المستديمة فى كل مرفا وميناء هام وفى كل طريق ينتهى الى الامبراطورية ، وكانت هذه المكاتب حرسا للدفاع التجارى اذ ضمنت بها الامبراطوريه استمرار بقاء الاراضى التابعة لها والبعيدة عنها والمحاطة بالاعداء •

أوضح البحث كذلك أن هرقل وضع نظاما اداريا وعسكريا حقق به للامبراطورية الصمود فى وجه الفرس والسلاف ، اذ وفر لها الجنــد الوطنيين الذين يدينون بالطاعة والولاء لبلادهم وليس المرتزقة المأجورين بالمــال • والشيء العجيب ان ما بقى للدولة البيزنطية بعد وفاة هرقل لم تكن انتصاراته فى حروبه مع الفرس ، فقد اختفى مجده العسكرى وراء انتصارات المسلمين العظيمة ، ولكن ما بقى هو نظامه الادارى ، اذ كان هذا النظام هو أساس قوة الدولة البيزنطية وكان له الفضل فى بقائها لقرون عدة • واتضح من البحث كذلك أنه منذ القرن الســابع وعصر الامبراطور هرقل بصفة خاصة اصطبغت الدولة البيزنطية بالصبغة اليونانية •

تبين من الدراسة أيضا أن مساعى هرقل وجهود سرجيوس بطريرك القسطنطينية من أجل ايجاد صيغة مناسبة لتحقيق الاتحاد الدينى بين المونوفيزتيين والارتوذكس لم تؤت ثمارها بل أتت بنتائج عكسية ، اذ فقدت المونوثلستية — أو مذهب الفعل الواحد والارادة الواحـــدة — أهميتها بوفاة البطريرك سرجيوس ٦٣٨م ، ولم يعد لســياسة هرقل الدينية تأثير فى الشرق بعد أن وقعت ولايات الامبراطورية الشرقية ممثلة فى سوريا وفلسطين ومصر فى أيدى المسلمين ، وكانت النتيجة هى انفصال تلك الاقاليم عن الامبراطورية البيزنطية ، وفشلت المونوثلستية فى تحقيق غرضها السياسى وهو ايجاد الوحدة بين شعوب الامبراطورية المسيحية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أسفرت سياسة هــرقل الدينية عن اغضاب البابوية فى روما ، حقيقة أن البابا هونريوس قبل المذهب الجديد ورحب به ، ولكن تنكر له خلفاؤه ، فزاد بسببه ســوء التفاهم والعداء بين الشرق والغرب ، ومهد الطريق للقطيعة التامة بين الكنيسة البيزنطية وكنيسة روما ، وعلى هذا النحو اسفرت سياســة هرقل عن شقاق دينى جديد .

ظهر من خلال البحث كذلك أن هرقل بعد أن اتخذ الاستعدادات اللازمة لحربه مع الفرس — الذين انتزعوا معظم أراضى الامبراطورية وهددوا العاصمة نفسها — خاض ضدهم عدة حملات على مدار ست سنوات ، والحقيقة أن فترة الحرب مع الفرس طالت ويرجع السبب فى ذلك الى اصرار كسرى الثانى ملك الفرس على مواجهة البيزنطيين ، وعجز هرقل عن أن يقاتل فى جبهتين (الفرس والآفار) فى آن واحد . وكان للنصر الذى حققه هرقل على الفرس أصداء بعيدة المدى ، وجعله هذا النصر يدخل التاريخ كبطل عظيم وملك مسيحى ، خاصة بعد تحرير بيت المقدس واعادة الصليب المقدس الى مكانه ، واعادة السلام الى الامبراطورية . ومع ذلك فان حروب هرقل مع الفرس مهدت السبيل لوقوع أقاليم الامبراطورية البيزنطية تحت السيطرة العربية الاسلامية ، اذ خرجت الامبراطورية البيزنطية من حروبها مع الفرس عاجزة عن

مواجهة المسلمين تئن من الانهاك والضعف وتعانى من نقص فى الرجال والامـــوال •

تكشف من خلال الدراسة أيضا أن هرقل تمكن من القضاء على الآفـــار عدو الامبراطورية الثانى ، وهم الذين كانوا يمثلون شبحـــا يهدد القسطنطينية وما لبث هؤلاء أن تواروا تماما من الافق السياسى للدولة البيزنطية ، وانتهوا ككابوس ثقيل مخيف يجثم على صدرها • كذلك اتضح أن شبه جزيرة البلقان شهدت قبائل جديدة أقامت بهـــا بالتدريج ، ومن هذه القبائل الكروات والصرب الذين وطنهم هرقل فى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان كخط دفاعى ضد الآفار ، واعتنق الكروات والصرب المسيحية ، واصبحوا اتباعا للامبراطورية •

اتضح من البحث ايضا أن ظهور الاسلام والمسلمين كقوة جديدة فى الافق السياسى للدولة البيزنطية هدد كيانها ، واطاح بانتصارات هرقل على الفرس وقلل من شأنها اذ نجح المسلمون فى انتزاع الولايـــات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية ، التى قضى هرقل ست سنوات فى حروبه مع الفرس من أجل أن يعيدها الى حظيرة الامبراطورية • وقد هيأت أحوال الدولة البيزنطية — فى ذلك الوقت — الفرصة للمسلمين ليحققوا ما حققوه من انتصارات ، فالامبراطورية تئن من الآثار التى خلفتها الحروب مع الفرس ، والامبراطور ضعفت قواه وأصابه المرض ، بل وافته المنية والمسلمون يحاصرون حصن بابليون ، وأصبح البلاط البيزنطى مسرحا للدسائس والمؤامرات والفتن •

* * *

ملاحق الدراســة

الملاحق

الملحق الأول :

خطاب السناتو الى كسرى ٦١٥م ٠

الملحق الثانى :

خطاب هرقل الى شعب العاصمة (٨ ابريل ٦٢٨م)

الملحق الثالث :

رسالة شيرويه الى الامبراطور هرقل (٦٢٨م) ٠

الملحق الرابع :

رسالة سرجيوس الى كيروس (٦٣٣م) ٠

الملحق الخامس :

رسالة سرجيوس الى هونريوس بابا روما (٦٣٣ — ٦٣٤م) ٠

* * *

الملحــق الأول

خطاب السناتو الى كسرى (٦١٥م) (١)

« ان الله الذى خلق كل شيء بقدرته ، منح بجوده الجنس البشرى عملا نبيلا ألا وهو سياسة الممالك ، وبهذه السياسة تتوفر لنا الحــلول لكل المشاكل التى قد تعترضنا .. وقبل كل شيء نتوســل لسيادتــكم ولعطفكم العظيم ، أن تتنازلوا وتصفحوا عنا ان كنا تقدمنا لجلالتكم بهذا التعبير الذى لم يعهده الملوك السابقين من قبل .

اننا لانجهل أن الخلافات التى كانت تنشب بين المملكتين فى القرون والأزمنة السالفة ، كانت تحل عادة باللقاءات مشتركة من قبل الطرفين . وقد خالف فوقاس ذلك ، فهو مغتصب الامبراطورية الرومانية ، اذ هاجم عاصمتنا هذه بعد هلاك الجيش الرومانى (البيزنطى) فى تراقيا ، وقتل موريقيوس ، ملكنا الصالح ، وزوجته وأولاده وآقاربه ، وعددا غير قليل من كبار رجال الدولة ، ولم يكتف فوقاس بارتكاب جريمته الشنعــاء هذه بل لم يرد أن يؤدى لجلالتكم الاحترام الواجب .

مما أدى الى هجومكم علينا بسبب خطايانا ، وصارت شئون الروم الى ما صارت اليه من الاضمحلال والضعف . فلما علم ذلك ملكنا الحالى هو ووالده الخالد الذكر ورأى الوباء ، الذى سببه سلفه قرر تخليص الامبراطورية الرومانية من شدائدها هذه ، وفعل ذلك على الرغم ممــا وجده فيها من خراب سببته جلالتكم . وقرر امبراطورنا — بعد مــوت الطاغية — العودة الى والده فى افريقية بصحبة ذويه ، وأوصانا أن نعين **أى امبراطور نشاء . وكان قد قبل الامبراطورية على مضض ونزولا** على طلبنا ، ولكن حال الاضطراب والفوضى والفتن الداخلية التى سادت

---

(١) Chronicon Paschale, I, in C.S.H.B., PP. 707-709.

الملكتين بينه وبين أن يؤدى لجلالتكم العظيمة السنية ما كان عليه من واجبات الاكرام والاحترام مباشرة أو عن طريق سفارة .

وكان قد سبق لنا أن قررنا نحن الرجال المتواضعون أن نرفع توسلاتنا الى جلالتكم القديرة ... وقررنا أن نرسل اليكم رجالا يلقون القبول عندكم ، ولكننا لم نستطع تحقيق رغبتنا هذه الى يومنا هذا ، بسبب ماجرى فيما بعد من احداث ، ولكن بعد ان قدم شاهين قائد الجيوش الفارسية الى تخوم خلقدونية ، تحدث الينا امبراطورنا الصالح وطلب منا بل ومن الجميع أن نسعى الى السلام . على أن شاهين أجابه بأنه لم يمنح أى صلاحية فى هذا الشأن (أى لم يعهد اليه بذلك) ولكنه سوف يرفع طلبنا الى جلالتكم ، أما الآن فقد وصلنا الرد مع Spadadovar مؤكدا باليمين والقسم أن جلالتكم أمرته بأن يستقبل من نرسلهم لجلالتكم كما يليق ، وان يعيدهم الينا سالمين ، واعتمدنا نحن على الوعود ، واعتمدنا على الله وعلى عطفكم قبل كل شىء .

وأرسلنا رجالنا وهم :

أوليمبيوس Olympius نائب القنصل ورئيس الشرطة .
والسيد ليونتيوس Leontius البطريق ونائب القنصل Ex-consule
ووالى المدينة الشيخ المبجل اناستاسيوس Anastasius
وسينكلوس Syncellus فنرجوا من جلالتكم أن تستقبلوهم كما ينبغى ، كما نتوسل اليكم أن تعيدوهم الينا سالمين فى أقرب فرصة ومعهم السلام ، الذى يرضى الله ويليق بجلالتكم المحبة للخير ، كما نرجو وداعتكم أن تعامل هرقل ملكنا الصالح كأخ ، وهو مستعد لأن يؤدى الاحترام الواجب فى كل شىء لجلالتكم . واذا ماتم ذلك ستحوز على مجدين : قوة الحرب وقبول السلام .

أما نحن فسوف نحظى — فيما بعد — وبفضل مساعيكم الكريمة الخالدة الذكر — بالهدوء وننعم به ، وتتاح لنا الفرصة لرفع الصلوات

وتقديمها لله ليمد فى عمركم ، ولن ننسى احساناتكم طالما بقيت مملكة الروم » .

الملحق الثـانى

خطاب هرقل الى شعب العاصمة (فى ابريل ٦٢٨م (١))

« افرحى للرب ياكل الارض ، اخدموا الرب بالفرح ، ادخلوا أمامه بالابتهاج ، اعلموا أن الرب هو الله الذى خلقنا لم نخلق نحن أنفسنا ، نحن شعبه وغنم رعيته ، ادخلوا فى خيامه بالاناشيد ، واعترفوا له ، وسبحوا اسمه لأنه المسيح الرب والى الابد رحمته ، ومن جيل الى جيل حقيقته . لتفرح السموات والارض وليبتهج كل ما فيها ، ولنسبح نحن المسيحيين ولنبارك ونشكر الرب وحده ، ونبتهج باسمه القـدوس ابتهاجا عظيما ، اذ سقط كسرى عدو الله ، وذهب الى الجحيم ، وزالت ذكراه من الأرض ، ذلك المتكبر والمتفوه بالكفر كبرا وازدراء ضد ربنا يسوع المسيح الاله الحق وضد امه الكريمة ، سيدتنا المباركة والدة الرب مريم البتول الدائمة .

لقد هلك الكافر جلدا بالسياط ، وانقلب على رأسه ... ذلك أنه فى ٢٤ فبراير الشهر المـاضى — حيكت ضده مؤامرة من قبل ابنه البـكر شيرويه Syroe كما ذكرنا لكم فى رسالة أخرى ، اذ جمع شيرويه وجوه الفرس جميعهم ، وسائر الجيش والقوات من جميع المنـاطق التى ما لبثت أن تخلت عن كسرى ، وانضمت الى شيرويه مع القائـد العام لجيوش فارس ، وهو جور داناسبا Gurdanaspa . ولمـا حاول

---

(١) Chronicon Paschale in C.S.H.B., PP. 727-34.

ومن الجدير بالذكر ان هناك ترجمة حرفية لهذا الخطاب قام بها Stratos, Byzantium, PP. 381-83.

— قرأ هذا الخطاب فى كنيسة القديسة صوفيا فى ١٥ مـايو ٦٢٨ م يوم عيد العنصرة .

كسرى — عدو الله — الفرار قبض عليه وزج به فى السجن فى قلعـــة جديدة شيدها هو نفسه ، ليخفى فيها ما جمعه من أموال وكنوز .

وتوج شيرويه فى الخامس والعشرين من شهر فبراير نفسه وعين ملكا . وفى الثامن والعشرين من نفس الشهر وبعد أن قضى كسرى — الذى يبغضه الله — أربعة أيام فى السجن ، ذاق خلالها كل صـــنوف العذاب ، أمر شيرويه بقتل كسرى المتكبر الكافر المـــاكر عدو الله شر قتلة . ليعلم أن يسوع ولد من مريم ، وان اليهود صلبوه — كما سبق أن كتب هو نفسه بغية الذم والسب ، وانه الله القادر على كل شىء ، وعلينا أن نكرمه كما سبق أن كتبنا له . هاهو عدو الله هذا قد هلك ، وذهب فى طريق يهوذا الاسخريوطى Judae Iscariotae الذى سمع الرب القادر على كل شىء يقول له : خير لذلك الانسان لو لم يولد وذهب الى النار التى لاتنطفىء والمعدة لا بليس ورجاله .

وفى مرسوم آخر صدر منا لكم من معسكرنا فى كانزاك Ganzaca المتضمن لوثائقنا ورسائلنا من ١٧ اكتوبر حتى ١٥ مارس ، ذكرنا لكم فيه كيف انقذنا الله وسيدتنا العذراء والدة الرب مع جيشنا المحبوب ، وكيف أن كسرى ، عدو الله — والذى يستحق أن تخرج جثته من القبر ، هزم فى داستاجرد ، وهرب أمام أعيننـــا الى طيسيفون Ctesiphon وخربت قصوره وجميع بلاد مملكة الفرس ، واخيرا استطاع شيرويه Siroe أن يتزعم المؤامرة التى حيكت ضده .

وبعد اصدار مرسومنا هذا ، وارساله فى يوم ١٥ مارس الجارى ، أرسلنا — فى أثناء استطلاعنا لمـــا يجرى بين كسرى وشيرويه — ارسلنا الى اماكن عديدة ..... والى عدة طرق من معسكرنا المزدهر ، والى مناطق العرب Saracen التابعة لمملكتنا ... ، وذلك لنطلع عـــلى ما يجرى بها من أمور .

وفى يوم ٢٥ من شهر مارس نفسه أوفدنا اليه هو ورجاله سيادة القائد الياس Elias المعروف بـــ Barsoca وثيـــودور Theodorus

وهــو قائــد الف مــع نخبــة من الشــبان ، ومعهــم عشرون من الخيول المهرة ، ليأتوا بهم الينا ، كما قررنا أن نجعــل بصحبتهــم جوسداناسبان Gusdanaspan بن روس Rusei ، وهو من قادة الجيش الفارسي وكان قد جاء الينا أثناء الفتنة الأولى أو المؤامرة التى قام بها شيرويه ضد كسرى •

وجاءنا فى اليوم الثلاثين من شــهر مارس ، ونحن فى معســكرنا بالقرب من كانزال تقرير من الياس Elias وثيــودور Theodorus جوسداناسبان Gusdanaspan ذكروا فيه أنهم صادفوا فى جبل زارا Zara ثلوجا كثيفة ، وانقذهم من هذه الثلوج رجل جاء من احدى قلاع الفرس ومعه خيول واخرجهم من الثلوج •

وأتى المستطلعون الى معسكرنا بالقرب من كانزال Canzaca برجل فارسى وآخر ارمنى ، وقام هذان الرجلان بتسليمنا رسالة كتبها فارس يدعى خوسدا Chosdae وارسلها الينا معهما وقد جاء فيها : أنه مرسل هو ورجاله من قبل شيرويه — الذى عين ملكا على الفرس — وأنه عندما وصل الى Arman رأى أن يرسل لنا هذين الرجلين ، وطلب منا أن نعيدهما اليه والى ذويه سالمين فيما بعد • ولمــا رأينــاء خائفا لأنه فى أثناء الطريق رأى جثثا كثيرة من الفرس ، يبلغ عــددها حوالى ثلاثة آلاف ، قتلهم رجالنا فى نواحى Narba (النهروان) ، وأنه يخاف أن يقابلنا بلا حراسة •

أما المندوبون أو الرسل — الذين أرســلهم الملك شــيرويه — فمازالوا على مقربة من تلك المنطقــة ، ولكنهم لم يستطيعوا عبور جبل زارا لكثافة الثلوج • وقد فهمنا من ذلك أننا نحن احباء المسيح نلنــا مع جيشنا كله الرحمة والعطف من الله تعالى ، وأصبحنــا فى آمان تام ، ذلك لأننا لو اتجهنا الى جبل زارا ثم اصطدمنا بهذه الثلوج الكثيفة ، ولم نجد المؤن فى مثل هذه الاماكن الوعرة لاصبحنا فى موقف حرج ، فقد ظلت الثلوج تتساقط منذ غادرنا معسكر Siarsuris أى منذ ٢٩ فبراير حتى ٣٠ مارس ، ولكننا عندما وصلنا الى منطقة كانزاك وجدنا

بعونه تعالى مؤنا وافرة للرجال والخيول .

ومكثنا فى مدينة كانزاك نفسها — وهى مدينة غير صغيرة تضم ثلاثة آلاف منزل أو اسرة ، كما مكثنا فى ضواحيها وفى القرى المحيطة بها وبذلك تسنى لنا أن نقضى هناك عدة أيام . وامرنا رجالنا .. أن يأووا بخيولهم فى المدينة بسبب الثلوج بحيث لم يبق فى المعسكر سوى بعض الرجال بخيولهم . ونظرا لأن المعسكر كان قريبا من المدينة ، فان حاكم مدينة كانزاك أى باريسمان Barisman وأهل المنطقة كلها عندما علموا بأننا عبرنا جبل زارا Zara انسحبوا واعتصموا بالجبال وبالقلاع الحصينة . ولما جاءنا ذلكما الرجلان الموفدان من قبل شيرويه ملك الفرس ، ارسلنا أحدهما أى الفارسى مع رفاقه الى حاكم كنزاكا أو كنزاك — وكانت تبعد أربعين ميلا — أرسلنا اليه حيث كان مختبئا فى أحد الحصون — رسالة نأمره فيها بأن يعد سبعة خيول للسفراء ليتمكنوا من الذهاب الى الملك شيرويه فى الحال وبلا عراقيل .

فلما وصل منـدوبو الامبراطور الى باريسـمان Barisman (حاكم كانزاك) حاملين رسالتنا اليه ، استقبلوا ، هم والرسل الذين ارسلهم شيرويه ملك الفرس بالهتاف الذى استمر سـاعات ، اذ أن الرسول الفارسى أكد لهم أن كسرى عدو الله هلك ، وأن شيرويه عين ملكا . ثم رد علينا باريسمان انه أعد الخيول كما أمرناه ، وانه سـوف يأتى فى الحال عندنا ومعه الخيول ، ويقدم لنا كل الخدمات عندما نخبره بوصول السفراء .

وفى الفصل الثالث من ابريل ، وبينما نحن فى معسكرنا بالقـرب من كانزاك وصل فاياكوس Phaiacus .... حوالى الساعة الثامنة مساء يوم الاحد . وفى نفس الوقت الذى استقبلناه فيه سلمنا خطابا من ملكه شيرويه (قباد) ، يعلن فيه أنه أصبح ملكا على الفرس وأنه يعرب عن رغبته فى السلام .

وأقمنا فى هذا المعسكر — بالقرب من كانزاك — حتى السابع من ابريل ... وفى الثامن من ابريل اذنا لفاياكوس ... بالرحيل ، واحسنا معاملته هو ومن معه اذ كان من بينهم شخصيات هامة ، وامرنا السكرتير الأول Eustathius بأن يذهب معهم ... وانطلقنا بارادة الله من معسكرنا فى الثامن من ابريل ، عازمين على اتخاذ طريق ارمينية ... » .

الملحق الثالث

نسخة من رسالة قباد المدعو شيرويه ملك الفرس الصالح الى الامبراطور هرقل (1)

من قباد Cabat الشاهنشاه الى أخيه هرقل الرجل القديس حفظه الله امبراطور الرومان له الشكر العظيم .

الى امبراطور الرومان القديس واخينا :

« لقد منحنا التاج المعظم بعونه تعالى وبلا أى جهد من طرفنا ، واعتلينا عرش آبائنا واجدادنا ، وعرفانا منا بما أغدقه الله علينا من احسان عظيم حتى وصلنا الى هذا العرش وهذه المملكة العظيمة ، أمرنا وبرضى منا ، ولحبنا للخير ، أن يتم وينفذ كل ما يعود بالمصلحة والخير على الجنس البشرى ، وعلى قدر استطاعتنا وامكانياتنا .

وعندما رفعنا الله الى هذه المكانة السامية والى عرش هذه المملكة قررنا أن يطلق فى الحال سراح جميع من بداخل السجون (أى الاسرى) . وان كان هناك ما يعود بالنفع على الجنس البشرى ، فى حدود امكانياتنا . ولم نكتف بذلك بل امرنا بتنفيذ ما أمرنا به بالفعل . بل وقررنا التمسك بالصداقة والسلام يأخنا ملك الروم ، ومع مملكة الروم ، ومع جميع الشعوب وجميع الملوك المجاورين لبلادنا .

(1) Chronicon Paschale, In C.S.H.B., PP. 735-36.

أما بالنسبة لقولكم ياسيادة امبراطور الرومان أن السعادة غمرتكم لاعتلائنا العرش ... [1] .

الملحق الرابـــع

رسالة من سرجيوس بطريرك القسطنطينية الى كيروس بطريرك الاسكندرية [2]

نص رسالة كتبها سرجيوس مطـــران كنيســـة القسطنطينية الى كيروس من بطاركة الاسكندرية ، يمدحه فيها من أجل مذهب الفعــل الواحد .

لقد استلمنا كتاب قدسكم كرمه الله بنعمة من الروح القدس ، كما علمنا بالجهد الذى يبذله ملكنا السعيد برضى الله وبفعل ارشـــاده ، وبما جرى فى كنيسة الاسكندرية العظمى المحبوبة .. والمملؤة بالايمان الارثوذكسى ، وبما حدث فى المناطق كلها ، وبصفة خاصة هؤلاء الذين كانوا يدعون من قبل باتباع ثيودوسيوس ، والذين انضموا الى الكنيسة الرسولية الارثوذكسية الجامعة . لقد غمرتنا سعادة روحية لا توصـــف من أجلهم ، ونتقدم لله القادر على كل شىء ولمخلصنا يسوع المسيـــح بالشكر من كل قلوبنا ، وذلك لأن جدار الخلاف والشقاق سقط أخيرا .

ذلك الجدار الذى حاول به العدو الفصل بين الاخ وأخيه ، والآن فقد اتحدوا معا ، وأصبحوا جميعا بشفة واحدة ولسان واحد يرفعون الاعتراف الصالح والتسبيح للثالوث المجيد كما يجب ، ويعظ الجميـــع فى اتجاه واحد ، لرب واحد ، وايمان واحد ، ومعمودية واحدة . وقد

---

(١) المخطوط تالف .

(٢) Mansi, Sacrorum Conciliorum Novaet Amplissima collectio, T.X, Cols. 971, 74, 75.

قرات هذه الرسالة فى الجلسة الثالثة لمجمع اللاتيران (٦٤٩م) .

استمدوا هذا من المجامع المسكونية المقدسة المنعقدة بنعمة من الروح القدس ، والتى اعلنت نفس الايمان الارثوذكسى الواحد وهى مجمع نيقيه ، ومجمع القسطنطينية ، ومجمع افسوس الأول ، ومجمع خلقدونية، ثم مجمع القسطنطينية الثانى المنعقد أيام جستنيان المقدس الذكر [1] • حيث ازيلت كل العقبات كما تزال الحجارة من الطريق ، ومهد السبيل كل التمهيد للوحدة المحببة لله ، ولكم بهذا الخصوص كل الفضل والأجر العظيم من عند الله •

لقد أعلنتم فى كتاباتكم ، ونفضل أن نستعمل نصكم نفسه ، أنه لابد من الاعتراف بالاب والابن والروح القدس ، والثالوث الجوهر الواحد ، والاله الواحد فى ثلاثة اقانيم ، وان الاله الحقيقى من هذا الثالوث ، الذى ولد من الأب قبل الدهور نزل فى آخر الزمان من السماء وتجسد بالروح القدس ، واخذ الجسد من مريم سيدتنا فى الحقيقة ووالدة الله الدائمة البتولية ، وصار مساويا لنا فى الجسد واتصل العقل به منذ الحمل فى اتحاد طبيعى وجوهرى وولد منها كائنا غير مجزأ كاملا فى الالهية ، وكاملا فى الانسانية ، وهو قابل للالام وغير قابل لها حسب النظر اليه ، كما قال القديس كيرلس : يتألم فى الجسد الانسانى لأنه انسان ولا يتألم كآلة رغم تألمه فى الجسد كانسان ، ثم ان هذا المسيح نفسه يفعل الافعال التى تليق بالاله وبالانسان بفعل واحد ، لأن الاعمال كلها سواء كانت الهية أم انسانية تنبثق عن الاله الكلمة الواحد المتجسد •

---

(١) عقد مجمع نيقيه فى عام ٣٢٥م ، ومجمع القسطنطينية الأول فى ٣٨١م ، ومجمع افسوس فى عام ٤٣١م ، أما مجمع خلقدونية فعقد فى عام ٤٥١م ، ومجمع القسطنطينية الثانى فى ٥٥٣م ، وعن هذه المجامع أنظر :

الياس كساب ، مجموعة الشرع الكنسى ، ص ٤١ ، ٢٤١ ، ٢٨٨ ، ٣٦٤ ، ٤٤٦ •

واعتنق هذا المفهوم المقدس وعلمه القديس ليو طيب الذكر رئيس مطارنة روما حيث قال : « يفعل الطبيعتين فى شركة متبادلة » (١) ولذلك فقد احسنتم أن أعلنتم اكرام المسيح الواحد فى طبيعتين : الهية وبشرية ، واعترفتم بطبيعة الآله الكلمة الواحدة المتجسد ، وفقا لتعاليم كيرلس طيب الذكر (٢) ، واعترفتم بالاقنوم الواحد المركب أى ربنا يسوع المسيح نفسه ، الواحد من الثالوث ذى الجوهر الواحد ، ولذلك احسنتم باعلانكم عن ايمانكم بالطبيعتين ، ولم تجعلوا هناك تفرقة ، كما أعلن الحكيم كيرلس Cyrillus ، وقد بحثتم ذلك بحثا عقليا وشرحتم رأيكم الحقيقى فى الوحدة الطبيعية الجوهرية ، التى لا تقبل التحول أو الاختلاط . .

---

(١) أما نص رسالة ليوبابا روما (٤٤٠ — ٤٦١م) والتى اعتبرت عمود الارثوذكسية فهو على النحو التالى « ان كل طبيعة منهما قائمة بالاشتراك والاتفاق مع الأخرى ، فالتى لها خواص الكلمة تعمل فى ما هو من وظائف الكلمة ، أما الجسد فيعمل حسب وظائف الجسد . وهكذا فاحداهما تشرق بالعجائب فى حين أن الأخرى تتألم عندما يساء اليها أو تهان . . وكما أن الكلمة هو ، غير منفصل عن مجد الآب ، هكذا جسده لم يهجر ولم يترك طبيعتنا البشرية . وفى الامكان أن يقال حقا انه هو نفسه الواحد ابن الله وهو نفسه الواحد ابن الانسان . هو اله باعتبار انه كان فى البدء الكلمة ، والكلمة كان عند الله والكلمة كان الله ، فى حين أنه انسان باعتبار أن الكلمة صار لحما وسكن بيننا » .

أنظر الياس كساب ، مجموعة الشرع الكنسى ، ص ٣٦٧ .

(٢) كيرلس بطريرك الاسكندرية (٤١٢ — ٤٤٤م) .

الملحق الخامس

رسالة سرجيوس بطريرك القسطنطينية
الى هونريوس بابا روما[1]

نظرا لاننا متفقون معكم فى القدسيات كلها ، ومرتبطون واياكم بالروح فاننا نحاول فى مساعينا كلها واعمالنا ، ان نتخذكم أولياء لنا : ولولا بعد الاماكن التى تفصل بيننا لكتبنا لكم كل يوم ، لتوطيد أواصر الوحدة فيما بيننا ولكن ... سوف نذكر لكم فى الحال الغرض من هذه الرسالة . قام سيدنا منذ فترة محددة بمهاجمة الفرس بتأييد من الله واندفع بجيشه الظافر فى حروب ... لصالح الامة المسيحية ، ووصل الى بلاد ارمينية ، حيث ظهر فى تلك البلاد أحد الامراء المـوالين للكافر سفرى Severi ويدعى بولس ، وفعل كل شىء فى سـبيل نشر بدعته .

لذلك فان سعادته الملكية ، التى ذودها الله بنعمة معرفة اللاهوت أيضا — بعد أن ردعه وانتقض كفره الفاضح أعلن له حقائق كنيستنا المقدسة كما يليق بمدافع عن الدين ، وذكر له فيما ذكر قضية الفعـل الواحد فى المسيح الكلمة .

وبعد مدة من الزمن وصل سيدنا الملك المذكور الى اقليم لازيقا ، وذكر الحوار الذى دار بينه وبين بولس الهرطقى المذكور فى حضور كيروس القديس الذى كان مطرانا على اقليم لازيقا ، أما الآن فهو على كرسى الاسكندرية الكبرى . فلما سمع هذا الانسان القديس (أى كيروس) ما قاله الامبراطور ، رد على سعادته بأنه لا يعرف على وجه الدقـة أن لابد أن نقول أن فى المسيح الرب فعلا واحدا أم فعلين .

---

(١) Mansi, Sacrorum Conciliorum, T.XI, PP. 530-38.

جاء نص هذه الرسالة ضمن المجمع المسكونى السادس (٦٨٠ م) . وكتب فى الحال بعد ارتقاء صفرونيوس بطريركية بيت المقدس (٦٣٣ — ٦٣٤م)

فأمرنا سعادته أن نبعث برسالة له نقول له فيهـا ، اذا كان فى المسيح المخلص فعل أم فعلان ، وان كنا نعرف أن هناك أحدا من الآباء قال بالفعل الواحد ونرسل له بذلك • وبناء على ذلك ذكرنا له فى رسالة كلمة ميناس القديس (١) الذى كان بطريركا فى هذه المدينة الملكية ، الى فيجيلوس بابا روما وذكرنا له أيضا عدة استشهادات من الآباء عن الفعل الواحد والارادة الواحدة فى يسوع المسيح مخلصنا • ولم نعلن شيئا خاصا فى قرارتنا هذه ، وتستطيعون أن تتأكدوا من ذلك بقراءة النسخ المقدسة التى أرسلت اليكم ••

لذلك حث أخونا وشريكنا فى الكهنوت القديس كيروس بطريرك مدينة الاسكندرية الكبرى جميع من اعتنقوا هرطقة أوتيخا Eutychetis وسـفر Severi ويوليـان Juliani المغضوب عليهم فى مدينة الاسكندرية على اعتناق المذهب الكاثوليكى وترك الهرطقة ، وذلك بايعاز من سيدنا الامبراطور العظيم الظافر ، الغيور ، القوى بفضـل الله ونعمته ، والذى يريد الخلاص لجميع الناس والوصول الى معرفة الحـق •

وبعد مناقشات كثيرة •• دارت حول هذا الموضوع •• حررت بين الطرفين بنود معينة جمعت كل الاطراف والكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة الجامعة المقدسة ، وجميع الشعب الحبيب للمسيح فى مدينة الاسكندرية حيث أصبحوا جميعا قطيعا واحدا لربنا المسيح ، وكذلك مصر كلها وطيبة وليبيا ومقاطعات مصر الاخرى التى كانت منشقة من قبل بسبب هرطقات لا تحصى • أما الآن فبرضاه تعالى وبفضل مساعى مطران الاسكندرية القديس السابق الذكر ، أصبح جميعهم بلسان واحد وصـوت واحد يعلنون عقائد الكنيسة القويمة بوحدة الروح •

---

(١) شغل ميناس منصب بطريرك القسطنطينية فى الفترة من (٥٣٦ — ٥٥٢ م) •

ومن هذه البنود المذكورة والمقررة بند خاص عن الفعل الواحد فى المسيح ربنا والهنا ومخلصنا •

ولما تم ذلك قام صفرونيوس الراهب المبجل – الذى كان قد عين مطرانا على مدينة بيت المقدس – واعترض على بند الفعل الواحد ، مدعيا أنه لابد من اعلان فعلين فى المسيح ربنا ، وحدث ذلك عندما كان موجودا بالقرب من الاسكندرية •• حيث كان يسعى لتوحيد الهراطقة بعونه تعالى • وذكر له القديس المذكور (أى كيروس) أدلة من بعض أبائنا القديسين الذين يؤيدون فى كتب كثيرة لهم الفعل الواحد •• غير أن صفرونيوس المذكور لم يقبل هذا التصرف بأى شكل من الاشكال •

واتى الينا ومعه الرسالة التى بعثها لنا زميلنا القديس ، والح على مناقشة هذا الموضوع والبت فى أمر هذه البنود ، وعلى الرغم من أن صفرونيوس عارض الفعل الواحد ، الا أنه بدا لنا أن الحديث عن حذف الفعل الواحد بعد الاتحاد أمر مستنكر وصارم ، وكيف لا يكون مستنكرا وثقيلا وهو يدمر كل ما تم من اتفاق واتحاد ، تم التوصل اليه بين الاسكندرية المدينة الكبرى وجميع ما يتبعها من أقاليم حتى الآن •• وان قبول القول بالفعل الواحد سوف يدمر ما جاء فى مجمع خلقدونية وما قال به القديس ليو •

وبعد أن تحدثنا مع صفرونيوس المذكور فى هذا الموضوع حديثا طويلا طلبنا منه أخيرا أن يورد لنا استشهادات الآباء القديسين ، والآباء المقبولين أى جميع الذين نتفق فى اعتبارهم معلمين ، والذين تعتنق كل الكنائس تعاليمهم ، استشهادات تنص حرفيا على وجود فعلين فى المسيح ، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك بالمرة •

أما نحن فلما رأينا أن ثمة خلاف سوف ينشب بين بعض الفرق ، فقد وجدنا أنه من الضرورى بذل جميع المحاولات لمنع النزاعات التى قد تنشب وتنجم عن مثل هذه الامور ، وقطع الطريق أمام الصراعات الكلامية ، التى لاضرورة لها • ولذلك كتبنا الى بطريرك الاسكندرية

القديس السابق الذكر — أكثر من مرة — والذى أتم بعونه تعالى الاتحاد مع الذين كانوا قد انفصلوا — طالبين منه ألا يسمح بأن يذكر فى المسيح الهنا فعل أو فعلان بل يذكر سيدنا المسيح الاله الحق والابن الواحد، الذى وضع الالهيات والانسانيات (يفعل كل ما يليق بالله من أعمال والاعمال اللائقة بالانسان الصادرة عن أله واحد ، الكلمة المتجسد من غير انقسام) ، وذلك على ما جاء فى المجامع المسكونية المقدسة • وذلك لان لفظة الفعل الواحد مع ورودها لدى بعض الآباء القديسين الا أنها تبدو غريبة ، وتزعج مسامع بعض الناس (وانه منعا لذلك يفضل اعلان الطبيعتين ووجدهما فى المسيح الاله بلا تجزؤ وهذا لم يكن ولن يكون)

وكذلك يشكك لفظ الفعلين الكثيرين ، ولأنه لم يرد لدى أحد من الآباء القديسين ومعلمى الكنيسة المقبولين ، مما ينتج عنه أن يقال بارادتين مختلفتين فى شىء واحد •• وهذا كفر ، لأنه من المستحيل أن يكون فى كائن واحد ارادتان • ذلك لآن تعاليم الآباء ••• تبين فى وضوح أن ارادة المسيح الانسان لم تأت بشىء مضاد ومخالف لارادة المسيح الآله •••

ولما رأينا نشوب هذا الخلاف واحتدامه كما ذكرنا ، رأينا أن نتبع بالأخرى أقوال الآباء القديسين التى أقرتها المجامع ، دون اعتبار للأقوال المنفردة لبعض الآباء • • • • • • • • •

قياسا وقانونا وتعليما يشمل الجميع بما فى ذلك اقرارهم للفعل الواحد (أو ولو أقروا حتى بالفعل الواحد) كذلك دون اعتبار لما قاله بعض الآباء المقبولين سالفا ويردده غيرهم الآن عن الفعلين ••

واخيرا فقد أقر صفرونيوس المذكور المحترم ، وفضل ألا يؤتى بأى ذكر للفعل أو للفعلين بل يكتفى بأقوال الآباء القديسين السابقة الذكر فى تعاليمهم وتقاليدهم • ولما رضى هذا الأب المذكور المحترم بذلك ، واكد على وجوب اعتناقه ، طلب منا أيضا ، أن نرد عليه بخصوص هذا الموضوع

فى رسالة قائلا : ان هذه الرسالة سوف تكون بمثابة وثيقة لمن يسأله عن هذه القضية ، وفعلنا ذلك فى الحال •

وكان سيدنا الذى كان على مقربة من الرها ، قد أرسل الينا رسالة كريمة طالبا منا ، أن نذكر أقوال أولئك الآباء ، والموجودة فى كتاب العقائد كما قلنا والذى حرره القديس ميناس طيب الذكر وأرسله الى القديس فيجيلوس (١) عن الفعل الواحد والارادة الواحدة ، وان نرسله الى جلالته التى يؤيدها الله ، وقد نفذنا الأوامر ••

ثم اننا عندما كنا نذكر ما نشب من خلافات ، ونعرف ما نتج عن هذه الخلافات من بلبلة ، أرسلنا الى جلالته المقدسة بنصيحتنا المتواضعة ، وكتبنا الى رئيس ديوان الامبراطور بخصوص هذا البند الدقيق ، ذاكرين كل ما فعلنا بهذا الخصوص ، ومؤكدين أنه لا يجوز البحث والاستقصاء حول هذه القضية ، بل الاعتماد على تعاليم الآباء المشهورة ، التى نتفق جميعا فى اعتناقها بالنسبة لهذا الموضوع •

ونعترف أن ابن الله الوحيد الذى هو حقا اله وانسان معا ، هو نفسه يعمل الأعمال الآلهية والانسانية ، وان كل الافعال الهية والبشرية تصدر عنه هو الاله الكلمة المتجسد — كما سبق وذكرنا — بلا تجزؤ ولا انقسام • ولقد لقننا هذا ليو •• الذى أشار بوضوح الى « أن كلا من الصورتين (أى الطبيعتين تعمل ما يخصها بالاشتراك مع الاخرى » • وقد تلقينا فى هذا الموضوع قرارا صادرا بأمر من سعادته التقية •••

ولما حدثت كل هذه الأمور التى ذكرناها رأينا من الضرورى أن نطلع سيادتكم على هذه الامور ، التى ذكرنا طرفا منها ••• ونرجو أن تعربوا لنا عن رأيكم بالنسبة لهذا الموضوع فى ردكم المقدس علينا ••

---

(١) البابا فيجيلوس بابا روما (٥٣٧ — ٥٥٥ م) .

قائمة المصــادر والمراجع

مجموعات المصادر ومختصراتها :

— Corpus Scriptorum Christianorum Orientalum (C.S.C.O).

— Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (C.S.H.B).

— Patrologia Orientalis (P.O.)

— Patrologia Graecae (P.G.).

اولا : المصـــادر

١ ـ المصـــادر البيزنطيـــة :

— Cedrenus. G, Compendium Historiarum, Vol. I.
In Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonnae 1838).

— Chronicon Paschale, In Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonnae 1832.

— Constantinus Porphyrogenitus,

— De administrando Imperio
English trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest (1949).
— De Thematibus
Introducted and Comment par A. pertusi, Vatican (1952).

— Festugiére J. (éd.), Vie de Théodore de Sykéôn
I — Texte Grec.
II — Traduction, Commentaire - Bruxelles 1970.

— Mansi J.D., Sacrorum Conciliorum Novaet Amplissima collectio. Vols 10-11. Austria 1960.

— Maximi Confessoris, - Opera Omina T. 90.

— Maximi disputatio cum Pyrrho In Patrologia Graecae. T. 91, PP. 288-354.

— Miracula St. Demetrii, In Patrologia Graecae Tomus 161, PP. 1204-1425. Paris (1864).

— Nicephorius, Patriarch Constantinoplitani, Breviarium rerum Post Mauricium Gestarum, In corpus Scriptorum Historiae Byzantinae Bonnae (1837).

— Pisida. Georgius, - De Expeditione Persica, III.

— Bellum Avaricum.

— Heracliados, II.

In corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae (1837).

— Theophanis, Chronographia, Vol. I

In Corpus. Scriptorum Historiae Byzantinae Bonnae (1839).

— Zanoras, Epitomae Historiarum libri, T. 3.,

In Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonnae (1897).

(ب) المصـــادر الارمينيـــة :

— Sébeos L'évêque, Histoire d'Heraclius.

traduite de l'armenien et annotée par Frédéric Macler. Paris 1904.

(جـ) المصـــادر السريانيـــة :

— Chronicon Anonymum,
Edidit et interpretatus est Ignatius Guidi
In Corpus Scriptorum Christianorum Orientalum.
Scriptores Syri, T. IV. Paris (1903).

— Chronique de Denys De tell-Mahré, Quatriéme Partie, Publiée et traduite Par J.B. Chabot. Paris 1895.

— Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite d'Antioche (1166-1199). éd et traduite en Francais Par J.B. Chabot. T. II - Paris 1904.

— Gregory Abûl Faraj, The Chronography translated to English from the Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Oxford, London 1932.

(د) المصـــادر الحبشـــية :

— Chronique de Jean Évéque de Nikiou
traduction des Chapitres LXVII-CXXII.
par H. Zotenberg. Paris 1883.

(هـ) المصادر العربية والمعربة :

ـ ابن الاثير : ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ/١٣٢٢م) .

ـ الكامل فى التاريخ ، الجزء الثانى / القاهرة ١٢٩٠ هـ .

ـ اسد الغابة ، جزءان ، القاهرة بدون تاريخ .

ـ ابن خرداذبة : : ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت فى حدود عام ٣٠٠هـ/٩١٢م) .

ـ المسالك والممالك ويليه . ـ

ـ نبذة من كتاب الخراج ، لأبى الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ/ ٣٩٢م) بريل ١٨٨٩ م ..

ـ ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصرى (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٤م) .

ـ الطبقات الكبرى ، ٨ مجلدات .

ـ بيروت ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ م .

ـ ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) .

ـ فتوح مصر والمغرب .

تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ م .

ـ ابن العبرى : غريغوريوس الملطى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) .

ـ تاريخ مختصر الدول ، بيروت ـ لبنان ١٩٥٨ م .

ـ ابن عساكر : ابو القاسم على بن الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) .

ـ تاريخ مدينة دمشق ، مجلدان .

ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٢م .

ـ ابن الفراء : ابو على الحسين بن محمد .

ـ رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة .

ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧ م.

ـ ابن قتيبة الدينورى : ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) .
ـ المعارف .

صححه وعلق عليه .
محمد اسماعيل عبد الله الصاوى ، القاهرة ١٩٣٤ م .

ـ ابن هشام : ابو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) .
ـ السيرة النبوية .

قدم لها وعلق عليها وضبطها .
طه عبد الرءوف سعد ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٩٧٤ م .

— ابن الوردى : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) .
— تاريخ ابن الوردى ، الجزء الاول ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .

— أبو البركات : مصباح الظلمة وايضاح الخدمة .
— منشور فى :
Patrologia Orientalis, Vol. XX.

— أبو المحاسن : جمال الدين ابى المحاسن يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) .
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الاول .
القاهرة ١٩٢٩ .

— الأزدى : محمد بن عبد الله الازدى البصرى (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م) .
— فتوح الشام .
تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٧٠ .

— البلاذرى : احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ / ٨٩٢م) .
— فتوح البلدان .
نشره ووضع ملاحقه وفهارسه ، صلاح الدين المنجد .
الجزء الاول والثانى ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ م .

— التاريخ النسطورى (أو تاريخ كردستان) .
— نشره Addai Scher et Robert Griveau
— فى Patrologia Orientalis, Vol. XIII. Paris 1919
— النص بالعربية مع ترجمة بالفرنسية .

— الذهبى : محمد بن احمد عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .
— تاريخ الاسلام ، وطبقات مشاهير الاعلام .
الجزء الثالث ، تحقيق حسام الدين القدسى ، دمشق ١٩٢٧م .

— ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية .
— نشره Evetts B.
— فى Patrologia Orientalis Vol. I, Paris 1904.

— سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق منشور فى :
Corpus Scriptorum Christianorum
Orientalium, Scriptores Arabici T. 6. Louvain 1954.

ـ السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .
ـ حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة .
مصر ١٢٩٩ هـ .

ـ : الاستيلا على بيت المقدس (٦١٤م) .
ـ رواية عربية .
ـ نشرها Gerardo Garitte
ـ فى : Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium
Scriptores Arabici, T. 26, Louvain (Belgique) 1973.

ـ الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) .
ـ تاريخ الرسل والملوك .
الجزء الثانى : مصر ١٩٦٨ م .
الجزء الثالث / مصر ١٩٦٩ م ، الجزء الرابع / مصر ١٩٧٧ م .
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

ـ العينى : بدر الدين ابو محمد محمود بن احمد (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) .
ـ عمدة القارى لشرح صحيح البخارى .
الجزء الاول ، القاهرة ١٣٨٠ هـ .

ـ قسطنطين السابع ، بورفير وجينيتوس :
ـ ادارة الامبراطورية البيزنطية .
ترجمة وعرض وتحليل : محمود سعيد عمران .
بيروت ١٩٨٠ م .

ـ القلقشندى : ابو العباس احمد بن على (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .
ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشا .
الجزء السادس / بدون تاريخ .

ـ الكندى : ابو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) .
ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة .
نشره Rhuvon Guest
ليدن ، بريل ، لندن ١٩١٢ م .

ـ محبوب المنبجى : كتاب العنوان .
ـ منشور فى Patrologia Orientalis, Vol. VII, VIII
ـ نشره فازيليف Vasiliev Paris 1911.

— المسعودى : ابو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) .
— مروج الذهب ومعادن الجوهر .
الجزء الاول / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٦٤م
— التنبيه والاشراف ، ليدن ١٨٩٣م .
— المقريزى : تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) .
— امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع .
— الجزء الاول ، صححه وشرحه / محمود محمد شاكر . القاهرة ١٩٤١ م .
— الخطط (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) مجلدان ، بيروت بدون تاريخ .
— النويرى : شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) .
— نهاية الارب فى فنون الادب ، الاجزاء من ١٧ — ١٩ .
— جـ ١٩ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٥م .
— اليعقوبى : احمد بن ابى يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) .
— تاريخ اليعقوبى ، جزءان ، بيروت ١٩٦٠ م .
— الواقدى : ابو عبد الله محمد بن عمر (٢٠٧هـ/٨٢٢م) .
— فتوح الشام ، صححه ووضع حواشيه ، ولين ناسوليس الايرلندى .
ثلاثة اجزاء فى مجلد واحد ، كلكته ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م .
— فتوح مصر والاسكندرية .
قام بتصحيحه وطبعه هنريك ارند همفر ، ليدن ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥ م.
— كتاب المغازى .
— نشر الفريد ذى كريمر النمساوى ، كلكته ١٨٥٥ م .
— ياقوت الحموى : ابن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .
— معجم البلدان (١٠ مجلدات) ، مصر ١٣٢٣هـ/١٩٠٦م .

ثانيا : المراجع

(أ) المراجع الاوروبية :

— Alexander Suzanne Spain,
«Heraclius, byzantine imperial ideology» In Speculum (1977) PP. 217-37.

— Amélineau E., «Fragments Coptes Pour Servir à l'histoire de la conquête de l'Egypte par les Arabes» dans Journal Asiatique (1888). PP. 361-411.

— Barisic, E, «Le Siége de Constatinople par les Avares et les Slaves en 626». dans Byzantion Vol. 24 (1954) PP. 371-395.

— Baynes, N, «The Sucessors of Justinian» in Cambridge Medieval History, Vol. II Cambridge 1936.

— Baynes and Moss, Byzantium, Oxford 1948.

— Bésevliev V., «Deux Corrections au «Breviarium de Patriarche Nicephore» dans Revue des Études Byzantines (1970) PP. 153-159.

— Bratianu, «La question de l'approvisionnement de Constantinople» dans Byzantion (1930).

— Bréhier L., «La transformation de l'empire Byzantin sous les Heraclides» dans Journal des Savants T. 15 (1917) PP. 401-506.

— Vie et Mort de Byzance, Paris 1947.

— Les Institutions de l'empire Byzantin, Paris, 1949.

— Bréhier & Aigrain R, Histoire de l'Eglise, Bloud, Gay 1944.

— Brooks, W.E., «Arabic Lits of the Byzantine Themes» in Journal of Hellenic Studies, Vol. 21 (1901) PP. 67-77.

— «The Successors of Heraclius Tc 717» in Cambridge Medieval History, Vol. II PP. 391-411.
Cambridge 1936.

— Charanis P. «On the Social Structure of the later Roman Empire» In Byzantion, Vol. XVII (1944-45), PP. 39-57.

— «On the Slavic settlement in the Peloponesus» In Byzantion, Vol. 46 (1953).

— «Ethnic Changes in the Byzantin Empire in Seventh Century». In Dumbarton Oaks Papers, vol. 13 (1959) PP. 25-41.

— «Some remarks on the changes in Byzantium in The Seventh Century».
In Melanges G. Ostrogorsky, Vol. I, Beograd 1963).

— Couret. M., «La prise de Jerusalem par les Perses 614», dans Revue de l'Orient Chretien Vol. II (1897) PP. 125-164.

— Darko E, «Influences Touraniennes sur l'evolution de a'art militaire Des Grecs Des Romans et des Byzantins». dans Byzantion T.XII (1937) PP. 119-147.

— Diehl ch. «L'Origine du regime des Themes dans l'Empire Byzantin», dans Etudes Byzantines, PP. 276-292. Paris (1915).

— «Le Senat et le peuple Byzantin aux VII et VIII Siécles», dans Byzantion, T.I. (1924) PP. 201-213.

— History of the Byzantine Empire, Princeton 1925.

— «The government and administration of the Byzantine Empire». In Cambridge Medieval History, Vol. 4, PP. 726-41, Oxford, 1936.

— Diehl and Marcais. G, Histoire du Môyen age T. III : Le Monde Oriental de 395-1081. Paris 1944.

— Dolger F., «Byzantine literature» In Cambridge Medieval History Vol. 4, Part II PP. 207-263.
ed. by Hussey, Cambridge 1967.

— Dvornik F., Les Slaves, Byzance et Rome au lxe siecle, Paris, 1926.,

— Finlay, History of Greece, Vol. I, Oxford 1877.

— Frolow A, - «La vraie Croix et les expeditions d'Heraclius en Perse», dans Revue des Etudes Byzantines (1953) PP. 88-93.

— «La croisade et les guerres Persanes d'Heraclius», dans Revue de de l'histoire de religion Vol. 147 (1955), PP. 50-61.

— Goubert, P. «Les Rapports de Khosrau II, ori des rois Sassanide avec l'empereur Maurice» dans Bqzantion (1949) PP. 79-98.

— Grégoire. H., «L'Origine et le nom des Croates et des Serbes» dans Byzantion T. 17 (1944-45) PP. 88-117.

— Grousset. R, Histoire de l'Armenie des Origines à 1071, Payot, Paris 1947.

— L'Émpire des Steppes, Paris 1948.

— Grumel V., — «Notes d'histoire et de Chronologie sur la vie de Saint Maxime le confesseur» dans Échos d'Orient (1927) PP. 24-32.

— «Recherches sur l'histoire du Monothelisme» dans Échos d'Orient (1928). PP. 6-16.
(1929) PP. 19-34, (1930) PP. 16-28.

— «L'année du monde dans la Chronographie de Theophanes» dans Échos d'orient (1934) PP. 396-408.

— Héféle Ch. J, Histoire des Conciles T. III Premier Part. . . aris 1909.

— Irfan Shahid, «The Iranian Factor in Byzantium during the reign of Heraclius» In Dumbarton Oaks Papers (1972) PP. 295-320.

— Janssens. Yvonne, «Les bleus et les verts sous Maurice, Phocas Heraclius». dans Byzantion (1936) PP. 499-536.

— Kaegi W.E., — «New evidence on the early reigon of Heraclius» dans Byzantinishe Zeitschrift, Vol. 66 (1973) PP. 308-330.

— «Two notes on Heraclius»
In Revue des Etudes Byzantines T. 37 (1979)

— Lebeau, Histoire du Bas - Empire T. XI Paris 1930.

— Lemerle, P., — «La Composition et la Chronologie des deux premiers livres des Miracula S. Demetrii».
dans Byzantinische Zeitschrift (1953) PP. 349-361.

— Lopez, R, «Silk industry in the Byzantine Empire» In Speculum, Vol. Vol. XX (1945) PP. 1-42.

— «The rôle of trade in the economic of Byzantium in the seventh Centruy» In Dumbarton Oaks papers, Vol. 13 (1959) PP. 69-85.

— Lounghis T.C., «Sur la date de Themalibus»
dans Revue des Études Byzantines T. 31 (1973) PP. 299-305.

— Maricaq, «Notes sur les Slaves dans le Peloponnese et en Bithynie»,
dans Byzantion (1952) PP. 337-356.

— Montmasson, «Chronologie de la vie de Saint Maxime le confesseur (580-662).
dans Échos d'Orient (1910) PP. 149-154.

— Oikonomides. N, «Correspondance between Heraclius and Kavadh-Siroe in The Paschale Chronicle 628» dans Byzantion T.XLI (1971).
PP. 269-281.

— Ostrogorsky. G, History of the Byzantine State, Oxford 1956.

— «Sur la date de la composition du livre des Themes et sur l'époque de la constitution des prémiers Thémes de l'Asie Mineure».
dans Byzantion, Vol. 23 (1953) PP. 31-66.

— «The Byzantine empire in The world of the Seventh Century».
In Dumbarton Oaks Papers (1959) PP. 3-21.

— Patkanian M.K, «Essai d'une Histoire de la dynastie des Sassanides»
dans Journal Asiatique, Serie I, T. VII (1866).

— Peisker, «The expansion of the Slaves»
In Cambridge Medieval History, Vol. II, PP. 418-57.
Cambridge. 1936.

— Proudfoot. S., «The Sources of Theophanes for the Heracleian Dynasty». dans
Byzantion T. 44 (1974) PP. 367-439.

— Radojici. G., «La date de la conversion des Serbes»
dans Byzantion, Vol. 22 (1952) PP. 253-56.

— Rice. DT., The Byzantines, London 1962.

— Runciman, A History of The First Bulgarian Empire, London 1930.

— Schlumberger. G, «Le Siège de Constantinople par le Souverain des Avares sous le régne de l'empereur Heraclius au Séptime Siècle»

dans Récits de Byzance Vol. I, Paris 1916.

— Sharf. A, «Byzantine Jewry in The Seventh Century» In Byzantinishe Zeitschrift, Vol. 48 (1955) PP. 103-115.

— Stratos A.N., Byzantium in the Seventh Century, Vol. I (602-634). trans. by Marco Ogilvie-Grant, Amsterdam 1968.

— Sir persy Sykes. P. History of Persia, London 1921.

— Vailhé «La prise de Jerusalem par les Perses en 614». dans Revue de l'Orient Chrétein Vol. VI (1909) PP. 643-49.

— Vasiliev, History of the Byzantine Empire Vol. I trans. By MRS. Ragozin, Madison 1928.

الدوريات :

— Byzantion

— Byzantinische Zeitschrift

— Dumbarton Oaks Papers.

— Échos d'Orient.

— Journal Asiatique

— Journal des Savants.

— Revue des Études Byzantines.

— Revue de l'histoire de religion.

— Revue de l'Orient Chretien

— Speculum, A Journal of Mediaeval studies.

(ب) المراجع العربية والمعربة :

ـ ابراهيم ابراهيم هلال : حديث هرقل .
ـ دراسة وتعليق ، القاهرة ١٩٧٨ م .

ـ ابراهيم أحمد العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥١ م .
ـ الامويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ م .
ـ المسلمون والجرمان ، القاهرة ١٩٦٠ م .
ـ مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

ـ احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام .
ـ بيروت ١٩٧٢ .

ـ اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة فى « مدينة الله » ، القاهرة ١٩٧٢ م .

ـ اسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ، الجزء الاول / بيروت ١٩٥٥ م .
ـ كنيسة مدينة انطاكية العظمى ، ثلاثة اجزاء ، بيروت ١٩٥٨ م .

ـ الانبا ايسندورس : الخريدة النفسية فى تاريخ الكنيسة جزءان ، القاهرة ١٩٦٤ م .

ـ اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب مصطفى طه بدر ، القاهرة١٩٥٣م

ـ ايدرس بل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى .
ـ ترجمة عبد اللطيف احمد على ، القاهرة ١٩٦٨ .

ـ بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها .
ـ ترجمة اسكندر تادرس ، مجلدان ، القاهرة ١٩٠١ م .

ـ بتلر (الفرد) : فتح العرب لمصر .
ـ ترجمة محمد فريد ابو حديد ، القاهرة ١٩٤٦ م .

ـ توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، القاهرة ١٩٦١ م .

ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ، القاهرة ١٩٢٦ م .
ـ تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٣٥ م .

– حسن بيرنيا : تاريخ ايران القديم ، من البداية حتى نهاية العهد الساسانى
– ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم والسباعى محمد السباعى القاهرة ١٩٧٩م .

– حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٣م .

– حنانيا الياس كساب : مجموعة الشرع الكنسى .
– أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة ، بيروت ١٩٧٥ م .

– رنسيمان : الحضارة البيزنطية .
– ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦١ م .
– تاريخ الحروب الصليبية .
– ترجمة السيد الباز العرينى ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٦٧ م .

– زاكية محمد رشدى : « ميخائيل السريانى الكبير ، وتاريخه لعصر صدر الاسلام والعصر الاموى » .
– رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦١ م .

– السيد الباز العرينى : « كتاب والى المدينة » .
– مجلة كلية الآداب م ١٩ الجزء الاول مايو ١٩٥٧ م .
– أجناد الروم ، القاهرة ١٩٥٦ م .
– مصر البيزنطية ، القاهرة ١٩٦١ م .
– الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ م .

– السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧م .

– سهيلة الجيورى : « الكتابات المشكوك فيها فى عصر الرسالة المحمدية » مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، المجلد الثانى ١٩٧٨ م .

– سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ م .

– شادية توفيق حافظ : « مخطوطة تاريخ الازمنة » لابن العبرى .
رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٧٨ م .
– ديونسيوس التلمحرى ، ومخطوطته « كتاب الازمنة » .
– ترجمة ودراسة ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٨٢ م .

– شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ، القاهرة ١٩٥٢ م .
– عبد الجبار محمود السامرائى : « الرسائل التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الدول المجاورة » .

مجلة الفيصل العدد ٥٥ ص ٧١ — ٨١ ، نوفمبر ١٩٨١ ٠

— عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، القاهرة ١٩٧٠ ٠

— عبد القادر احمد اليوسف : الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٦٦ م ٠

— عبد المنعم ماجد وعلى البنا : الاطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصور الوسطى ٠
— القاهرة بدون تاريخ (الطبعة الثانية) ٠

— عزت العطار : الرسول العربى محمد رسول الله والامبراطور هرقل القاهرة ١٩٣١ م ٠

— عصام الدين عبد الرءوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٧٦ م ٠

— على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٤ م ٠

— على ادهم : بعض مؤرخى الاسلام ، د.ت ٠

— عمر صابر : « مصر فى مخطوطة يوحنا النقيوسى » ٠
— رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٨١ م ٠

— عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ م ٠

— فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ٠
— الكتاب الاول ، القاهرة ١٩٦٦ م ٠

كريستنسن (ارثر) : ايران فى عهد الساسانيين ٠
— ترجمة يحيى الخشاب عن الفرنسية ، القاهرة ١٩٥٧ م ٠

— محمد حمدى المناوى : مصر فى ظل الاسلام ، الجزء الاول ، الاسكندرية ١٩٧٠م ٠

— محمد حميد الله الحيدر آبادى : مجموعات الوثائق السياسية من العهد النبوى والخلافة الراشدة ٠
— القاهرة ١٩٤١ م ٠

— محمد عبد الله عنان : مواقف حماسة فى تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٦٢ م ٠
— مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى ، القاهرة ١٩٦٩ م ٠

— مختار الوكيل : سفراء النبى عليه السلام ، وكتبه ورسائله ٠
— القاهرة ١٩٧٨ م ٠

— نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم (عصر الرسول) ، دمشق ١٩٧٢ م ٠

- نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ م .
- نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية .
- تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف ، القاهرة ١٩٥٠م .
- هاشم اسماعيل الجاسم : « دراسات تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية والعربية منذ الفتح العربى للشام وحتى نهاية العصر العباسى » .
- رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٧٧ م .
- هسى ج . م . : العالم البيزنطى .
- ترجمة رافت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- وسام عبد العزيز فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية الجزء الاول (٣٢٤هـ - ١٠٢٥م) ، الاسكندرية ١٩٨٢ م .
- يوحنا دولبانى (الراهب) : المثال الربانى فى ترجمة واخبار القديس مارى يعقوب البرادعى (بونيس ايرس - الارجنتين ١٩٤٢م) .
- يوسف داود : كتاب جامع الحجج الراهنة ، القاهرة ١٩٠٨ م
- يوسف دريان (المطران) : لباب البراهين الجلية ، القاهرة د.ت .

* * * *

فهارس الكتاب

كشف الاعـلام

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

كشف الاماكن والبلدان

(ا)

(ب)

محتويات الكتاب

تم الطبع بالمراقبة العامــة لمطبعة
جامعة القاهرة والكتاب الجامعى .
المراقب العــام
البرنس حموده حسين
١٩٨٦/١/٢٦

رقم الايداع : ١٩٨٥/٥٢٢٢
الترقيم الدولى : ٩ - ١٩١ - ٠٤ - ٩٧٧

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٨٤/١٦١٥/١٠٠٠)